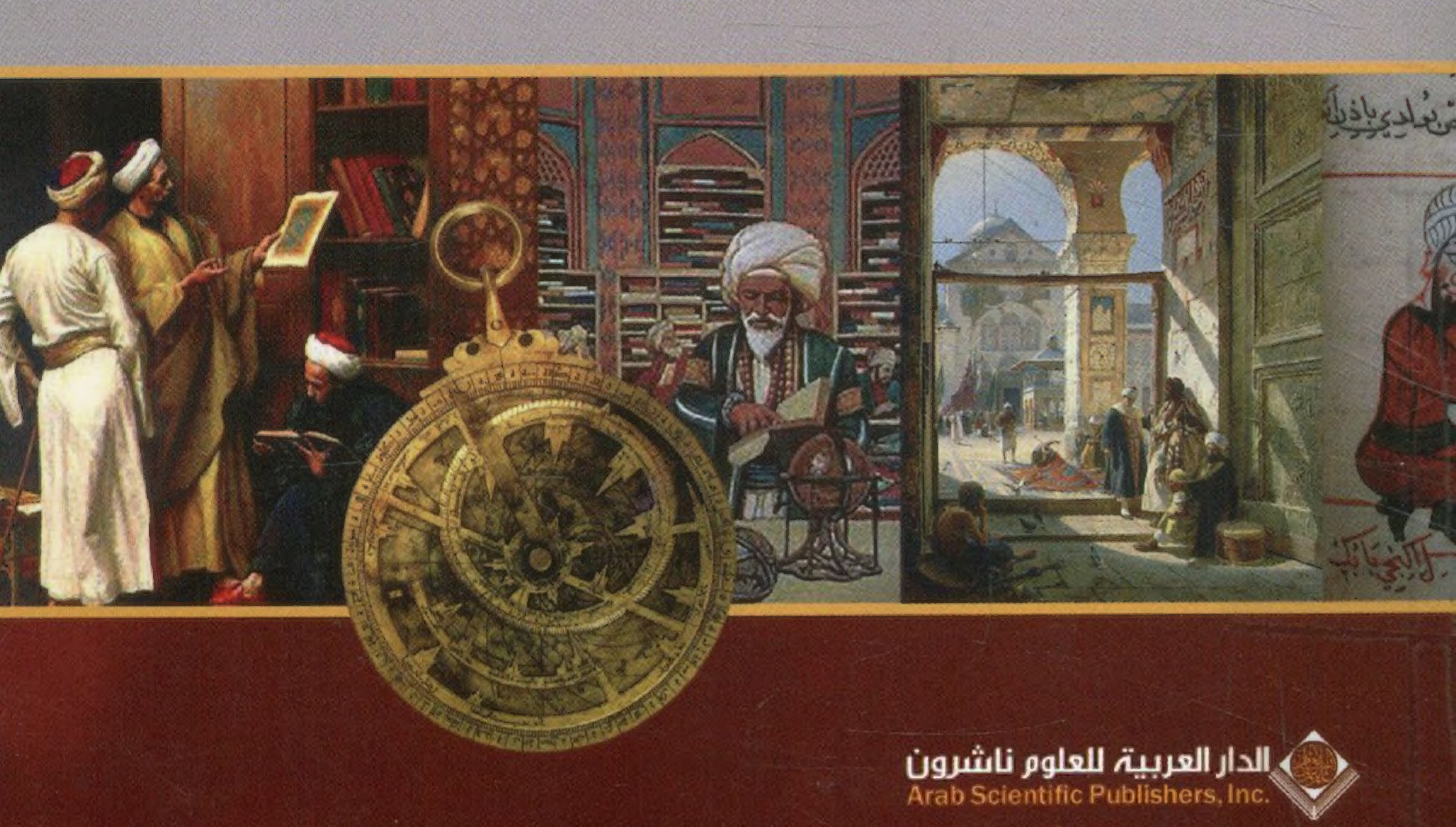
الدكتور/ عبد العزيز عبدالرحمن سعد آل سعد

العلوم الحضاريّة في المشرق الإسلامي

إسهامات في الحضارة الإسلامية

خلال القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

sharif mahmoud

العلوم الحضاريّة في المشرق الإسلامي

إسهامات في الحضارة الإسلامية

خلال القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي

sharif mahmoud

العلوم الحضاريّة في المشرق الإسلامي

إسهامات في الحضارة الإسلامية

خلال القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي

تأليف

الدكتور/عبد العزيز عبد الرحمن سعد آل سعد



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى
2015 م - 1436 هـ

ردمك 978-614-01-1370-1



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (+961-1)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان
فاكس: 786230 (+961-1) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (+961-1)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (+961-1)

المقدمة

لعل مصطلح العلوم الحضاريّة مصطلح حديث أو مستحدث، وقد أردنا ليعبّر عن شمولية ترمي إليها العلوم، التي هي في الأساس العلوم التي قامت عليها الحضار الإسلامية في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وخاصةً في المشرق الإسلامي.

ومن المعروف أن العلوم الحضاريّة، تضم تحت لوائها العديد من العلوم المختلفة، التي ترتبط بجميع مناحي الحياة في العصور الإسلامية المتعاقبة، وبناءً على كل ذلك؛ فالعلوم الحضاريّة في القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد.

وهي حاضنة الحضارة الإسلامية، وما من علم من هذه العلوم، إلا وله علاقة بالإنسان والحياة في إطار حضارته.

لذا رأينا أن نستخدم هذا المصطلح الشمولي، وهو العلوم الحضاريّة، وما تنتجه هذه العلوم من ثقافات ومعارف.

اعتمدت الخلافة العباسية منذ نشأتها على شعوب البلاد المفتوحة؛ فقد كانت هذه الشعوب عريقة في حضارتها، غنيّة في تراثها، وقد استطاعت هذه الشعوب أن تنصهر في البوتقة الإسلاميّة، وتُثمر حضارةً متميزة هي خلاصة هذا الانصهار الحضاري والتمازج الثقافي والفكري، وقد وصلت إلى ذروتها في القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد.

ولعل نشوء الدول المستقلة في بلاد المشرق الإسلاميّ كان له انعكاسات سلبية على وحدة الحكم ومركزيته، وبالتالي أدى إلى ضعف الخلافة العباسية؛ لكن من جهة أخرى كانت له نتائج إيجابية على مستوى الحضارة عموماً، الإنتاج الثقافي والفكري في مختلف مجالات المعرفة خصوصاً؛ فكان من أهمّ المظاهر في هذه الفترة رعاية العلماء والأدباء والمفكرين، وتشجيعهم على الكتابة والتأليف، ومساعدة العلماء خصوصاً على تنفيذ أفكارهم وإخراجها إلى الحيّز العملي، مما أسهم في رفع مستوى العلوم في تلك البلاد.

لقد نشأ عدد كبير من العلماء، وفي شتى المجالات، يفخر بهم مجتمعهم، كما يفخر بهم العلم ذاته، فقد شاركوا مشاركة فعالة في بناء نهضة حضاريّة راسخة.

من هنا كانت هذه الدراسة تهدف إلى إلقاء الضوء على حضارة المشرق الإسلاميّ في القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، هذه الحضارة التي تجلّت في مجموعة إسهامات متنوعة، تناولت مختلف جوانب العلوم والآداب، ساهم فيها سكان بلاد المشرق الإسلامي بمختلف جنسياتهم ودياناتهم ولغاتهم أيضاً، علماً أن لغة العلوم والآداب على العموم كانت اللغة العربيّة.

ثُمَّ إن غزارة هذا الإنتاج وتنوعه، وَضَعَني أمام كَمٍّ كبيرٍ من المصادر التي لم آلُ جهداً في الحصول عليها، مع يقيني بوجود كَمٍّ أكبر من المصادر ما زال مخطوطاً لم أحصل عليه، يتناول مختلف جوانب العلوم التي أردت خوض غمارها، وهي علوم متنوعة يحتاج البحث في كل واحدٍ منها بعمق إلى تخصص دقيق، نادراً ما يتوفر العلم به لدى باحث واحد.

وقد كان إعتمادنا على هذه الدراسة على كثير من المصادر الهامة، التاريخية والجغرافية، والتي عاش أصحابها في بلاد المشرق الإسلامي خلال القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد.

فكانوا شاهدين على كل ماكان يجري من أحداث؛ فوصفوا وصفاً دقيقاً ما رأوه وعاشوه، خاصة وأن بعض أصحاب هذه المصادر كانوا من الرحالة الذين جابوا البلاد طولاً وعرضاً.

والتقوا بسكان هذه البلاد، وعاشوا معهم، فنقلوا لنا ما شاهدوه وسمعوه، وكانوا ثقات فيما نقلوا، ولذا صح الإعتماد عليهم، وعلى ما ذكروه في مصادرهم ومؤلفاتهم.

كذلك استعنا بعدد من المراجع والأبحاث التي تناول أصحابها جوانب عديدة من الحياة السياسة و الاجتماعية والثقافية والحضاريّة؛ فأضاءت العديد من هذه الجوانب، وكانت دراساتهم مرجعاً هاماً لنا.

ومما يلاحظ أننا وثقنا الكثير من المعلومات التي أوردناها بإحصاءات وجداول وخرائط، ساهمت في جعل هذه الدراسة أكاديمية علمية منهجية، ثم ختمنا دراستنا بخلاصة لما توصلنا إليه وما عرضناه من أفكار ومعلومات.

ونرجو الله سبحانه وتعالى أن أكون وفقت فيما عرضته، وماهدفت إلا إضاءة شمعة في دروب العلم والمعرفة والحضارة الإسلامية، التي نعتز بالإنتماء إليها، ونسعى دائماً إلى إحيائها، لأن في ذلك حياة لنا.

والله من وراء القصد

المؤلف

الدوحة - قطر ٢٠١٥م

دور الترجمة والنقل في الحضارة الإسلاميّة

لا بدّ لي قبل الحديث عن الإسهامات العلمية في بلاد المشرق الإسلاميّ خلال القرن الرابع للهجرة، من أن أتناول باختصار حركة الترجمة والنقل من علوم الشعوب التي اتصل المسلمون بها خلال الفتوحات الواسعة لبلاد الروم والفرس والأقباط وغيرهم، حيث إن الاحتكاك بهذه الشعوب أوجب اتصالاً ثقافياً وحضارياً على مستويات متنوعة من المعارف والعلوم.

وإذا عدت إلى أوائل أيام الدّعوة الإسلاميّة، في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم؛ فإنه يمكن اعتبار بدايات الاتصال الثقافي، تلك الرسائل التي أرسلها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ملوك وحكام الدول المجاورة، يدعوهم فيها إلى الإسلام[1]، وردود هؤلاء على رسائله. وكذلك العهود والمواثيق التي كتبها القادة المسلمون لسكان البلاد المفتوحة، والتي كانت تكتب باللغة العربيَّة، وكانت تجد حتماً من يترجمها لهؤلاء الحكام والملوك.

وسأتجاوز هذه المرحلة الأولى للاتصال بين المسلمين الأوائل وشعوب البلاد المفتوحة، وهي مرحلة لا توجد معطيات كثيرة ودقيقة عنها، لأتوقف عند مرحلة الترجمة والتعريب للتراث الفكري والعلميّ التي قام بها رجال تفرّغوا لهذا العمل.

---

(١) للاطلاع على هذه الرسائل راجع كتاب «مجموعة الوثائق السياسية للعهدين النبوي والراشدي» لمحمد حميد الله، ص٩٩ ـ ١١٥ وص ١٣٥ ـ ١٤٣.

وكنتيجة لاحتكاك المسلمين بالثقافات الأخرى بعد الفتوحات، وبعد استقرارهم في البلاد المفتوحة، بدأ نقاش وجدال حول مجموعة من القضايا الدينية، خاصّة كُنه الله تعالى، في توحيده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته سبحانه وتعالى، وغير ذلك من الأمور العقيدية، مما جعل العلماء المسلمين يلجؤون إلى ما عرف لاحقاً بعلم الكلام، مقتبسين من الفلسفة اليونانية، حيث سعوا إلى ترجمة كتبها الفلسفية والمنطقية، لكي يسهل عليهم الدفاع عن عقيدتهم أمام الآخرين؛ وقد تركت عملية الترجمة هذه أثرها الواضح في عقلية العلماء المسلمين وفي طرق التعريف بعقيدتهم أو الدفاع عنها تجاه خصومهم. ولعل هذه المرحلة هي الأولى من مراحل الترجمة.

ويذكر النديم[١] أن أول نقل كان في الإسلام من لغةٍ إلى لغةٍ كان أيام خالد ابن يزيد بن معاوية (ت ٩٠هـ / ٧٠٨م)[٢] فيقول: «كان خالد بن يزيد بن معاوية يسمى حكيم آل مروان، وكان فاضلاً في نفسه، وله همة ومحبة للعلوم. خطر بباله الصنعة (أي الكيمياء) فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مصر، وقد تَفَصَّح بالعربيّة (أي يتقن العربيّة)، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربيّ. وهذا أول نقل كان في الإسلام من لغة إلى لغة».

ويذكر النديم أيضاً[٣] أسماء النّقلة من اللغات إلى اللسان العربيّ، منهم اصطفن القديم الذي نقل لخالد بن يزيد بن معاوية كتب الصّنعة وغيرها.

كذلك يقول النديم[٤] «إن الذي عني بإخراج كتب القدماء في الصنعة

(١) النديم: الفهرست، ص٥٠٣ (الفن الأول من المقالة السابعة).

(٢) وقيل أيضاً: إن وفاته كانت سنة ٨٥هـ/ ٧٠٣ (راجع كتاب الوافي بالوفيات، للصفدي، ١٣/ ٢٧٠ ـ ٢٧٣).

(٣) النديم: م.س، ص٥٠٥.

(٤) النديم: م. ن، ص٦٨٠ ـ ٦٨١.

(الكيمياء) خالد بن يزيد بن معاوية... وهو أول من تُرجم له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء... وله في ذلك عدة كتب ورسائل، ورأيت من كتبه: كتاب الحرارات، كتاب الصحيفة الصغير، كتاب الصحيفة الكبير، كتاب وصيّته إلى ابنه في الصنعة».

ثُمّ تسير عملية الترجمة قُدماً إلى الأمام، خطوةً بعد خطوة، حيث يذكر القفطي[١]، أنه زمن خلافة مروان بن الحكم الأموي، نُقل أول كتاب طبّي إلى العربيّة، هو كناش[٢] القس هارون بن أعين، نقله ماسرجويه، الطبيبُ البصري[٣]، من اللغة السريانية إلى اللغة العربيّة؛ وهذا الكتاب هو الذي طلب الخليفة عمر بن عبد العزيز إخراجه إلى النّاس وبثه في أيديهم[٤].

وتستمر ظاهرة الترجمة والنقل في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك (ت ١٢٥هـ/ ٧٤٢م)[٥]حيث كان كاتبه أبو العلاء سالم، قد نقل من رسائل أرسطاطاليس إلى الإسكندر، أو نُقِل له وأصلح هو. وله مجموع رسائل ترجمها عن اليونانية، نحو مائة ورقة[٦].

وممن برز في أواخر الخلافة الأموية من المترجمين عبد الله بن المقفع[٧]، «كان أحد النقلة من اللسان الفارسي إلى العربي، مضطلعاً

---

(١) القفطي: **أخبار العلماء بأخبار الحكماء**، ص٥٧.

(٢) الكناش: مجموعة مقالات في الطبّ، بلغت ثلاثين مقالة، وقد زاد عليها ماسرجويه مقالتين، النديم: ص٥٩١.

(٣) ماسرجويه: أو ماسرجيس، كما عند النديم، ص٥٩١، طبيب يهودي، كان ناقلاً من السرياني إلى العربي، وله من الكتب كتاب «قوى الأطعمة ومنافعها ومضارها» و«كتاب قوى العقاقير ومنافعها ومضارها».

(٤) ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، ص٢٣٢ ـ ٢٣٤.

(٥) النديم: **الفهرست**، ص٢٣١ ـ ٢٣٢.

(٦) النديم: م.ن، ص٢٣٢ ـ ٢٣٣.

(٧) عبد الله بن المقفع: اسمه بالفارسية روزبه، وقد عاصر حوالي عشرة خلفاء من بني أمية وبني العباس، قتل حرقاً أيام أبي جعفر المنصور وذلك سنة ١٥٨هـ/ ٧٧٤م. (النديم: م.س، ص٢٣٢).

باللغتين، فصيحاً بهما؛ وقد نقل عدة كتب من كتب الفرس، وكتاب خداي نامه في السِّير، وكتاب كليلة ودِمنة، وغيرها.

وفي العصر العباسي برزت بغداد، عاصمة الخلافة، كمركز رئيس للترجمة والنقل، وذلك بتشجيع بعض الخلفاء العباسيين ورغبتهم في ترجمة كتب اليونان والفرس والهند وغيرها، في مختلف العلوم، كما كان لبعض الدول الإسلاميّة في المشرق مساهمة في هذا الموضوع، بعد أن أصبحت عواصمها تنافس بغداد في استقطاب العلماء والمفكرين والأدباء والفلاسفة، خاصّة وأن عدداً من حكام هذه الدول ووزرائهم حرصوا على اقتناء الكتب وإنشاء مكتبات زاخرة بشتى أنواع العلوم والمعارف، وكذلك حرصهم على ترجمة كتب الهند والفرس واليونان وغيرهم، وإغناء مكتباتهم بهذه الترجمات.

وقد قسم الدارسون عمليات الترجمة والنقل في العصر العباسي إلى ثلاث مراحل[١]:

- **المرحلة الأولى**: تبدأ بالخليفة أبي جعفر المنصور[٢]، وتنتهي بهارون الرشيد[٣]. أي ما يزيد على نصف قرن.
- **المرحلة الثانية**: تبدأ بالخليفة المأمون[٤]. وتنتهي مع نهاية القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد[٥].

---

(١) النملة، علي بن إبراهيم: **النقل والترجمة في الحضارة الإسلامية**، ص١١٥ ـ ١١٦.

(٢) تولى أبو جعفر المنصور الخلافة سنة ١٢٦هـ/ ٧٥٣م، واستمر في الحكم حتى وفاته سنة ١٥٨هـ/ ٧٧٤م.

(٣) تولى هارون الرشيد الخلافة سنة ١٧٠هـ/٧٨٦م، واستمر في الحكم حتى وفاته سنة ١٩٣هـ/٨٠٨م.

(٤) تولى المأمون الخلافة سنة ١٩٨هـ/٨١٣م، واستمر في الحكم حتى وفاته سنة ٢١٨هـ/ ٨٣٣م.

(٥) أي في أوائل عهد المقتدر الذي حكم من سنة ٢٩٥هـ/ ٩٠٨م إلى سنة ٣٢٠هـ/ ٩٣٢م.

ـ **المرحلة الثالثة**: تبدأ من بداية القرن الرابع للهجرة، حتى نهاية الخلافة العباسية (٦٥٦هـ ـ/١٢٥٨)م، وما يعنينا من هذه المرحلة هو القرن الرابع فقط.

عندما تولى أبو جعفر المنصور الخلافة وجد أن حركة الترجمة والنقل قد خفت وتراجعت، فما كان منه إلاّ أن أعاد نشاطها، فأنشأ ديواناً للترجمة والنقل، وأرسل إلى ملك الروم يطلب منه كتب الحكمة، فأرسل إليه الملك شيئاً منها[١]، واستقدم جورجيوس بن بختيشوع من مدرسة جند يسابور مع تلميذيه إبراهيم وعيسى ابني شهلا، وكلف يوحنا بن البطريق وغيره بترجمة كتب في الطبّ والفلك.

وفي عصر أبو جعفرالمنصور برز عبد الله بن المقفع كأحد أعمدة الترجمة والنقل من الفارسية إلى العربيَّة.

ويروى أن أول كتاب هندي قام المسلمون بنقله إلى اللغة العربيَّة هو كتاب الهيئة المصحح، وهو ما عرفه العرب بكتاب سندهند، وهو أقدم كتاب في علم الفلك والرياضة والهيئة، وأشهرها.

ويأتي عهد الخليفة هارون الرشيد امتداداً لعهد أبي جعفر المنصور، وكانت السمة الغالبة على اهتماماته نقل كتب الطبّ، ومع هذا لم يَخل عهده من نقول وترجمات في التنجيم، والمنطق، والطبيعة، وما وراء الطبيعة، واستقدم العلماء إلى بغداد، وجلب إليها الكتب.

يقول ابن أبي أصيبعة[٢]: «وجلب إلى بيت الحكمة ما وجد بأنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم حين سباها المسلمون»، وكان الرشيد قد دأب على شَن الحملات العسكرية على بلاد الروم، وكان من جملة أهدافه جلب

(١) النملة، علي بن إبراهيم: **النقل والترجمة في الحضارة الإسلامية**، ص١١٧.

(٢) ابن أبي أصيبعة: **عيون الانباء في طبقات الأطباء**، ١/ ١٧٥.

نفائس الكتب اليونانية إلى بغداد وترجمتها، ككتب الطبّ والفلك والفلسفة والهندسة وما إلى ذلك. وكان يشترط في صلحه مع المدن المغلوبة ضمن شروط الصلح أن يختار الكتب التي يريدها. وكان يعهد بترجمتها إلى يوحنا بن ماسويه، شيخ النقلة في عصره، حيث رتب له كُتّاباً حُذاقاً يكتبون بين يديه ما يترجمه من كتب[1].

وقد صار لبيت الحكمة أيام الرشيد مكانة علمّية مرموقة؛ فقد اقترنت فيه حركة الترجمة بالمراصد الفلكية، وبخزانة الكتب التي كان الرشيد يسعى دائماً إلى إغنائها، وقد نظم لها مترجمين ونُساخاً وكتّاباً مهرة. من أشهر المترجمين الذين عملوا في بيت الحكمة زمن الرشيد والمأمون بعده، الحجاج بن يوسف بن مطر، الذي نقل كتاب إقليدس «أصول الهندسة» مرتين، الأولى أيام هارون الرشيد، ويُعرف هذا النقل بالهاروني، والثانية أيام المأمون، ويُعرف بالمأموني[2]. ولأهمّية هذا الكتاب نقله أيضاً إسحاق بن حنين، وأصلحه ثابت بن قرّة.

وهكذا نمت وازدهرت خزانة بيت الحكمة في عهد الرشيد، الذي أوكل الإشراف عليها وإدارتها إلى الفضل بن نوبخت[3]، وهو فارسي الأصل، من العلماء المتكلمين، وكان ينقل العلوم من اللسان الفارسي إلى اللسان العربيّ، فكثُرت في هذه الخزانة نفائس الكتب المؤلفة والمترجمة عن اليونانية والسريانية والفارسية.

وتبدأ المرحلة الثانية من مراحل حركة الترجمة والنقل في العصر العباسي مع الخليفة المأمون حيث ازدهار بيت الحكمة وتوسعه ورسوخه، وقد كان المأمون رجل علم وأدب، اهتم بقراءة الكتب ومجالسة العلماء

(١) القفطي: **إخبار العلماء بأخبار الحكماء**، ص٣٨٠.
(٢) النديم: **الفهرست**، (طبعة طهران) ص٣٢٥ (الفن الثاني من المقالة السابعة).
(٣) النديم: م. ن، ص٣٣٣.

وتحصيل ما عندهم من علوم، فيناقشهم ويحاورهم. وقد كان دأب المأمون أن يُغني بيت الحكمة بكتب الفلسفة والعلوم لترجمتها والإفادة منها؛ فكان يراسل ملوك الروم، ويُتحفهم بالهدايا الثمينة ويسألهم أن يرسلوا له بما لديهم من كتب الفلاسفة[1]. كذلك كان المأمون يُرسل البعثات إلى بلاد الروم للحصول على الكتب؛ من هؤلاء الذين أرسلهم حنين بن إسحاق؛ فقد كان يتقن اليونانية والسريانية والعربيّة، كان يعمل في بيت الحكمة؛ فأرسله المأمون إلى القسطنطينية ليجلب له الكتب من مكتبتها.

ومن البعثات التي أرسلها المأمون إلى ملك الروم بعثة ضمت عدداً من المترجمين الكبار كلفهم باختيار الكتب وإحضارها إلى بيت الحكمة، ثم نقلها إلى اللغة العربيّة. يقول النديم[2]: «كان بين المأمون وملك الروم مراسلات، وقد استظهر عليه المأمون؛ فكتب إلى ملك الروم يسأله الإذن في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدّخرة ببلد الروم؛ فأجاب إلى ذلك بعد امتناع؛ فأخرج المأمون لذلك جماعة، منهم: الحجاج بن مطر، وابن البطريق، وسلْماً صاحب بيت الحكمة، وغيرهم؛ فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا، فلمّا حملوه إليه، أمرهم بنقله فنُقِل. وقد قيل: إنّ يوحنا بن ما سويه ممن نفذ إلى بلاد الروم».

وقد نُقلت إلى العربيّة في هذه المرحلة كتب كثيره طبّية وفلكيّة، مثل كتب جالينوس، وأبو قراط، وبطليموس، وغيرهم، كما ترجمت كتب فلسفية، وسياسية منها كتب أرسطو وغيره من فلاسفة اليونان.

لقد كان النقل إلى العربيّة من لغات عديدة كالفارسية واليونانية والسريانية والقبطية والهندية، وقد تناول هذا النقل إلى العربيّة ثقافة وعلوم

(١) صاعد الأندلسي، صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن: **طبقات الأمم**، طبعة لويس شيخو، بيروت ١٩١٢، ص١٠٠.

(٢) النديم: **الفهرست**، (طبعة طهران) ص٣٠٤. (الفن الأول من المقالة السابعة)

كل الشعوب التي اتصل بها المسلمون، استطاع العلماء الاستفادة من هذه الترجمات والنقول، وكوّنوا لأنفسهم زاداً ثقافياً، هو عصارة ما أخذوا عن الآخرين، بعد أن أعملوا فكرهم وعقلهم فيه، وتمثّلوه خير تمثيل.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن حركة الترجمة والنقل لم تكن مقتصرة على جهود الخليفة المأمون ورعايته للمترجمين والنقلة، وإغداق الأموال عليهم؛ بل شاركه في هذا العمل عدد من الأُسر التي حذت حَذْو المأمون، واقتدى جماعة من أهل الثروة والوجاهة بما كان يفعله هذا الخليفة، مما شكل حركة دائبة نفقت فيها سوق الترجمة وما تبعها من نسخ وتأليف ووراقة وغيرها.

يقول النديم[1]: «مِمّن عُني بإخراج الكتب من بلد الروم، محمد وأحمد والحسن، بنو شاكر المنجّم، بذلوا الرغائب، وأنفذوا حنين بن إسحاق وغيره إلى بلد الروم؛ فجاؤوهم بطرائف الكتب وغرائب المصنّفات، في الفلسفة والهندسة والموسيقى والأرثماطيقي والطبّ. وكان قسطا بن لوقا قد حمل معه شيئاً فَنَقله، ونُقِلَ له.

وكان بنو المنجم يرزقون جماعة من النّقلة، منهم حنين بن إسحاق، وحبيش بن الحسن، وثابت بن قرّة، وغيرهم، في الشهر نحو خمسمائة دينار للنقل والملازمة».

ويقول النديم عن هؤلاء أيضاً[2] تحت عنوان «بنو موسى»:

«محمد وأحمد والحسن، بنو موسى بن شاكر، وهؤلاء القوم ممن تناهى في طلب العلوم القديمة، وبذلوا فيها الرغائب، وأتعبوا فيها نفوسهم، وأنفذوا إلى بلد الروم من أخرجها إليهم؛ فأحضروا النقلة من الأصقاع

(١) النديم: **الفهرست**، (طبعة طهران)، ص٣٠٤. (الفن الأول من المقالة السابعة).
(٢) النديم: م.ن، ص٣٣٠ ـ ٣٣١.

والأماكن بالبذل السّني؛ فأظهروا عجائب الحكمة، وكان الغالب عليهم من العلوم، الهندسة، والحيل، والحركات، والموسيقى، والنجوم، وهو الأقل».

ويبدو أن هؤلاء القوم كانوا علماء، يصنّفون الكتب؛ فيذكر النديم لأحمد بن موسى، ولمحمد بن موسى عدداً من المؤلفات في العلوم.

وكانت للبرامكة إسهاماتهم في مجال الترجمة والنقل، ومن أبرز أبنائهم في هذا المجال يحيى بن خالد بن برمك[١] الذي كان وراء هذه الإسهامات في النقل عن اللغة الفارسية إلى اللغة العربيّة، وأمر بنقل ذخائر التراث الفارسي؛ وقد عمل عند البرامكة العديد من النقلة[٢].

قال النديم[٣]: «وأول من عُني بتفسير كتاب بطليموس «المجسطي» وإخراجه إلى العربيّة، يحيى بن خالد بن برمك؛ ففسّره جماعة فلم يتقنوه، ولم يرض ذلك؛ فندب لتفسيره أبا حسان، وسَلْم، صاحب بيت الحكمة؛ فأتقناه، واجتهدا في تصحيحه، بعد أن أحضرا النقلة المجوّدين، فاختبرا نقلهم وأخذا بأفصحه وأوضحه».

ومن الوزراء الذي اهتمّوا بالترجمة والنقل، وزير المعتصم بالله والواثق، محمد بن عبد الملك الزيات[٤]، الذي كان يقارب عطاؤه للنقلة والنساخ ألفي دينار في الشهر[٥]. وقد ترجم له العلماء والأطباء كتباً من

---

(١) يحيى بن خالد بن برمك: سيّد بني برمك وأفضلهم، ومؤدب هارون الرشيد، وهو أول من عني بتعريب كتاب «المجسطي». راجع كتاب **وفيات الأعيان**، لابن خلكان، ٢/ ٢٤٢.

(٢) النديم: **الفهرست**، (طبعة طهران)، ص٣٠٥، أسماء النقلة من الفارسي إلى العربي (الفن الأول من المقالة السابعة).

(٣) النديم: م.ن، (طبعة طهران)، ص٣٢٧.

(٤) محمد بن الملك، أبو جعفر، المعروف بابن الزيات، كان عالماً بالأدب واللغة ومن بلغاء الكتاب والشعراء، تولى الوزارة للمعتصم بالله والواثق، توفي ببغداد سنة ٢٣٣ هـ / ٨٤٧م (راجع ترجمته في **وفيات الأعيان**، لابن خلكان، ٥/ ٤٩)

(٥) ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، ١/ ٢٠٦.

اليونانية، من هؤلاء: يوحنا بن ماسويه، وجبرائيل بن بختيشوع، وابنه، وحُبيش بن الحسن وغيرهم. وكانت خزانة كتبه عامرة، حافلة بمختلف العلوم والفنون.

ولعل السابق لم يترك شيئاً للاحق من المترجمين، بحيث نصل إلى القرن الرابع الهجري (المرحلة الثالثة) فلا نكاد نجد شيئاً يُذكر عن حركة الترجمة والنقل، بل نجد عملاً علمياً آخر، هو التأليف والتصنيف والشرح والتعليق والمراجعة؛ فالكتب التي ترجمت كثيرة، والعلوم التي نقلت إلى العربيَّة عديدة، ولعل المترجمين في القرن الثالث، وهو أزهى قرون الترجمة، لم يتركوا شاردة ولا واردة من المصنّفات باللغات غير العربيَّة إلاّ ونقلوها إلى العربيَّة، وكيف لا يكون ذلك وقد نال المترجمون والنقلة شهرة واسعة، وأعطيات كثيرة، كما كان الإقبال عليهم من قبل الخلفاء والوزراء وأصحاب الجاه والثروة، شديداً.

ويروي ابن أبي أصيبعة[1]، أن المأمون كان يُغدق على حنين بن إسحاق الهبات والعطايا، وكان يزن ما ينقله من الكتب إلى العربيَّة ويعطيه وزنه ذهباً.

من هنا يمكن القول، إن حركة الترجمة خفّت في القرن الرابع للهجرة/ العاشرة للميلاد، بعد أن وصلت إلى ذروتها في القرن الثالث، ولكل شيء إذا ما زاد نقصان؛ فتحوّل العمل إلى اقتناء الكتب وإنشاء المكتبات الإسلاميّة، نذكر منها مكتبة عضد الدولة البويهي، ومكتبة الأمير نوح بن منصور الساماني، ومكتبة ابن العميد، ومكتبة الصاحب بن عبّاد.

إن خفوت حركة الترجمة في القرن الرابع تؤكدها قلة أعداد المشتغلين بها في هذا القرن، بعد أن رأينا العشرات بل المئات من هؤلاء يتولون أعمال

(١) ابن أبي أصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ٢/ ١٤٣.

النقل والترجمة من سائر اللغات إلى اللغة العربيَّة[١]، وبتشجيع من الخلفاء والوزراء والوجهاء. فمن القِلّة القليلة التي ذكرها المؤرخون ممن عمل في حقل الترجمة والنقل عن اللغات إلى العربيَّة، أورد ما يلي:

١ ـ **أبو بشر متّى بن يونس**[٢]: من أهل دير قُنّى، (جنوب بغداد) حصل على ثقافته العلمية في المدرسة المشهورة لذلك الدير، وإليه انتهت رياسة المنطقيين في عصره. توفي ببغداد سنة ٣٢٨هـ ـ/ ٩٤٠م.

نقل كتاب البرهان (أنا لوطيقا الثاني) لأرسطو إلى العربيَّة عن الترجمة السريانية، لإسحاق بن حنين، كما نقل كتاب الشعر لأرسطو.

٢ ـ **يحيى بن عديّ**[٣]: أبو زكريا، المنطقي التكريتي، كان نصرانياً من اليعاقبة. قرأ على أبي بشر، متّى بن يونس، وعلى الفارابي. توفي سنة ٣٦٣ هـ ـ/ ٩٧٣ م. عن إحدى وثمانين سنة. ترجم كتاب سوفسطيقا لأرسطو، كما ترجم المقالة الثالثة من كتاب النفس لأرسطو، إلى العربيَّة نقلاً عن الترجمة السريانيّة.

٣ ـ **ابن زُرْعة**[٤]: أبو علي عيسى بن إسحاق. كان نصرانيّاً من اليعاقبة. اشتغل بالفلسفة والطبّ في بغداد، وترجم كتباً طبّية وفلسفيّة. ولد ببغداد سنة ٣٣١هـ ـ/ ٩٤٢م، وتوفي سنة ٣٩٨هـ ـ/ ١٠٠٨م.

ترجم كتاب جالينوس في الطبّ «منافع الأعضاء في جسم الإنسان».

٤ ـ **ابن شهدى الكرخي**[٥]: من أهل الكرخ، كان قريب الحال في

---

(١) راجع أسماء هؤلاء في كتاب النديم: **الفهرست**، المقالة السابعة، (الفن الأول، والفن الثاني والفن الثالث).

(٢) بروكلمان، **تاريخ الأدب العربي**، ٤/ ١١٩ ـ ١٢٠.

(٣) بروكلمان: م. ن، ص١٢٠ ـ ١٢١.

(٤) بروكلمان: م.س، ص١٢٢.

(٥) بروكلمان: م.ن، ص١٢٣.

الترجمة وكان مثل أبيه في النقل، وفي آخر أيامه فاق أباه، ولم يزل متوسطاً، وكان ينقل من السرياني إلى العربيّ، ومِن نقْله «كتاب الأجنّة» لأبقراط[1].

٥ ـ **الحسين بن إبراهيم الطبري**[2]: عمل سنة ٣٨٠هـ ـ/ ٩٩٩م، للأمير أبي علي السّامجوري، ترجمة مصححه لكتاب «الحشائش» لديسقوريس.

هذا ما أوردته من مترجمي القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، لذا فإن الاهتمام بالترجمة والنقل قد خَفَتَ، وحل محلها الاهتمام بإنشاء المكتبات، لدى الأمراء والوزراء.

كانت **المكتبات** بمثابة مراكز ثقافية، أو مجامع علمّية. لذا أعتقد أن القائمين على هذه المكتبات، كانوا إذا وجدوا كتاباً قيّماً من كتب العلماء والفلاسفة والأطباء، مما لم يترجم بعد، يكلفون من يقوم بهذه المهمة، ولكن هذا العمل بقي في حدود ضيّقة.

١ ـ مكتبة عضد الدولة البويهي

عضد الدولة، أبو شجاع، فناخسرو بن ركن الدولة البويهي، كان «مُحِباً للعلوم وأهلها، مقرِّباً لهم، محسناً إليهم، وكان يجلس معهم، يُعارضهم في المسائل؛ فقصده العلماء من كل بلد وصنّفوا له الكتب، منها: الإيضاح في النحو، والحجّة في القراءات، والملكي في الطبّ، والتاجي في التاريخ، إلى غير ذلك[3].

وكانت لعضد الدولة خزانة كتب كبيرة في قصره بشيراز، هي من أكثر الخزائن غنى وتنظيماً، وقد شاهد هذه الخزانة العامرة، المقدسي، عندما زار

---

(١) ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، ١/ ٢٠٤.

(٢) بروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، ٤/ ١٢٢.

(٣) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ٩/ ١٦.

شيراز؛ فقرأ فيها، ووصفها وصفاً دقيقاً فقال[١]: «ما دخلها عاميّ إلاّ افتتن بها، ولا عاقل إلا استدلّ لها على نعمة الجنّة وطيبها، خرق فيها الأنهار، ونصب عليها القباب، وأحاطها بالبساتين والأشجار، وحفر فيها الغياض، وجمع فيها المرافق والعُدد، وسمعت رئيس الفرّاشين يقول: فيها ثلاثمائة وستون حجرة وداراً، كان مجلسه (أي عضد الدولة) كل يوم في واحدة، إلى الحَوْل، وهي سُفْل وعلو، وخزائن الكتب حجرة على حدة، عليها وكيل وخازن ومشرف، من عدول البلد، ولم يبق كتاب صُنِّف إلى وقته من أنواع العلوم كلها، إلاّ حصّله وجعله فيها. وهي أزجّ طويل[٢]، في صُفّة كبيرة[٣] فيه خزائن من كل وجه، وقد ألصق إلى جميع حيطان الأزج والخزائن، بيوتاً طولها قامة، إلى عرض ثلاثة أذرع، من الخشب المزوّق، عليها أبواب تنحدر من فوق، والدفاتر منضدة على الرفوف، لكل نوع بيوت وفهرستات فيها أسامي الكتب..».

ويذكر أن من بين الخَزَنة والمشرفين على هذه المكتبة العظيمة، مِسْكَوَيه، المؤرخ الشهير، وكذلك كان ابن البوّاب، الخطاط الشهير.

٢ ـ مكتبة الأمير نوح بن منصور الساماني

أمير ما وراء النهر وسلطان بخارى؛ كان محبّاً للعلم والعلماء، أنشأ خزانة كتب كبيرة، وقد زارها الشيخ الرئيس ابن سينا، عندما استدعاه الأمير نوح ليعالجه من مرضهن، وقد اطّلع ابن سينا على هذه المكتبة فوصفها قائلاً[٤]: «دخلت داراً ذات بيوت كثيرة، في كل بيت صناديق كتب، منضّدة

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص٤٤٩ ـ ٤٥٠.

(٢) الأزجّ: الممرّ.

(٣) الصُفة: الساحة.

(٤) القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص٤١٦.

بعضها على بعض، في بيتٍ منها كتب العربيَّة والشعر، وفي بيت آخر كتب الفقه، وكذلك في كل بيت كتب علم مفرد، فطالعت فهرست كتب الأوائل، وطلبتُ ما احتجت إليه منها، ورأيت من الكتب ما لم يقع اسمه على كثير من النَّاس قط، وما كنت رأيته من قبل، ولا رأيته أيضاً من بعد».

٣ ـ مكتبة ابن العميد[١]

أبو الفضل محمد بن الحسين، وزير ركن الدولة البويهي، من الكتّاب المترسّلين، مع علمٍ بالفلسفة والنجوم.

كان ابن العميد مولعاً بالقراءة، محبّاً للكتاب، له خزانة كتب فخمة، حوت صنوفاً كثيره من العلوم والفنون، وكانت كتبها من الكثرة بحيث يحتاج نقلها إلى مائة دابّة[٢]. وكان المؤرخ مسكويه قيّماً على خزانة ابن العميد، ثُمَّ على خزانة عضد الدولة بن بويه.

وكان ابن العميد حريصاً على كتبه ومكتبته، يتعهدها بالعناية، ولا يسمع بكتاب إلاّ اقتناه أو أمر بنسخه، وعندما أغار السامانيون على مدينة الريّ، حيث قصر ابن العميد ومكتبته، عاثوا في الدار فساداً ونهباً وخراباً، ولكن مسكويه استطاع أن ينتقل هذه المكتبة إلى مكان آمن، فلمّا عرف ابن العميد ذلك قال لمسكويه: أشهد أنك ميمون النقيبة، أمّا سائر الخزائن فيوجد عنها عِوَض، ولكن هذه الخزانة (أي المكتبة) هي التي لا يُعَوّض عنها[٣]؛ فلم يكن شيء أعزّ عليه منها، لعنايته الدائمة بها، وحرصه على مقتنياتها، ففيها كتب من كل نوع من أنواع العلوم والآداب.

---

(١) ابن العميد: سبقت ترجمته عند الحديث عن الأدباء الكتّاب.

(٢) ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، ٢/ ١٨٠.

(٣) مسكويه: **تجارب الأمم**، ٦/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

٤ ـ مكتبة الصاحب بن عبّاد[١]

أبو القاسم، إسماعيل بن عبّاد، استوزره مؤيد الدولة ابن بويه الديلمي، ثُمَّ أخوه فخر الدولة، كان الصاحب محبّاً للآداب والعلوم، وكان مجلسه يحفل بالعلماء والأدباء الذين قصدوه وألّفوا له الكتب، من هؤلاء جبرائيل بن عبيد الله بن بختيشوع، ألّف له كتاباً في الطب سمّاه «الكافي» بلقب الصاحب (كافي الكفاة)، كما ألف له أحمد بن فارس كتاباً في فقه اللغة سمّاه «الصاحبي» نسبة له.

كانت خزانة الصاحب في الريّ، كبيرة وغنيّة بالكتب النفيسة، وفيها من الكتب ما لا يحصى عدده، قيل: إنها بلغت حِمْل أربعمائة جمل[٢]. وهذا يعني أن مكتبة الصاحب كانت من أكبر المكتبات وأغناها؛ فقد زارها البيهقي؛ فوجد فهرست كتبها عشر مجلدات[٣]. ونُقل عن الصاحب أنه ذكر عدد كتبه مرّة فقال: «ولقد اشتملت خزانتي على مائتين وستة آلاف مجلدة»[٤].

(١) سبق التعريف به عند الكلام على الأدباء والكتّاب.
(٢) ياقوت الحموي: **معجم الأدباء**، ٤/ ٨٤.
(٣) ياقوت الحموي: م.ن، ٦/ ٢٥٨.
(٤) ياقوت الحموي: م.س، ١٣/ ٩٧.

العلوم الإنسانية

في المشرق الإسلامي

الفصل الأول

العلوم الدينية

قبل البدء بالحديث عن العلوم الدينية في القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد يجب الاعتراف بصعوبة الإحاطة بدراسة هذه العلوم، نظراً لكثرتها واتساع رقعتها وكثرة العلماء الذين تناولوها، خاصّة وأن القرن الرابع للهجرة شهد نهضة كبيرة في تصنيف الكتب ذات العلاقة بالعلوم الدينية، وأن عدداً كبيراً من هذه الكتب لم يبصر النور، إمَّا لأنه ضاع مع ما ضاع من كتب التراث، وإمَّا لأنه ما يزال حبيس المكتبات التي تعج بمخطوطات تراثنا، وتنتظر من يخرجها إلى النور ويقدم خدمة للتراث وللعاملين فيه من باحثين ودارسين وعلماء.

أولاً: علوم القرآن الكريم في المشرق الإسلامي

لمّا كانت علوم القرآن الكريم لا تنحصر، ومعانيه لا تُستقصى، وجبت العناية بالقدر الممكن من هذه العلوم.

وقد تعددت آراء العلماء في بيان علوم القرآن وأنواعها وعددها وأقسامها[1]. ويمكن حصر هذه العلوم في الأنواع التالية:

---

(١) للوقوف على تفاصيل هذه الآراء راجع:

ـ الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله: كتاب **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٢، ج١/ ص ١٦ ـ ٢١.

ـ السيوطي، جلال الدين: كتاب **الإتقان في علوم القرآن**، نشر المكتبة الثقافية، بيروت، ١٩٧٣، ج١/ ص٣ ـ ٧.

علم نزول القرآن، زماناً ومكاناً وكيفيةً. علم جمع القرآن وترتيب آياته وسوره،علم قراءة القرآن ابتداءً ووقفاً وكيفيةً. علم لغة القرآن، وما فيه من لغات العربُ وغيرهم. علم تفسير القرآن وتأويله. علم معاني القرآن كالمحكم والمتشابه وما شابههما،علم بلاغة القرآن،وما فيه من حقيقة ومجاز وغيرهما من علوم البلاغة،علم الناسخ والمنسوخ. علم رسم كلمات القُرآن،علم إعجاز القرآن.

١ ـ علم القراءات القرآنية[(١)]

أ ـ **تعريفه**: هو علم يُعرف به كيفية النطق بالكلمات القرآنية، وطريق أدائها، اتفاقاً واختلافاً، مع عَزْو كل وجه لناقله.

ب ـ **موضوعه**: كلمات القرآن الكريم من حيث أحوال النطق بها، وكيفية أدائها.

ج ـ **فائدته**: العصمة من الخطأ في النطق بالكلمات القرآنية، وصيانتها من التحريف والتغيير؛ والعلم بما يقرأ به كل إمام من أئمة القراءة، والتمييز بين ما يقرأ به وما لا يقرأ به.

د ـ فضله: هو من أشرف العلوم الشرعية، لتعلقه بالقرآن الكريم.

هـ ـ واضعه: أئمة القرّاء؛ وقيل: أبو عمر حفص بن عمر الدوري (ت ٢٤٦هـ/ ٨٦١م) وأوّل من دوّن فيه أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ/ ٨٣٩م). والقراءات جمع قراءة، بمعنى وجه مقروء به.

وقد اشترط العلماء في القراءة الصحيحة أن يجتمع فيها ثلاثة أركان[(٢)]:

---

(١) محمد سالم محيسن: **المهذب في القراءات العشر**، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٩هـ/١٩٧٨م، ١/ ٦.

(٢) محمد سالم محيسن: م.ن، ص ١/ ٢٧؛ وانظر أيضاً كتاب **حجة القراءات** للإمام أبي =

- **الأول**: أن توافق اللغة العربيّة بوجه من الوجوه مُجمَعٍ عليه أو مُختَلَفٍ فيه اختلافاً لا يَضُرُّ مثله.

- **الثاني**: أن تكون موافقة لرسم المصحف العثماني، أي لطريقة كتابة المصحف أيام عثمان بن عفان، والذي وُزِّع على الأمصار.

- **الثالث**: التواتر، وهو أن يروي القراءة جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب، عن مثلهم، وهكذا إلى رسول الله، بدون انقطاع في السند، مع صحته.

أ ــ تطوّر علم القراءات

من المعروف أن الاعتماد في نقل قراءة القرآن قائم على الحفظ في الصدور، لا على الحفظ من السطور، وعليه فقد أخذ الصحابة عن رسول الله القراءة شفاهاً. يقول ابن الجزري: «ولمّا كُتِبت المصاحف في عهد عثمان بن عفان كُتِبَت على اللفظ الذي استقر عليه في العرضة الأخيرة عن رسول الله، ثم وُزِّعت على الأمصار، وقرأ أهل كل مصر بما في مصحفهم، وتلقوا ما فيه عن الصحابة الذين تلقوه من في (فم) رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم قام التابعون بما قام به الصحابة بعد أخذهم القراءة عنهم.

ثُمَّ تجرد قوم للقراءة والأخذ، واعتنوا بضبط القراءة أتمّ عناية، حتى صاروا في ذلك أئمة يُقتدى بهم ويُرحل إليهم، ويؤخذ عنهم، وأجمع أهل بلدهم على تلقي قراءتهم بالقبول، ولم يختلف عليهم فيها اثنان، ولتصديهم القراءة نسبت إليهم»[1].

= زرعة عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة، حققه سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ص١١ ـ ١٢؛ وكتاب **النشر في القراءات العشر** لابن الجزري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١/٩.

(١) ابن الجزري: **النشر في القراءات العشر**، ١/٨.

ثُمَّ يضيف ابن الجزري قائلاً[1]: «ثُمَّ إن القرّاء، بعد هؤلاء المذكورين، كثروا وتفرقوا في البلاد وانتشروا، وخَلفَهم أممٌ بعد أمم، عُرفت طبقاتهم، واختلفت صفاتهم، فكان منهم المتقن للتلاوة، المشهور بالرواية والدراية، ومنهم المقتصر على وصف من هذه الأوصاف، وكثُر بينهم لذلك الاختلاف، وقَلّ الضبط، واتسع الخَرْق، وكاد الباطل يلتبس بالحق؛ فقام جهابذة علماء الأمة، وصناديد الأئمة؛ فبالغوا في الاجتهاد، وبيّنوا الحق المراد، وجمعوا الحروف والقراءات، وعَزوا الوجوه والروايات، وميزوا بين المشهور والشاذ، والصحيح والفاذّ، بأصول أصّلوها، وأركان فصّلوها».

ثُمَّ يقول ابن الجزري[2]: «... فلمّا كانت المائة الثالثة، واتسع الخرق، وقل الضبط... تصدى بعض الأئمة لضبط ما رواه من القراءات؛ فكان أول إمام معتبر، جمع القراءات في كتاب، أبو عبيد القاسم بن سلام (ت٢٢٤هـ/ ٨٣٨م)، وكان بعده أحمد بن جبير (ت ٢٥٨هـ/ ٨٧١م) وكان بعده الإمام محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٢م) وكان بُعيده أبو بكر محمد بن أحمد بن عمر الداجوني (ت ٣٢٤هـ/ ٩٣٥م) وكان في إثره أبو بكر أحمد بن موسى بن مجاهد(ت ٣٢٤هـ/ ٩٣٥م)، أول من اقتصر على قراءات القراء السبعة فقط. وقام النَّاس في زمانه وبعده؛ فألفوا في القراءات أنواع التواليف، كأبي بكر أحمد بن نصر الشذائي (ت ٣٧٠هـ/ ٩٨٠م) وأبي بكر أحمد بن الحسين بن مهران (ت ٣٨١هـ/ ٩٩١م) والإمام الأستاذ أبو الفضل محمد بن جعفر الخزاعي (ت ٤٠٨هـ/ ١٠١٧م) وانتدب الناس لتأليف الكتب في القراءات بحسب ما وصل إليهم وصح عندهم».

ورحل من المغرب أبو القاسم يوسف بن علي بن جُبارة الهذلي، إلى

(١) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، رقم ١/ ٩.

(٢) ابن الجزري، م.س، رقم ١/ ٣٣ ـ ٣٤.

المشرق، وطاف البلاد، وروى عن أئمة القراءة، حتى انتهى إلى ما وراء النهر، وقرأ بغزنة وغيرها، وألف كتابه «الكامل»، وتوفي سنة ٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م.

ب ـ بعض مشاهير القراء

اشتهر كثير من علماء المشرق في علم القراءات وفي تصنيف المؤلفات الخاصّة بهذا العلم وبرجاله، ولكن معظم هؤلاء العلماء رحلوا إلى بغداد، دار الخلافة، ومَحَطّ رحال العلماء من البلاد الإسلاميّة كافة؛ لذا رأينا العديد من هؤلاء العلماء الذين يُنسبون إلى مدن المشرق يستوطنون بغداد، ومنهم من رحل أيضاً إلى بلاد الشام ومصر، خاصّة في عهود دول تلك البلاد كالدولة الحمدانية أو الأخشيدية أو السلجوقية أو الفاطمية أو غيرها.

وما يعنينا في دراستنا هذه هم علماء بلدان المشرق، الذين ظهروا في القرن الرابع للهجرة، وكانت لهم مساهمات جليلة في علوم القرآن، وبخاصّة في علم القراءات القرآنية.

وقد ذكرت لنا كتب تراجم القرّاء عدداً من هؤلاء، من هذه الكتب كتاب: «معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار» للإمام شمس الدين الذهبي، وكتاب «غاية النهاية في طبقات القراء» لشمس الدين محمد ابن الجزري. وسنورد تراجم مختصرة لعدد من هؤلاء العلماء.

١) **العباس بن الفضل**[١]: بن شاذان بن عيسى الرازي المقرئ

إمامٌ محققٌ مُجَوِّدٌ، كان يُقرئ مع والده[٢] بالري. قرأ على أبيه، وأخذ قراءة الكسائي عن أحمد بن أبي سريج، وعاش إلى بعد الثلاث مائة، توفي سنة ٣١١هـ/ ٩٢٣م.

---

(١) الذهبي: **معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار**، ١/ ٢٣٦ (الترجمة رقم ١٣٥).

(٢) أبو العباس الرازي، المقرئ، أحد الأعلام، وشيخ الإقراء بالري، الذهبي: م.ن، ١/ ٢٣٤.

أخذ عنه القراءة أبو بكر محمد بن أحمد الداجوني، وأحمد بن عجلان، وابن مجاهد، وأبو علي بن حبش الدينوري. قال الخليلي: أدركْتُ بقزوين ثمانية من أصحابه.

٢) **محمد بن أحمد بن الحسن**[١]: بن عمر، أبو عبد الله الكسائي الأصبهاني، المقرئ

قرأ على محمد بن عبد الله بن شاكر، وجعفر بن عبد الله بن الصباح، وغيرهما.

قرأ عليه محمد بن عبد الله بن أشته. توفي سنة (٣٤٧هـ/ ٩٥٨م) بأصبهان.

وقد ترجم له ابن الجزري فقال[٢]: أبو عبد الله الثقفي الأصبهاني المعروف بالكسائي، شيخ مشهور.

٣) **أحمد بن محمد بن عبد الصمد**[٣]: أبو العباس الرازي، نزيل الأهواز

قرأ على العباس بن الفضل بن شاذان الرازي. قرأ عليه أحمد بن نصر الشذائي، وأحمد بن محمد بن عبيد الله العجلي، ومحمد بن أحمد الشنبوذي وغيرهم. وعنه يقول ابن الجزري[٤]: مقرئ أستاذ، سكن الأهواز وأقرأ بها، قرأ عليه العجلي بالأهواز سنة عشر وثلاثمائة (٣١٠هـ/ ٩٢٢م).

٤) **الحسين بن محمد**[٥]: بن حَبش، أبو علي الدينوري، المقرئ

(١) الذهبي: **معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار**، ١/ ٢٩٣، (الترجمة رقم ٢٠٨).

(٢) ابن الجزري: **غاية النهاية في طبقات القراء**، ٢/ ٦١ (الترجمة رقم ٢٧١٧).

(٣) ابن الجزري، م.ن، ١/ ٣٠٤، (الترجمة رقم ٢١٩).

(٤) ابن الجزري: م.س، ١/ ١١٨، (الترجمة رقم ٥٥٠).

(٥) الذهبي: م.س، ١/ ٣٢٢ ـ ٣٢٣، (الترجمة رقم ٢٤٣).

قرأ القرآن على أبي عمران موسى بن جرير الرقي، والعباس بن فضل الرازي، وأبي بكر بن مجاهد. قال أبو عمرو الداني: متقدّم في علم القراءات، مشهور بالإتقان، ثقة، مأمون. روى القراءة عنه إسماعيل بن محمد البرذعي والحسين بن محمد السلماني؛ وقرأ عليه جماعة منهم محمد بن المظفر بن حرب الدينوري، وأبو العلاء الواسطي. وقال ابن الجزري[1]: أبو علي الدينوري حاذق ضابط مُتْقِن.

وكان ابن حبش مقرئ الدِّينور، توفي سنة ٣٧٣هـ/ ٩٨٢م.

٥) **أحمد بن محمد بن عبيد الله**[2]: بن إسماعيل أبو العباس التُّستَري، نزيل الأهواز

قرأ على أحمد بن محمد بن عبد الصمد الرازي، صاحب الفضل بن شاذان؛ وقرأ أيضاً على الخضر بن الهيثم الطوسي، ومحمد بن موسى الزينبي. قرأ عليه أبو علي الأهوازي، بقي إلى قريب الثمانين وثلاثمائة (٣٨٠هـ/ ٩٩٠م).

٦) **علي بن أحمد بن صالح**[3]: بن حمّاد، الإمام أبو الحسن القزويني، المقرئ

ولد سنة ٢٨٣هـ/٨٩٦م، وأخذ القراءات عن أبي عبد الله الأزرق، والعباس بن الفضل الرازيَّيْن، ولقي ابن مجاهد ببغداد، وناظره. وتصدر للإقراء نحواً من ثلاثين سنة. روى عنه القاضي أبو يعلى الخليلي. قال: وتوفي في رمضان سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة.

---

(١) ابن الجزري: **غاية النهاية في طبقات القراء**، ١/ ٢٥٠، (الترجمة رقم ١١٣٧).

(٢) الذهبي: **معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار**، ٣٣٨/١، (الترجمة رقم ٢٥٨).
وانظر أيضاً ابن الجزري: م.س، ١/ ١٢٣، (الترجمة ٥٦٧).

(٣) الذهبي: م.س، ١/ ٣٤٠ و٣٤٩، (الترجمة رقم ٢٦٥).
وانظر أيضاً ابن الجزري: م.س، ٥١٩/١، (الترجمة رقم ٢١٤٧).

ج ـ بعض من ألف في القراءات وأهم مؤلفاتهم

١) أبو بكر أحمد بن الحسين بن مهران النيسابوري[١]: (ت ٣٨١هـ/ ٩٩١م).

ترجم له ابن الجزري فقال: «أحمد بن الحسين بن مهران الأستاذ، أبو بكر الأصبهاني، ثم النيسابوري، ضابط، محقق، ثقة، صالح، مجاب الدّعوة. وترجم له ياقوت الحموي[٢]؛ فذكر أن أصله من أصبهان سكن نيسابور؛ ونقل عن الحاكم النيسابوري، تلميذ ابن مهران، قوله: هو إمام عصره في القراءات، وأَعْبدُ من رأينا من القراء، وكان مجاب الدعوة. ثم ذكر ياقوت لابن مهران العديد من المؤلفات.

قرأ عليه مهدي بن طارة شيخ الهذلي، وعلي بن أحمد البستي شيخ الواحدي، وطاهر بن علي الصيرفي، شيخ شيخ البغوي، وعبد الله بن الحسين النيسابوري، والحاكم أبو عبد الله الحافظ[٣].

توفي في شوال سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة، وله ست وثمانون سنة».

ومن مؤلفاته:

- الغاية في القراءات العشر.
- طبقات القرّاء.
- الشامل (في القراءات).

---

(١) فؤاد سزكين: **تاريخ التراث العربي**، نقله إلى العربيّة فهمي أبو الفضل، راجعه محمود فهمي حجازي، منشورات الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٧١، المجلد الأول، الجزء الأول، ص١٦٦.

(٢) ياقوت الحموي: **معجم الأدباء**، مطبوعات دار المأمون، القاهرة، (د. ت.)، ٣/ ١٢ ـ ١٥، (الترجمة رقم ٦).

(٣) ابن الجزري: **غاية النهاية في طبقات القراء**، ١/ ٤٩، (الترجمة رقم ٢٠٨).

ـ المبسوط في القراءات العشر.

ـ كتاب القراءات السبع.

٢) **ابن خالَويه**: الحسين بن أحمد، النحوي اللغوي، الإمام المشهور[١]. (ت ٣٧٠هـ/ ٩٨٠م).

أخذ القراءات عَرْضاً عن أبي بكر بن مجاهد، وابن الأنباري؛ وأخذ القراءة عنه عَرْضاً أبو علي الحسين بن علي الرهاوي. وله تصانيف كثيرة، منها البديع في القرآن الكريم، وحواشي البديع في القراءات، وكتاب مجدول في القراءات ألفه لعضد الدولة (البويهي). وله أيضاً كتاب الحجّة في القراءات السبع[٢].

٣) **أبو الحسن السعيدي**[٣]: علي بن جعفر بن سعيد، أبو الحسن السعيدي الرازي، نزيل شيراز، أستاذ معروف. قرأ على أبي بكر النقاش، وأحمد بن نصر الشذائي... قرأ عليه محمد بن علي النوشجاني، وعلي بن الحسين النسوي، ونصر ابن عبد العزيز الشيرازي، وكان شيخ أهل فارس. له مصنف في القراءات الثمان، وجزء في التجويد. بقي إلى حدود العشر وأربعمائة (٤١٠هـ/ ١٠١٩م).

* * *

(١) ابن الجزري: **غاية النهاية في طبقات القراء**، ١/ ٢٣٧، الترجمة رقم (١٠٨٣) وابن خلكان: **وفيات الأعيان**، ٢/ ١٧٨.

(٢) وثق نسبته وحققه عبد العال سالم مكرم، ونشرته دار الشروق، بيروت. الطبعة الرابعة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص١٩ ـ ٣٠.

(٣) ابن الجزري: م.س، ١/ ٥٢٩ (الترجمة رقم ٢١٨٢).

أ ـ علم التفسير، نشاته وتطوره

أولاً: التعريف بعلم التفسير

١ ـ التفسير في اللغة والاصطلاح

التفسير في اللغة: الشرح والبيان. وفسّر الشيء: وضحه وأبانه، وآيات القرآن الكريم: شرحها ووضع ما تنطوي عليه من معان وأسرار وأحكام[١].

وقال تعالى ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[٢]..

ومن هذا يتبين لنا أن التفسير يستعمل لغة في الكشف الحسي وفي الكشف عن المعاني المعقولة،واستعماله في الثاني أكثر من استعماله في الأول.

أما في الاصطلاح،فيرى بعض العلماء أن التفسير ليس من العلوم التي يتكلف لها حد، لأنه ليس قواعد أو ملكات ناشئة من مزاولة القواعد كغيره من العلوم التي أمكن لها أن تشبه العلوم العقلية، ويكتفي في إيضاح التفسير بأنه بيان كلام الله أو أنه المبين لألفاظ القرآن ومفهوماتها[٣].

٢ ـ نشأة علم التفسير

لا ريب في أن التفسير مر بأطوار كثيرة حتى اتخذ هذه الصورة التي نجده عليها الآن في بطون المؤلفات والتصانيف، وبين مطبوع ومخطوط. ولقد نشأ التفسير مبكراً في عصر النبي صلى الله عليه وسلم الذي كان أول شارح لكتاب الله، يبين للناس ما نزل على قلبه.

---

(١) إبراهيم مصطفى وعبدالسلام هارون، **المعجم الوسيط**،القاهرة: مجمع اللغة العربية، مج ٢، ص ٦٨٨.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٣٣.

(٣) الذهبي، **التفسير والمفسرون**، ج ١، ص ١٠.

أما صحابته الكرام، فما كانوا يجرؤون على تفسير القرآن وهو عليه السلام بين ظهرانيهم، يتحمل هذا العبء العظيم، ويؤديه حق الأداء. حتى إذا لحق عليه السلام بالرفيق الأعلى، لم يكن بدّ للصحابة العلماء بكتاب الله، الواقفين على أسراره، المهتدين بهدي النبي صلى الله عليه وسلم، من أن يقوموا بقسطهم في بيان ما علموه وتوضيح ما فهموه(١).

فالمفسرون من الصحابة كثيرون، إلا أن مشاهيرهم عشرة: الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، وأبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير. أما الخلفاء الأربعة، فأكثر من روى عنه منهم عليّ بن أبي طالب؛ والرواية عن الثلاثة نادرة جداً، وكان السبب في ذلك تقدم وفاتهم(٢).

أما علي بن أبي طالب، فسبب كثرة من روى عنه راجع إلى تفرغه عن مهام الخلافة مدة طويلة وتأخر وفاته إلى زمن كثرت فيه حاجة الناس إلى من يفسر لهم ما خفي عنهم من معاني القرآن(٣).

وأجدر هؤلاء العشرة جميعاً بلقب المفسر هو عبد الله بن عباس الذي شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعلم، ودعا له الله أن يفقّهه في الدين ويعلمه التأويل(٤).

وسماه ترجمان القرآن،وذلك لما عرفت أنه بحر هذه الأمة ولتأخر الزمان به حتى اشتدت حاجة الناس إلى الأخذ عنه بعد اتساع الإسلام وانتشار العمران ولانقطاعه وتفرغه للنشر والدعوة والتعليم،دون أن تشغله خلافة أو تصرفه سياسة وتدبير لشؤون الرعية؛غير أن الرواية عنه مختلفة الدرجات(٥).

---

(١) صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٢٨٩.
(٢) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن،ج ٤، ص ٤٧١.
(٣) الذهبي، التفسير والمفسرون،ج ١، ص ٤٤.
(٤) خالد محمد خالد، رجال حول الرسول، ص ٥٧٠.
(٥) محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان، ج ٢، ص ١٦.

وتلقى أقوال الصحابة نفر من كرام التابعين في الأمصار الإسلامية المختلفة؛ فنشأت في مكة طبقة للمفسرين، وفي المدينة طبقة ثانية، وفي العراق ثالثة[١].

وعن التابعين، أخذ تابعو التابعين؛ فجمعوا أقوال من تقدمهم وصنعوا التفاسير كما فعل سفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح ويزيد بن هارون[٢].

وكذلك في هذا العصر خطا التفسير خطوة ثالثة انفصل بها عن الحديث. فأصبح علماً قائماً بنفسه، ووضع التفسير لكل آية من القرآن، ورتب ذلك على حسب ترتيب المصحف[٣].

وكل هذه التفاسير مروية بالإسناد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أصحابه والتابعين وتابعي التابعين، وليس فيها شيء من التفسير أكثر من التفسير المأثور؛ اللهم إلا ابن جرير الطبري، فإنه ذكر الأقوال ثم وجهها. ورجح بعضهم على بعض وزاد على ذلك الأعراب إن دعت إليه حاجة، واستنبط الأحكام التي يمكن أن تؤخذ من الآيات القرآنية[٤].

وقد مرت عملية نقل التفسيرفي مراحل ثلاثة، ابتداء بمرحلة الكتابة، وانتهاء بالتصنيف الموسوعي.

التفسير في مرحلة الكتابة، وهي المرحلة الأولى، وكانت هذه المرحلة حقبة تقييد لهذا العلم في الصحيفة، ويعني ذلك تسجيل مرويات التفسير حتى لا تندرس، وكانت الصحيفة بالأساس وسيلة للحفاظ على المرويات، لكن الصحف في هذه المرحلة ما كانت تتبع التفسير كله، بل كانت

(١) صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٢٩٠.
(٢) صبحي الصالح، م.ن.، ص ٢٩٠.
(٣) الذهبي، تفسير المفسرون، ج١، ص ٩٨.
(٤) محمود سالم عبيدات، دراسات في علوم القرآن، ص ٢٥٢؛ صبحي الصالح، م.س، ص. ٢٩٠.

تقتصر على جانب منه لقرب العهد من عصر النبوة، ووجود الصحابة الذين سمعوا التفسير منه عليه السلام، فكانت المرحلة الأولى مرحلة كتابة، لكن مع طبقة كبار التابعين اتجهت الهمة إلى تدوين التفسير(١).

والتفسير في مرحلة التدوين، وهي المرحلة الثانية، والمراد بتدوين هذا العلم جمعه وتنظيمه، بحيث يكون مرتبا على سور القرآن، لكن دون ان يقصد المفسر استيعاب جزئيات التفسير، كما سيكون عليه الأمر في مرحلة التصنيف، وقد امتدت حقبة التدوين طيلة عصر الصحابة، وعصر التابعين وأتباعهم(٢).

التفسير في مرحلة التصنيف وما بعدها، وهي المرحلة الثالثة، وهو التأليف الموسوعي والجامع، حيث يتجه المفسر إلى استيعاب محمل الأثار، ولا يتردد في الاستفادة من دعائم التفسير بالرأي والاجتهاد، وقد تميزت بجلاء في هذه المرحلة مدرسة التفسير بالرأي والاجتهاد، وظهرت ضمن كل مدرسة اتجاهات متنوعة ساهمت في تلون التفسير حسب ثقافة كل مفسر(٣).

لقد مر القرآن الكريم والتفسير من مراحل تاريخية تطور التفسير خلالها، وعلى تعدد الاتجاهات التي ظهرت، واختلاف المفسرين؛ فإن التفسير حافظ على ما كان عليه زمن السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم، ولم تستطع مختلف الاتجاهات المنحرفة التي ظهرت قديما وحديثا أن تجنح به عن طبيعته تلك(٤).

---

(١) عبد الرزاق إسماعيل هرماس، **تطور التفسير خلال ١٤ قرنا**، العدد ٣١٧ شوال ١٤١٦/ مارس ١٩٩٦م، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المشور السعيد - الرباط - المغرب.

(٢) عبد الرزاق إسماعيل هرماس، **المرجع نفسه**.

(٣) عبد الرزاق إسماعيل هرماس، **المرجع السابق**، العدد ٣١٧ شوال ١٤١٦/ مارس ١٩٩٦م، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المشور السعيد - الرباط - المغرب.

(٤) عبد الرزاق إسماعيل هرماس، **المرجع نفسه**.

٢ ـ علم التفسير

ب ـ تطوّر علم التفسير وأهمّ أنواعه

نزل القرآن بلغة العرب وعلى أساليبهم في كلامهم؛ فألفاظه عربيّة إلاّ ألفاظاً قليلة عُرّبت بعد أخذها من اللغات الأخرى ودخولها في لغة القرآن، وكذلك أساليب القرآن جاءت على منوال أساليب العرب في كلامهم، ففيه الحقيقة والمجاز، التشبيه والاستعارة، وغيرها من صنوف البلاغة.

ومع هذا فلم يكن القرآن في متناول جميع صحابة الرسول، يفهمونه بمجرد سماعهم له، خاصّة وأن فهم كلام الله لا يتطلب معرفة اللغة العربيّة فقط، وإنّما يتطلب مستوىً ثقافياً وفكرياً يتفق ومستوى لغة الخطاب في القرآن، والقضايا التي يطرحها على مستوى العقيدة والتشريع.

وقد قال الله تعالى مبيناً هذا التفاوت في فهم آيات القرآن وإدراك أبعادها: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[١].

وكان رسول الله يشرح لصحابته ما غمض عليهم من فهم آيات القرآن، وهذا ما كلفه به ربّ العالمين بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢].

ثُمّ انتقل تفسير القرآن من عهد رسول الله إلى عهد صحابته وتابعيهم، خاصة بعد أن انتشر هؤلاء في البلدان التي فتحها المسلمون، وقاموا بتفسير القرآن لكل من أسلم في تلك البلاد.

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧.
(٢) سورة النحل، الآية: ٤٤.

ومن المعروف أن حظوظ الصحابة والتابعين من المعرفة، تختلف باختلاف ما أخذوه عن رسول الله وما استوعبوه من فهم آيات القرآن؛ كذلك فإن البيئة الثقافية والفكرية التي انتقل إليها هؤلاء ساعدت على بلورة أفكارهم ونظرتهم إلى القضايا التي طرحها القرآن الكريم، مما ميز آراء العلماء وتفاسيرهم بحسب البيئات التي نشأوا فيها.

يقول السيوطي[1]: «ثُمَّ صنف بعد ذلك قوم برعوا في علوم التفسير؛ فكان كل منهم يقتصر في تفسيره على الفن الذي يغلب عليه؛ فالنحوي تراه ليس له هَمٌّ إلاَّ الإعراب وتكثير الأوجه المحتملة فيه، كالزَّجّاج والواحدي وأبي حيان؛ والإخباري ليس له شغل إلاَّ القصص واستيفاؤها والأخبار عمن سلف، سواء أكانت صحيحة أو باطلة، كالثعلبي؛ والفقيه يكاد يرى فيه الفقه، وربما استطرد إلى إقامة أدلة الفروع الفقهيّة التي لا تعلق لها بالآية. وصاحب العلوم العقلية، خصوصاً الإمام فخر الدين الرازي، قد ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة التي لا حاجة لها في علم التفسير. والمبتدع ليس له قصد إلا تحريف الآيات وتسويتها على مذهبه...».

وهذا ما نلاحظه أثناء دراستنا لتفاسير العلماء على مختلف آرائهم ومذاهبهم الفكرية والدينية والفلسفية، **حيث انقسم التفسير إلى قسمين أساسيين هما:**

١ ـ **التفسير بالمأثور**، أي بالمنقول عن رسول الله وعن صحابته وعن تابعيهم وأتباع تابعيهم، من كل ما هو بيان وتوضيح لمراد الله تعالى من نصوص كتابه الكريم.

٢ ـ **التفسير بالرأي**، أي بالمعقول، وهو تفسير القرآن بالاجتهاد، بعد معرفة المفسر لكلام العرب وأساليبهم، ووقوفه على ما نُقِلَ عن

(١) السيوطي، جلال الدين: **الإتقان في علوم القرآن**، ج٢، ص١٩٠.

رسول الله وعن صحابته وأتباعهم، وغير ذلك من العلوم التي يحتاج إليها المفسر.

وقد وقف العلماء من التفسير بالرأي موقفين:

أ ـ الجواز والقبول، واعتبروا تفسير الإمام فخر الدين الرازي «مفاتيح الغيب» من هذا النوع.

ب ـ عدم الجواز، وبالتالي الرفض، واعتبروا من هذا النوع تفاسير أصحاب البدع والأهواء والفرق الغالية.

كذلك اشترط العلماء على من يتصدى للتفسير بالرأي مجموعة شروط، توزّعت على ثلاثة أنواع:

١ ـ آداب وصفات شخصية يجب أن يتحلى بها المفسر.

٢ ـ مواصفات علمية يجب أن تتوفر في المفسر.

٣ ـ شروط منهجية، تتعلق بمنهج البحث في كلام الله وتفسيره[١].

ولعل سبب هذا الاختلاف في آراء المفسرين، إضافة إلى ما سبق، وجود مصطلحين يتناولان هذا الموضوع هما: التفسير والتأويل.

فإذا كان التفسير يعني لغةً الإبانة والكشف وإظهار المعنى، واصطلاحاً هو علم يُفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد، وبيان معانيه واستخراج أحكامه[٢].

---

(١) محمود حلاوي: الوجيز في علوم القرآن العزيز، مؤسسة علوم التفسير، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، ص٦٦ ـ ٧٠.

(٢) السيوطي، جلال الدين: الإتقان في علوم القرآن، ج٢، ص١٧٤؛ والزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج١، ص١٣.

فالتأويل: هو توجيه لفظٍ، متوجه إلى معانٍ مختلفة، إلى واحدٍ منها، بما ظهر من الأدلة[1].

وقيل أيضاً: التأويل صرف الآية إلى معنى موافق لما قبلها وبعدها تحتمله الآية، غير مخالف للكتاب والسنة، من طريق الاستنباط[2].

من هنا يمكن القول: إن تفسير القرآن تأثر بالفقه ومذاهبه، كما تأثر بالعلوم العقلية كالفلسفة وعلم الكلام، كذلك تأثر بالفكر الصوفي وبفكر أصحاب الفرق والمذاهب الأخرى.

ج ـ أشهر المفسرين وأهم مؤلفاتهم

١) **الطبري**[3]: محمد بن جرير بن زيد بن خالد الطبري، أبو جعفر، علامة وقته، وإمام عصره، وفقيه زمانه. وُلد بآمل (من بلاد طبرستان) سنة أربع وعشرين ومائتين (٢٢٤هـ/٨٣٨م).

درس الحديث عن الشيوخ الفضلاء، وقرأ الفقه على داود بن علي الظاهري، وأخذ فقه الشافعي، وفقه مالك، كما أخذ فقه أهل العراق عن أبي مقاتل بالريّ، وأدرك الأسانيد العالية من كبار شيوخ الأمصار.

كان متقناً في جميع العلوم: علم القرآن، والنحو، واللغة، والفقه،

---

(١) السيوطي: **الإتقان في علوم القرآن**، ٢/ ١٧٣.

(٢) السيوطي، م.ن، ص٢/ ١٧٣.

(٣) راجع ترجمته وأخباره في المصادر التالية:

ـ النديم: **الفهرست**، تحقيق رضا تجدد، طبعة طهران، ١٩٧١، ص٤٩١ (ضمن الفن السابع من المقالة السادسة).

ـ ياقوت الحموي: **معجم الأدباء**، ٦/ ٤٢٣.

ـ ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، ١/ ٤٥٦.

ـ السبكي: **طبقات الشافعية**، ٢/ ١٣٥ ـ ١٤٠.

ـ ابن كثير: **البداية والنهاية**، ١١/ ١٤٥.

ـ الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد**، ٢/ ١٦٢.

والأدب، وكان كثير الحفظ. وكان صاحب مدرسة في الفقه وفي التفسير؛ يُحكم بقوله، ويُرجَع إلى رأيه، وقد اعتبر الطبري أبا التفسير، فقد كان جامعاً للروايات، وكتابه «جامع البيان في تفسير القرآن» يشهد بذلك. قال النديم[١]: «لم يُعمل أحسن منه». توفي الطبري في بغداد عن ست وثمانين سنة، وذلك سنة ٣١٠هـ/ ٩٢٣م.

٢) **الأصفهاني الكاتب**[٢]: أبو مسلم محمد بن مسلم بن بحر. ولد سنة ٢٥٤هـ/٨٦٨م. كان معتزلياً مقرّباً من الوزير علي بن عيسى. عيّنه الخليفة العباسي المقتدر والياً على أصفهان وفارس، ثم عزله بعد ذلك؛ ثُمَّ تولى ولاية أصفهان سنة ٣٢١هـ/ ٩٣٣م، بعد وفاة واليها، أبي علي بن محمد بن أحمد بن رستم إلى أن دخل بنو بويه أصفهان، فعُزل؛ وتوفي الأصفهاني بعد ذلك سنة ٣٢٢هـ/ ٩٣٤م.

ألّف الأصفهاني كتاب «جامع التأويل لمُحكم التنزيل»[٣]، وهو يتكوّن من أربعة عشر جزءاً، وقيل: عشرين. جمع سعيد الأنصاري الهندي نصوصاً منه وردت في تفسير الرازي «مفاتيح الغيب» وسمّاها: مُلتقط جامع التأويل لمحكم التنزيل»، طبعها في جزء صغير[٤].

٣) **القُمّي**: أبو الحسن علي بن إبراهيم بن هاشم القُمّي[٥]: هو من

(١) النديم: **الفهرست**، ص٤٩٢.
(٢) راجع ترجمته وأخباره في المصادر التالية:
- النديم: م.ن، ص٢٦٢.
- ياقوت الحموي: **معجم الأدباء**، ١٨/ ٣٥ ـ ٣٨.
- الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ٢/ ٢٤٤.
- السيوطي: **بغية الوعاة**، ص٢٣.
- ابن المرتضى: **طبقات المعتزلة** دار مكتبة الحياة، بيروت، ص٩١.
(٣) قال النديم: م.س، (ص٢٦٢): «هو على مذهب المعتزلة في تفسير القرآن. كبير»
(٤) الزركلي: **الأعلام**، ٦/ ٥٠.
(٥) فؤاد سزكين: **تاريخ التراث العربي**، المجلد الأول، الجزء الأول، ص٢١٥.

مصنفي الإمامية، له كتب منها: **كتاب التفسير**، وكتاب الناسخ والمنسوخ، وكتاب المغازي، وكتاب الشرائع، وكتاب أخبار القرآن ورواياته[١].

وقد ذكره النديم وقال: له من الكتب كتاب التفسير وغيره[٢]. وكان أبو الحسن القمّي مفسراً شيعياً وفقيهاً ومؤرخاً. تعلّم عنده محمد بن يعقوب الكليني (ت ٣٢٨هـ/ ٩٣٩م)، وعلى ذلك فقد عاش في منتصف القرن الرابع الهجري[٣].

٤) **الهَرَوي**[٤]: أحمد بن محمد بن شارك، أبو حامد الهروي. مفتي هراة وأديبها، وعالمها، ومفسرها، ومُحدثها في زمانه، مات بهراة سنة ٣٥٥هـ/ ٩٦٥م، وقيل: سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٨م.

٥) **الفارسي**[٥]: أحمد بن محمد بن أيوب، أبو بكر الفارسي. الواعظ، المفسّر، نزيل نيسابور. كان يحضر مجلسه نحو عشرة آلاف، مات سنة ٣٦٤هـ/ ٩٧٤م.

٦) **الشاشي**[٦]: محمد بن علي بن إسماعيل، الإمام أبو بكر الشاشي، المعروف بالقفّال الكبير. كان إمام عصره في بلاد ما وراء النهر، فقيهاً، مفسّراً، أصولياً، لغوياً، شاعراً؛ لم يكن للشافعية بما وراء النهر مثله في وقته. صنّف في التفسير، والأصول، والفقه. له مصنّفات كثيرة ليس لأحد

---

(١) ياقوت الحموي: **معجم الأباء**، ١٢/ ٢١٥.

(٢) النديم: **الفهرست**، ص٤٦٩، ويذكره باسم «علي بن هاشم».

(٣) فؤاد سزكين: **تاريخ التراث العربي**، المجلد الأول، الجزء الأول، ص٢١٦، ويذكرون من مصادر ترجمته كتاب «**الرجال**» للنجاشي، طبعة إيران، ص١٩٧ ـ ١٩٨، وكتاب «**الذريعة**»، ٤/ ٣٠٢ ـ ٣٠٩.

(٤) السيوطي: **طبقات المفسرين**، طبعة ليدن، ١٨٣٩م، ص٦ (الترجمة رقم ١٢).

(٥) السيوطي: م. ن، ص٥، (الترجمة رقم ١١).

(٦) السيوطي: م. س، ص٣٦ ـ ٣٧ (الترجمة رقم ١٠٩).

مثلها. نقل عنه الإمام الرازي في تفسيره «مفاتيح الغيب» كثيراً، مما يوافق مذهب المعتزلة. ولد سنة ٢٩١هـ/ ٩٠٣م، وتوفي سنة ٣٦٥هـ/ ٩٧٥م.

٧) **الزعفراني**[(١)]: الحسين بن محمد بن علي، أبو سعيد الأصفهاني الزعفراني. صاحب معرفة وإتقان، له من المصنفات شيء كثير. روى عن أهل أصفهان؛ توفي سنة ٣٦٩هـ/ ٩٧٩م.

٨) **ابن فارس**[(٢)]: أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب الرازي، اللغوي. كان إماماً في علوم شتى، خصوصاً اللغة. أقام في همذان، صحبه بديع الزمان الهمذاني، صاحب المقامات، ودرس عليه النحو وغيره. حضر إلى الريّ من همذان، بناء على طلب آل بويه، ليكون معلماً لمجد الدولة البويهي، ابن فخر الدولة؛ فسكن الريّ، ويبدو أنه بقي فيها إلى حين وفاته، سنة ٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م. ولابن فارس في التفسير كتاب «جامع التأويل في تفسير القرآن»، أربع مجلدات.

٩) **ابن حبيب النيسابوري**[(٣)]: أبو القاسم الحسن بن محمد بن الحسن

---

(١) السيوطي: **طبقات المفسرين**، ص١٢، (الترجمة رقم ٣٤).

(٢) راجع ترجمته في المصادر التالية:
- ياقوت الحموي: **معجم الأدباء**، ٤/ ٨٠ (الترجمة رقم ١٣)
- الثعالبي: **يتيمة الدهر**، ٣/ ٤٠٢.
- السيوطي: **بغية الوعاة**، ١/ ٣٥٢، (الترجمة رقم ٦٨٠).
- السيوطي: م.س، ص٤.
- ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، ١/ ١١٨ (الترجمة رقم ٤٩).

(٣) راجع ترجمته وأخباره في المصادر التالية:
- السيوطي: م.س، ص١١، (الترجمة رقم ٣٢)
- السيوطي: م.س، ص٢٢٧.
- ابن العماد: **شذرات الذهب**، دار المسيرة، بيروت، ط٢، ١٩٧٩، ٣/ ١٨١.
- البغدادي، إسماعيل باشا: **هدية العارفين**، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٢، ٥/ ٢٧٤.
- الزركلي: **الأعلام**، ٢/ ٢١٣.
- فؤاد سزكين: **تاريخ التراث العربي**، مج١، ج١، ص٢١٨.

ابن حبيب النيسابوري. كان أول حياته منتسباً إلى طائفة الكرّامية، ثم تركها بعد ذلك إلى الشافعية. وقد كان في خراسان مفسّراً عظيماً، كما كان مؤرخاً ولغوياً كبيراً. توفي سنة ٤٠٦هـ/ ١٠١٥م.

ألّف كتاباً في تفسير القرآن هو «**كتاب التنزيل وترتيبه**»[١]. وكان النيسابوري إمام عصره في معاني القرآن وعلومه. انتشر عنه بنيسابور العلم الكثير، وسارت تصانيفه الحِسَان في الآفاق. وكان أستاذاً لجماعة، منهم أبو القاسم التغلبي، الذي كان من خواص تلاميذه؛ وكان النيسابوري من أشهر مفسري خراسان، صنف في القراءات والتفسير والآداب.

١٠) **الصابوني النيسابوري**[٢]: إسماعيل بن عبد الرحمن بن أحمد بن الواعظ، المفسّر، المُحَدِّث، الأستاذ، شيخ الإسلام، إمام المسلمين، أَوْحد وقته[٣]. شهدت له أعيان الرجال بالكمال في الحفظ والتفسير وغيرهما. وكان كثير السماع والتصنيف، وممن رُزق العزّ والجاه في الدين والدنيا.

كان الصابوني عديم النظير، لا يماثله أحد في علمه وعبادته، يُضرب به المثل في كثرة العبادة، والعلم، والذكاء، والزهد، والحفظ. وكان يجيد اللغة الفارسية إجادة اللغة العربيَّة.

---

(١) هكذا ذكر السيوطي في **بغية الوعاة**، ص١١؛ وذكره الزركلي (**الأعلام**، ٢/ ٢١٣) باسم «التنزيل وترتيبه» وقال: توجد منه نسخة مخطوطة في مكتبة الظاهرية بدمشق.
وذكر إسماعيل باشا البغدادي (**هدية العارفين**، ٥/ ٢٧٤) لأبي القاسم النيسابوري كتاب «**غرائب القرآن ورغائب الفرقان**»، في التفسير.

(٢) راجع ترجمته في المصادر التالية:
- ابن عساكر: **تهذيب ابن عساكر**، ٣/ ٢٧ ـ ٣٣.
- السبكي: **طبقات الشافعية**، ٣/ ١١٧.
- السيوطي: **طبقات المفسرين**، ص٧، (الترجمة رقم ٢٢)
- الزركلي: م.س، ١/ ٣١٧.
- إسماعيل باشا البغدادي: م.س، ٥/ ٢١٠.

(٣) هكذا أورد السيوطي ألقابه جميعاً. وقال الزركلي: لقبه أهل السنّة في بلاد خراسان، بشيخ الإسلام، فلا يعنون عند إطلاقهم هذه اللفظة غيره.

وُلد وعاش ومات في نيسابور. وكانت ولادته سنة ٣٧٣هـ/ ٩٨٣م، ووفاته سنة ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م.

ومع أن السيوطي ذكره في كتابه «طبقات المفسّرين» لكنه لم يذكر له كتاباً في التفسير، علماً أنه لقّبه بالمفسّر؛ ولعل ما صنّفه في التفسير أتت عليه يد الزمان؛ فضاع كما ضاع الكثير من كتب التراث.

د ـ أشهر كتب التفسير

ـ جامع البيان في تفسير القرآن للطبري.

مما يؤسف له أن معظم كتب التفسير التي ذكرتها لمؤلفين ومفسرين من علماء القرن الرابع للهجرة، ممن كان في بلاد المشرق، لم تبصر النور حتى الآن، حسب علمي؛ لذا سأكتفي بإلقاء الضوء على كتاب واحد فقط، هو كتاب الإمام الطبري «جامع البيان في تفسير القرآن». خاصة وأن هذا التفسير يُعتبر من أشهر التفاسير، وأن الإمام الطبري يُعتبر أبا التفسير والمفسرين؛ وهو صاحب مدرسة التفسير بالمنقول، أي بالروايات المنقولة عن رسول الله، وعن صحابته، وعن التابعين وتابعيهم.

وقد حظي هذا الكتاب بشهرة واسعة عند العلماء، فقال السيوطي[١]: «وما زال كتابه جامع البيان عن تأويل آي القرآن عمدة كتب التفسير جميعاً». ويقول بروكلمان[٢]: «هو كتاب متعمق، عظيم الاستيفاء» وقد طبع هذا الكتاب في ثلاثين جزءاً، تناسباً مع أجزاء القرآن.

طريقة الطبري في التفسير[٣]

عندما كان الطبري يريد تفسير آية يقول: «القول في تأويل قوله تعالى

(١) السيوطي: طبقات المفسرين، ص٧.

(٢) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ٣/ ٤٩.

(٣) محمود حلاوي: الوجيز في علوم القرآن العزيز، ص٧٦.

كذا وكذا» ثُمّ يفسّر الآية، ويستشهد على ما قاله بما يرويه بسنده عن الصحابة والتابعين من التفسير بالمأثور عنهم في هذه الآية. وإذا كان في الآية قولان أو أكثر، فإنه يعرض لكل ما قيل فيها؛ وهو لا يقتصر على الرواية فقط، بل يحاول توجيه الأقوال، ويُرجح بعضها على بعض؛ كما يتعرض لناحية الإعراب إذا دعت الحاجة إلى ذلك؛ وقد يستنبط الأحكام التي يمكن أن تؤخذ من الآية، مع توجيه الأدلّة وترجيح ما يختار.

ثانياً: الحديث النبويّ

الحديث النبويّ هو المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلاميّ بعد القرآن الكريم. وقد اهتمّ العلماء المسلمون بالحديث النبويّ منذ بداية عصر النبوة، واستمر هذا الاهتمام في العصور الإسلاميّة اللاحقة، جمعاً وتحقيقاً وغربلةً وتصنيفاً، كما اهتمُّوا بالعلوم المتصلة بالحديث، كعلم الرواية وعلم الدراية، وعلوم السند والمتن، وعلم الرجال، وعلم الجرح والتعديل وغيرها.

وقد ساهم علماء المشرق الإسلاميّ مساهمة جادّة وفعّالة في إنتاج المؤلفات والمصنفات الكثيرة، حتى جاز لنا القول إن علوم الحديث النبوي عيال على هؤلاء العلماء وأمثالهم.

وقبل الخوض في مساهمات علماء المشرق في الحديث النبوي، لا بُدّ من الوقوف على بعض مصطلحات هذا العلم.

١ ـ تعريف الحديث النبويّ

الحديثة لغةً: اسم من التحديث، وهو الإخبار؛ يقال: «صار أحدوثة، أو «صار حديثاً»، إذا ضُرب به المثل[١].

(١) الزمخشري: أساس البلاغة، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩، مادة ح د ث، ص١١٦.

وترد لفظة «حديث» في القرآن الكريم بمعنى الخبر والإخبار، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾،[1] وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا﴾[2].

وقد ذكر بعض العلماء معنى آخر للحديث، وهو الجِدّة فالحديث هو الجديد، ضد القديم[3]، وكأنّهم أرادوا التمييز له عن كلام الله الموصوف بالقدم. قال ابن حجر العسقلاني[4]: «المراد بالحديث في عُرْف الشرع ما أضيف إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وكأنه أريد به مقابلة القرآن الكريم لأنه قديم».

والحديث اصطلاحاً: هو ما أُضيف إلى النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو وصف خِلْقي أو خُلُقي. فكل ما نُسِبَ إلى رسول الله من أقوال وأفعال وتقريرات وصفات خِلقية أو خُلقية، هي حديث، ومُرادفها أيضاً السنة[5] وكذلك الخبر والأثر[6].

وقد قسم العلماء[7] الحديث من حيث القبول والردّ إلى قسمين:

ـ حديث مقبول: وهو الحديث الصحيح والحديث الحسن.

ـ حديث مردود: وهو الحديث الضعيف والحديث الموضوع.

٢ ـ تدوين الحديث النبويّ

من المعروف أن رسول الله ﷺ نهى عن كتابة الحديث أول عهد

(١) سورة الطور، الآية: ٣٤.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

(٣) الفيروز آبادي: **القاموس المحيط**، مادة ح د ث، وأساس البلاغة، ص١١٥.

(٤) صبحي الصالح: **علوم الحديث ومصطلحه**، ص٥.

(٥) أحمد عمر هاشم: **أضواء على مصطلح الحديث**، دار المنار للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٨٥، ص٧.

(٦) السيوطي: **تدريب الراوي**، ص٤.

(٧) ابن الصلاح: **مقدمة في علوم الحديث**، دار الكتاب العربي، بيروت، ص١٠.

الإسلام خوفاً من اختلاطه بالقرآن، فقال رسول الله[1]: «لا تكتبوا عنّي، ومن كتب عنّي غير القرآن فَلْيُمحه، وحدّثوا عني ولا حرج، ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار».

ولكن رسول الله ﷺ أذن بعد ذلك بكتابة أحاديثه، عندما أمنَ من اختلاطه بالقرآن[2]. وقد استمر تدوين الحديث خلال الربع الأخير من القرن الأول للهجرة، والربع الأول من القرن الثاني[3].

إن أول من اهتم بتدوين الحديث بشكل رسمي هو الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز (٩٧ ـ ١٠١هـ/ ٧١٧ ـ ٧٢٠م)؛ فقد كلف أبا بكر بن حزم (ت ١٢٠هـ/ ٧٣٧م) بهذه المهمة وقال له: «انظر ما كان من حديث رسول الله فاكتبه؛ فإني خشيت دروس العلم وذهاب أهله»[4]، أي أن يضيع حديث رسول الله بوفاة حفظته.

ومن العلماء الذين اشتهروا بتدوين الحديث في هذه المرحلة، الزهري (ابن شهاب، محمد بن مسلم) (ت ١٢٥هـ/ ٧٤٢م)، فقد طارت شهرته باعتباره أول من دون الحديث[5].

وفي العصر العباسي، وخاصّة في بلاد المشرق الإسلاميّ، تصدّى عدد من العلماء للتصنيف في الحديث النبوي على أبواب الفقه، كما فعل البخاري (ت ٢٥٦هـ/ ٨٧٠م) ومسلم (ت ٢٦١هـ/ ٨٧٥م)

وأبو داود (ت ٢٧٥هـ/ ٨٨٨م) والترمذي (٢٧٩هـ/ ٨٩٢م) والنَّسائي (ت ٣٠٣هـ/ ٩١٥م) وأبو حاتم البستي (ت ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م)، وغيرهم.

---

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه، ج٨/ ص٢٢٩، وتقييد العلم، للخطيب البغدادي، ص٢٩ ـ ٣٢.

(٢) ابن قتيبة: تأويل مختلف الحديث، ص١٩٣.

(٣) فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي المجلد الأول، الجزء الأول، ص٢٢٧.

(٤) البخاري، صحيح البخاري، كتاب العلم، ١/ ٣١.

(٥) ابن عبد البر: جامع بيان العلم، وفضله، دار الكتب العلمية، بيروت، ص٧٣.

والملاحظ أن تدوين الحديث النبوي مرتباً على الأبواب الفقهية ظهر في العصر العباسي الثاني (القرنين الثالث والرابع للهجرة)، أي في عصر الإمام البخاري ومن عاصره من العلماء أو جاء بعده، وقد تَمّ هذا الترتيب تسهيلاً للوصول إلى الأحكام الفقهية الواردة في الحديث، وأصحاب هذه المؤلفات هم: البخاري، ومسلم، والترمذي، وأبو داود وابن ماجه، والنسائي.

ومن الملاحظ أيضاً أن جميع هؤلاء العلماء هم من بلدان المشرق الإسلاميّ.

أمّا المتأخرون من علماء الحديث، والذين جاؤوا بعد هؤلاء الأئمة، فقد عنوا بشرح كتبهم أو اختصارها أو التعليق عليها، أو التنبيه على الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة، أو تفصيلاً لأخبار الرواة والمحدّثين، وقد خدموا بذلك علم الحديث النبوي خدمة كبيرة.

لقد كان الغالب على القرن الرابع للهجرة أنه عصر تبويب وتهذيب؛ وبنهاية هذا القرن انتهى جمع السُنن، وكان التصنيف في الحديث على طرق شتى، فتارة على الأبواب أو المسائل الفقهية، أو الأطراف، أو على حروف المعجم، وتارة أخرى بإفراده بعض الأبواب (أجزاء) أو على الشيوخ والرواة، أو التراجم والطرق[1].

لقد بلغ تدوين الحديث أشدّه في ذلك الوقت، ولهذا جعل العلماء الحد الفاصل بين المتقدمين والمتأخرين من رواة الحديث وحملته هو رأس سنة ثلاثمائة للهجرة[2]، خاصّة بعد أن تحول عدد من علماء الحديث من

---

(١) العسقلاني، ابن حجر: **نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٩، ص١٠ ـ ١١.

(٢) محمد أبو زهرة: **الحديث والمحدثون**، ص٤٢٧ ـ ٤٢٨.

الرواية الشفهية، وهي الحفظ في الصدور، إلى الرواية المدونة، وهي الحفظ في السطور، دون أن يعني ذلك إبطال أسلوب التلقّي بالرواية الشفوية، بل بقي طريق التلقي شفاهاً عن رجال الحديث، حتى بعد أن نشأ أدب كتابي غزير المادة في الحديث[١].

٣ ـ علماء الحديث وأشهر مؤلفاتهم

قام علماء الحديث في القرن الثالث الهجري بجهود كبيرة في تصنيف الكتب الموسوعية في الحديث؛ كذلك قام العلماء في القرن الرابع بالاعتناء بما ألفه شيوخهم وأساتذتهم، شرحاً واختصاراً وتعليقاً.

لذا نرى من الأهمّية ذكر بعض علماء القرن الثالث والتعريف بأشهرمؤلفاتهم التي تناولها علماء القرن الرابع بالشرح.

أ ـ **الإمام البخاري**[٢]: (١٩٤ ـ ٢٥٦هـ/ ٨١٠ ـ ٨٧٠م) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، حفظ القرآن وهو صغير، ثُمَّ استوفى حفظ أحاديث شيوخه في بخارى وهو ابن ست عشرة سنة، ثُمَّ رحل طلباً للعلم ولقاء العلماء وتلقي الحديث عنهم؛ فسمع الكثير منهم، وكتب عن أكثر من ألف شيخ لقيهم في أسفاره، حتى صار إمام المسلمين في الحديث، ولقبه العلماء بأمير المؤمنين في الحديث، وقد ذكر العلماء أنه حفظ مائة ألف حديث صحيح، ومائتي ألف غير صحيح. وقد ضم كتابه «الجامع الصحيح»

(١) بروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، ج ٣/ ص١٥٢.

(٢) فؤاد سزكين: **تاريخ التراث العربي**، المجلد الأول، الجزء الأول، ص٣٠٨ وما بعدها، كذلك راجع ترجمته في المصادر التالية:
- ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، ١/ ٥٧٦ ـ ٥٧٧ (طبعة بولاق).
- الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ٢/ ٢٠٦ ـ ٢٠٩.
- السبكي: **طبقات الشافعية**، ٢/ ٢ ـ ١٩.
- ابن العماد: **شذرات الذهب**، ٢/ ١٣٤ ـ ١٣٦.
- الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد**، ٢/ ٩ وما بعدها.

٧٥٦٣ حديثاً[١]، بما فيه من أحاديث مكررة، اختارها من ست مائة ألف حديث[٢].

وقد سمع هذا الكتاب ـ كله أو بعضه ـ من مؤلفه، آلاف المستمعين في حلقات الدرس[٣]، ومن العلماء الكبار الذين سمعوا هذا الكتاب وأجازهم البخاري بروايته[٤]:

ـ الفِرَبْري، أبو عبد الله محمد بن يوسف (ت ٣٢٠هـ/ ٩٣٢م).

ـ النَّسَفي، إبراهيم بن معقل (ت ٢٩٥هـ/ ٩٠٧م).

ـ النَّسَوي، حماد بن شاكر (ت ٢٩٠هـ/ ٩٠٢م).

وقد تلقّى العلماء كتاب البخاري بالإعجاب والقبول، وكثرت مجالس العلم التي يُقرأ فيها هذا الكتاب، كما كثر عدد حاضري هذه المجالس حتى زاد على عشرين ألفاً[٥].

وذكر صاحب «كشف الظنون» شروحاً كثيرة لهذا الكتاب، عدّد منها اثنين وثمانين شرحاً[٦]. وأول شارح له هو الخطّابي[٧].

---

(١) راجع **صحيح البخاري**، طبعة دار الأرقم، حيث وصل ترقيم أحاديثه إلى الرقم الذي ذكرناه.

(٢) ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، ٤/ ١٩٠ (طبعة دار الثقافة، بيروت).

(٣) الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد**، ٢/ ٩.

(٤) فؤاد سزكين: **تاريخ التراث العربي**، المجلد الأول، الجزء الأول، ص٣٠٩.

(٥) الخطيب البغدادي: م.س، ٢/ ٢٠.

(٦) حاجي خليفة: **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، ١/ ٥٤٥ ـ ٥٥٣.

(٧) **الخطّابي**: (٣١٩ ـ ٣٨٨هـ/ ٩٣١ ـ ٩٩٨م) حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي، أبو سليمان؛ فقيه محدث، من أهل بُست، وقد كان مشهوراً بالدقة العلميّة والورع والتقوى، وكان يكسب قوته من التجارة. وفي أخريات حياته مال إلى الصوفية، حتى أنه دخل في خلوتهم.
من مؤلفاته:
ـ شرح صحيح البخاري، المسمى «إعلام السنن في شرح المشكل من أحاديث البخاري».
ـ شرح سنن أبي داود السجستاني، المسمى «معالم السنن».
ـ غريب الحديث.
راجع: فؤاد سزكين: م. س، المجلد الأول، الجزء الأول، ص٥١٨ ـ ٥١٩.

ب ـ **الإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري**[1]: ولد الإمام مسلم، أبو الحسن، في نيسابور سنة ٢٠٢هـ/ ٨١٧م، وقيل ٢٠٤هـ أو ٢٠٦هـ؛ وكان أول سماعه للحديث سنة ٢١٨هـ/ ٨٣٣م، ورحل في طلب الحديث وسماع العلماء؛ فذهب إلى الحجاز ومصر والشام والعراق، وكان آخر زيارة له لبغداد سنة ٢٥٩هـ/ ٨٧٣م، ثُمَّ عاد إلى نيسابور، يُلقي الحديث على طلابه، إلى أن توفي في نصر أباد، قرب نيسابور سنة ٢٦١هـ/ ٨٧٥م.

وكان الإمام مسلم ثقة في الحديث، وكذلك في الفقه، وتعتمد شهرته ـ أولاً وقبل كل شيء ـ على كتابه «الجامع الصحيح» والذي يعتبره العلماء من المجموعات الصحيحة المعتمدة في أحاديث رسول الله، بل إن عدداً من العلماء يفضلونه على صحيح البخاري؛ فهو كامل الأسانيد، واضح البناء، منطقي في ترتيب مواده، موفق في اختيار مصادره[2].

تتلمذ الإمام مسلم على البخاري عندما قدم نيسابور؛ فعرف فضله وسعة علمه واستفاد منه كثيراً.

وروى عن الإمام مسلم عدد كبير من العلماء أمثال: الترمذي، وابن خزيمة، ويعقوب بن إسحاق الإسفراييني، وإبراهيم بن محمد بن سفيان، وهو الذي روى صحيح مسلم عنه.

وقد بلغ مسلم منزلة رفيعة من العلم، وكان العلماء يقدّرون علمه ويُثنون عليه، يقول عنه شيخه محمد بن عبد الوهاب الفرّاء: كان مسلم من

---

(١) راجع ترجمته وأخباره في المصادر التالية:
- ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ٥/ ١٩٤ ـ ١٩٦.
- الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد**، ١٣/ ١٠٠ ـ ١٤.
- النديم، **الفهرست**، ص٤٨٤.
- ابن أبي يعلى، **طبقات الحنابلة**، دار المعرفة، بيروت، ١/ ٣٣٧.
- ابن العماد، **شذرات الذهب**، ٢/ ١٤٤ ـ ١٤٥.

(٢) فؤاد سزكين: **تاريخ التراث العربي**، ص٣٥٣.

علماء النَّاس وأوعية العلم. وقال عنه الإمام النووي[1]: «أجمعوا ـ أي العلماء ـ على جلالته وإمامته، وعلو مرتبته، وحذقه في هذه الصنعة، وتقدمه فيها».

أمَّا كتابه «الجامع الصحيح» فقد ألفه خلال خمس عشرة سنة، واختار أحاديثه من بين ثلاثمائة ألف حديث، فبلغت أحاديثه أربعة آلاف حديث، دون المكررات[2].

وقد اعتمد الإمام مسلم منهجاً يختلف عن منهج الإمام البخاري، حيث قصد إبراز الفوائد الإسنادية، ولم يقصد فقه الحديث كالبخاري، لذا جمع الأحاديث المروية بأكثر من إسناد في باب واحد، على حين قسمها البخاري على الأبواب المختلفة للاحتجاج والاستشهاد بها في هذه الأبواب الفقهية. وتحدث مسلم بالتفصيل عن أصول علم الحديث في مقدمة كتابه[3].

ويكاد صحيح الإمام مسلم يضاهي صحيح البخاري في كثرة مخطوطاته ووجودها في أكثر المكتبات، وقد حظي بمنزلة فاقت منزلة صحيح البخاري في بعض الأحيان، وهذه الوجهة من النظر هي التي سادت بالمغرب[4].

وقد تناول العلماء صحيح مسلم بالشرح والاختصار والتعليق والتجريد والدراسة، كذلك قام العلماء بالجمع بين الصحيحين، وقام آخرون بالموازنة بينهما.

---

(١) النووي: تهذيب الأسماء واللغات، ٢/ ٩٠، طبعة مصر.
(٢) حاجي، خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٢، ١/ ٥٥٥.
(٣) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ٣/ ١٨٠.
(٤) حاجي، خليفة: م. س، ص١/ ٥٥٥.

ومن بين العلماء الذين اعتنوا بصحيح مسلم، من علماء المشرق الإسلاميّ في القرن الرابع الهجري

ـ **أبو عوانة**، يعقوب بن إسحاق الإسفراييني[1]، المتوفى سنة ٣١٦/ ٨٢٩هـم، كان محدثاً ثقةً بعيد الترحال، سمع كثيراً من العلماء، وكان من كبار علماء إسفرايين.

ـ وأبو عبد الله محمد بن علي بن حَمدوَيه، **الحاكم النيسابوري**، تولى القضاء بِنَسَا، وكان مقرباً من البويهيين، وذا مكانة عالية في الحديث، يميل إلى رأي الشيعة. وقد ولد النيسابوري في نيسابور سنة ٣٢١هـ/ ٩٣٣م، وتوفي سنة ٤٠٤هـ/ ١٠٤٤م في نيسابور[2].

ـ وكذلك أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن جعفر الجرجاني اليزيدي «مسند أصبهان». ولد سنة ٣١٩هـ/ ٩٣١م، في جرجان، ونشأ في نيسابور، وتوفي سنة ٤٠٨هـ/ ١٠١٨م، في أصفهان.

ـ وكذلك أبو بكر أحمد بن علي بن منجويه الأصفهاني، ولد سنة ٣٤٧هـ/ ٩٥٨م، وعاش في نيسابور، وكان يُعَدُّ من المحدّثين الثقات. توفي سنة ٤٢٨هـ/ ١٠٣٦م[3].

ج ـ **الكُليني**[4]: أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق، الرازي من

(١) فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي، المجلد الأول، الجزء الأول، ص٣٦٣، وص ٤٣٧.
(٢) حاجي، خليفة: كشف الظنون، ص٥٤٢.
(٣) حاجي، خليفة: م.ن، ص ٥٦٢.
(٤) راجع ترجمته وأخباره في المصادر التالية:
ـ السمعاني، الأنساب، ص٤٨٦.
ـ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٨/ ١١٨.
ـ الخوانساري، روضات الجنات، تحقيق أسد الله اسماعيليان، منشورات مكتبة اسماعيليان، طهران، ١٣٩٢هـ، ٥٥٠ ـ ٥٥٤.
ـ النجاشي، الرجال، ص٢٦٦.
ـ يوسف البحراني، لؤلؤة البحرين، ص٣١٤ ـ ٣١٦.

كبار علماء الشيعة، ومن المجددين في فقه الإمامية، من أهل كولين (كُلين) بالري، وإليها نُسِب. وقد توفي ببغداد سنة ٣٢٨هـ/ ٩٣٩م.

له من المصنفات:

ـ كتاب الكافي في علم الدين، يتناول فيه جميع عقائد الإمامية ومذاهبها، ويعد أحد الكتب الأربعة[١] الكبرى للشيعة، ويشتمل الكتاب على أكثر من ستة عشر ألف حديث، عني المتأخرون بإحصائها وتصنيفها على أصول علم الدراية بين الصحيح والحسن، والقوي والضعيف[٢].

د ـ **ابن بابويه**[٣]: أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى القمي، الصدوق. أشهر مؤلفي الإمامية في المائة الرابعة للهجرة. كان أبوه شيخ الشيعة في قُمّ. قَدِمَ أبو جعفر من خراسان إلى بغداد سنة ٣٥٥هـ/ ٩٦٦م وصحب ركن الدولة بن بويه، الذي استعان بتعاليمه في الإمامة على تدبير سياسته. وتوفي بالري سنة ٣٨١هـ/ ٩٩١م، وقيل سنة ٣٩١هـ/ ١٠٠٠م.

قيل: إن مؤلفاته نحو ٣٠٠ مصنف في الحديث والفقه والوعظ والعقائد وغيرها. ومن كتبه في الحديث نذكر:

ـ معاني الأخبار.

ـ مجالس المواعظ (في الأحاديث).

---

(١) وهي:
أ ـ الكافي في علم الدين للكليني.
ب ـ من لا يحضره الفقيه، لابن بابويه القمّي.
ج ـ كتاب الرجال، للكشّي.
د ـ الاحتجاج، للطبرسي.

(٢) بروكلمان، **تاريخ الأدب العربي**، ٣/ ٣٣٩.

(٣) راجع ترجمته وأخباره في المصادر التالية:
ـ النديم، **الفهرست**، ص٤١٥.
ـ يوسف، البحراني، **لؤلؤة البحرين**، ص٣٠٠ ـ ٣٠٩.
ـ النجاشي، **الرجال**، ص٢٧٦.
ـ الخوانساري، **روضات الجنات**، ص٥٥٧.

- كتاب الأمالي (في الأحاديث والأخبار).
- الأربعون عن الأربعين من الأربعين. وقد عُني علماء المذهب بكتبه، شرحاً وتفسيراً واختصاراً وترجمه إلى الفارسية[١].

٤ ـ علماء آخرون في الحديث من المشرق الإسلامي

عُرف في بلاد فارس والمشرق عموماً عدد من العلماء الذين صنفوا في علوم الحديث، أو شرحوا بعض كتب الحديث المشهورة. نذكر من هؤلاء:

١) ابن حِبّان[٢]: أبو حاتم محمد بن حِبّان البُستي، ولد سنة ٢٧٠هـ/ ٨٨٤م، وكان أحد مشاهير مُحَدِّثي عصره، كما كان فقيهاً، تولى في سمرقند منصب القضاء. أقام في نيسابور وبخارى ونَسا، حيث كان يتولى القضاء؛ ثُمَّ عاد إلى وطنه سجستان سنة ٣٤٠هـ/ ٩٥١م، وهناك وفد عليه العلماء من مختلف الأمصار ليأخذوا عنه حق رواية كتبه. وقد توفي سنة ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م.

من أشهر مؤلفاته في الحديث كتاب «المسند الصحيح» المعروف بصحيح ابن حِبّان. وله أيضاً «كتاب الثقات»، وهو مصدر أساسي كجمهرة كتب طبقات المحدثين التي جاءت بعده. وكذلك كتاب «معرفة المجروحين والضعفاء من المحدثين»، وهو كتاب في علم الرجال، أو علم الجرح والتعديل[٣].

---

(١) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ٣/ ٣٤٣ ـ ٣٤٨.

(٢) راجع ترجمته وأخباره في المصادر التالية:
- الذهبي، تاريخ دول الإسلام، ١/ ١٢١.
- الذهبي، م.س، ص ٣ ـ ٣٩.
- الصفدي، الوافي بالوفيات، ٢/ ٣١٧ ـ ٣١٨.
- السبكي، طبقات الشافعية، ٢/ ١٤١ ـ ١٤٣.
- ابن العماد، شذرات الذهب، ٣/ ١٦.

(٣) فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي، المجلد الأول، الجز الأول، ص٤٧١ ـ ٤٧٥.

٢) **الطبراني**(١): أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب

ولد سنة ٢٦٠هـ/ ٨٧٣م، في عكا، وأصل أبويه من طبرية. ولقد بدأ سنة ٢٧٠هـ/ ٨٨٣م دراسة الحديث، وقد رحل في طلب العلم إلى البلاد الإسلاميّة ليأخذ عن علمائها، وقيل إنه سمع من أكثر من ألف عالم أثناء رحلته العلمية التي استغرقت ثلاثين عاماً ولمّا عاد ثانية إلى أصفهان استقر به المقام هناك، وأخذ يحدث ويؤلف. ويُعتبر محدثاً ثقة ومؤلفاً كثير التصانيف.

توفي سنة ٣٦٠هـ/ ٩٧١م في أصفهان(٢).

قال ابن خلكان(٣): كان الطبري حافظ عصره، له المصنفات الممتعة النافعة، منها المعاجم الثلاثة: الكبير، والأوسط، والصغير.

٣) **الكرابيسي**(٤): أبو أحمد محمد بن محمد النيسابوري، الحاكم الكبير:

ولد سنة ٢٨٥هـ/ ٩٩٨م، اعتبره أهل عصره محدثاً عظيماً. تولى القضاء في عدد من المدن، وتوفي سنة ٣٧٨هـ/ ٩٨٨م. من مؤلفاته «كتاب الأسماء والكنى»(٥).

---

(١) راجع ترجمته وأخباره في المصادر التالية:
- أبو نعيم الأصفهاني، **أخبار أصبهان**، ١/ ٣٣٥ ـ ٣٣٦.
- ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ٢/ ٤٠٧.

(٢) فؤاد سزكين، **تاريخ التراث العربي**، المجلد الأول، الجزء الأول، ص٤٨٤.

(٣) ابن خلكان: م.س، ٢/ ٤٠٧.

(٤) راجع ترجمته وأخباره في المصادر التالية:
- ابن الجوزي، **المنتظم**، ٧/ ١٤٦.
- الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ١/ ١١٥.
- الذهبي، **تذكرة الحفاظ**، ص٩٧٦ ـ ٩٧٩.
- الصفدي، **نكت الهميان**، ص٢٧٠ ـ ٢٧١.
- ابن العماد، **شذرات الذهب**، ٣/ ٩٣.

(٥) فؤاد سزكين: م.س، المجلد الأول، الجزء الأول، ص٥٠٢.

٤) **الكلاباذي**[١]: أبو نصر أحمد بن محمد بن الحسين البخاري:

ولد سنة ٣٢٣هـ/ ٩٣٥م، في حي كلاباذ ببخارى، ولقد حدَّث في بلاد ما وراء النهر وخراسان وبغداد، وكان محدثاً ثقة. توفي سنة ٣٩٨هـ/ ١٠٠٨م[٢].

ألف كتاباً في معرفة رجال الحديث الذين وردت أسماؤهم في صحيح البخاري، سماه: «الهداية والإرشاد في معرفة أهل الثقة والسداد، الذين أخرج لهم البخاري في جامعه».

٥) **اليزيدي**[٣]: أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الجرجاني. «مسند أصبهان»، ولد سنة ٣١٩هـ/ ٩٣١م في جرجان، ونشأ في نيسابور، وتوفي سنة ٤٠٨هـ/ ١٠١٨م بأصبهان. من مؤلفاته «الأمالي»[٤]، أو أمالي اليزيدي، وهو ما أملاه على تلاميذه من أحاديث رسول الله.

٦) **الشيرازي**[٥]: أبو بكر أحمد بن عبد الله الفارسي:

سمع من علماء الحديث المشهورين في أصفهان وجرجان ونيسابور

---

(١) مصادر ترجمته:
- الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد**، ٤/ ٤٣٤.
- ابن العماد: **شذرات الذهب**، ٣/ ١٥١.

(٢) فؤاد سزكين: **تاريخ التراث العربي**، المجلد الأول، الجزء الأول، ص٥٣٢.

(٣) مصادر ترجمته:
- الذهبي: **ميزان الاعتدال**، ٣/ ٣١ ـ ١٤.
- الذهبي: **سير أعلام النبلاء**، ١١/ ٦٤.
- ابن حجر: **لسان الميزان**، ٥/ ٢٩.

(٤) سزكين، فؤاد: م.س، المجلد الأول، الجزء الأول، ص٥٤٧.

(٥) مصادر ترجمته:
- الذهبي: **تذكرة الحفاظ**، ص١٠٦٥ ـ ١٠٦.
- اليافعي: **مرآة الجنان**، ٣/ ٢.
- ابن العماد: م.س، ٣/ ١٩٠.

وبغداد والبصرة وعدد من المدن، كان محدثاً ثقة، توفي سنة ٤١١هـ/ ١٠٢٠م في شيراز، ألف كتاب في ألقاب الرواة[١].

٧) **أبو نعيم الأصفهاني**[٢]: أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق؛ ولد بأصبهان سنة (٣٣٦هـ/ ٩٤٨م)، ورحل في طلب العلم إلى بغداد ومكة والبصرة ونيسابور، ثم عاد إلى بلده ثانية[٣]، كان من الأعلام المحدثين وأكابر الحفاظ الثقات[٤]. توفي سنة ٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م.

من مصنفاته كتاب «حِلية الأولياء وطبقات الأصفياء» يذكر فيه أسماء الرجال وما رَوَوْه من أحاديث رسول الله.

* * *

ثالثاً: الفقه في المشرق الإسلامي

١ ـ تعريف الفقه

الفقه لغة: هو الفهم، وفقه: فَهِمَ، وفَقِهَ الرجل: صار فقهياً، أي عالماً بالفقه[٥]. قال الغزالي[٦]: «الفقه عبارة عن العلم والفهم في أصل الوضع، يقال: فلان يفقه الخير والشرّ، أي يعلمه ويفهمه». وقال الجرجاني[٧]: «الفقه هو في اللغة عبارة عن فهم غرض المتكلم من كلامه».

---

(١) فؤاد سزكين: **تاريخ التراث العربي**، المجلد الأول، الجزء الأول، ص٥٥١ ـ ٥٥٢.
(٢) راجع ترجمته وأخباره في المصادر التالية:
ـ ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ١/ ٩١، (الترجمة رقم ٣٣).
ـ السبكي، **طبقات الشافعية**، ٣/ ٧.
ـ الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ١/ ٥٢.
ـ ابن العماد، **شذرات الذهب**، ٣/ ٢٤٥.
(٣) بروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، ٦/ ٢٢٤.
(٤) ابن خلكان: م.س، ١/ ٩١.
(٥) الفيروز آبادي: **القاموس المحيط**، مادة ف ق هـ.
(٦) الغزالي: **المستصفى في علم الأصول**، ص١١.
(٧) الجرجاني: **كتاب التعريفات**، ص٩٠.

واصطلاحاً: هو عبارة عن العلم بالأحكام الشرعية الثابتة لأفعال المكلّفين خاصّة، أو هو العلم بالأحكام الشرعية العملية، المكتسب من أداتها التفصيلية، وهو علم مستنبط بالرأي والاجتهاد، ويُحتاج فيه إلى النظر والتأمل.

والفقه كأي علم من العلوم الإسلاميّة لم يكن ليدل على ما نطلقه اليوم من معاني الكلمة، حيث لم يكن كاصطلاح علمي محدد إلاَّ في وقت متأخر عن ظهور مواده ومصادره الأصلية.

ومصادر الفقه في الإسلام اثنان: القرآن الكريم، ثُمَّ السنة النبوية، ثُمَّ زاد العلماء مصدرين آخرين هما: الاجتهاد والقياس، وكذلك أضافوا أعمال الصحابة؛ فقد كان الصحابة يجتهدون، قال ابن القيم[1]: «وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يجتهدون في النوازل، ويقيسون بعض الأحكام على بعض، ويعرفونها بالأمثال والأشباه والنظائر».

٢ ـ تطوّر علم الفقه

كان الفقه في صدر الإسلام يعني معرفة الأحكام والمعايير الشرعية، التي نزل بها القرآن الكريم، أو نصّ عليها الحديث النبوي؛ فلمّا انتشر الإسلام خارج حدود الجزيرة العربيّة، ودانت لحكمه البلدان والأقطار في المشرق والمغرب، لم يعد العلم بما جاء به الكتاب والسنة كافياً لسد حاجات المسلمين التي عرضت لهم، وكذلك القضاء في كل ما يستجد من المشاكل والمسائل بحقوق النَّاس ومصالحهم لذا كان على العلماء أن يجتهدوا بالفقه لحلّ هذه المشاكل. وهكذا ظهر الفقه، أي ذلك التصرّف والعمل العقلي، الذي كان من نتائجه أن رفع الفقهاء أصواتهم مطالبين بحق اعتماد آرائهم التشريعية، وجعلها مقاييس ومبادئ تصدر عنها الأحكام والأقضية في الحياة العلمية والعملية.

---

(١) ابن القيم الجوزية: **أعلام الموقعين عن رب العالمين**، ١/ ١٧٧.

وبادر الفقهاء مبكرين إلى تنظيم الأحكام التشريعية، وإحكام بنائها على أصول وقواعد، وترتيبها على أبواب وفنون، وكان الشافعي أخصّ من اضطلع بهذه المهمة للفقه الإسلاميّ، وذلك بتهذيبه القياس وحسن استعماله.

ولعل من البديهي القول إن من أسباب اختلاف المدارس الفقهية التي نشأت في الأمصار هو اختلاف الصحابة الذين قطنوا تلك الأمصار وأسسوا تلك المدارس؛ فكل صحابي له طريقته في الفهم وفي حل المسائل الشرعية التي كانت تعرض عليه، ولعل سبب ذلك اختلاف حظوظ الصحابة من الأحاديث التي رَوَوْها عن رسول الله، وكذلك اختلاف البيئات التي عاشوا فيها، وبالتالي اختلاف الثقافات في هذه البيئات، واختلاف المشاكل التي كانوا يتعرضون لها.

ولم يشعر الفقهاء في هذه المرحلة بالحرج في الأخذ عن بعضهم البعض، والاستفادة من آرائهم ومن الأحكام التي كانوا يصدرونها في المسائل المختلفة. واستمر ذلك إلى أن أخذ تلاميذ هؤلاء الفقهاء الكبار، يؤسسون مدارس فقهية خاصّة بهم، ويضعون المصطلحات التي عرفت لهم، ويدوّنون الكتب والمصنفات التي تبيّن آراءهم وأحكامهم في شتى أمور الحياة العملية.

ومن المهم أن نتوقف قليلاً عند مؤسسي هذه المدارس الفقهية، خاصّة وأنّها انتشرت في بلاد المشرق من العالم الإسلاميّ، وصار لها أتباع كثيرون يعملون بآراء مشايخهم وعلمائهم، ويدوّنون الكتب الشارحة لآرائهم، ويبسطون الشرح والتعليق، أو يؤلفون المختصرات طلباً للمزيد من الفهم والإيضاح.

وقد تم ترتيب هذه المدارس حسب انتشارها وشهرتها وكثرة أتباعها في بلاد المشرق الإسلامي.

٣ ـ المدارس الفقهية وأشهر علمائها

أ ـ المدرسة الحنفية

ينتمي أتباع هذه المدرسة إلى الإمام أبي حنيفة النعمان[١] بن ثابت بن زوطي، يقال إنه من ولد ساسان ملك العجم، كان أبوه قد أسر في فتح كابل، أعتقه رجل كوفي من بني تَيْم الله، وكان أبو حنيفة يعمل بتجارة الخز (الحرير)، وكان من شيعة الإمام علي كأكثر الموالي، ولمّا خرج إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم على العباسيين، ناصره أبو حنيفة، ودعا إلى الخروج معه، مما أغضب الخليفة المنصور؛ فسجنه ببغداد. تتلمذ أبو حنيفة على كبار التابعين؛ فكان من شيوخه أبو عمرو الشعبي (ت ١٠٤هـ/ ٧٢٢م) وعطاء بن أبي رباح (ت ١١٤ هـ/ ٧٧٤ م)، ومحمد بن الحسن الشيباني (ت ١٨٩ هـ/ ٨٠٥م).

ومما يروى أن الخلفاء الأمويين المتأخرين، والخليفة العباسي المنصور، كانوا يجبرونه على تولّي منصب القضاء، ولكنه كان يرفض في كل مرة.

توفي الإمام أبو حنيفة في بغداد سنة ١٥٠هـ/ ٧٦٧م. ويبدو أن أكثر كتبه التي وصلت إلينا هي من عمل تلاميذه.

---

(١) راجع ترجمته وأخباره في المصادر التالية:
ـ الأشعري: **مقالات الإسلاميين**، ص١٣٨.
ـ النديم: **الفهرست**، ص٤٢٨.
ـ الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد**، ١٣/ ٣٢٣ أ ٤٥٤.
ـ ابن كثير: **البداية والنهاية**، ١٠/ ١٠٧.
ـ اليافعي: **مرآة الجنان**، ١/ ٣٠٩ أ ٣١٢.
ـ ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ٢/ ١٢ أ ١٥.
ـ فؤاد سزكين: **تاريخ التراث العربي**، المجلد الأول، الجزء الثاني، ص٣١.

ومن أشهر كتبه كتاب «الفقه الأكبر»، ويقال: إن ابنه حمّاد رواه عنه، وعلى هذا الكتاب شروح كثيرة ومختصرات، و«مسند أبي حنيفة»، برواية تلميذه أبي يوسف.

ومن فقهاء الحنفية في بلاد المشرق نذكر

ـ **المروزي**[1]: أبو الفضل محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاكم الشهيد. ولد بمرو، تولّى القضاء في بخارى، ثُمَّ أصبح وزيراً بخراسان لحميد الساماني، ولمّا أغار الأتراك على خراسان سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٤م، وقع في أسرهم، وقتلوه سنة ٣٣٤ هـ/ ٩٤٥م. ودفن بمرو، وكان المروزي كثير التصانيف، كما كان راويةً ثقة. له كتاب «الكافي في الفقه».

ـ **السمرقندي**[2]: أبو الليث، نصر بن محمد بن أحمد، كان فقيهاً من أئمة الحنفية ومفسراً ومتصوفاً. له مؤلفات عدة، منها: «تفسير القرآن»، و«خزانة الفقة»، و«الفتاوى من أقاويل المشايخ»، و«عيون المسائل»، وغيرها. توفي السمرقندي سنة ٣٧٣هـ/ ٩٨٣م.

ـ **الدبوسي**[3]: أبو زيد، عبد الله (عبيد الله) بن عمر بن عيسى الدبوسي، كان اهتمامه بعلم الخلاف بين المذاهب الفقهية، حتى وُصِفَ بأنه مؤسس هذا العلم، وقد ألّف فيه كتاب «التعليقة في مسائل الخلاف بين الأئمة»، وكتاب «تأسيس النظر في الخلافات الفقهية».

توفي في بخارى سنة ٤٣٠هـ/ ١٠٣٩م عن ٦٣ سنة.

---

(١) مصادر ترجمته: **المنتظم لابن الجوزي**، ١/ ٣٤٦ ـ ٣٤٧؛ **وهدية العارفين**: لإسماعيل باشا البغدادي، ٢/ ٣٧؛ **وتاريخ التراث العربي**، لفؤاد سزكين، المجلد الأول، الجزء الثاني، ص٩٢، **وتاريخ الأدب العربي**، لبروكلمان، ٣/ ٢٦٦.

(٢) مصادر ترجمته: فؤاد سزكين، م.ن، المجلد الأول، الجزء الثاني، ص٩٧؛ **والأعلام**، للزركلي، ج ٨/ ص ٢٧؛ **ومعجم المؤلفين**، لرضا كحّالة، ١٣/ ٩١.

(٣) مصادر ترجمته: **وفيات الأعيان**، لابن خلكان، ١/ ٢٥٣؛ **شذرات الذهب**، لابن العماد، ٣/ ٢٤٥؛ م.ن، لرضا كحالة، ٦/ ٩٦، ص١١٦.

ب ـ المدرسة الشافعية

ينتمي أتباع هذه المدرسة إلى الإمام الشافعي[1]، أبي عبد الله محمد بن إدريس ابن العباس الشافعي القرشي، وهو يمت بصلة قرابة بعيدة (جدّه السابع) إلى رسول الله.

ولد سنة ١٥٠ هـ/٧١٧م، جاءت به أمّه إلى مكة وهو في السنة الثانية من عمره، وعاش طفولته فقيراً، وكان يتردد وهو غلام على البادية يسمع كلام العرب وأشعار الجاهلية حتى أتقن اللغة والشعر وروى الدواوين، وقد درس في مكة عند مسلم بن خالد الزنجي (ت ١٧٩هـ/ ٧٩٥م) وسفيان بن عيينة (ت ١٩٥هـ/ ٨١١م) الفقه والحديث، كما حفظ موطأ مالك عن ظهر قلب.

ولمّا بلغ العشرين من عمره، رحل إلى المدينة والتقى الإمام مالك، الذي سمح له بتدريس كتابه «الموطأ» بعد أن تعجب من حفظه، فظل عند مالك حتى سنة وفاته (١٧٩هـ/ ٧٩٥م).

ويروى أن الشافعي رحل إلى اليمن واكتسب هناك شهرة واسعة، وبايع الإمام الزيدي يحيى بن عبد الله، فقبض عليه مع آخرين، وأُحضِر إلى الخليفة هارون الرشيد بالرقّة، فظل هناك لعدّة سنوات إلى أن عفى عنه. وفي بغداد تعرف على محمد بن الحسن الشيباني، وهو من تلاميذ الإمام أبي حنيفة، وكان يحظى بمكانةٍ كبيرة عند الخليفة، وبعد مدة رأى أن آراءه لا تتوافق مع الشيباني، فغادر بغداد سنة ١٨٨ هـ/ ٨٠٤م، ورحل إلى بلاد الشام ومصر، حيث استُقبِل فيها بصفته تلميذ الإمام مالك، ولكنه اضطر سنة ١٩٥هـ/ ٨١٠م أن يغادر مصر ويعود ثانية إلى بغداد، حيث اشتغل بالتدريس ونجح نجاحاً كبيراً.

---

(١) أخذت هذه الترجمة للشافعي من كتاب: **تاريخ التراث العربي**، لفؤاد سزكين، المجلد الأول، الجزء الثاني، ص١٦٥، وما بعدها.

وفي سنة ١٩٨هـ/ ٨١٤م، عاد الشافعي إلى القاهرة مرة أخرى بصحبة عبد الله بن موسى - ابن والي مصر الجديد - الذي كان يُقَدِّر الشافعي ويحترمه كثيراً. وفي سنة ٢٠٠ هـ/ ٨١٥م غادر مصر إلى مكة لأداء فريضة الحج، ثُمّ عاد بعدها إلى مصر، وبقي فيها يُدَرِّس إلى حين وفاته.

توفي الإمام الشافعي بمصر سنة ٢٠٤ هـ/ ٨٢٠م، ودفن في مقبرة في سفح جبل المُقَطَّم.

وقد اعتبر الشافعي نفسه مؤسساً لمذهب جديد، كان يقف وسطاً بين مذهب «الرأي» عند أبي حنيفة، ومذهب «التقليد» عند مالك. ويُعتبر الشافعي مؤسس علم أصول الفقه.

ألّف الإمام الشافعي الكثير من المصنفات ما بين كبير وصغير، وقد بلغ عددها ما يقارب ١٤٠ كتاباً، ذكر النديم في الفهرست قائمة ضمّت ١٠٥ كتب[١]، كما ذكر ابن حجر قائمة ضمت ٧٨ كتاباً[٢].

وقد قسم تلاميذ الشافعي مؤلفاته إلى قسمين: قديمة وحديثة؛ فالقديمة هي التي ألفها في بغداد ومكة، والحديثة هي التي ألفها بمصر. وكذلك ينسب للإمام الشافعي ديوان شعر.

ومن أشهر كتب الشافعي

- كتاب «الأم»، «الرسالة» في أصول الفقه، «أحكام القرآن»، «الفقه الأكبر»، ولعله كتاب «المبسوط في الفقه» الذي رواه عنه تلميذاه الربيع بن سليمان والزعفراني[٣].

(١) النديم، **الفهرست**، ص٤٤٢ - ٤٤٥.
(٢) فؤاد سزكين: **تاريخ التراث العربي**، المجلد الأول، الجزء الثاني، ص١٦٩.
(٣) النديم: م.س، ص٤٤٢. =

ومن بين تلاميذه الذين أخذوا عنه ورووا كتبه أبو ثور[1] إبراهيم بن خالد بن اليمان، الفقيه، أخذ عن الشافعي وروى عنه، وخالفه في أشياء، وأحدث لنفسه مذهباً اشتقه من مذهب الشافعي، وله كتاب «المبسوط» رتبه على ترتيب كتاب المبسوط للشافعي، وأكثر أهل أذربيجان وأرمينية يتفقهون على مذهبه. وتوفي سنة ٢٤٠ هـ/ ٨٥٤م.

ومن فقهاء الشافعية في بلاد المشرق

ـ **الإصطخري**[2]: أبو سعيد الحسن بن أحمد بن يزيد بن عيسى بن الفضل الإصطخري الفقيه الشافعي. كان رأساً في مذهب الشافعي، حدّث وكان ثقة مستوراً وفقهياً متقدماً.

ولد سنة ٢٤٤ هـ/٨٥٨م، وتوفي سنة ٣٢٨ هـ/٩٣٩م. له من المؤلفات: كتاب الفرائض الكبير، وكتاب الشروط والوثائق والمحاضر والسجلات.

ـ القفّال[3]: أبو بكر محمد بن علي بن إسماعيل الشاشي القفّال. ولد

= للتوسع في ترجمة الشافعي وأخباره راجع المصادر التالية:
ـ النديم: **الفهرست**، ص٤٤١ أ ٤٤٥.
ـ أبو نُعَيْم الأصبهاني: **حلية الأولياء**، ٩/ ٦٣ ـ ١٦١.
ـ الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد**، ٢/ ٦٥ ـ ٧٣.
ـ ياقوت الحموي: **معجم الأدباء**، ١٧/ ٢٨١ ـ ٣٢٧.
ـ الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ٢/ ١٧١ ـ ١٨١.
ـ السبكي: **طبقات الشافعية**، ١/ ١٧٢ ـ ١٧٥.
ـ حاجي خليفة: **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، ص١٣٩٧.
ـ الزركلي: **الإعلام**، ٦/ ٢٦ ـ ٢٧.

(١) النديم: م.س، ص٤٤٥ ـ ٤٤٦.
(٢) النديم: م.ن، ص٤٤٩ ـ ٤٥٠.
(٣) بروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، ٣/ ٣٠٣؛ وفؤاد سزكين: **تاريخ التراث العربي**، المجلد الأول، الجزء الثاني، ص١٨٧ ـ ١٨٨.

في شاش سنة ٢٩١ هـ/ ٩٠٤م، رحل إلى خراسان والشام والحجاز والعراق طلباً للعلم، كان عالماً في الفقه والحديث والأدب واللغة، ويقال إن القفّال الشاشي هو الذي أدخل مذهب الشافعي إلى بلاد ما وراء النهر، فكانت خراسان مركزاً له، بعد أن كان الناس يتبعون مذهب أبي حنيفة. وقد جلس للتدريس في نيسابور وبخارى ثُمَّ قدم مع عسكر خراسان إلى الريّ سنة ٣٥٤ هـ/ ٩٦٥م. ومن بين تلاميذه المشهورين: الحاكم النيسابوري، وأبو عبد الله بن منده، وأبو عبد الرحمن السّلمي.

توفي القفّال في الشاش سنة ٣٦٥ هـ/٩٧٦م. ومن مؤلفاته كتاب «محاسن الشريعة في فروع الشافعية».

ـ أبو الطيب الطبري[(١)]: طاهر بن عبد الله بن طاهر بن عمر الطبري. القاضي، الفقيه الشافعي، كان ثقة صادقاً دينيّاً ورعاً. عارفاً بأصول الفقه، محققاً في علمه، سليم الصدر، حسن الخلق، صحيح المذهب، يقول الشعر على طريقة الفقهاء.

ولد الطبري في آمل بطبرستان سنة ٣٤٨ هـ/ ٩٥٩م، وبدأ دراسة الفقه وهو ابن أربع عشرة سنة، وفي سنة ٣٧١ هـ/ ٩٨١م ذهب إلى جرجان للقاء علمائها والأخذ عنهم، ثُمَّ انتقل بعد ذلك إلى نيسابور، وأخيراً ذهب إلى بغداد، وهناك سمع من الدارقطني وأبي الفرج معافى بن زكريا النهرواني، ثُمَّ عمل بالتدريس في بغداد، وتولى القضاء فيها سنة ٤٣٦ هـ/ ١٠٤٤م.

من تلاميذه المشهورين: الخطيب البغدادي، وأبو إسحاق الشيرازي. ويُعَدُّ أبو الطيب الطبري من العلماء الكبار في أصول الفقه وفروعه. ومن

---

(١) مصادر ترجمته: **طبقات الشافعية**، السبكي، ٣/ ١٧٦ ـ ١٩٧؛ **تاريخ بغداد**، للخطيب البغدادي؛ ٩/ ٣٥٨ ـ ٣٦٠؛ **البداية والنهاية**، لابن كثير؛ ١٢/ ٧٩ ـ ٨٠؛ فؤاد سزكين، **تاريخ التراث العربي**، مجلد ١، ج٢، ص١٩٥، **وفيات الأعيان**، لابن خلكان؛ ٢/ ٥١٢ ـ ٥١٤، والأعلام، للزركلي؛ ٣/ ٢٢٢.

آثاره «شرح مختصر المزني»، وهو كتاب مشهور وعليه شروح. توفي الطبري في بغداد سنة ٤٥٠ هـ/ ١٠٥٨م.

ج ـ المدرسة الحنبلية[1]

ينتمي أتباع هذه المدرسة إلى الإمام أحمد بن حنبل، وهو أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني. ولد في بغداد سنة ١٦٤ هـ/ ٧٨٠م، بدأ يتلقى العلم فيها ويحضر مجالس الحديث واللغة وهو ابن خمس عشرة سنة. ولما بلغ العشرين أخذ يطوف البلاد في طلب العلم، ووصل إلى بلاد اليمن، وسمع في صنعاء من محدّثها وعالمها عبد الرزاق بن همام. وقد تأثر ابن حنبل بدروس شيخه سفيان بن عيينة (ت ١٩٦ هـ/ ٨١١م) الذي كان حجّة مدرسة الحجاز في الفقه، كما تأثر بدروس أبي يوسف تلميذ الإمام أبي حنيفة، كذلك حضر في بغداد دروس الإمام الشافعي في الفقه، ما بين عامي ١٩٥ و١٩٧هـ/ ٨١٠ ـ ٨١٢م.

وفي أيام الخليفتين العباسيين المأمون والمعتصم بالله وقع ابن حنبل في محنة شديدة، لأنه رفض القول برأي المعتزلة حول خلق القرآن، حيث كان المأمون يؤيد قولهم ويأمر أهل العراق باتباعهم في رأيهم؛ فلمّا رفض ابن حنبل، عُذّب وسُجِن مدة، وبقي في السجن من عام ٢١٨ هـ/ ٨٣٣م حتى وفاة المعتصم سنة ٢٢٧ هـ/ ٨٤٢م.

فلمّا أفضت الخلافة إلى المتوكل سنة ٢٣٢هـ/ ٨٤٦م، عاد ابن حنبل إلى مكانته من الإجلال والاحترام والتدريس، لأن المتوكل عاد بالنَّاس إلى مذهب أهل السنة والجماعة، والتقى حول ابن حنبل عدد كبير من التلاميذ، يتلقون العلم عنه، إلى أن توفي سنة ٢٤١ هـ/ ٨٥٥م.

---

(١) فؤاد سزكين: **تاريخ التراث العربي**؛ مجلد ١، ج٢، ص١٩٦، وما بعدها؛ وبروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، ٣/ ٣٠٨، مع الإشارة إلى أن المؤلف اعتبر المذهب الحنبلي أقل شهرة من غيره من المذاهب.

ويعتبر ابن حنبل مؤسس المذهب الرابع في الفقه السنّي، وهو مذهب يفضّله أصحاب الحديث، ويستنبط الأحكام من القرآن والسنّة، ولا يعتمد على الرأي، إلا في حالات الضرورة.

ومن أشهر آثار ابن حنبل كتابه «المُسند» الذي جمع فيه أكثر من ٢٨٠٠٠ حديث، ورتّبه على أسماء الرواة، بحيث جمع أحاديث كل راوٍ مع بعضها البعض وأسندها إليه.

وله أيضاً «كتاب السنة» و«كتاب الزهد» و«كتاب الورع والإيمان» وغيرها من المؤلفات التي حظيت باهتمام علماء المذهب، فتصدّوا لها شرحاً وتفسيراً وتلخيصاً وتعليقاً ودراسة[١].

د ـ المدرسة المالكية[٢]

ينتمي أتباع هذه المدرسة إلى الإمام مالك بن أنس، إمام دار الهجرة، وهو أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي. ولد في المدينة المنورة ما بين عامي ٩٠ و٩٧ هـ/٧٠٨ ـ ٧١٥م على اختلاف الروايات.

ويقال إنه كان في شبابه يعاشر المغنين في المدينة، لكنه تحول بعد

---

(١) لمزيد من الاطلاع على ترجمته وأخباره راجع المصادر التالية:
ـ النديم، **الفهرست**، ص٤٨١.
ـ ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ١/٦٣ ـ ٦٥ (الترجمة رقم ٢١).
ـ الذهبي: **تذكرة الحفاظ**، ١/٦٠.
ـ ابن العماد، **شذرات الذهب**، ١/١٤١.
ـ أبو نعيم الأصبهاني، **حلية الأولياء**، ٩/١٦١ ـ ٢٣٣.
ـ ابن عساكر، **تهذيب تاريخ دمشق**، ٢/٢٨ ـ ٤٨.
ـ ابن أبي يعلى، **طبقات الحنابلة**، ١/٤ ـ ٢٠.
وغيرها من المصادر والمراجع.

(٢) فؤاد سزكين: **تاريخ التراث العربي**، مجلد (١)، جزء ٢، ص١٢٠، وما بعدها.

ذلك إلى دراسة الفقه حين نصحته أمّه بذلك. وقد تتلمذ على يد ربيعة بن فروخ (ت ١٣٦هـ/ ٧٥٣م)، وغيره من علماء المدينة[١].

وفي سنة ١٤٥ هـ/ ٧٦٢م، خرج محمد بن عبد الله العلوي في المدينة على بني العباس، وأعلن الثورة عليهم مطالباً بأحقيّته في الخلافة؛ فلم يعترض مالك على هذه الثورة، بل أفتى بأن النَّاس بايعوا بني العباس وهم مُكْرَهون، وليس على مُكْرَهٍ يمين. لذا عاقبه والي المدينة. ولعله عاد وتصالح مع العباسيين بعد ذلك؛ فقد رُوِيَ أن هارون الرشيد عندما جاء إلى المدينة في موسم الحج (سنة ١٧٩هـ/ ٧٩٥م) زاره وحضر حلقة التدريس التي كان يعقدها في المدينة، وكان ذلك قبل وفاته بقليل.

ويُعَدُّ الإمام مالك من أدقّ المحدّثين في عصره، عدّه العلماء الذين جاؤوا بعده مؤسساً لمذهب مستقل في الفقه. وأهمّ تعاليم مالك التي تظهر في كتابه «الموطأ» الاعتراف بعمل أهل المدينة، حيث يعتبره إحدى مصادر الاجتهاد، وبجانب ذلك يأتي الحديث مصدراً للاستدلال الفقهي عنده.

ومن أهمّ آثار الإمام مالك، كتاب «الموطأ»، وهو كتاب حديث وفقه، حيث يضم فتاوى العلماء الثقات من التابعين. ويقول بروكلمان[٢] عن الموطأ: «الموطأ ليس من كتب الحديث، بل من كتب الفقه، يبيّن أحكام العبادات والمعاملات في ضوء إجماع أهل المدينة، وما انتشر بينهم من الحديث والسنة، كما يتعرّض للخلافات الخارجة عن ذلك».

وتجدر الإشارة هنا إلى أن مذهب الإمام مالك كان موجوداً في بعض

---

(١) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ٣/ ٢٧٤.
(راجع مصادر ترجمته في المرجعين المذكورين).
(٢) بروكلمان: م.ن، ٣/ ٢٧٥.

مدن المشرق الإسلاميّ[1]، لكنه لم يحظ بالانتشار كما حظي غيره من المذاهب الفقهية.

ومن علماء المالكية في المشرق

أورد السهمي في كتابه «تاريخ جرجان»[2]، ترجمة لأبي أحمد عبد الله بن عديّ الحافظ المعروف بابن القطّان، المتوفى سنة ٣٦٥ هـ/ ٩٧٥م، ذكر فيها أنه كان يكتب الحديث بجرجان. ثُمَّ قال: «وابن عدي جمع أحاديث مالك بن أنس... وكان حافظاً متقناً لم يكن في زمانه مثله» وفي مكان آخر[3] يذكر أن عبد الله بن عدي «جمع مسند مالك بن أنس».

وكذلك يترجم السهمي، لأبي سعد **إسماعيل بن أحمد الإسماعيلي**[4] فيقول: كان إمام زمانه، مقدّماً في الفقه وأصول الفقه، والعربيّة، والكتابة، والشروط، والكلام. صنّف في أصول الفقه كتاباً كبيراً سماه تهذيب النظر. درّس الفقه سنين كثيرة وتخرّج على يده جماعة من الفقهاء من أهل جرجان وطبرستان وغيرهما من البلدان... وكان معظماً مبجّلاً في جميع البلدان.

روى عن عبد الله بن عدي كتاب «الضعفاء» وجمع مسند مالك بن أنس. توفي سنة ست وتسعين وثلاثمائة (٣٩٦ هـ/ ١٠٠٥م).

ولعل في ترجمة هذين العالمين ما يشير إلى اهتَمامهما بمسند الإمام مالك، وأن مذهبه كان معروفاً بجرجان، ومعمولاً به هناك إضافة إلى ما ورد عند المقدسي من وجود مالكيّة من الأهواز.

---

(١) المقدسي: **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ص٤١٥، حيث يقول: «وبالأهواز مالكيّون».

(٢) السهمي: **تاريخ جرجان**، نشر عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١ م، ص٢٦٧ (الترجمة رقم ٤٤٣).

(٣) السهمي: م.س، ص١٤٧.

(٤) السهمي: م.ن، ص١٤٧، الترجمة رقم ١٧٠.

وتجدر الإشارة إلى أنّ مذهب الإمام مالك كان واسع الانتشار في بلاد المغرب والأندلس، أكثر بكثير من بلاد المشرق.

من هنا ندرة المعلومات حول انتشاره في المشرق، ووجود علماء كبار عملوا على نشره أو التأليف في فقه الإمام مالك.

هـ ـ فقه المدرسة الإمامية

الإمامية هم القائلون بإمامة علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، بعد النبيّ محمد، عليه الصلاة والسلام، نصاً ظاهراً وتعييناً صادقاً، من غير تعريض بالوصف، بل إشارة إليه بالعين؛ وما كان في الدين والإسلام من أمر أهمّ من تعيين الإمام(١).

ثُمَّ إن الإمامية لم يثبتوا في تعيين الأئمة بعد الحسن والحسين، وعلي بن الحسين، رضي الله عنهم، على رأي واحد. وهم متفقون في الإمامة وسوقها إلى جعفر بن محمد الصادق، رضي الله عنه، ومختلفون في المنصوص عليه بعده من أولاده.

أمّا الاثنا عشرية: فهم الذين قالوا بموت الإمام موسى الكاظم بن جعفر الصادق، وساقوا الإمامة بعده في أولاده؛ فقالوا: الإمام بعد موسى الكاظم، ولده علي الرضا؛ ثُمَّ بعده، محمد النقي الجواد؛ ثُمَّ بعده ابنه علي بن محمد التقي، وبعده الحسن العسكري، وبعده ابنه محمد، القائم، الإمام المنتظر، وهو الثاني عشر(٢).

فالأئمة الاثنا عشر هم:

(١) علي بن أبي طالب، المرتضى.

(٢) الحسن بن علي، المجتبى.

---

(١) الشهرستاني: **الملل والنحل**، ١/ ١٦٢.

(٢) الشهرستاني: م.ن، ص، ١/ ١٦٩.

(٣) الحسين بن علي، الشهيد.

(٤) علي بن الحسين زين العابدين، السجّاد.

(٥) محمد بن علي، الباقر.

(٦) جعفر بن محمد، الصادق.

(٧) موسى بن جعفر، الكاظم.

(٨) علي بن موسى، الرضا.

(٩) محمد بن علي النقي الجواد.

(١٠) علي بن محمد، التقي.

(١١) الحسن بن علي، العسكري الزكي.

(١٢) محمد بن الحسن، القائم، وهو المهدي المنتظر.

ويذكر النديم[١] أن أول كتاب ظهر في فقه الشيعة هو كتاب سليم بن قيس الهلالي، الذي كان راوية للإمام علي، وأنه مات أثناء ملاحقة الحجاج بن يوسف لأعداء الأمويين؛ وقد روى هذا الكتاب عنه أبان بن أبي عياش، وتضمنت أمهات كتب الشيعة المبكرة نقولاً من هذا الكتاب[٢].

ومن المصنّفات الأولى في فقه الشيعة كتاب الحقوق للإمام زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، المتوفى سنة ٩٢هـ/ ٧١٠م[٣]. وقد وصل إلينا هذا الكتاب في «كتاب الخِصال» لابن بابويه القمي (ت ٣٨١هـ/ ٩٩١م)، كما يوجد نص الكتاب في كتب فقه الشيعة الأخرى، وفي كتاب «أعيان الشيعة» للسيد محسن الأمين[٤]. وقد ذكر ابن حجر[٥] نقلاً عن الزهري قوله في مدح زين العابدين بأنه «أكبر فقيه».

(١) النديم: **الفهرست**، ص٤٦٣.

(٢) فؤاد سزكين: **تاريخ التراث العربي**، مجلد (١)، جزء (٢)، ص٢٣٥.

(٣) وقيل إن وفاته كانت سنة ٩٤هـ/ ٧١٢م (الزركلي، **الأعلام**، ٤/ ٢٧٧) كما قيل غير ذلك.

(٤) الأمين، السيد محسن: **أعيان الشيعة**، ٤/ ٢١٦ ـ ٢٣١.

(٥) ابن حجز: **التهذيب**، ٧/ ٣٠٥.

ولعل الإمام جعفر الصادق ابن الإمام محمد الباقر، من أوائل الذين نسب إليهم فقه الشيعة الإمامية (الجعفرية)؛ فقبل قيام ثورة عمه الإمام زيد بن علي على الأمويين، انضمت أغلبية أتباع والده إليه لا إلى عمه، وأصبح بذلك الإمام السادس من أئمة الشيعة، ولم يقم بدور سياسي، بل قام بدور علمي؛ فَوُصِفَ بأنه مفسّر ومحدّث وعالم وفقيه[1].

ومن آثار الإمام جعفر الصادق كتاب مصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة، وهو مجموع أقواله ذات المضمون الأخلاقي والديني، جاءت في مائة باب[2]، كما أنه ألف العديد من الكتب في التفسير والعقيدة والدعاء وغيرها.

ويروى أن الإمام علي بن موسى الرضا، وهو الإمام الثامن عند الشيعة الإمامية، ألف كتاباً في الفقه عُرِف بـ«فقه الرضا»[3]. وقد أمضى الإمام الرضا حياته مشتغلاً بالعلم، منصرفاً عن السياسة، فقد كان عالماً في الفقه والحديث والطبّ أيضاً. توفي سنة ٢٠٣هـ/ ٨١٨م، في طوس، ودفن هناك.

وكان المؤسس الحقيقي لفقه الإمامية في بلاد العجم، أبو جعفر القمّي، محمد بن الحسن بن فروخ الصفّار الأعرج، المتوفى سنة ٢٩٠هـ/ ٣١٩م[4]. وهو عالم ممتاز في فقه الشيعة[5]، له كتاب «بصائر الدرجات في علوم آل محمد وما خصهم الله به».

ومن أشهر علماء الإمامية

- في أوائل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، كان مجدد فقه

(١) فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي، ص٢٤٠.
(٢) فؤاد سزكين: م.ن، ص٢٤١.
(٣) طبع هذا الكتاب في طهران سنة ١٢٧٤هـ/١٨٥٧م، مع مقدمة في الدفاع عن صحة نسبته للإمام الرضا (بروكلمان: تاريخ الأدب العربي)، ٣/ ٣٣٦.
(٤) بروكلمان: م.ن، ٣/ ٣٣٧.
(٥) فؤاد سزكين: م.س، ص٣٥٧.

الإمامية هو أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكُليني الرازي، المتوفى ببغداد سنة ٣٢٨هـ/ ٩٣٩م[١]. ومن أشهر كتبه كتاب «الكافي في علم الدين»، وهو أحد الكتب المعتمدة في فقه الشيعة، حيث يتناول جميع عقائد الإمامية ومذاهبها[٢].

ـ وأشهر مؤلفي الإمامية في القرن الرابع للهجرة، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى، ابن بابويه القمّي، الصدوق، كان أبوه شيخ الشيعة في قُمّ.

قَدِمَ أبو جعفر من خراسان إلى بغداد سنة ٣٥٥هـ/ ٩٦٦م، وصحب ركن الدولة ابن بويه، الذي استعان بتعاليمه في الإمامة على تدبير سياسته. وقد توفي ابن بابويه بالري سنة ٣٨١هـ/ ٩٩١م؛ وقيل سنة ٣٩١هـ/ ١٠٠١م[٣]. وابن بابويه أحد المؤلفين الأربعة المشاهير في فقه الشيعة[٤]. من مؤلفاته:

- معاني الأخبار.
- مجالس المواعظ، أو الأمالي.
- عيون أخبار الرضا، ويتضمن حياة الإمام علي بن موسى الرضا وأقواله.
- كتاب «من لا يحضره الفقيه»، وهو أحد مجاميع الحديث الأربعة عند الشيعة الإمامية.
- اعتقادات الإمامية.
- المقنع، في الفقه. وغيرها من الكتب في الفقه والحديث والعقيدة[٥].

---

(١) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ٣/ ٣٣٩.

(٢) فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي، ص٣٥٨.

(٣) بروكلمان: م. س، ٣/ ٣٤٣.

(٤) فؤاد سزكين: م. س، مجلد (١)، الجزء (٢)، ص٢٦٨.

(٥) راجع أسماء هذه المؤلفات وأماكن وجودها في م.ن، لفؤاد سزكين، مجلد (١)، جزء (٢)، ص٢٦٩ ـ ٢٧٦.

و ـ المدرسة الزيدية

ينتمي أتباع هذه المدرسة إلى الإمام زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب[1].

ولد الإمام زيد سنة ٧٩هـ/ ٦٩٨م، وعاش في الكوفة. وقد روى العلم عن والده زين العابدين، كما روى عن الإمام محمد الباقر، وعن أبان بن عثمان وعروة بن الزبير وغيرهم.

قال أبو حنيفة عن[2]: «ما رأيت في زمانه أفقه منه ولا أسرع جواباً ولا أبين قولاً».

كان الإمام زيد فقيهاً مفسّراً، كما كان شاعراً وخطيباً[3]، وكانت له آراء في العقيدة تأثر فيها بأستاذه واصل بن عطاء[4]، رأس المعتزلة في زمنه.

وفي سنة ١٢٠ هـ/٧٣٨م، ثار الإمام زيد على حكم الأمويين، فخرج بالكوفة وبايعه أربعون ألفاً من أهلها على الدَّعوة إلى الكتاب والسنة، وجهاد الظالمين، والدفاع عن المستضعفين، وإعطاء المحرومين، والعدل في قسمة الفيء، ورَدِّ المظالم، ونصرة أهل البيت؛ فقاتله عامل الكوفة، يوسف بن عمر، وقتله عام ١٢٢ هـ/ ٧٤٠م؛ فعرف بـ «زيد الشهيد»[5].

---

(١) راجع ترجمته، وأخباره في المصادر التالية:
- الأصفهاني، أبو الفرج: **مقاتل الطالبيين**، ص١٢٧ ـ ١٥١.
- البغدادي، عبد القاهر: **الفَرْق بين الفِرَق**، ص٢٥.
- الكتبي: **فوات الوفيات**، ١/ ١٦٤.
- الطبري: **تاريخ الطبري**، ٨/ ٢٦٠ و ٢٧١، (ذكر في وفيات سنة ١٢١ هـ ثم في سنة ١٢٢ هـ).
- ابن عساكر: **تاريخ دمشق**، ١٥/٩ ـ ٢٥.

(٢) الزركلي: **الأعلام**، ٣/ ٥٩.

(٣) وصفة الجاحظ بأنه أحد الخطباء المشاهير، انظر: **البيان والتبيين** ١/ ٣١٠.

(٤) الكتبي: م.س، ١/ ١٦٤.

(٥) الأصفهاني، أبو الفرج: م.س، ص١٣٣.

وقد ترك الإمام زيد بن علي آثاراً عدة[1]، رواها عنه تلاميذه وأتباعه؛ فمن هذه الآثار نذكر:

ـ «تفسير غريب القرآن»، برواية تلميذه أبي خالد عمرو بن خالد الواسطي.

ـ «المجموع»، في الفقه، وهو أقدم كتب الفقه عند الزيدية التي وصلت إلينا. جمعه أبو القاسم عبد العزيز بن إسحاق البغدادي (ت ٣٥٣ هـ/ ٩٦٤م)، وهو ما رواه الإمام زيد عن أبيه عن جده. وقد طبع هذا الكتاب باسم «مسند الإمام زيد».

ـ رسالة في «مناسك الحج وأركانه»، برواية أبي خالد الواسطي، وهذه الرسالة من أقدم ما وصلنا في موضوعها، حيث استفاد منها علماء الحديث في القرنين الثالث والرابع للهجرة (كأبي داود، والترمذي، وابن ماجه)، ورووا ما ورد فيها من أحاديث عن مناسك الحج بالأسانيد ذاتها الواردة في هذه الرسالة.

ـ كتاب الصفوة[2]: يتناول عترة الرسول وآل بيته وحقهم في الإمامة.

ـ رسالة في الإمامة، كتبها إلى واصل بن عطاء.

ومن أشهر فقهاء الزيدية، نذكر

ـ الأطروش: (الناصر للحق)

لعل من أهمّ فقهاء وعلماء الزيدية في بلاد المشرق، أبو محمد الحسن بن علي ابن الحسن بن زيد بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم[3]. الإمام الناصر للحق، الأطروش[4].

---

(١) فؤاد سزكين: **تاريخ التراث العربي**، المجلد الأول، الجزء الثاني، ص٢٨٨ وما بعدها.

(٢) طبع هذا الكتاب مع مقدمة، دراسة وتحقيق حسن محمد تقي الحكيم، وصدر عن دار البيان العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢ هـ/ ١٩٩٢ م. وفي المقدمة يذكر المحقق أن الإمام زيد ولد سنة ٨٧ هـ، وتوفي سنة ١٢٠هـ.

(٣) هكذا أورد نَسَبَه النديم في **الفهرست**، ص٤٠٦.

(٤) لقب بالأطروش لصمم أصابه من ضربة سيف في معركة (**الأعلام**، للزركلي، ٢/ ٢٠٠).

ولد سنة ٢٣٠ هـ/ ٨٤٤ م في المدينة، وقدم إلى طبرستان في عهد الداعي العلوي الحسن بن زيد (ت ٢٧٢ هـ/ ٨٨٥م)، وأقام الأطروش في بلاد الديلم نحو ثلاث عشرة سنة يدعو أهلها إلى الإسلام، وأقام المساجد، وتبعه أهلها بعد أن دخلوا في الإسلام، وكانوا يخضعون لحكم السامانيين، فحرّضهم الأطروش على التمرد والعصيان؛ فثاروا على السامانيين وأعلنوا الانفصال عنهم، ونادوا بالأطروش أميراً عليهم[1].

ثُمَّ هاجم الأطروش طبرستان واستولى عليها من السامانيين، وبذلك اتسعت الدولة الزيدية في عهد الأطروش سنة ٣٠١ هـ/٩١٣م، لتشمل طبرستان وجرجان وبلاد الديلم، وقد توفي الأطروش سنة ٣٠٤ هـ/٩١٧م. وما يهمنا من سيرة وأخبار الأطروش[2]، أنه كان صاحب دعوة، بذل في سبيلها جهوداً مضنية؛ فقد نشر الإسلام على المذهب الزيدي بين سكان دولته. من هنا يُعتبر الأطروش مُحيي المذهب الزيدي في تلك البلاد، خاصة بعد أن تعرّض الأئمه الزيديون للاضطهاد والقتل في تلك البلاد.

قال الشهرستاني[3]: «ولم ينتظم أمر الزيدية حتى ظهر بخراسان صاحبهم الأطروش؛ فطُلِبَ مكانه ليقتل؛ فاختفى واعتزل الأمر، وصار إلى بلاد الديلم والجبل، ولم يتحلوا بدين الإسلام بعد، فدعا النَّاس دَعوة إلى الإسلام على مذهب زيد بن علي؛ فدانوا بذلك ونُشِّئوا عليه، وبقيت الزيدية

(١) المسعودي: **مروج الذهب**، ٢/٥٤٩.

(٢) راجع ترجمته وأخباره في المصادر التالية:
- النديم: **الفهرست**، ص٤٠٦.
- ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ٨/٢٦ وما بعدها.
- الخوانساوي: **روضات الجنات**، ٢/١.
- **دائرة المعارف الإسلامية** ٤/١١٤٧، مقال للمستشرق شتروتمان.
- فؤاد سزكين: **تاريخ التراث العربي**، مجلد (١)، جزء ٢، ص٣٠٦.
- الزركلي: **الاعلام**، ٢/٢٠٠.

(٣) الشهرستاني: **الملل والنحل**، ١/١٥٦ ـ ١٥٧.

في تلك البلاد ظاهرين. وكان يخرج واحد بعد واحد من الأئمة، ويلي أمرهم، وخالفوا بني أعمامهم من الموسوية (أي أتباع الإمام موسى الكاظم) في مسائل الأصول. .».

وكان الأطروش، الملقب بالناصر للحق، رجل سياسة وعلم وفقه، حتى قيل: إنه عالم آل محمد، ومن أفقههم بالسنّة، وعلم آل البيت وأقوال وآراء السلف الصالح، وفقهه يعتمد على الآراء والنصوص. ويختلف في آرائه الفقهية عن اليمنيين، حتى أن أتباع فقهه من الزيدية عرفوا «بالناصرية» نسبة إليه[١].

أمّا مؤلفاته فكثيرة، قيل: إنها تزيد على ثلاثمائة كتاب[٢]، وقد ذكر له النديم ثلاثة عشر كتاباً، وقال: «هذا ما رأيناه من كتبه، وزعم بعض الزيدية أن له نحواً من مائة كتاب، ولم نرها؛ فإن رأى ناظر في كتابنا شيئاً منها ألحقها بموضعها»[٣].

ومن هذه الكتب نذكر

- البساط: وهو بيان موجز لمذهب الزيدية[٤]، يضم عرضاً لمذهبهم[٥].
- كتاب الإبانة: وقد وصل هذا الكتاب بشرح أبي جعفر محمد بن يعقوب الهوسمي (توفي أوائل القرن الخامس).
- كتاب الأذان والإقامة، كتاب أصول الزكاة، كتاب الإيمان والنذور، كتاب الحدود، كتاب الصلاة، كتاب الصيام، كتاب الطهارة، كتاب الغضب، كتاب القسامة، كتاب الشفقة، كتاب بيع أمهات الأولاد، وكتاب الرهن[٦].

---

(١) سزكين: فؤاد: **تاريخ التراث العربي**، المجلد الأول، الجزء الثاني، ص٣٠٦.
(٢) الزركلي: الأعلام، م.س، ٢/ ٢٠١ (الهامش، نقلاً عن **كتاب الدر الفاخر**، ص٢٤٦).
(٣) النديم: **الفهرست**، ص٤٠٧.
(٤) بروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، ٣/ ٣٣١.
(٥) فؤاد سزكين: م.س، مجلد ١، جزء ٢، ص٣٠٦.
(٦) وهذا ما ذكره النديم: م.س، ص٤٠٦.

هـ ـ المؤيد بالله[1]

الإمام أحمد بن الحسين بن هارون، من أبناء الإمام زيد بن الحسن العلوي، أبو الحسين الهاروني.

ولد المؤيد بالله سنة ٣٣٣ هـ/ ٩٤٤م في آمل بطبرستان، تولى إمامة الزيدية بجيلان وبلاد الديلم، حيث بويع، ولقب بالسيد الإمام المؤيد بالله، وكانت مدة حكمه عشرين سنة، وتوفي سنة ٤١١ هـ/١٠٢٠م، وقيل ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م.

كان المؤيد بالله غزير العلم، وله مصنفات في الفقه وعلم الكلام، منها:

ـ كتاب الإفادة: وهو في الفقه، وقد جمعه وأضاف إليه زيادات، معاصر المؤيد، أبو القاسم حسين بن علي بن تال الهوسمي. وشرح الزيادات أبو مضر شريح ابن المؤيد. ومنه «مختصر الجواهر والدرر»، لمحمد بن أحمد بن علي بن الوليد (توفي ٦٠٠ هـ/ ١٢٠٣ م تقريباً).

ـ إثبات نبوّة النبي.

ـ التجريد، في فقه الهادي إلى الحق، مع شرح في أربعة أجزاء. وقد تناول فيه أيضاً الاختلاف بين القاسم[2] والهادي[3].

---

(١) راجع أخباره وترجمته في المصادر التالية:
ـ الأمين محسن: **أعيان الشيعة**، ٨/ ٣٠٥.
ـ فؤاد سزكين: **تاريخ التراث العربي**، مجلد (١)، ج٢، ص٣١٢.
ـ بروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، ٣/ ٣٣٣ ـ ٣٣٤.
ـ الزركلي: **الأعلام**، ١/ ١١٦.

(٢) القاسم: هو القاسم بن إبراهيم الرسّي (ت ٢٤٦ هـ/ ٨٦٠م)، رأس الزيدية القاسمية.

(٣) الهادي: إلى الحق، يحيى بن الحسين بن القاسم. رأس الزيدية في اليمن (ت ٢٩٨ هـ/ ٩١١ م).

ـ كتاب الدَّعوة.

ـ كتاب سياسة المريدين.

ـ كتاب الأمالي (مطبوع).

ـ كتاب في نُصرة مذاهب الزيدية.

* * *

ز ـ المدرسة الإسماعيلية

الإسماعيلية فرقة من فرق الشيعة، تنتسب إلى إسماعيل، أكبر أبناء الإمام جعفر الصادق، الإمام السادس(ت ١٤٨هـ/ ٧٦٥م)، وكان قد أوصى بالإمامة إلى ابنه موسى الكاظم، ولم يوصِ بها لابنه إسماعيل الذي توفي سنة ١٤٣هـ/ ٧٦٠م؛ وقد رفض قسم من الشيعة الاعتراف بإمامة موسى الكاظم، وجعلوها في إسماعيل، وبغض النظر عن تتابع الأئمة في رأي الإسماعيلية؛ فليس هناك شيء مؤكد حول تاريخهم في المائة والخمسين سنة الأولى بعد قيام مذهبهم؛ فأقدم الكتب التي وصلت إلينا إنَّما أُلفت في أوائل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. أمَّا عمدة كتب الإسماعيلية في الفقه فهو كتاب «دعائم الإسلام» للقاضي النعمان المتوفى سنة ٣٦٣هـ/ ٩٧٤م[١].

وقد انتقلت الإمامة عندهم من إسماعيل إلى ابنه محمد، الإمام السابع، وبه تَمّ دور السبعة؛ ثم ابتدئ منه بالأئمة المستورين الذين كانوا يسيرون في البلاد سراً، ويُظهرون الدعاة جهراً.

ثُمَّ بعد الأئمة المستورين كان ظهور المهدي بالله، والقائم بأمر الله، ثُمَّ أولادهم نصاً بعد نص، على إمام بعد إمام.

(١) سزكين، فؤاد: تاريخ التراث العربي، المجلد الأول، الجزء الثاني، ص٣١٥.

وأشهر ألقابهم الباطنية، وإنَّما لزمهم هذا اللقب لحكمهم بأن لكل ظاهر باطناً، ولكل تنزيل تأويلاً[١]، ويطلق عليهم أيضاً القرامطة والملحدة.

وقد مُنع العوام عن الخوض في العلوم، وكذلك الخواص عن مطالعة الكتب المتقدمة، إلا من عرف كيفية الحال في كل كتاب، ودرجة الرجال في كل علم[٢].

ومن علمائهم ومصنفي كتبهم نذكر

(١) **أبو حاتم الرازي**: هو أحمد بن حمدان بن أحمد الورساني الرازي[٣]، أصله من الري، ولا يُعرف عن حياته إلى القليل، ويبدو أنه عاش في بغداد قبل سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م، وكان له دور سياسي كبير في طبرستان والديلم وأصفهان والري. وقد توفي سنة ٣٢٠هـ/ ٩٣٣م[٤].

كان الرازي من زعماء الإسماعيلية وكُتَّابهم، قال ابن حجر العسقلاني[٥]: ذكره ابن بابويه في «تاريخ الري» وقال: «كان من أهل الفضل والأدب والمعرفة باللغة، وسمع الحديث كثيراً، وله تصانيف، ثم أظهر القول بالإلحاد، وصار من دعاة الإسماعيلية، وأضلَّ جماعة من الأكابر».

ومن مؤلفاته: كتاب الزينة: في خمس مجلدات، يبدأ بذكر الحروف، ثُمَّ يبحث في أسماء الله، ويتناول ذكر الفِرَق[٦]. كتاب الجامع: في الفقه. كتاب الإصلاح: وهو كتاب في تأويل القرآن من وجهة نظر الإسماعيلية.

---

(١) الشهرستاني: **الملل والنِّحل**، ١/ ١٩٢.

(٢) الشهرستاني: م.ن، ١/ ١٩٧.

(٣) هكذا ورد اسمه عند سزكين **تاريخ التراث العربي**، مج١، ج٢، ص٣١٦؛ وعند بروكلمان (**تاريخ الأدب العربي**)، ٣/ ٣٥٢، هو أبو حاتم عبد الرحمن بن همدان.

(٤) فؤاد سزكين، م.ن، ص٣١٦.

(٥) ابن حجر العسقلاني: **لسان الميزان**، ١/ ١٦٤.

(٦) ذكره النديم في **الفهرست** (ص٤٠١) وقال: كتاب كبير، نحو أربعمائة ورقة؛ وقال محقق الكتاب: مطبوع، القاهرة، ١٩٥٦ ـ ١٩٥٨، جزءان.

(٢) **الكرماني**: حميد الدين أحمد بن عبد الله. كان رأس الدعاة الإسماعيلية في بلاد المشرق؛ دعاه الحاكم بأمر الله الفاطمي سنة ٤٠٧هـ/ ١٠١٦م إلى مصر، ليجدد تدريس مذهب الإسماعيلية، وتوفي بعد ذلك بقليل سنة ٤٠٨هـ/ ١٠١٧م[١].

وكان الكرماني أكبر كتّاب الإسماعيلية ذكاء ومعرفة، وقد حاول في مؤلفاته أن يعمق العقيدة الإسماعيلية، وأن يقيمها على أساس فلسفي، وقد خصص عدداً من كتبه لبيان نظرية الإمامة عند الإسماعيلية، وأقامها على أسس كثيرة، منها نصوص من العهد الجديد (الإنجيل) والعهد القديم (التوراة)، كما توجد في بعض كتابه مقتبسات عبرية وسريانية[٢].

ومن مؤلفاته نذكر

- المصابيح في إثبات الإمامة.
- كتاب راحة العقل، يتناول فيه الأسس الفلسفية للإسماعيلية.
- مباسم البشارات، يتناول فيه قضية الإمامة عموماً، وإمامة الحاكم بأمر الله خصوصاً.

شهدت العلوم الدينية في القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد، في بلاد المشرق الإسلاميّ ازدهاراً كبيراً، فاشتغل كثير من العلماء بعلوم القرآن الكريم، قراءاته وأحكامه وتفسيره، ويروى أن أبا بكر أحمد بن العباس، المقرئ البغدادي (ت ٣٥٥ هـ/ ٩٦٥ م) عندما جاء إلى بخارى، حضر الأمير نوح بن نصر الساماني أحد مجالسه، وختم عليه القرآن[٣].

---

(١) بروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، ٣/ ٣٥٥، يذكر فؤاد سزكين: **تاريخ التراث العربي**، أنه قد توفي سنة ٤١١هـ/ ١٠٢١م.

(٢) فؤاد سزكين: م.ن، المجلد الأول، الجزء الثاني، ص٣٢٩.

(٣) الذهبي: **تاريخ الإسلام**، حوادث سنة ٣٥١ هـ.

وقد وضع كثير من العلماء مصنّفات في القراءات القرآنية، كأبي بكر عبد الله بن سليمان السجستاني (ت ٣١٦ هـ/٩٢٨م) صاحب كتاب القراءات[١]، وأبي الحسن علي ابن موسى القمّي (ت ٣٥٠ هـ/ ٩٦١ م) صاحب كتاب أحكام القرآن[٢]، وأبي منصور محمد بن أحمد الهروي (ت ٣٧٠هـ/ ٩٨٠ م) صاحب علل القراءات[٣]، وأبي بكر أحمد بن الحسين بن مهران النيسابوري (ت٣٨١ هـ/ ٩٩١م) صاحب كتاب الغاية في القراءات[٤].

وعُني العلماء بتفسير القرآن، وألّف فيه علماء من أهل السنّة والشيعة والمعتزلة والصوفية، كما ألّف فيه علماء اللغة والبلاغة، وكان هناك تفسير بالمأثور وتفسير بالرأي. وَوُصِفَ بعض المفسرين بغزارة العلم في التفسير، كأبي بكر محمد بن علي القفّال الشاشي، (ت ٣٦٥هـ/ ٩٧٥ م)، الذي قيل عنه: «أحد أئمة الدنيا في التفسير»[٥]. ومن المفسرين أيضاً عمر بن أحمد بن عثمان المروزي[٦] (ت٣٨٥ هـ/ ٩٥٥م) وعلي بن عبد العزيز الجرجاني[٧] (ت ٣٩٢هـ/ ١٠٠م)، ومحمد بن عبد الله بن عمرو الهروي[٨] (ت ٣٨١ هـ/ ٩٩١م)، ونصر بن محمد السمرقندي[٩] (ت ٣٩٣ هـ/ ١٠٠٢م) صاحب تفسير القرآن العظيم.

---

(١) الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد**، ٩/ ٤٧١.
(٢) الداوودي: **طبقات المفسرين**، ١/ ٤٣٩.
(٣) الذهبي: **سير أعلام النبلاء**، ١٢/ ٣٩٥.
(٤) ياقوت الحموي: **معجم الأدباء**، ١/ ٥٩٨؛ وابن العماد: **شذرات الذهب**، ٤/ ٤٢٤.
(٥) السهمي: **تاريخ جرجان**، ص١٨٨؛ وياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ٥/ ٧٩. والذهبي: م.س، ١٣/ ٣٨٤؛ والسيوطي: **طبقات المفسرين**، ص٢٠.
(٦) السمعاني: **الأنساب**، ٣/ ٣٩٠.
(٧) ابن الملقن: **العقد المذهب في طبقات حملة المذهب**، ص٣٧.
(٨) السيوطي: م.س، (طبعة دار الكتب العلمية)، ص٩٦.
(٩) الداوودي: م.س، ٢/ ٣٦٤.

ومن علماء الشيعة الذين صنّفوا في التفسير، أبو حفص قتيبة بن أحمد بن شريح البخاري[1] (ت ٣١٦هـ/ ٩٢٨م).

ومن مفسري المعتزلة، أبو بكر محمد بن علي الشاشي[2] (ت ٣٦٥ هـ/ ٩٧٥م). ومن مفسري الصوفية أبو عبد الرحمن محمد بن الحسن السّلمي النيسابوري[3] (ت ٤١٢هـ/ ١٠٢١م)، الذي كان شيخ الصوفية وصاحب تاريخهم وطبقاتهم وتفسيرهم.

أمّا في الفقه وأصوله؛ فقد اشتغل بهما معظم علماء خراسان وما وراء النهر، ونبغ بعضهم كأبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة النيسابوري[4]، (ت ٣١١هـ/ ٩٢٣م) قيل عنه: كان يستخرج الأحكام من حديث رسول الله بالمنقاش، كناية عن تبصّره وتعمقه في هذا العلم.

وبالرغم من وجود معظم المذاهب الفقهية في المشرق، إلاّ أنّ الغالب عليه المذهبان الحنفي والشافعي؛ فكان لكل فريق آراؤه الفقهية التي يجتهد في بيان أسسها، وتوضيحها وشرح غوامضها، والإتيان بالحجج لإثباتها؛ فقد صنّف محمد بن أحمد البلخي (ت٣٤٤هـ/ ٩٥٥م) الكافي في الفقه الحنفي، وقد شرحه فيما بعد أبو بكر السرخسي في كتابه المعروف بـ «المبسوط»[5]، ونصر بن محمد السمرقندي، صاحب كتاب «خزانة الفقه»[6].

كذلك أفاض علماء الشافعية في ذكر محاسن مذهبهم وشرح مبادئه؛

(١) الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ٢٤/ ١٩٨.
(٢) الذهبي: **ميزان الاعتدال**، ١٢/ ٣٧٣؛ والشيرازي: **طبقات الفقهاء**، ص ١١١.
(٣) الذهبي: م.ن، ٣/ ٥٢٣.
(٤) القرشي: **الجواهر المضيئة**، ١/ ١٨٣.
(٥) حاجي خليفة: **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، ج ٢/ ١٣٧٨.
(٦) القرشي: م.س، ٣/ ٥٤٥.

فوضع إبراهيم بن محمد الإسفراييني «الجامع في أصول الدين»[١]، وألّف محمد بن سعيد الخوارزمي (ت٣٤٠هـ/ ٩٥١م) كتابه الحاوي في الفقه[٢]. وكان كتاب «المبسوط» للسرخسي موضع اهتمام علماء خراسان وما وراء النهر، وكانوا يرحلون إليه لسماعه[٣].

ومن مظاهر اهتمام الأمراء السامانيين بالفقه تعيينهم فقيهاً بدار السلطان، يُطلق عليه لقب «الأستاذ» مهمته الإجابة عن الأسئلة الدينية التي كانت تُطرح عليه من قبل السلطان؛ وممن شغل هذا المنصب أبو محمد عبد الله بن محمد السيذموني البخاري (ت ٣٤٠ هـ/ ٩٥١م)[٤].

أمَّا علم الحديث، فقد نشط في بلاد المشرق، وذلك بظهور كبار العلماء الذين أسهموا في وضع أسس هذا العلم، كالإمام البخاري (ت ٢٥٦هـ/ ٨٦٩م) والإمام مسلم ابن الحجاج النيسابوري، (ت ٢٦١هـ/ ٨٧٤م)، وأصحاب السُّنَن.

وقد حمل كثير من علماء خراسان وما وراء النهر ألقاباً عديدة تظهر تفوقهم وتقدمهم في حفظ الحديث وروايته، وكثيراً ما نقرأ هذه الألقاب في كتب رجال الحديث، كالحافظ، والمُسنِد، ومُحَدِّث عصره، أو يذكر اللقب مع بلد العالِم فيقال: مُسنِد خراسان، أو مُسنِد بخارى، أو مُسنِد ما وراء النهر، أو مسند نيسابور. وكَثُر التصنيف في الحديث وعلومه وشروط قبوله وتبويبه حسب الموضوعات أو الرواة أو غير ذلك.

واهتمّ علماء الشيعة بجمع الأحاديث الواردة عن أئمة أهل البيت، كالكشي (ت ٣٤٠هـ/ ٩٥١م)، وابن عبدويه (ت ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م) الذي جمع

(١) السبكي: طبقات الشافعية، ٤/ ٢٥٧.
(٢) السبكي: م.ن، ٣/ ١٦٤.
(٣) ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية، ١/ ١١٩.
(٤) السمعاني: الأنساب، ١/ ١٢٩ و ٣/ ٢١٣.

أحاديث الإمام موسى الكاظم في مسند، والكليني (ت ٣٢٨هـ/ ٩٣٩م) صاحب الكافي في علوم الدين، الذي يحتوي على أكثر من ١٥,٠٠٠ حديث، معظمها عن أئمة آل البيت عليهم السلام؛ والخزار الرازي القمّي من علماء القرن الرابع، صاحب كتاب «كفاية الأثر في النصوص على الأئمة الاثني عشر»؛ وابن بابويه القمي الصدوق (ت ٣٨١هـ/ ٩٩١م) صاحب كتاب «معاني الأخبار»، و«عيون أخبار الرضا».

وأخيراً نذكر اهتمام بعض العلماء بالوعظ والتذكير، والترغيب والترهيب، وأصبح مصطلح «مُذَكِّر» يدلّ على مهمةٍ يقوم بها أحد العلماء، أمثال أبي العباس أحمد ابن محمد الدينوري، المتوفى بسمرقند (بعد ٣٤٠هـ/ ٩٥١م).

كل هذا يدلّ على أن العلوم الدينية في بلاد المشرق كانت مزدهرة ونشطة، بفضل جهود علمائها على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم، وقد تركوا لنا تراثاً في مختلف العلوم الدينية ما يزال حتى الآن مفخرة تلك البلاد.

ازدهرت العلوم الدينية في القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد في بلاد المشرق الإسلامي نظراً لكون المجتمع مجتمعاً إسلامياً من حيث العقيدة والانتماء؛ مما حدا بالعلماء والفقهاء على المشاركة الحثيثة في ازدهار هذه العلوم، خاصة علوم القرآن الكريم، ومنها علم القراءات وعلم التفسير، حيث كَثُر القرّاء الذين أخذوا القراءة عن كبار الصحابة والتابعين، وأنشأوا مدارس لتعليم القراءات القرآنية؛ وكذلك حصل بالنسبة لعلم التفسير، فظهر العلماء المفسرون، وألّفوا التفاسير الكثيرة انطلاقاً من ثقافاتهم ومنطلقاتهم الفكرية، ومذاهبهم الفقهية.

كذلك ازدهرت علوم الحديث النبوي، خاصة علم رواية الحديث، ونبغ علماء محدّثون كبار، وألّفوا المصنفات الكبيرة في الحديث النبوي،

وطارت شهرتها في البلاد الإسلامية عموماً وليس فقط في بلاد المشرق الإسلامي.

ومن الملاحظ أن المدارس الفقهيّة شهدت نشاطاً وازدهاراً ملحوظين، علماً أن بعض هذه المدارس كان أوسع انتشاراً من البعض الآخر، وبالتالي عدد المنتمين إلى هذه المدارس من فقهاء وعلماء وأتباع كان أكبر.

والجدير بالذكر، أن جميع المذاهب الفقهية السنّيّة والشيعية، وجدت في بلاد المشرق الإسلامي أرضاً خصبة لانتشارها، وقد توسعت هذه الأرض وامتدت رقعتها حسب نشاط العلماء والفقهاء والدعاة القائمين عليها.

* * *

الفصل الثاني

العلوم الفلسفية

كانت الحركة الثقافية في العالم الإسلاميّ قد أخذت في النمو والتطور خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة، ولمّا جاء القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، كانت قد بلغت أوج ازدهارها وتكونها، حتى صح القول بأن هذا القرن هو العصر الذهبي، أو عصر النهضة الثقافية بمختلف وجوهها وأنواعها.

ولعل من الأهمّية بمكان كثرة وجود مجالس العلم والفكر والأدب في بلاطات الأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة في ذلك العصر، وكان التزاحم على استقدام العلماء إلى هذه البلاطات على أشُدّه بين أمراء الدول المستقلة في المشرق الإسلاميّ، وكانت رعاية هؤلاء العلماء سمة بارزة من سمات العصر.

كذلك فإن ازدهار العلوم الدينية والعقيدية خصوصاً، واتصال المسلمين بثقافات الشعوب عبر ترجمة التراث الفكري والعلميّ والفلسفي، ساهما مساهمة فعالة في تطوّر الفكر الديني في الإسلام، وأصبحت الحاجة مُلِحّة لإيجاد المبررات الدينية والفلسفية لدعم آراء العلماء والمفكرين وأصحاب المذاهب الدينية على اختلاف أنواعها، مما جعل علماء كل مذهب أو فرقة يبحثون عن الأسس المنطقية والفلسفية التي تدعّم آراءهم وتؤيد توجهاتهم أمام خصومهم، وقد ساهم الأمراء والوزراء في هذا العصر في نهضة الفكر والفلسفة والعلوم الأخرى، حيث كانت عواصم الدول

المستقلة مراكز ثقافية تعجُّ بالعلماء، وكثيراً ما كان العلماء ينتقلون من دولة إلى دولة، ومن بلدٍ إلى آخر، يحاضرون ويؤلفون، ويهدون مؤلفاتهم لهؤلاء الوزراء والأمراء.

ويكفي أن نذكر مجالس ابن العميد، والمهلبي، والصاحب بن عباد؛ فقد كان هؤلاء من أهل الثقافة والفكر والمعرفة.

لقد كان مسكويه، الفيلسوف والمؤرخ يعمل خازناً لمكتبة ابن العميد، التي كانت عامرة. وكان الصاحب بن عباد، وزير مؤيد الدولة البويهي، ثُمَّ فخر الدولة، يضم مجلسه في الري كبار رجال العلم والأدب، كالسلامي والخوارزمي والهمذاني والضبي وغيرهم، وكان الصاحب يمتلك مكتبة عامرة، يقع فهرسها في عشرة مجلدات[١].

كل ذلك أدى لنهضة فكرية ثقافية ظهرت آثارها في الفلسفة وما ارتبط بها من علوم، كعلم الكلام، وعلم التصوف.

وقبل البدء بالحديث عن تطوّر الدراسات الفلسفية حتى القرن الرابع الهجري، علينا الإشارة إلى ما ذكره النديم في الفهرست[٢]، وهو من رجال القرن الرابع للهجرة (ت ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م) عندما تكلم على الفلاسفة، معنوناً الفن الأول من المقالة السابعة بـ«في أخبار الفلاسفة الطبيعيين والمنطقيين»، والفن الثاني[٣]: «في أخبار أصحاب التعاليم المهندسين والأرثماطيقيين، والموسيقيين والحساب والمُنَجمين، وصنائع الآلات، وأصحاب الحيَل والحركات».

أمَّا الفن الثالث[٤] من هذه المقالة فهو في أخبار المتطبّبين القدماء والمحدثين وأسماء ما صنفوه من كتب».

(١) ياقوت الحموي: **معجم الأدباء**، ٢/ ٢٧٣ ـ ٣٤٣.
(٢) النديم: **الفهرست**، ص٤٩٩، وما بعدها.
(٣) النديم: م.ن، ص٥٣٧.
(٤) النديم: م.س، ص٥٧٢.

لقد أردنا من هذه الإشارة بيان أن الفلسفة في عصر النديم ـ أي في القرن الرابع للهجرة ـ وهو العصر الذي نحن بصدد دراسة حضارته، كانت تتناول عدداً من الجوانب الأخرى، المرتبطة بها بشكل مباشر أو غير مباشر. وهذا ما يفسر لنا سبب اهتمام الفلاسفة المسلمين، خاصّة في هذا العصر بعلوم أخرى كالطبّ والرياضيات وعلم الفلك والنجوم والموسيقى والنفس، والفيزياء والحساب والهندسة، وبناء عليه فليس غريباً ما نراه من مؤلفات الفلاسفة المسلمين التي تتناول معظم هذه العلوم، كابن سينا والفارابي والرازي وغيرهم من فلاسفة الإسلام.

ولن أتناول هنا بالدراسة كل هذه العلوم، بل سأترك العلوم التطبيقية لبابٍ آخر وسأكتفي هنا بعلمي المنطق والكلام لارتباطهما المباشر بالفلسفة حسب المفهوم الحديث، وأضيف إليهما علم التصوف أيضاً.

أولاً: علم الكلام والعقيدة الإسلامية

١ ـ تطور علم الكلام حتى القرن الرابع للهجرة

قال بعض المتكلمين[1]: الأصول: معرفة الباري تعالى بوحدانيّته وصفاته، ومعرفة الرُّسل بآياتهم وبيّناتهم. وبالجملة: كل مسألة يتعيّن الحق فيها بين المتخاصمين فهي من الأصول.

ومن المعلوم أن الدين إذا كان منقسماً إلى معرفة وطاعة، والمعرفة أصل، والطاعة فرع، فمن تكلم في المعرفة والتوحيد كان أصولياً، ومن تكلم في الطاعة والشريعة كان فروعياً.

فالأصول هو موضوع علم الكلام؛ والفروع هو موضوع علم الفقه.

لقد كان صحابة رسول الله يقتدون به في أعمالهم وسلوكهم

---

(١) الشهرستاني: الملل والنّحل، ١/ ٤١.

وعقيدتهم، وكان القرآن ينزل على رسول الله بلغة القوم؛ فيفهمون ما أراد الله منهم، وما احتاج إلى بيّنةٍ أو إيضاح بيّنَهُ لهم رسول الله قولاً أو عملاً أو إقراراً.

وبقي الأمر على ذلك في الأيام الأولى للخلافة الراشدة، ثُمَّ بدأت الفتن عقب مقتل عمر بن الخطاب، ثُمَّ عثمان بن عفان، إلى أن شهدت الساحة الإسلاميّة صراعات دامية أيام الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، مما جرَّ على الأمَّة أحداثاً جساماً وظهور فتن أقضت مضاجع المسلمين؛ فنشأت معها الفرق، وأسماؤها تدل على نوازعها السياسية اعتماداً على أفكارٍ دينية. ثم كثر الجدل والنقاش في الأندية والمساجد، حول أمور لم تكن مطروحة للنقاش سابقاً.

يقول الشهرستاني[1]: «وانقسمت الاختلافات بعده (أي بعد الخليفة علي بن أبي طالب) إلى قسمين: أحدهما الاختلاف في الإمامة، والثاني الاختلاف في الأصول.

والاختلاف في الإمامة على وجهين:

أحدهما: القول بأن الإمامة تثبت بالاتفاق والاختيار.

الثاني: القول بأن الإمامة تثبت بالنص والتعيين».

ويضيف الشهرستاني قائلاً[2]: «وأمَّا الاختلافات في الأصول؛ فحدثت في آخر أيام الصحابة بدعة معبد الجهني[3]، وغيلان الدمشقي[4] ويونس

(١) الشهرستاني: **الملل والنحل**، ص٢٧.

(٢) الشهرستاني: م.ن، ١/ ٣٠.

(٣) معبد الجهني: معبد بن خالد الجهني (نسبة إلى بني جُهينة) البصري، أبو زرعة، من الصحابة، أول من تكلم في القدر. قتل سنة ٨٠هـ/٦٩٩م،راجع ترجمته وأخباره في: **الإصابة**،لابن حجر (الترجمة ٨٠٩٤)؛ **والفرق بين الفِرق**، لعبد القاهر، البغدادي، ص١٧، وص ٧٠.

(٤) غيلان الدمشقي: غيلان بن يونس، ويقال: غيلان بن مسلم، أخذ القول في القدر عن =

الإسواري[1] في القول بالقدر، وإنكار إضافة الخير والشر إلى القدر؛ ونسج على منوالهم واصل بن عطاء الغزّال[2]، وكان تلميذ الحسن البصري[3].

والقدرية ابتدعوا بدعتهم في زمان الحسن، واعتزل واصل عنهم وعن أستاذه بالقول بالمنزلة بين المنزلتين؛ فسمي هو وأصحابه معتزلة، وقد تلمذ له زيد بن علي، وأخذ الأصول؛ فلذلك صارت الزيدية كلهم معتزلة.

ثُمَّ طالع بعد ذلك شيوخ المعتزلة كتب الفلاسفة حيث نُشرت أيام المأمون، فخلطت مناهجها بمناهج الكلام، وأفردتها فناً من فنون العلم، وسمتها باسم الكلام، إمّا لأن أظهر مسألة تكلموا فيها وتقاتلوا عليها هي مسألة الكلام؛ فسمي النوع باسمها، وإمَّا لمقابلتهم الفلاسفة في تسميتهم فناً من فنون علمهم بالمنطق؛ والمنطق والكلام مترادفان.

وكان أبو الهذيل العلاف[4]، شيخهم الأكبر، وافق الفلاسفة في أن الباري تعالى عالم بعلْم، وعلمه ذاته، وكذلك قادر بقدرة، وقدرته ذاته؛ وأبدع بدعاً في الكلام، والإرادة، وأفعال العباد، والقول بالقدر، والآجال، والأرزاق.

= معبد الجهني، وجاء به عمر بن عبد العزيز واستتابه، ثم قتله هشام بن عبد الملك (ت بعد ١٠٥هـ/ بعد ٧٢٣م) وإليه تنسب فرقة الغيلانية من القدرية.

راجع ترجمته وأخباره في: **الملل والنحل**، للشهرستاني، ١/ ٤٩، **عيون الأخبار**، لابن قتيبة، ٢/ ٣٤٥، لسان الميزان، لابن حجر، ٤/ ٤٢٤، **والأعلام**، للزركلي: ٥/ ١٢٤.

(١) يونس الإسواري: رجلٌ من الأساورة بِسَسْوَيْه، وهو أول من تكلّم في القدر والاعتزال. (راجع كتاب **الفهرست**، النديم، ص٣٣١).

(٢) واصل بن عطاء: سنتحدث عنه لاحقاً عند الكلام على المعتزلة.

(٣) الحسن البصري: الحسن بن يسار البصري، أبو سعيد، تابعي، كان إمام أهل البصرة وحَبْر الأمّة في زمنه، وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النساك. توفي سنة ١١٠هـ/ ٧٢٨م.

راجع ترجمته وأخباره في: **وفيات الأعيان**، لابن خلكان، ٢/ ٦٩؛ **الطبقات الكبرى**، لابن سعد، ٧/ ١٥٦،؛ وتهذيب **التهذيب**، لابن حجر، ٢/ ٢٦٣؛ **وميزان الاعتدال**، للذهبي، ١٢/ ٥٢٧؛ **وحلية الأولياء**، لأبي نعيم، ٢/ ١٣١.

(٤) محمد بن الهذيل بن عبد الله بن مكحول العلاف، أبو الهذيل (ت ٢٣٥هـ/ ٨٤٩م). راجع ترجمته في: **تاريخ بغداد**، للخطيب البغدادي؛ **وروضات الجنات** للخوانساري، ص١٥٨؛ **ومروج الذهب**، للمسعودي، ٢/ ٢٧٠.

ثُمَّ إبراهيم بن سيّار النظّام[1]، غلا في تقرير مذهب الفلاسفة وانفرد عن السلف يبدع في القدر والرفض، وعن أصحابه بمسائل.

ثُمَّ أظهر بشر بن المعتمر[2]، القائل بالتولد والإفراط فيه، والميل إلى الطبيعيين من الفلاسفة...

والمتأخرون منهم أبو علي الجُبَّائي[3]، وابنه أبو هاشم[4] والقاضي عبد الجبّار[5]، وأبو الحسين البصري[6]؛ فقد لخصوا طرق أصحابهم، وانفردوا عنهم بمسائل.

أما رونق الكلام، فابتدؤوه من الخلفاء العباسيين: هارون والمأمون، والمعتصم، والواثق، والمتوكل، وانتهاؤه من الصاحب بن عبّاد[7]، وجماعة من الديالمة»[8].

(١) إبراهيم بن سيار البصري المعتزلي، **النظّام**، (ت ٢٢١هـ/ ٨٣٥م)؛ راجع ترجمته في **تاريخ بغداد**، للخطيب البغدادي؛ (الترجمة رقم ٣١٣١)؛ **والفصل في الملل والأهواء والنحل**، لابن حزم، ٤/ ١٩٣؛ وروضات الجنان للخوانساري، ص٤٢ ـ ٤٣.

(٢) بشر بن المعتمر الهلالي، أبو سهل (ت٢١٠هـ/ ٨٢٥م) راجع ترجمته في: **أمالي المرتضى**، ١/ ١٣١؛ **ودائرة المعارف الإسلامية**، ٣/ ٦٦٠؛ والزركلي، **الأعلام**، ٢/ ٥٥.

(٣) الجبّائي: محمد بن عبد الوهاب بن سلام، أبو علي، رئيس المعتزلة البصرية في عصره (ت ٣٠٣هـ/ ٩١٥م). راجع ترجمته في **دائرة المعارف الإسلامية**؛ م.س.؛ للخوانساري، ص١٦١؛ **طبقات الشافعية الكبرى**، للسبكي، ٢/ ٢٥٠.

(٤) أبو هاشم، عبد السلام، توفي سنة ٣٢١هـ/٩٣٣م.

(٥) القاضي عبد الجبار: سنتحدث عنه لاحقاً عند الكلام على المعتزلة.

(٦) أبو الحسين البصري: محمد بن علي الطيب، أحد أئمة المعتزلة، ولد في البصرة، وسكن بغداد، وتوفي بها سنة ٤٣٦هـ/ ١٠٤٤م. راجع ترجمته وأخباره في: **وفيات الأعيان**، لابن خلكان، ١/ ٤٨٢؛ الخطيب البغدادي، م.س، ٣/ ١٠٠؛ **لسان الميزان**، لابن حجر، ٥/ ٢٩٨؛ وم.س، للزركلي، ٦/ ٢٧٥.

(٧) الصاحب بن عباد: إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم الطالقاني وزير غلب عليه الأدب؛ فكان من نوادر الدهر علماً وفضلاً وتدبيراً وجودة رأي. استوزره مؤيد الدولة ابن بويه الديلمي، ثُمَّ أخوه فخر الدولة، ولقب بالصاحب لصحبته مؤيد الدولة من صباه، فكان يدعوه بذلك. توفي بالري سنة ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م، ونقل إلى أصبهان فدفن فيها.
راجع ترجمته وأخباره في: **معجم الأدباء**، لياقوت الحموي٢/ ٢٧٣ ـ ٣٤٣؛ م.س، لابن خلكان، ١/ ٢٢٨؛ **والمنتظم**، لابن الجوزي، ٧/ ١٧٩؛ **ويتيمة الدهر**، للثعالبي، ٣/ ٣١ ـ ١١٨.

(٨) الديالمة: نسبة إلى بلاد الديلم، وأراد علماء بلاد الديلم.

ويتابع الشهرستاني قائلاً[1]: «وكانت بين المعتزلة وبين السَّلف في كل زمان اختلافات في الصفات، وكان السلف يناظروتهم عليها، لا على قانون كلامي، بل على قول إقناعي، ويسمون الصفاتية. فمن مُثْبت صفات الباري تعالى معاني قائمة بذاته، ومن مشبه صفاته بصفات الخلق؛ وكلهم يتعلقون بظواهر الكتاب والسنة، ويناظرون المعتزلة في قدم العالم على قول ظاهر. وجرت مناظرة بين أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري[2]، وبين أستاذه أبي علي الجبائي[3]، في بعض مسائل التحسين والتقبيح؛ فألزم الأشعري أستاذه أموراً لم يخرج عنها بجواب؛ فأعرض عنه، وانحاز إلى طائفة السلف، ونصر مذهبهم على قاعدة كلامية؛ فصار ذلك مذهباً متفرداً، وقرر طريقته جماعة من المحققين مثل القاضي أبي بكر الباقلاني[4]،

---

(١) الشهرستاني، **الملل والنحل**، ١/ ٣٢ ـ ٣٣.

(٢) الأشعري: أبو الحسن، علي بن إسماعيل بن إسحاق، من نسل الصحابي أبي موسى الأشعري، مؤسس مذهب الأشاعرة. كان من الأئمة المتكلمين المجتهدين. ولد في البصرة سنة ٢٦٠هـ/ ٨٧٤م، وكان الأشعري تلميذاً للجبائي يدرس عليه ويتعلم منه، ويأخذ عنه، لا يفارقه أربعين سنة، وكان صاحب نظر في المجالس وذا إقدام على الخصوم. من أشهر كتبه: «مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين»، وكتاب «الإبانة عن أصول الديانة» توفي الأشعري سنة ٣٢٤هـ/ ٩٣٦م.

راجع ترجمته وأخباره في: **طبقات الشافعية**، للسبكي ٢/ ٣٤٥؛ **وفيات الأعيان**، لابن خلكان، ١/ ٣٢٦؛ **البداية والنهاية**، لابن كثير ١١/ ١٨٧؛ وم.س، للشهرستاني، ١/ ٩٤.

(٣) الجبائي: أبو علي، سبق التعريف به.

(٤) الباقلاني: أبو بكر، محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر، قاضي من كبار علماء الكلام، انتهت إليه الرياسة في مذهب الأشاعرة، ولد في البصرة وسكن بغداد وتوفي فيها. وجّهه عضد الدولة البويهي سفيراً عنه إلى ملك الروم، فجرت له في القسطنطينية مناظرات مع علماء النصرانية بين يدي ملكها. له العديد من المؤلفات منها: «إعجاز القرآن»، و«مناقب الأئمة»، و«كشف أسرار الباطنية» وغيرها. توفي سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٣م.

راجع ترجمته وأخباره في: م.س، لابن خلكان، ١/ ٤٨١؛ **تاريخ بغداد**، للخطيب البغدادي ٥/ ٣٧٩؛ **والوافي بالوفيات**، للصفدي، ٣/ ١٧٧؛ وفي **دائرة المعارف الإسلامية** (٣/ ٢٩٤) «مزج علم الكلام بآراء جديدة أخذها عن الفلسفة اليونانية».

والأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني[١] والأستاذ أبي بكر بن فورك[٢].

ونبغ رجل متنمس (أي متستر) بالزهد، من سجستان، يقال له: أبو عبد الله محمد بن كرّام، قليل العلم، قد قمش من كل مذهب ضِغْثاً وأثبته في كتابه، وروّجه في بلاد خراسان؛ فانتظم ناموسه، وصار ذلك مذهباً، وقد نصره محمود بن سبكتكين، السلطان، وصب البلاء على أصحاب الحديث والشيعة مس جهتهم وهو أقرب مذهب إلى مذهب الخوارج، وهم مجسمة».

٢ ـ الفِرَق الكلامية: آراؤها وأشهر رجالها

ترتبط بداية الدراسات العقيدية الإسلاميّة ارتباطاً وثيقاً بالأحداث السياسية في صدر الإسلام. ومن الحقائق المعروفة في التاريخ الإسلاميّ أن قضية الخلافة التي واجه الخوارج فيها فكرة الإمامة عند الشيعة، وفكرة الإرجاء عند المرجئة، قد تطوّرتا تطوّراً سريعاً إلى نقاش حول «القدر»، وذلك نتيجة للنقاش حول مرتكب الكبيرة أكافر هو أم مسلم.

ولعل من أقدم المؤلفات العقيدية ما كتب حول الردّ على القدرية، يقول البغدادي[٣]: «فأول متكلم من الصحابة علي بن أبي طالب، كرّم الله

---

(١) أبو إسحاق الإسفراييني: إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران، أبو إسحاق، عالم بالفقه والأصول، كان يلقب بركن الدين، له مناظرات مع المعتزلة، مات في نيسابور ودفن في إسفرايين، سنة ٤١٨هـ/ ١٠٢٧م.

راجع ترجمته وأخباره في: **وفيات الأعيان**، لابن خلكان، ١/ ٤؛ **شذرات الذهب**، لابن العماد، ٣/ ٢٠٩؛ **طبقات الشافعية**، للسبكي، ٣/ ١١١؛ **والأعلام**، للزركلي، ١/ ٦١.

(٢) ابن فورك: محمد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصبهاني، واعظ، عالم بالأصول والكلام، من فقهاء الشافعية، حدَّث بنيسابور، وبنى فيها مدرسة، وتوفي على مقربة منها فنقل إليها، قيل: إن محمود بن سبكتكين دسّ له السمّ فمات.

له كتب كثيرة في أصول الدين وأصول الفقه ومعاني القرآن، وغيرها. توفي سنة ٤٠٦هـ/ ١٠١٥م.

راجع ترجمته وأخباره في: م.ن، للسبكي، ٣/ ٥٢؛ **النجوم الزاهرة**، لابن تغري بردي، ٤/ ٢٤٠؛ م.ن، لابن خلكان، ١/ ٤٨١.

(٣) عبد القاهر البغدادي: **الفَرْق بين الفِرَق**، ص٢٢٠، ٢٢٢.

وجهه، حيث ناظر الخوارج في مسائل الوعد والوعيد، وناظر القدرية في المشيئة والاستطاعة والقدر؛ ثُمَّ عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، حيث تبرأ من معبد الجهني في نفيه القدر.

وأول متكلمي أهل السنة من التابعين عمر بن عبد العزيز، وله رسالة بليغة في الرد على القدرية، ثُمَّ زيد بن علي (زين العابدين)، وله كتاب في الرد على القدرية، ثُمَّ الحسن البصري، ورسالته إلى عمر بن عبد العزيز في ذم القدرية معروفة... ومن بعد هذه الطبقة جعفر بن محمد الصادق، وله كتاب «الرد على القدرية»، وكتاب «الرد على الخوارج»...

وأول المتكلمين من الفقهاء وأرباب المذاهب، أبو حنيفة، والشافعي... ثمَّ من بعدهما تلاميذهما الجامعون بين علم الفقه والكلام. ثُمَّ من بعدهم الإمام أبو الحسن الأشعري.

وكذلك جمهرة أهل النحو واللغة والأدب؛ فمن الكوفيين الكسائي والفرّاء وأبو عبيد القاسم بن سلام. ومن البصريين أبو الأسود الدؤلي وأبو عمرو بن العلاء، والخليل بن أحمد وسيبويه والأخفش... وغيرهم من أئمة الأدب، لم يكن بينهم أحد إلاّ وله إنكار على أهل البدعة شديد، وبُعْدٌ عن بِدَعهم بعيد...»

وترجع أقدم المؤلفات حول الإرجاء والردود عليه إلى هذه الفترة أيضاً، ويذكر أن الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب (ت ٩٩هـ/ ٧١٧م)، ألّف كتاباً في الإرجاء، وكذلك ألّف زيد بن علي (ت ١٢٢هـ/ ٧٤٠م) كتاباً في الردّ على المرجئة[1].

وسنحاول إلقاء الضوء على أهمّ الفرق الكلامية وأشهر رجالها.

---

(١) سزكين، فؤاد: تاريخ التراث العربي، ٢/ ٣٤٦.

أ ـ المعتزلة[1]

مؤسس هذه المدرسة الكلامية هو واصل بن عطاء[2]، أبو حذيفة الغزّال الألثغ، كان تلميذاً للحسن البصري، يُعرف أتباعه بالواصلية من المعتزلة.

قال البغدادي[3]: «ثُمَّ حدث في أيام الحسن البصري خلاف واصل بن عطاء الغزّال في القدر، وفي المنزلة بين المنزلتين، وانضم إليه عمرو بن عبيد في بدعته؛ فطردهما الحسن عن مجلسه؛ فاعتزلا إلى سارية من سواري مسجد البصرة؛ فقيل لهما ولأتباعهما معتزلة، لاعتزالهما قول الأمَّة في دعواها أن الفاسق من أمَّة الإسلام لا مؤمن ولا كافر»، ولكنه في منزلة بين المنزلتين.

وقد أنكر واصل القول بِقدم الصفات الإلهية؛ وكان يقول برأي القدرية في القدر. والنقطة الرابعة المميزة له قوله بإثم من شاركوا في مقتل عثمان بن عفان، وفي وقعة الجمل، ووقعة صفين. وهذا ما يشير إلى مواقف المعتزلة السياسية ـ الدينية. وقد توفي واصل بن عطاء سنة ١٨١هـ/ ٩٧٩م.

ومن كبار شيوخ المعتزلة، قاضي القضاة، أبو الحسن عبد الجبّار بن

---

(١) للتوسع في معرفة هذه الفرقة وآرائها وما تفرق عنها راجع:
ـ **الملل والنحل**، للشهر ستاني، ١/٤٣ ـ ٨٥؛ **والفَرْق بين الفِرَق**، لعبد القاهر البغدادي، ص٦٧ ـ ١٢١.

(٢) راجع ترجمته وأخباره في المصادر التالية:
ـ الجاحظ، **البيان والتبيين**، ١/ ٣٠ ـ ٤١.
ـ ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ٢/٢٥١.
ـ الكتبي، **فوات الوفيات**، ٢/ ٣١٧.
ـ الخوانساري، **روضات الجنات**، ص٢٣٠.
ـ الشهرستاني، م.س، ١/ ٤٦.
ـ فؤاد سزكين، **تاريخ التراث العربي**، ٢/ ٣٥٩.
ـ بروكلمان، **تاريخ الأدب العربي**، ٤/ ٢٢.

(٣) عبد القاهر البغدادي: م.س، ص١٧ ـ ١٨.

محمد بن عبد الجبار الهمذاني الأسد أبادي[1]. ولد سنة ٣٢٥هـ/ ٩٣٦م، وعاش ببغداد إلى أن عينه الصاحب بن عباد، وزير عماد الدولة البويهي، قاضياً بالري سنة ٣٦٧هـ/ ٩٧٨م؛ ثُمَّ لقب بقاضي القضاة، كان مؤمناً كثير التصانيف. وقد توفي بالري سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٥م. ومن تصانيفه: تثبيت دلائل النبوة، طبقات المعتزلة، شرح الأصول الخمسة، والمُغْني، وهو العمدة في علم الكلام، ويتألف من سبعة عشر جزءاً.

يقول بروكلمان[2]: «إن المعتزلة، الذين كثيراً ما وصفوا خطأً بأنهم أحرار مستقلون في تفكيرهم، هم في الحقيقة أول من أسس علم الكلام، وكانوا قد فرغوا من الصراع مع الرافضة، الشيعة المتطرفة، وقد دافع المعتزلة، على الضد منهم، عن دعوى العباسيين، وكذلك (فرغوا من الصراع) مع الجهمية، الذين نفوا كل صفة إنسانية عن الله تعالى، وتعصبوا بقوة للقضاء والقدر، وكذلك مع الثنوية المانوية وفلسفة الطبيعة التي كانوا يدعون لها. وفي الصراع ضد المانوية تسلحوا بالفلسفة النظرية واستخدموها ضد «أصحاب الحديث» المؤمنين بأن القرآن غير مخلوق، على عكس المعتزلة الذين قالوا بخلق القرآن.

وتحت رعاية الخليفة المأمون نجحوا في رفع القول بخلق القرآن إلى مرتبة عقيدة الخلافة، وذلك في سنة ٢١٢ هـ/ ٨٢٧ م، وأُجبر النَّاس على الاعتراف بها.

---

(١) راجع ترجمته وأخباره في المصادر التالية:
- الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ١١/ ١١٣ ـ ١١٥.
- الذهبي: ميزان الاعتدال، ٢/ ٩١.
- الذهبي: تاريخ دول الإسلام، ١/ ١٨٠.
- السبكي: طبقات الشافعية، ٣/ ٢١٩ ـ ٢٢٠.
- ابن العماد: شذرات الذهب، ٣/ ٢٠٣.
- الزركلي: الأعلام، ٦/ ٢٧٥.

(٢) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ٤/ ٣٧ ـ ٣٨.

ولكن الخليفة المتوكل (٢٣٣ ـ ٢٤٧ هـ/ ٨٤٧ ـ ٨٦١م) أزال سلطان المعتزلة المطلق تحت تأثير الشافعية، ولم يكد يمضي جيل حتى ظهر الرجل الذي وضع السلاح الفلسفي للمعتزلة في خدمة السنّة النبوية، وهو أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري.

وتجدر الإشارة أخيراً إلى أن المعتزلة متفقون على مبادئ خمسة، وذلك ما يسمّى بالأصول الخمسة، وهي:

(١) العدل.

(٢) التوحيد.

(٣) المنزلة بين المنزلتين.

(٤) الوعد والوعيد.

(٥) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومن عقائدهم[١]

- القول بأن الله تعالى قديم، والقدم أخص وصفٍ لذاته، ونفوا الصفات عن الله تعالى؛ فقالوا: هو عالم بذاته، قادر بذاته، حي بذاته، لا بعلم وقدرة الحياة.
- واتفقوا على أن كلام الله محدث مخلوق.
- واتفقوا على أن العبد قادر خالق لأفعاله خيرها وشرّها، مستحق على ما يفعله ثواباً وعقاباً في الدار الآخرة.
- واتفقوا على أن الله تعالى لا يفعل إلاّ الصلاح والخير، وسمّوا هذا النمط عدلاً.

---

(١) الشهرستاني: الملل والنحل، ١/ ٤٣ ـ ٤٦.

- واتفقوا على أن المؤمن إذا خرج من الدنيا على طاعة وتوبة، استحق الثواب، وإذا خرج من غير توبة عن كبيرة ارتكبها، استحق الخلود في النار. وسموا هذا النمط وعداً ووعيداً.

- واتفقوا على أن أصول المعرفة وشكر النعمة واجبة قبل ورود السمع، والحُسْن والقُبْح يجب معرفتهما بالعقل.

ويقول البغدادي[1]: «إن المعتزلة» افترقت فيما بينهما عشرين فرقة كل فرقة تُكَفِّر سائرها.

ولا نرى موجباً للحديث عن هذه الفرق المختلفة.

ب ـ الجبرية

الجبر هو نفي الفعل حقيقةً عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى. والجبرية أصناف:

- فالجبرية الخالصة: هي التي لا تُثْبِتُ للعبد فعلاً ولا قدرة على الفعل أصلاً.

- والجبرية المتوسطة: هي التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة أصلاً.

فأمّا من أثبت للقدرة الحادثة أثراً ما في الفعل، وسمى ذلك كسباً؛ فليس بجبري.

ومن الجبرية: (١) الجهمية، (٢) النجارية.

(١) الجهمية

أصحاب جهم بن صفوان[2]، وهو من الجبرية الخالصة، ظهرت

---

(١) عبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفِرَق، ص٦٧.

(٢) جهم بن صفوان السمرقندي (ت ١٢٨هـ/٧٤٥م) أبو محرز، رأس الجهمية. قال عنه الذهبي: «الضال المبدع». وكان جهم قاضياً في عسكر الحارث بن سريج، الخارج على أمراء خراسان، فقبض عليه نصر بن سيار وأمر بقتله، فقتل. =

بدعته بترمذ، وقُتِل بمرو في آخر أيام بني أميّة. وافق المعتزلة في نفي الصفات الأزلية، وزاد عليهم بأشياء[1]، منها قوله: لا يجوز أن يوصف الباري تعالى بصفةٍ يوصَف بها خلقه لأن ذلك يقضي تشبيهاً.

ومنها قوله في القدرة الحادثة، أن الإنسان لا يقدر على شيء، ولا يوصف بالاستطاعة، وإنما هو مجبور في أفعاله، ولا قدرة له ولا إرادة ولا اختيار، وإنما يخلق الله تعالى الأفعال فيه، وتنسب إليه الأفعال مجازاً كما تنسب إلى الجمادات، كما يقال: أثمرت الشجرة، وجرى الماء، وطلعت الشمس.

ويضيف البغدادي قائلاً[2]: «وزَعَم أن الإيمان هو المعرفة بالله فقط، وأن الكفر هو الجهل به فقط».

وقال: الإيمان لا يتبعض، أي لا ينقسم إلى: عَقد، وقول وعمل؛ ولا يتفاضل أهله فيه؛ فإيمان الأنبياء وإيمان الأمَّة على نمط واحد.

وهو أيضاً موافق للمعتزلة في نفي الرؤية (أي رؤية الله تعالى) وإثبات خلق الكلام (أي كلام الله، والمقصود به القرآن)، وإيجاب المعارف بالعقل قبل ورود السمع (أي الشرع)[3].

ويقول البغدادي[4]: «وأتباعه اليوم بنهاوند»؛ وهذا دليل واضح على

= راجع أخباره في: **ميزان الاعتدال**، للذهبي، ١/١٩٧؛ **الكامل في التاريخ**، لابن الأثير، حوادث سنة ١٢٨هـ؛ و**لسان الميزان**، لابن حجر، ٢/١٤٢؛ و**خطط** المقريزي، ٢/٣٤٩؛ و**الأعلام** للزركلي، ٢/١٤١.

(١) الشهرستاني: **الملل والنحل**، ١/٨٦ ـ ٨٧.

(٢) عبد القاهر البغدادي: **الفَرق بين الفِرق**، ص١٢٨؛ وأنظر أيضاً: **مقالات الإسلاميين** للأشعري، ١/٢٧٩.

(٣) الشهرستاني: **الملل والنحل**، ١/٨٨.

(٤) عبد القاهر البغدادي: م.س، ص ١٢٨؛ والبغدادي من علماء القرن الرابع وبداية القرن الخامس للهجرة؛ فهو شاهد عيان على ما ذكر.

أن الجهمية بقيت منتشرة في بلاد فارس حتى القرن الخامس، ولم تتوقف بعد مقتل جهم سنة ١٢٨هـ/ ٧٤٥م.

(٢) النجارية[١]

أصحاب الحسين بن محمد النجار[٢]، وأكثر معتزلة الريّ وما حواليها على مذهبه[٣]. وهو من متكلمي المجبرة[٤]، أي الجبرية.

وقد يقع اللّبس في فهم قول الشهرستاني أن أكثر معتزلة الري وما هو إليها على مذهبه، وقول النديم إنه من متكلمي المجبرة.

ويوضح لنا الأشعري هذا اللبس بقوله[٥]: «وهو [أي النجار] يقول في التوحيد بقول المعتزلة، إلا في باب الإرادة والجود؛ وكان يخالفهم في القدر ويقول بالإرجاء».

---

(١) راجع لمزيد من الاطلاع على هذه الفرقة:
- النديم: **الفهرست**، الفن الثالث من المقالة الخامسة، ص٣٨١.
- عبد القاهر البغدادي: **الفَرق بين الفِرق**، ص١٢٦، وما بعدها.
- الشهرستاني: **الملل والنحل**، ١/ ٨٨ ـ ٩٠.
- الأشعري: **مقالات الإسلاميين**، ١/ ٢٨٣، ويسميهم «الحسينية» نسبة إلى رأس هذه الفرقة الحسين بن محمد النجار.

(٢) الحسين بن محمد بن عبد الله النجار، أبو محمد: كان حائكاً، وقيل: إنه كان يعمل الموازين؛ من أهل قُم.
له مع النظام المعتزلي مجالس ومناظرات، انصرف في آخر مناظرة بينهما محموماً، وكان ذلك سبب علته التي مات فيها سنة ٢٢٠هـ/ ٨٣٥م.
وهكذا ذكر النديم، وعدد له من الكتب ٢٤ كتاباً منها: كتاب إثبات الرسل، كتاب الإرادة صفة في الذات، كتاب البدل (في علم الكلام)، كتاب القضاء والقدر، كتاب العلل في الاستطاعة، وغيرها.

(٣) الشهرستاني: م.س، ١/ ٨٨.

(٤) النديم: م.س، ص٣٨١.

(٥) الأشعري: م.س، ١/ ٢٨٥.

وزيادة في الإيضاح ننقل قول البغدادي في مقالات الفِرق النجارية[1]: «هؤلاء أتباع الحسين بن محمد النجار، وقد وافقوا أصحابنا في أصول، ووافقوا القدرية في أصول، وانفردوا بأصولٍ لهم.

فالذي وافقوا فيه أصحابنا[2] قولهم معنا: بأن الله تعالى خالق أكساب العباد، وأن الاستطاعة مع الفعل، وأنه لا يحدث في العالم إلاَّ ما يريده الله تعالى. ووافقونا أيضاً في أبواب الوعيد، وجواز المغفرة لأهل الذنوب، وفي أكثر أبواب التعديل والتجوير.

وأمَّا الذي وافقوا فيه القدرية، فنفي علم الله تعالى، وقدرته وحياته وسائر صفاته الأزلية، وإحالة رؤيته بالأبصار، والقول بحدوث كلام الله تعالى.

وأكفرتهم القدرية فيما وافقوا فيه أصحابنا؛ وأكفرهم أصحابنا فيما وافقوا فيه القدرية.

والذي يجمع النجارية في الإيمان قولهم

- إن الإيمان هو المعرفة بالله تعالى، وبرسله وفرائضه التي أجمع عليها المسلمون، والخضوع له، والإقرار باللسان؛ فمن جهل شيئاً من ذلك بعد قيام الحجة به عليه، أو عرفه ولم يُقِرّ به فقد كفر.
- وقالوا كل خصلة من خصال الإيمان طاعة، وليست بإيمان ومجموعها إيمان؛ وليست خصلة منها عند الانفراد إيماناً ولا طاعة.
- وقالوا: إن الإيمان يزيد ولا ينقص.

وافترقوا بعد هذا فيما بينهم في العبارة عن خلق القرآن، وفي حكم أقوال مخالفيهم، فِرقاً كبيرة، كل فرقة منها تكفّر سائرها. والمشهورون منها

(١) عبد القاهر البغدادي: *الفَرْق بين الفِرَق*، ص١٢٦.
(٢) أصحابنا: أي الأشاعرة.

ثلاث فرق، وهي: البرغوثية، والزعفرانيّة، والمستدركة من الزعفرانية».

وقد سبق أن ذكرنا وجود الفرقة الزعفرانية عند حديثنا عن الحياة الدينية في بلاد المشرق استناداً إلى ما رواه المقدسي في كتابه «أحسن التقاسيم»، وهذا ما يؤكده البغدادي في قوله[1]: «الزعفرانية: أتباع الزعفراني الذي كان بالري».

ج ـ الصفاتية[2]

إن جماعة كثيرة من السلف كانوا يثبتون لله تعالى صفات أزلية، من العلم، والقدرة، والحياة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام، والجلال، والإكرام، والجود، والإنعام، والعزة، والعظمة؛ ولا يفرقون بين صفات الذات وصفات الفعل، بل يسوقون الكلام سوقاً واحداً. وكذلك يثبتون صفات خبرية مثل اليدين والوجه، ولا يؤولون ذلك، إلاَّ أنَّهم يقولون: هذه الصفات قد وردت في الشرع؛ فنسميها صفات خبرية ـ أي أخبر الشرع عنها ـ ولمّا كان المعتزلة ينفون الصفات، والسلف يثبتون، سُمِّيَ السلف صفاتية، والمعتزلة معطلة.

وبالغ بعض السلف في إثبات الصفات إلى حد التشبيه بصفات المحدثات، واقتصر بعضهم على صفات دلّت الأفعال عليها، وما ورد في الخبر؛ فاقترفوا فرقتين:

فمنهم من أوّله على وجه يحتمل اللفظ ذلك؛ ومنهم من توقف في التأويل وقال: عرفنا بمقتضى العقل أنَّ الله تعالى ليس كمثله شيء، فلا يشبه شيئاً من المخلوقات، ولا يشبهه شيء منها، وقطعنا بذلك، إلاّ أنّا لا نعرف

---

(١) عبد القاهر البغدادي: الفَرق بين الفِرق، ص١٢٧.

(٢) سنتبع في تقسيم هذه الفرق تقسيم الشهرستاني لها في كتابه «الملل والنحل»، ١/٩٢، وما بعدها.

معنى اللفظ الوارد فيه، مثل قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[1] ومثل قوله: ﴿خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾[2]، ومثل قوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾[3] إلى غير ذلك؛ ولسنا مكلفين بمعرفة تفسير هذه الآيات وتأويلها، بل التكليف قد ورد بالاعتقاد بأنه لا شريك له، وليس كمِثْلِهِ شيء، وذلك قد أثبتناه يقيناً.

ثُمَّ إن جماعة من المتأخرين زادوا على ما قاله السلف؛ فقالوا: لا بُدّ من إجرائها على ظاهرها؛ فوقعوا في التشبيه الصرف، وذلك على خلاف ما اعتقده السلف.

وأمَّا السلف الذين لم يتعرضوا للتأويل، ولا تهدّفوا للتشبيه؛ فمنهم: مالك بن أنس، إذ قال: الاستواء معلوم، والكيفية مجهولة، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

ومثل: أحمد بن حنبل، وسفيان الثوري، وداود بن علي الأصفهاني، ومن تابعهم؛ حتى انتهى الزمان إلى عبد الله بن سعيد الكلابي[4]، وأبي العباس القلانسي[5]، والحارث بن أسد المحاسبي[6] وهؤلاء كانوا من جُلّة السلف، إلاَّ أنَّهم باشروا علم الكلام، وأيدوا عقائد السلف بحججٍ كلامية وبراهين أصولية، حتى جرى بين أبي الحسن الأشعري وبين أستاذه الجبّائي

(١) سورة طه، الآية: ٥.

(٢) سورة ص، الآية: ٧٥.

(٣) سورة الفجر، الآية: ٢٢.

(٤) الكلابي (ابن كلاب): أبو محمد عبد الله بن سعيد بن محمد بن كلاب القطان البصري، كان متكلماً، ويُعَدُّ من معارضي المعتزلة؛ توفي حوالي سنة ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م. (انظر: تاريخ التراث العربي، فؤاد سزكين ٢/ ٣٦٨).

(٥) أبو العباس القلانسي: لم أعثر على ترجمته.

(٦) الحارث المحاسبي: أبو عبد الله، الحارث بن أسد المحاسبي العنزي، من الزهاد المتكلمين على العبادة والزهد في الدنيا، والمواعظ. وكان فقيهاً متكلماً مقدماً كتب الحديث، وعرف مذاهب النساك، توفي سنة ٢٤٣هـ/ ٨٥٧م. (انظر: الفهرست، النديم، ص٣٩١؛ م.س، فؤاد سزكين، ٢/ ٤٣٧).

المعتزلي مناظرة في مسائل الصلاح والأصلح؛ فتخاصما، وانحاز الأشعري إلى أهل السلف؛ فأيّد مقالتهم بمناهج كلامية، وصار ذلك مذهباً لأهل السنّة والجماعة[١]، وانتقلت سِمَة الصفاتية إلى الأشعرية[٢].

(١) الأشعرية

أتباع أبي الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق الأشعري[٣]، كان تلميذاً للجبّائي المعتزلي، يقال: إنه لمّا بلغ أربعين عاماً تحول إلى مذهب أهل السنة. ولقد استطاع التغلب على اعتراض علماء المسلمين القدامى على الجدل حول العقيدة، ورد على المعتزلة وطوائف الغلاة الأخرى، وهذا هو جهده الذي نال به مكانته. ويُعد الأشعري بحق مؤسس علم الكلام عند السنة. وقد وجدت تعاليمه عند الشافعية تفهماً أكثر من غيرهم[٤]. توفي الأشعري سنة ٣٢٤هـ/ ٩٣٥م[٥].

وقد اعترف بآرائه وحججه في علم التوحيد في البلاد التي ساد فيها مذهبا الشافعية والمالكية، وإن اعترضتها في بعض الأحيان ردود فعل أثرت عليها؛ حتى جاء الغزالي وأوصلها إلى النصر النهائي[٦].

ومن أشهر مؤلفات الأشعري كتاب «مقالات الإسلاميّين واختلاف

---

(١) سنتكلم على أهل السنة والجماعة كواحدة من الفرق التي كان لها وجود ملحوظ في بلاد المشرق الإسلامي.

(٢) ما أوردناه عن الصفاتية مقتبس بتصرف عن كتاب الشهرستاني، **الملل والنّحل**، ١/ ٩٣ ـ ٩٣.

(٣) راجع أخباره وترجمته في: **تاريخ بغداد**، للخطيب البغدادي، ١١/ ٣٤٦ ـ ٣٤٧؛ **وفيات الأعيان**، لابن خلكان، ١/ ٤١١؛ **طبقات الشافعية**، للسبكي، ٢/ ٤٥؛ **شذرات الذهب**، لابن العماد، ٢/ ٣٠٣ ـ ٣٠٥؛ **الأعلام**، للزركلي، ٤/ ٢٦٣.

(٤) سزكين، فؤاد: **تاريخ التراث العربي**، ٢/ ٣٧٣.

(٥) وقيل: ٣٢٠هـ أو ٣٣٠هـ.

(٦) بروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، ٤/ ٣٨ ـ ٣٩.

المصلين»، وكتاب «الإبانة عن أصول الديانة»، «وكتاب اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع».

ولعل من المفيد استكمالاً للبحث إيراد بعض أقوال وآراء الأشعري في القضايا التي كانت مثار جدل ونقاش بين الفِرق[1].

قال الأشعري: الإنسان إذا فكر في خلقته، من أي شيء ابتدأ، وكيف دار في أطوار الخلقة طوراً بعد طور، حتى وصل إلى كمال الخلقة، وعرف يقيناً أنه بذاته لم يكن ليُدبر خلقه، وبنقله من درجة إلى درجة، وبِرُقيّه من نقص إلى كمال، علم بالضرورة أن له صانعاً قادراً، عالماً، فريداً، فله صفات دلّت أفعاله عليها، لا يمكن جحدها. وكما دلّت الأفعال على كونه عالماً، قادراً، مُريداً، دلّت على العلم والقدرة والإرادة، لأن وجه الدلالة لا يختلف شاهداً وغائباً، وأيضاً لا معنى للعالم حقيقة إلاَّ أنه ذو علم، ولا للقادر إلاَّ أنه ذو قدرة، ولا للمريد إلا أنه ذو إرادة... وهذه الصفات لن يتصور أن يوصف بها الذات، إلاَّ وأن يكون الذات حياً بحياة، للدليل الذي ذكرناه.

وقال الأشعري أيضاً: الباري تعالى عالمٌ بعلم، قادرٌ بقدرة، حيٌّ بحياة، مريد بإرادة، متكلمٌ بكلام، سميعٌ بسمع، بصيرٌ ببصر، وهذه الصفات أزلية قائمة بذاته.

وقال أيضاً: وإرادته واحدة، قديمة، أزلية، متعلقة بجميع المرادات من أفعاله الخاصّة وأفعال عباده، من حيث إنَّها مخلوقة له، لا من حيث إنها مكتسبة لهم. أراد الجميع: خيرها وشرها، ونفعها وضررها؛ وكما أراد وعلم، أراد من العباد ما علم، وأمر القلم حتى كتب في اللوح المحفوظ؛

---

(١) نقلاً عن الشهرستاني: **الملل والنحل**، ١/ ٩٤. باختصار.

فذلك حكمه وقضاؤه وقدره، الذي لا يتغير ولا يتبدل. وخلاف المعلوم مُحال الوقوع.

والفعل الحاصل إذا أراده العبد وتجرد له، يسمى كسباً؛ فيكون خلقاً من الله تعالى إبداعاً وإحداثاً، وكسباً من العبد، حصولاً تحت قدرته.

وأحد تلاميذ الأشعري النابهين في الجيل الثاني، هو القاضي أبو بكر محمد بن الطيب البصري **الباقلاني**(١)، وهو «مؤسس مدرسة المتشككين في علم العقائد، كما كان جدلياً من الطراز الأول»(٢)، انتهت إليه الرياسة في مذهب الأشاعرة؛ كان جيد الاستنباط سريع الجواب، ويُعَدُّ الباقلاني من أنبه متكلمي المدرسة الأشعرية(٣).

ولد الباقلاني في البصرة سنة ٣٣٨هـ/ ٩٥٠م، وعاش في بغداد، واستدعاه عضد الدولة البويهي إلى بلاطه في شيراز ليناقش كبير المعتزلة، وليثبت أنه يفضله فكراً(٤).

كذلك وجهه عضد الدولة سفيراً عنه إلى ملك الروم (قيصر بيزنطة) فجرت له في القسطنطينية مناظرات مع علماء النصرانية بين يدي ملكها(٥).

وقد عاش الباقلاني زماناً عند عضد الدولة البويهي في شيراز، وكان يرعاه ويحضر مجالسه ومناظراته؛ وبعد أن توفي عضد الدولة عاد الباقلاني إلى بغداد، وتوفي سنة ٤٠٣هـ/١٠١٣م.

---

(١) راجع ترجمته وأخباره في:
تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، ٥/ ٣٧٩ ـ ٣٨٣؛ **وفيات الأعيان**، لابن خلكان، ١/ ٦٠٩؛ **الوافي بالوفيات**، للصفدي، ٣/ ١٧٧؛ **تذكرة الحفاظ**، للذهبي، ١٠٧٩؛ **دائرة المعارف الإسلامية**، ٣/ ٢٩٤؛ **تاريخ التراث العربي**، لفؤاد سزكين، ٢/ ٣٨٤.

(٢) بروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، ٤/ ٥٠ ـ ٥١.

(٣) ابن العماد: **شذرات الذهب**، ٣/ ١٦٩.

(٤) فؤاد سزكين: م.س، ٢/ ٣٨٤.

(٥) الزركلي: **الأعلام**، ٦/ ١٧٦.

ألّف الباقلاني العديد من الكتب التي تظهر رسوخ قدمه في علم الكلام، منها: «إعجاز القرآن»، «تمهيد الدلائل وتلخيص الأوائل»، وهو كتاب في الرد على الملاحدة والرافضة والمعتزلة والخوارج؛ وكتاب «كشف أسرار الباطنية». وغيرها من الكتب.

ومن علماء الأشاعرة الذين علا شأنهم في بلاد المشرق، في الري ونيسابور، في القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، نذكر **ابن فورك**[1]، أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصبهاني. كان فيلسوفاً ولغوياً ومفسراً وفقيهاً؛ درس في العراق مذهب الأشعرية، ثمّ رحل إلى الري ونيسابور؛ فحقق مجداً وشهرة، وبنى مدرسة بنيسابور، يلقى فيها دروس الحديث والفقه والكلام والتفسير وغيرها؛ فدعاه السلطان محمود الغزنوي إلى غزنة. وكان ابن فورك شديد الرد على أبي عبد الله بن كرّام وأصحابه المُجَسِّمة، فكفروه لدى السلطان بأنه يعتقد أن نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم انتهت بوفاته، وأن رسالته انقطعت بموته.

وكان جُلُّ اهتمامه العلميّ مُنْصَباً على علم الكلام، وكان يبحث في الحديث والقرآن من وجهة النظر الكلامية. يقال: إنه ألف أكثر من مائة كتاب؛ ويذكر ابن تغري بردي[2] أن السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي سمع مقولة ابن فورك أن رسول الله، محمداً، كان رسولاً في حياته فقط، وأن روحه قد هلكت بعد وفاته، لذا أمر بقتله، فقُتل مسموماً سنة ٤٠٦هـ/ ١٠١٥م، ودفن في نيسابور. وقال السبكي[3]: «بل الكرّامية سقوه السم لمّا رد عليهم».

---

(١) راجع ترجمته وأخباره في المصادر التالية:
وفيات الأعيان، لابن خلكان، ١/ ٤٨٢؛ **النجوم الزاهرة** لابن تغري بردي، ٤/ ٢٤٠؛ **تبيين كذب المفتري**، لابن عساكر، ص٢٣٢؛ **الوافي بالوفيات**، للصفدي، ٢/ ٣٤٤؛ **شذرات الذهب**، لابن العماد، ٣/ ١٨١؛ **الأعلام**، للزركلي، ٦/ ٨٣؛ **تاريخ التراث العربي**، لفؤاد سزكين، ٢/ ٣٨٧؛ **تاريخ الأدب العربي**، لبروكلمان، ٣/ ٢١٧ ـ ٢١٨.

(٢) ابن تغري بردي: م.ن، ٤/ ٢٤٠.

(٣) السبكي: **طبقات الشافعية**، ٣/ ٥٢ ـ ٥٥.

من مؤلفاته: «تأويل مشكل الحديث»، وهو كتاب حاول فيه تأويل الأحاديث التي يدلّ ظاهرها على التشبيه وردها إلى المحكم، وفيه يرد على الملحدة والمعطلة والمبتدعة من الجهمية والجسمية والمعتزلة. وكتاب: «الحدود في الأصول»، وكتاب «النظامي في أصول الدين»، ألفه لنظام المُلْك، وكتاب «حل الآيات المتشابهات»؛ وغيرها من الكتب.

(٢) الماتريدية

وفي زمن الأشعري، قام بين الحنفية، عَلَم الهُدى، أبو منصور محمد بن محمد ابن محمود الماتريدي[١]، بإصلاح علم الكلام على أساس فلسفي، وشاعت آراؤه في البلاد التي ساد فيها المذهب الحنفي، وبخاصة فيما وراء النهر وكذلك في الهند[٢].

وكان الماتريدي رأس المدرسة الماتريدية، التي سميت باسمه، وهي والمدرسة الأشعرية تمثلان مذهب أهل السنة[٣].

ويقول التفتازاني[٤]: المشهور أن أهل السنة والجماعة في ديار خراسان هم الأشاعرة، وفي ديار ما وراء النهر الماتريدية، أصحاب أبي منصور الماتريدي».

وهاتان المدرستان ـ أي الأشعرية والماتريدية ـ اختلفتا فيما بينهما اختلافاً عَرَضِياً؛ فقد اعترفت المدرسة الماتريدية بحرّية الإرادة عند الإنسان، وذلك وفقاً لرأي أبي حنيفة، ولهذا فإن الثواب والعقاب يقدران على أساس

---

(١) الماتريدي: نسبة إلى ماتريد، قرية من قرى سمرقند. راجع ترجمته وأخباره في: **تاريخ التراث العربي**، لفؤاد سزكين، ٢/٣٧٨؛ و**تاريخ الأدب العربي**: لبروكلمان، ٤/ ٤١ ـ ٤٢؛ و**الأعلام**، للزركلي، ٧/ ١٩.

(٢) بروكلمان: م.ن، ٤/ ٤١.

(٣) فؤاد سزكين، م.س، ٢/٣٧٨.

(٤) التفتازاني: شرح المقاصد، تحقيق عبد الرحمن عميرة، بيروت، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، المجلد الخامس، ص٢٣١.

خلقي؛ على حين أن الأشعري يقول بأن كل أفعال العباد مصدرها إرادة الله فقط؛ وقد اعترف بتعاليم الماتريدي في هذا الصدد عند الأشاعرة بعد ذلك[1].

وقد ذكر صاحب كتاب «المسالك في الخلافيات بين المتكلمين والحكماء»[2]، المقالات التي خالف فيها الماتريدية جمهور الأشاعرة، ثم أعقبها بالمقالات التي خالف فيها الأشاعرة جمهور الماتريدية، ثُمَّ انتهى بذكر المقالات التي اتفق عليها الأشاعرة والماتريدية. وهذا الكتاب من أهمّ الكتب وأدقها في المقارنة بين آراء هاتين المدرستين، وكذلك بين آراء المعتزلة والأشاعرة، والفلاسفة والمتكلمين.

وزيادة في الإيضاح يمكن القول إن أتباع أبي حنيفة الذين يقلدونه في أحكام الفقه، كانوا يذهبون في الاعتقاد مذهب أبي منصور الماتريدي؛ وأن أتباع الشافعي الذين يقلدونه في أحكام الفقه، كانوا يذهبون في الاعتقاد مذهب أبي الحسن الأشعري. وأن من كان يذهب في الاعتقاد مذهب الماتريدي كان يذهب في الأحكام الفقهية مذهب أبي حنيفة؛ وأن من كان يذهب في الاعتقاد مذهب الأشعري، كان يذهب في الأحكام الفقهية مذهب الشافعي.

(٣) الظاهرية

هم صنف من أصناف أهل السنة والجماعة، من أئمة الفقه الذين اعتقدوا في أصول الدين مذاهب الصفاتية من المتكلمين، في صفات الله الأزلية، وتبرؤوا من التشبيه والتعطيل والاعتزال، وأثبتوا رؤية الله بالأبصار، وأثبتوا الحشر والسؤال في القبر، مع إثبات الحوض والصراط والشفاعة، وغفران الذنوب التي دون الشرك.

---

(١) بروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، ٤/ ٤١.

(٢) مستجي زادة، عبد الله بن عثمان بن موسى: **المسالك في الخلافيات بين المتكلمين والحكماء**، دراسة وتحقيق سيد باغجوان، مكتبة الإرشاد، استانبول، ودار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، ص١٤٩ ـ ١٩١.

وقالوا بدوام نعيم الجنة على أهلها، ودوام عذاب النار على الكفرة، ورأوا وجوب استنباط أحكام الشريعة من القرآن والسنة؛ ويدخل في هذه الجماعة أصحاب مالك وأحمد بن حنبل، وأهل الظاهر وسائر الفقهاء الذين اعتقدوا في الأبواب العقلية أصول الصفاتية، ولم يخلطوا فقههم بشيء من بدع أهل الأهواء الضالة(١).

ويقول الشهرستاني(٢): «اعلم أن السلف من أهل الحديث، لما رأوا تَوَغل المعتزلة في علم الكلام ومخالفة السنة، على قولهم بنفي الصفات وخلق القرآن، تحيروا في تقرير مذهب أهل السنة والجماعة في متشابهات آيات القرآن الحكيم، وأخبار النبي الأمي الأمين، فأما أحمد بن حنبل، وداود بن علي الأصفهاني، وجماعة من أئمة السلف، فجروا على منهاج السلف المتقدمين عليهم من أصحاب الحديث، وسلكوا طريق السلامة فقالوا: نؤمن بما ورد به الكتاب والسنة، ولا نتعرض للتأويل، بعد أن نعلم قطعاً أن الله عز وجل لا يشبهه شيء من المخلوقات، وأن كل ما تمثل في الوهم فإنه خالقه ومقدّره، وكانوا يحترزون عن التشبيه. وقالوا: إنما توقفنا في تفسير الأيات وتأويلها لأمرين:

أحدهما: المنع الوارد في التنزيل في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾(٣) فنحن نحترز عن الزيغ.

والثاني: أن التأويل أمر مظنون بالاتفاق، والقول في صفات الباري بالظنّ غير جائز، فربما أولنا آية على غير مُراد الباري تعالى، فوقعنا في

(١) عبد القاهر البغدادي: **الفَرق بين الفِرق**، ص١٨٩.

(٢) الشهرستاني: **الملل والنحل**، ١/١٠٣ ـ ١٠٤.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٧.

الزيغ. بل نقول كما قال الراسخون في العلم: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ آمنا بظاهره، وصدقنا بباطنه، ووكلنا علمه إلى الله تعالى، ولسنا مكلفين بمعرفة ذلك، إذ ليس ذلك من شرائط الإيمان وأركانه.

وأول من استعمل قول الظاهر، وأخذ بالكتاب والسنة، وألغى ما سوى ذلك من الرأي والقياس، هو أبو سليمان داود بن علي بن داود بن خلف **الأصفهاني**[1]، كان فاضلاً صادقاً ورعاً، ولد سنة ٢٠٠هـ/ ٨١٥ م، وتوفي سنة ٢٧٠ هـ/ ٨٨٤م[2]. وقد ذكر له صاحب الفهرست ١٤٥ كتاباً. وقال[3]: ولداود مسائل كانت ترد عليه من الأصقاع والمواضع منها: «كتاب المسائل الأصفهانيات»، و«كتاب المسائل البصريات» و«كتاب المسائل الخوارزميات».

وكان داود الظاهري يتبع في أول أمره مذهب الشافعي، ثم اجتهد فأسس مذهب أهل الظاهر. وكان الشافعي يدافع الرأي الذي جعله أبو حنيفة أصلاً مستقلاً من أصول الفقه، وبنى حجية الرأي والقياس على التوفيق بينهما وبين الأصول المنصوصة؛ فلم يقتصر داود على إنكار القياس والرأي، بل أنكر كذلك التقليد لأحد الأئمة، وبنى الأحكام على ظاهر الكتاب والسنة[4].

---

(١) راجع ترجمته وأخباره في المصادر التالية:
- النديم: **الفهرست**، ص٤٥٥.
- الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد**، ٨/ ٣٦٩ ـ ٣٧٥.
- ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، ١/ ٢١٩.
- ابن الجوزي: **المنتظم**، ٥/ ٧٥ ـ ٧٧.
- الذهبي: **تذكرة الحفاظ**، ٥٧٢.
- السبكي: **طبقات الشافعية**، ٢/ ٤٢ ـ ٤٨.
- ابن العماد: **شذرات الذهب**، ٢/ ١٥٨ ـ ١٥٩.
- فؤاد سزكين، **تاريخ التراث العربي**، ٢/ ٢٢٨.
- بروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، ٣/ ٣١٧.

(٢) النديم: م.س، ص٤٥٥.
(٣) النديم: م.ن، ص ٤٦٠.
(٤) بروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، ٣/ ٣١٦.

وقد كان لمذهبه أتباع كثيرون في العراق وفارس وخراسان وعمان وبلاد السند، في القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد، ولا سيما بين المتصوفة، الذين وجدوا فيه تحريراً لهم من قيود كثيرة اشترطتها المذاهب الأخرى في أداء الفرائض، ولكن هذا المذهب لم يقدر له البقاء طويلاً في بلدان المشرق، ولم يبق من مصنفات داود وتلاميذه إلاّ القليل. أما في المغرب والأندلس[(١)] على وجه الخصوص، فقد تبعه كثير من الفقهاء المتحمسين له في القرن الرابع، وألفوا فيه مختلف الكتب[(٢)]، ولعل ابن حزم من أشهرهم.

(٤) أصحاب الحديث وأهل السنة[(٣)]

هم طائفة من العلماء، وممن تبعهم وتابعهم في أفكارهم وآرائهم ومعتقداتهم، لم يتعرّضوا لتأويل المتشابه من آيات القرآن ومن الحديث النبوي، ولم يقولوا بالتشبيه، بل أقروا بما جاء به القرآن إيماناً وتصديقاً بكلام الله تعالى.

ولعل أول من عرف عنه ذلك، هو الإمام مالك بن أنس، إمام أهل المدينة، عندما سئل عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[(٤)]، فقال قولته المشهورة: الاستواء معلوم، والكيفية مجهولة، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة[(٥)].

---

(١) كان المذهب الظاهري مذهب دولة الموحدين في عهد يعقوب بن منصور الموحدي (٥٨٠ هـ/ ١١٨٤ م ـ ٥٩٥ هـ/١١٩٩م).

(٢) بروكلمان: م.س، ٣/ ٣١٧.

(٣) تطلق هذه العبارة بصيغ متنوعة مؤداها واحد، كالتالي: أهل السنة وأصحاب الحديث، وأصحاب الحديث وأهل السنة، وأهل الحديث والسنة. وما سنورده لاحقاً مقتبس من كتاب الأشعري، **مقالات الإسلاميين**، ص٢٩٠ ـ ٢٩٧ (باختصار).

(٤) سورة طه، الآية: ٥.

(٥) الشهرستاني: **الملل والنحل**، ١/ ٩٣.

وقال أهل السنة وأصحاب الحديث: الله تعالى ليس بجسم، ولا يشبه الأشياء، وأنه على العرش استوى، كما قال عز وجل: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾، ولا نقدم بين يدي الله في القول، بل نقول: استوى بلا كيف؛ ولم يقولوا شيئاً إلاّ ما وجدوه في الكتاب، أو جاءت به الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم[1].

ولعل هذه القضية العقيدية هي منطلق أهل الحديث والسنة في آرائهم ومواقفهم الاعتقادية التي سنذكرها.

جملة ما عليه أهل الحديث والسنة متفقون

ـ الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله، وما جاء من عند الله، وما رواه الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا يردّون من ذلك شيئاً.

ـ وأن الله سبحانه إله واحد، فرد صمد، لا إله غيره، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأن محمداً عبده ورسوله.

ـ وأن الجنة حق، وأن النار حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور.

ـ وأن الله سبحانه على عرشه كما قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[2]، وأن له يدين بلا كيف، كما قال: ﴿خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾[3]، وكما قال: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾[4]، وأن له عينين بلا كيف، كما قال: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾[5] وأن له وجهاً كما قال: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾[6].

---

(١) الأشعري: مقالات الإسلاميين، ص ٢١١.
(٢) سورة طه، الآية: ٥.
(٣) سورة ص، الآية: ٧٥.
(٤) سورة المائدة، الآية: ٦٤.
(٥) سورة القمر، الآية: ١٤.
(٦) سورة الرحمن، الآية: ٢٧.

ـ وأقروا أن لله سبحانه علماً، كما قال: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦ﴾[1].

ـ وأثبتوا لله السمع والبصر والقوة.

ـ وقالوا: إنه لا يكون في الأرض من خير ولا شر إلاَّ ما شاء الله.

ـ وأقروا أنه لا خالق إلاَّ الله، وأن سيئات العباد يخلقها الله، وأن أعمال العباد يخلقها الله عز وجل، وأن العباد لا يقدرون أن يخلقوا شيئاً.

ـ ويؤمنون بقضاء الله وقدره، خيره وشره، حُلْوِه ومُرِّه.

ـ ويؤمنون أنَّهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، إلا ما شاء الله.

ـ ويقولون: إن القرآن كلام الله غير مخلوق.

ـ ويقولون: إن الله سبحانه يُرى بالأبصار يوم القيامة.

ـ ولا يكفرون أحداً من أهل القبلة بذنب يرتكبه، وإن ارتكب الكبائر.

ـ ويقرون بأن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص.

ـ ويقولون: أسماء الله هي الله.

وينكرون الجدل والمِراء في الدين، والخصومة في القَدر، والمناظرة فيما يتناظر فيه أهل الجدل ويتنازعون فيه من دينهم، بالتسليم للروايات الصحيحة، ولمّا جاءت به الآثار التي رواها الثقات، عدلاً عن عدل، حتى ينتهي ذلك إلى رسول الله.

هذه هي أهمّ مقولات أصحاب الحديث وأهل السنة: وقد سبق أن ذكرنا وجود هذه الجماعة في العديد من أقاليم ومدن بلاد المشرق الإسلاميّ في القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد.

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٦.

ولعل خير من يمثل هذه الجماعة: أبو سليمان الخطابي، والحاكم النيسابوري، وابن منده.

ـ **أمّا أبو سليمان الخطابي**[1]، حمد (أو أحمد) بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي (٣١٩ هـ ـ ٣٨٦هـ ٩٣١ م ـ ٩٩٦م) فقد كان محدثاً، ألف في فنونٍ من علم الحديث نقداً وشرحاً، وركن في أواخر حياته إلى التصوف، فدخل رباطاً في «بُست» من سجستان، وتوفي فيه.

وهو صاحب التصانيف البديعة، منها: «غريب الحديث»، و«معالم السنن» و«شرح سنن أبي داود»، و«إصلاح غلط المحدثين»؛ وذكر له بروكلمان «رسالة في الغنية عن الكلام وأهله».

ـ **الحاكم النيسابوري**[2]، محمد بن عبد الله بن محمد (٣٢١ ـ ٤٠٤ هـ/ ٩٣٣ ـ ١٠١٣م) من علماء الحديث الأعلام، تولى القضاء بنيسابور، ولكنه اعتزل منصبه ليتفرغ للعلم والتصنيف، وتقلد بعد ذلك قضاء جرجان، وكان بنوساسان يكلفونه بالسفارات وحمل الرسائل إلى بني بويه.

من أشهر مؤلفاته كتاب «المستدرك على الصحيحين» (صحيح البخاري وصحيح مسلم) وفيه يدافع الحاكم عن كثير من الأحاديث التي لم يدخلها البخاري ومسلم ويبرهن على أنها مستكملة لشروطهما.

ـ **ابن منده**[3]، أبو عبد الله محمد بن إسحاق الأصبهاني، المعروف

(١) راجع ترجمته وأخباره في المصادر التالية: **وفيات الأعيان**، لابن خلكان (طبعة دار الثقافة) ٢/ ٢١٤؛ **معجم الأدباء**، لياقوت الحموي، ٤/ ٢٤٦؛ **وشذرات الذهب**، لابن العماد؛ ٣/ ١٥٠؛ **ويتيمة الدهر**، للثعالبي، ٤/ ٣٣٤.

(٢) راجع ترجمته وأخباره في المصادر التالية: ابن خلكان، م.ن، ١/ ٦١٣؛ الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد**، ٥/ ٤٧٣؛ ياقوت الحموي، م.ن، ٤/ ٦٧٣؛ **تذكرة الحفاظ** للذهبي، ٣/ ٢٤٢.

(٣) راجع ترجمته وأخباره في: أخبار أصبهان، لأبي نعيم؛ ٢/ ٣٠٦، تذكرة الحفاظ، للذهبي، ٣/ ٣٣٨؛ شذرات الذهب، لابن العماد؛ ٣/ ١٤١.

بابن منده (٣١٠ ـ ٣٩٥ هـ/ ٩٢٢ ـ ١٠٠٥م) كان سيد أهل زمانه في الحديث، مجانباً لأهل الأهواء والبدع، ومن دعاة السنة. وكان يؤيد المسائل التي تكلم فيها بالأدلة من السنة، له من المؤلفات «كتاب الرد على الجهمية»، و«كتاب التوحيد»، و«كتاب الإيمان»، وغيرها من المؤلفات.

د ـ الشيعة

سبق أن تكلمنا على الشيعة وفرقها ضمن دراستنا للفقه الإسلاميّ في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي والآن نودّ إلقاء الضوء على متكلمي الشيعة.

وتجدر الإشارة هنا إلى أننا سنتحدث عن ثلاث فرق شيعية هي: الإمامية، الزيدية، الإسماعيلية، حيث كان لهذه الفرق وجود في بلاد المشرق الإسلاميّ، وكان لديها علماء كلام يدافعون عن معتقداتها، ويردّون على علماء الفرق الإسلاميّة الأخرى، كما تجدر الإشارة إلى أن عدداً من الفقهاء الذين ذكرناهم كانوا علماء كلام.

(١) الإمامية

هم القائلون بإمامة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، بعد النبي، عليه الصلاة والسلام، نصّاً ظاهراً، وتعييناً صادقاً، من غير تعريض بالوصف، بل إشارة إليه بالعين[١].

ولعل من أوائل متكلمي الشيعة محمد بن (علي) بن النعمان، أبو جعفر الأحدب، المعروف بشيطان الطاق[٢] (ت نحو ١٦٠ هـ/ ٧٧٧م)، كان

(١) الشهرستاني: **الملل والنحل**، ١/ ١٦٢.

(٢) راجع ترجمته وأخباره في: النديم، **الفهرست**، ص٣٧٤.
ـ الكشي: معرفة أخبار الرجال: (**رجال**، الكشي)، ص١٢٢.
ـ المقريزي: **الخطط**، ٢/ ٣٤٨ و ٣٥٣.
ـ ابن حجر: **لسان الميزان**، ٥/ ٣٠٠. =

معاصراً للإمام أبي حنيفة، وقد جرت بينهما عدة مناظرات، كما جرت بينه وبين الحرورية (الخوارج) مناظرات أيضاً.

ويذكر النديم[1]، في ترجمته لشيطان الطاق[2] أنه «من أصحاب الإمام أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهما، وقد لقي زيد بن علي (زين العابدين)، وناظره على إمامه أبي عبد الله رضي الله عنه. ولقي عليّ بن الحسين رضى الله عنهما. وكان حسن الاعتقاد والهدي، حاذقاً في صناعة الكلام، سريع الخاطر والجواب. . . وكان متكلماً حاذقاً.

ويقول أيضاً: «وكانت شيعته تسميه شاه الطاق» وهذا يعني أن جماعة من الشيعة كانوا من أتباعه وشيعته، وهذا ما ذكره البغدادي[3]؛ فجعله رأس فرقة عُرِفت «بالشيطانية»، وأورد بعض آرائه، فقال: «الشيطانية: أتباع محمد بن النعمان الملقب بشيطان الطاق، كان في زمان جعفر الصادق، وعاش بعده مدّة، وساق الإمامة إلى ابنه موسى، وقطع بموت موسى، وانتظر بعض أسباطه، وشارك هشام بن سالم الجواليقي[4] في دعواه، أن أفعال العباد أجسام، وأن العبد يصح أن يفعل الجسم، وشارك هشام بن الحكم[5]،

= ـ القمّي: سفينة البحار، ١/ ٣٣٣ و ٢/ ٤٠٠.
ـ النوبختي: فرق الشيعة، ص٧٨.
ـ عبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفِرَق، ص٤٤.
ـ الزركلي: الأعلام، ٦/ ٢٧١.

(١) النديم: الفهرست، ٣٧٤.

(٢) شيطان الطاق: لقب عرف به عند العامّة، وتلقبه الخاصّة بمؤمن الطاق.
والطاق سوق في الكوفة (طاق المحامل) وكان أبو جعفر صاحب دكان صرافة في هذا السوق، خبيراً بالدنانير، يعرف الصحيح من المزيف، ولقب بالشيطان بسبب قدرته على التمييز بين الدنانير.

(٣) عبد القاهر البغدادي: م.س، ص٤٤.

(٤) هشام بن سالم الجواليقي، رأس الفرقة الهشامية، كان مفرطاً في التجسيم والتشبيه. راجع آراءه في كتاب الفَرق بين الفِرق، لعبد القاهر البغدادي، ٤٢.

(٥) هشام بن الحكم: (ت نحو ١٩٠ هـ/ ٨٠٥ م) رأس الفرقة الحكمية، ويقال الهشامية أيضاً. راجع آراءه في كتاب م.ن، لعبد القاهر البغدادي؛ ص٤٠ ـ ٤٢؛ م.س، والنديم، كتاب م.س، ص٣٧٢ ـ ٣٧٣.

وزعم أن الله تعالى يعلم الأشياء إذا قدّرها وأرادها، ولا يكون قبل تقديره الأشياء عالماً بها، وإلا ما صحّ تكليف العباد»[١].

ومن متكلمي الشيعة يذكر النديم[٢] ثلاثة من آل نوْبَخْت «المعروفين بولاية علي وولده رضي الله عنهم، وهم:

ـ **أبو سهل، إسماعيل بن علي النوبختي** (ت ٣١١ هـ/٩٢٣م)، رأس الشيعة ببغداد في خلافة المقتدر (٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ/٩٠٧ ـ ٩٣٢م) كما كان صديقاً حميماً للوزير علي بن عيسى[٣].

«كان فاضلاً، عالماً، متكلماً، وله مجلس يحضره جماعة من المتكلمين، وله رأي في القائم من آل محمد صلى الله عليه وسلم، لم يسبق إليه، وهو أنه يقول: أنا أقول إنه الإمام محمد بن الحسن، ولكنه مات في الغيبة، وقام بالأمر في الغيبة ابنه، وكذلك فيما بعد، من ولده، إلى أن ينفذ الله حكمه في إظهاره»[٤]. وكان لأبي سهل أخ يكنى أبا جعفر، من المتكلمين على مذهبه[٥].

ـ أبو محمد الحسن بن موسى، ابن أخت أبي سهل بن نوبخت، متكلّم فيلسوف، له مصنفات كثيرة وتأليفات في الكلام والفلسفة[٦].

ويذكر بروكلمان[٧] نوبختياً آخر، هو أبو إسحاق إبراهيم بن نوبخت، اشتغل بالتصنيف في حدود سنة ٣٤٠هـ/ ٩٥١م.

---

(١) يمكن الاطلاع على المزيد من آراء هشام بن الحكم بمراجعة كتاب **مقالات الإسلاميين**، للأشعري، ص٦٠ ـ ٦٣.

(٢) النديم: **الفهرست**، ص٣٧٥ ـ ٣٧٦.

(٣) بروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، ٣/ ٣٧٧.

(٤) النديم: م.س، ص٣٧٥.

(٥) النديم: م.ن، ص٣٧٦.

(٦) النديم: م.س، ص٣٧٧.

(٧) بروكلمان: م.س، ٣/ ٣٣٨ ـ ٣٣٩.

له كتاب: «الياقوت في كلام أهل الشيعة ومناظرة الأشاعرة». ومن الواضح أن هذا الكتاب هو في علم الكلام.

الشيخ المفيد، ابن المعلم

هو من المتكلمين الشيعة الإمامية الكبار، الذي «انتهت إليه رياسة متكلمي الشيعة، وكان مقدّماً في صناعة الكلام على مذاهب أصحابه، دقيق الفطنة، ماضي الخاطر. شاهدته فرأيته بارعاً»[1].

رأس الإمامية في زمانه، أبو عبد الله محمد بن محمد النعمان، ابن عبد السلام العكبري البغدادي، المشهور بالشيخ المفيد[2]، ابن المعلم. ولد سنة ٣٣٦ هـ/٩٤٧م، وتوفي سنة ٤١٣ هـ/١٥٢٢م[3]. له العديد من المؤلفات في الفقه وعلم الكلام، منها:

- الإرث في معرفة حجج الله على العباد.
- النكت الاعتقادية.
- تصحيح اعتقاد الإمامية.
- أوائل المقالات في المذاهب المختارات.

وغيرها من الكتب في الفقه والأصول والأدعية.

(٤) الزيدية[4]

أتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ساقوا الإمامة في

(١) النديم، **الفهرست**، ص٣٧٧ ـ ٣٧٨.

(٢) راجع أخباره وترجمته في: فهرس الطوسي، ص٣١٤ وما بعدها، **كتاب الرجال**، للنجاشي، ص٢٨٣، **منهاج المقال**، للاسترابادي ص٣١٧ و**روضات الجنات**، للخوانساري، ص٥٦٣؛ بروكلمان، م.س، ٣/ ٣٤٩.

(٣) بروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، ٣/ ٣٤٩ ـ ٣٥٠.

(٤) للمزيد من المعلومات حول الزيدية وفرقتها يمكن مراجعة المصادر التالية: =

أولاد فاطمة بنت رسول الله، زوجة الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، ولم يجوّزوا ثبوت الإمامة في غيرهم، إلاَّ أنَّهم جوّزوا أن يكون كل فاطمي عالم شجاع سخي خرج بالإمامة، أن يكون إماماً واجب الطاعة، سواء أكان من أولاد الحسن أو من أولاد الحسين. تلمذ زيد بن علي في الأصول على واصل بن عطاء، رأس المعتزلة ورئيسهم، فصار أصحابه كلهم معتزلة.

خرج زيد بن علي في ثورة ضد الحكم الأموي في الكوفة، فقاتله واليها يوسف بن عمر وقتله.

وذلك سنة ١٢٢هـ/ ٧٤٠م. وقام بالإمامة بعده ابنه يحيى بن زيد، في أيام الوليد ابن يزيد بن عبد الملك؛ فخرج إلى خراسان، لكنه قتل هناك أيضاً، حيث دُفن بأرض الجوزجان مع من قُتل معه؛ وقد فوّض الأمر بعده إلى ابنَيْه محمد وإبراهيم الإمامين، وخرجا بالمدينة، ومضى إبراهيم إلى البصرة، لكنهما قتلا أيضاً. ولم ينتظم أمر الزيدية بعد ذلك، حتى ظهر بخراسان صاحبهم ناصر الأطروش، فطُلِبَ مكانُه ليقتل؛ فاختفى واعتزل الأمر، وصار إلى بلاد الديلم والجبل، ولم ينتحل أهلها بدين الإسلام بعد؛ فدعاهم إلى الإسلام على مذهب زيد بن علي؛ فدانوا بذلك وبقيت الزيدية في تلك البلاد ظاهرين[١].

وافترقت الزيدية إلى ثلاث فرق هي[٢]: الجارودية، والسليمانية،

= - النديم: **الفهرست**، ص ٣٧٨ - ٣٨٠.
- الأشعري: **مقالات الإسلاميين**، ص٦٥ - ٧٥.
- عبد القاهر البغدادي: **الفرق بين الفِرَق**، ص٢٥ - ٣٤.
- الشهرستاني: **الملل والنحل**، ١/ ١٤٥ - ١٦٢.
- بروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، ٣/ ٣٢٢ - ٣٣٤.
- فؤاد سزكين: **تاريخ التراث العربي**، ٢/ ٢٨٢ - ٣١٤.

(١) الشهرستاني: **الملل والنحل**، ١/ ١٥٦.

(٢) الشهرستاني: م.ن، ص ١٥٧؛ **الفرق بين الفِرَق**، لعبد القاهر البغدادي، ص٢٢.

والبترية. ويضيف الأشعري ثلاثة فرق أخرى هي[1]: النعيمية، واليعقوبية، وفرقة ثالثة لم يسمّها بل اكتفى بقوله: «لا يتبرؤون من أبي بكر وعمر، ولا ينكرون رجعة الأموات قبل يوم القيامة».

ثُمَّ يذكر الأشعري اختلاف آراء فرق الزيدية في الباري عزّ وجل، وفي أسمائه وصفاته، وفي خلق أعمال العباد، وفي الاستطاعة، وفي الإيمان والكفر، وفي الاجتهاد في الأحكام.

ومن متكلمي الزيدية[2]

ـ ترجمان الدين، الإمام القاسم بن إبراهيم الحسني طباطبا الرسّي، المتوفى سنة ٢٤٦ هـ/ ٨٦٠م، كان معنياً بالرد على الجبرية والمُجَسِّمة، له مجموعة رسائل في عقائد الزيدية منها: أصول العدل والتوحيد، ونفي الجبر والتشبيه، والخمسة أصول، وهو أقدم كتاب في عقائد الزيدية. وغيرهما من الرسائل والكتب.

ـ وحفيده، أبو الحسين يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم، الهادي إلى الحق، وهو الذي أسس إمامة الزيدية باليمن[3]. ولد سنة ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م، وتوفي سنة ٢٩٨هـ/ ٩١٠م.

وله الكثير من الرسائل والكتب، في القرآن والفقه والعقيدة، منها: أصول الدين، مسألة في الإمامة، كتاب المنزلة بين المنزلتين، كتاب الرد على المُجَبِّرة والقدرية، كتاب الرد على أهل الزيغ من المشبهين.

ـ الإمام المؤيد بالله، أحمد بن الحسين بن هارون، أبو الحسين

(١) الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص ٦٦ ـ ٦٩.

(٢) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ٣/ ٣٢٥ ـ ٣٢٦.

(٣) بروكلمان: م.ن، ص٣٢٧ ـ ٣٣٠؛ والنديم: الفهرست، ص٤٠٧ ـ ٤٠٩.

الهاروني[1]، وهو من طبرستان. ولد سنة ٣٣٣هـ/ ٩٤٤م، تولى إمامة الزيدية بجيلان وبلاد الديلم، واستمرت إمامته عشرين عاماً. وتوفي سنة ٤١١هـ/ ١٠٢٠م.

له مؤلفات في الفقه، ومؤلفات في العقيدة منها: كتاب إثبات نبوّة النبي، وكتاب في نصرة مذاهب الزيدية.

(٣) الإسماعيلية[2]

فرقة من فرق الشيعة، تنسب نفسها لإسماعيل، أكبر أبناء جعفر الصادق (ت١٤٨هـ/ ٧٦٥م)، وهو الإمام السادس، وكان قد أوصى بالإمامة لابنه موسى الكاظم، ولم يوص بها لإسماعيل، الذي توفي في حياة والده سنة ١٤٣ هـ/ ٧٦٠م. وقد رفض قسم من الشيعة الاعتراف بإمامة موسى الكاظم، ونقلوا الإمامة إلى إسماعيل[3]، مدَّعين أن أباه جعفر الصادق نص عليه في بدء الأمر[4].

قالوا[5]: وبعد إسماعيل، محمد بن إسماعيل السابع التام، وإنما تم دور السبعة به، ثم ابتدئ منه بالأئمة المستورين، الذين كانوا يسيرون في البلاد سراً، ويظهرون الدعاة جهراً.

---

(١) بروكلمان: **تاريخ الادب العربي**، ص٣٣٣؛ وتاريخ التراث العربي، لفؤاد سزكين، ٢/ ٣١٣ ـ ٣١٤.

(٢) للمزيد من المعلومات حول الإسماعيلية. راجع المصادر التالية:
- النديم: **الفهرست**، ص ٣٩٧ ـ ٤٠١.
- الأشعري: **مقالات الإسلاميين**، ص٢٦ ـ ٢٧.
- عبد القاهر البغدادي: **الفرق بين الفرق**، ص٣٩.
- الشهرستاني: **الملل والنحل**، ١/ ١٩١ ـ ١٩٨.
- بروكلمان: م.س، ٣/ ٣٥٢.

(٣) فؤاد سزكين: م.س، ٢/ ٣١٥ ـ ٣٣٣.

(٤) الشهرستاني: م.س، ١/ ١٩١.

(٥) الشهرستاني: م.ن، ١/ ١٩٢.

وقالوا: لن تخلو الأرض من إمام حيٍّ قائم، إمَّا ظاهر مكشوف، وإمَّا باطن مستور، فإذا كان الإمام ظاهراً، جاز أن يكون حجته مستوراً، وإذا كان الإمام مستوراً، فلا بُدّ أن يكون حجته ودعاته ظاهرين.

ثُمَّ بعد الأئمة المستورين، كان ظهور المهدي بالله، والقائم بأمر الله، وأولادهما، نصاً بعد نص، على إمام بعد إمام.

وأشهر ألقابهم الباطنية، وإنما لزمهم هذا اللقب لحكمهم بأن لكل ظاهر باطناً، ولكل تنزيل تأويلاً.

ويذكر الشهرستاني بعضاً من عقائدهم فيقول[1]

«ثُمَّ إن الباطنية قد خلطوا كلامهم ببعض كلام الفلاسفة، وصنّفوا كتبهم على هذا المنهاج؛ فقالوا في الله تعالى: إنّا لا نقول: هو موجود ولا لا موجود، ولا عالم ولا جاهل، ولا قادر ولا عاجز. وكذلك في جميع الصفات؛ فإن الإثبات الحقيقي يقتضي شركة بينه وبين سائر الموجودات، وذلك تشبيه، فلم يكن الحكم بالإثبات المطلق ولا النفي المطلق.

قالوا: وكذلك نقول في القِدَم: إنه ليس بقديم ولا محدث، بل القديم أمره وكلمته، والمحدث خلقه وفطرته. أبدع بالأمر العقل الأول الذي هو تام بالفعل، ثم بتوسطه أبدع النفس التالي، الذي هو غير تام. وفي العالم العلوي عقل ونفس كلي؛ فوجب أن يكون في هذا العالم عقل مشخص هو كُلٌّ، وحكمه حكم الشخص الكامل البالغ، ويسمونه الناطق، وهو النبي، ونفس مشخصة، وحكمه حكم الطفل الناقص المتوجه إلى الكمال، ويسمونه الأساس، وهو الوصي.

وقالوا: وكما تحركت الأفلاك والطبائع بتحريك النفس والعقل،

---

(١) الشهرستاني: الملل والنحل، ١/ ١٩٢ ـ ١٩٤.

كذلك تحركت النفوس والأشخاص بالشرائع بتحريك النبي والوصي في كل زمان، دائراً على سبعة سبعة، حتى ينتهي إلى الدور الأخير، ويدخل زمان القيامة، وترتفع التكاليف، وتضمحل السنن والشرائع».

وجاء في دائرة المعارف الإسلاميّة عن عقائد الإسماعيلية ما يلي[١]: «واكتساب المعرفة طريق الهداية، ولا يتحقق هذا إلاّ عن طريق الحد الجسماني المماثل للحد الروحاني الأول، وهم الأنبياء ومن يحل محلهم من الأئمة على الأرض؛ فهم يمثلون «العقل الروحاني»، ويطلق على مقابل «العقل» من الحدود الجسمانية «الناطق»، وعلى مقابل «النفس» «الأساس»، والناطق هو النبي الذي يعلن الوحي، والأساس هو من يوضح بالتأويل الباطن. أما الحدود التالية للناطق والأساس فهي: «الإمام»، و«الحجة»، الذي يأتي بالدليل على الرسالة الإلهية للأساس، و«الداعي». وكان محمد «ناطقاً»، وكان أساسه علياً.

ومن علماء الإسماعيلية الذين كان لهم دور بارز في نشر العقيدة، خاصّة في بلاد المشرق، نذكر:

ـ **أبو حاتم الرازي**[٢]: أحمد بن حمدان بن أحمد الورساني، كان داعية الإسماعيلية ببلاد الديلم، وكان له دور سياسي كبير في طبرستان والديلم وأصفهان والري. توفي سنة ٣٢٠ هـ/ ٩٣٣م.

من أشهر مؤلفاته «كتاب الزينة»، يتحدث فيه عن أسماء الله وعن الفِرَق. وكتاب أعلام النبوة، وهو رد على أحد الملحدين، وكتاب الإصلاح، وهو كتاب في تأويل القرآن من وجهة النظر الإسماعيلية.

---

(١) مقال للمستشرق هيورات Hurat في **دائرة المعارف الإسلامية**، عن الإسماعيلية. (نقلاً عن **تاريخ التراث العربي**، لفؤاد سزكين، المجلد الثاني، ص٣١٥، الهامش رقم ١).

(٢) فؤاد سزكين: م.ن، ٢/ ٣١٦؛ وقد ورد اسمه عند بروكلمان كالتالي: أبو حاتم عبد الرحمن بن همدان الرازي الورسناني، انظر: بروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، ٣/ ٣٥٢؛ وانظر: **الفرق بين الفرق**، لعبد القاهر البغدادي، ص١٧٠.

ـ **النسفي**: أبو عبد الله محمد بن أحمد، لقبه ناصر خسرو بـ «خوان الإخوان»[(١)]، كان داعية الإسماعيلية لدى أهل ما وراء النهر، وقد صنف لهم كتاب «المحصول»[(٢)].

وقد قتل النسفي شنقاً في تركستان سنة ٣٣١هـ/ ٩٤٢م[(٣)].

ـ **الكرماني**: حميد الدين أحمد بن عبد الله، كان رأس دعاة الإسماعيلية في بلاد المشرق[(٤)]، وأكبر داعية للإسماعيلية في العراق العربيّ، والعراق العجمي؛ فلُقب بحجة العراقين. عاش في عهد الإمام الفاطمي الحاكم بأمر الله (٣٨٤ ـ ٤١١هـ/ ٩٩٦ ـ ١٠٢٠م)، فدعاه إلى مصر سنة (٤٠٧هـ/ ١٠١٦م) وعهد إليه بإصلاح تعاليم الإسماعيلية؛ وكان أكبر كتّاب الإساعيلية ذكاءً ومعرفة، وقد حاول في مؤلفاته أن يعمق العقيدة، وأن يقيمها على أساس فلسفي. توفي سنة ٤١١هـ/ ١٠٢١م[(٥)] من أشهر كتبه: «كتاب المصابيح في إثبات الإمامة»، وكتاب «راحة العقل» وكتاب معاصم الهدى و«الإصابة في تفضيل علي على الصحابة»، وكتاب «مباسم الإشارات»، يتناول فيه قضية الإمامة وموضوعه الحاكم بأمر الله بصفة خاصّة.

ثانياً: الفلسفة

١ ـ تطوّر البحث الفلسفي حتى القرن الرابع للهجرة

ذكر النديم في «الفهرست»[(٦)] السبب الذي من أجله كثرت كتب الفلسفة وغيرها من العلوم القديمة في هذه البلاد، فقال:

---

(١) فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي، ٢/ ٣١٧.

(٢) عبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفرق، ص ١٧٠.

(٣) سزكين فؤاد: م.س، ٢/ ٣١٧.

(٤) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ٣/ ٣٥٥.

(٥) هكذا ذكر سزكين، أما بروكلمان فجعل وفاته سنة ٤٠٨ هـ/ ١٠١٧ م.

(٦) النديم: الفهرست، طبعة دار قطري بن الفجاءة، الدوحة، قطر، ص٥٠٤.

«أحد الأسباب في ذلك أن المأمون رأى في منامه كأن رجلاً أبيض اللون مُشرباً بحُمْرة، واسع الجبهة. . .جالس على سريره؛ قال المأمون: وكأني بين يديه قد مُلِئتُ منه هيبة؛ فقلت: من أنت؟ قال: أنا أرسطاليس؛ فسررت به وقلت: أيها الحكيم، أسألك: قال: سَل: قلت: ما الحسن، قال: ما حَسنَ في العقل؛ قلت: ثم ماذا؟ قال: ما حَسن في الشرع، قلت: ثُمَّ ماذا؟ قال: ما حسن عند الجمهور؛ قلت: ثُمَّ ماذا؟ قال: ثُمَّ لا ثُمَّ. وفي رواية أخرى، قلت: زدني؛ قال: من نصحك في الذهب؛ فليكن عندك كالذهب. وعليك بالتوحيد؛ فكان هذا المنام من أوكد الأسباب في إخراج الكتب؛ فإن المأمون كان بينه وبين ملك الروم مراسلات، وقد استظهر عليه المأمون؛ فكتب إلى ملك الروم يسأله الإذن في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم، فأجاب إلى ذلك بعد امتناع؛ فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر، وابن البطريق، وسَلْماً صاحب بيت الحكمة وغيرهم؛ فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا، فلما حولوه إليه، أمرهم بنقله فنقل»[١].

ونحن أوردنا هذا الخبر لنقول: إن عملية نقل الكتب الفلسفية من اللغة القديمة (ويقصد بها السريانية) أخذت شكلها الرسمي ـ أي بتكليف من الخليفة ـ كان على عهد المأمون (١٩٧ ـ ٢١٨هـ/ ٨١٣ ـ ٨٣٣م) الذي نهض بالبلاد نهضة علميّة جديرة بالتقدير والإعجاب، وما اهتمامه بحركة الترجمة من اللغات اليونانية والفارسية والسريانية إلى اللغة العربيّة إلاَّ دليل واضح على هذه النهضة، وفي عهده وجد بين العرب أنفسهم كثير من العلماء ألفوا كتباً هامّة في العلوم الفلسفية، وعلى رأسهم الكندي، الذي نهج في تآليفه نهج أرسطو، وترجم كثيراً من كتب الفلسفة، وأوضح ما فيها من الغموض[٢]. وهو المعروف بفيلسوف العرب[٣].

---

(١) ستعود إلى الحديث عن الترجمة والنقل لاحقاً، وهنا إشارة إلى أن هذه الكتب نُقلت من لغتها الأصلية إلى اللغة العربيّة.

(٢) حسن، علي إبراهيم: التاريخ الإسلاميّ العام، ص٤١١.

(٣) النديم: الفهرست، ص٥٢٢.

ولعل اهتمام المأمون بقضية خلق القرآن ـ وهو القول الذي ذهبت إليه المعتزلة ـ جعله أشد تعلقاً بالجدل والمنطق وعلم الكلام، أي بعلوم الفلسفة، هو الذي جعله يشجع المناظرات الفلسفية، وبالتالي يشجع الفلاسفة وعلماء الكلام، الذين كانت لهم المكانة العالية في عهده، كأبي الهُذَيْل العلاف وابن سيار والجاحظ وغيرهم.

ويقول بروكلمان[١]: «قدم المترجمون إلى المحيط الثقافي الإسلاميّ الكتب الأساسية في الفلسفة، إلى جانب الكتب الأساسية في الطبّ؛ وكان المنطق الأرسطاليسي قد دعا إلى التأمل النحوي، ووضع مع علم اللاهوت المسيحي الأسس لعلم الكلام؛ وعني المتكلمون أيضاً بما بعد الطبيعة، وكانوا في هذا متأثرين غالباً بالمذهب الأفلاطوني الجديد.

أمَّا العلماء الذين اتجهوا باهتمامهم خارج دوائر الفكر الإغريقي؛ فقد وجدوا أنفسهم متجهين أساساً إلى العناية بعلم النفس وعلم المنطق... وظلت دراسة الفلسفة محصورة في دوائر ضيقة.

ويعد أن أخذ المذهب السني على يد الأشعري بعض أفكاره الأساسية، اتخذ في معظم الأحيان موقفاً معارضاً لنموها».

ولا يمكننا دراسة تطوّر الفكر الفلسفي حتى القرن الرابع الهجري دون الوقوف عند فيلسوف العرب، أبي يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي، الذي عده المستشرق كروانو واحداً من أعظم الحكماء في تاريخ الإنسانيَّة[٢].

عمل الكندي ببغداد في زمن المأمون والمعتصم بالله، مترجماً ومفسراً للكتب اليونانية، وعالماً بالنجوم، ومؤدباً لأحد أبناء المعتصم بالله؛ ولقرب صلته بالمعتزلة أصابه الاضطهاد الذي بدأ ضدهم في خلافة المتوكل؛ فصودرت مكتبته ولم ترد إليه إلاَّ قبيل موت الخليفة (ت٢٤٧هـ/ ٨٦١م).

---

(١) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ٣/ ١٢٦ ـ ١٢٧.

(٢) بروكلمان: م.ن، ٣/ ١٢٧.

وقد توفي الكندي سنة ٢٥٦هـ/ ٨٧٠م، وقبل سنة ٢٦٠هـ/ ٨٧٣م.

كتب الكندي في علوم مختلفة، مثل المنطق والفلسفة والحساب والموسيقى والنجوم، وغير ذلك. وقد ذكره النديم ضمن عداد الفلاسفة الطبيعيين إيثاراً لتقدمه في هذا العلم[١]، وعدّد له اثنين وعشرين كتاباً في الفلسفة، وعشرة كتب في المنطق، إضافة إلى مجموعة أخرى من الكتب في علوم متنوعة.

٢ ـ أشهر الفلاسفة وأهم آرائهم

أ ـ الفارابي[٢]

أبو نصر، محمد بن محمد بن طرخان، الفارابي؛ أصله من أسرة تركية كانت تعيش في مدينة فاراب القديمة، الواقعة على الضفة اليسرى من نهر سيحون.

درس أولاً في خراسان، ثُمَّ رحل إلى بغداد؛ فدرس الفلسفة خاصّة، إلى جانب الطبّ والعلوم الرياضية؛ ووجد بعد ذلك في حلب، في بلاد سيف الدولة الحمداني، المكان الصالح للتفكير والتأمل والتأليف.

لقب الفارابي بالمعلم الثاني، لأنه شرح كتب أرسطو، ولكنه عمل كالكندي قبله على مزج فلسفة أرسطو بالمذهب الأفلاطوني الجديد، في نظام واحد، أتمه ابن سينا بعد ذلك، وفلسفته مختلطة بأفكار الصوفية أشد اختلاط، وعني إلى جانب الفلسفة بالعلوم الرياضية وبالموسيقى خاصّة، واشتغل بتأليف الألحان.

---

(١) النديم: **الفهرست**، ص٥٢٢؛ وبروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، ٣/١٢٨ ـ ١٢٩.

(٢) بروكلمان: م.ن، ٤/ ١٣٧ ـ ١٥٢. وللمزيد من المعلومات عن الفارابي، راجع:
- النديم: م.س، ص٥٣٣.
- الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ١/ ١٠٦.
- صاعد الأندلسي: **طبقات الأمم**، ص٨٥.
- ابن العماد: **شذرات الذهب**، ٢/ ٣٥٠ ـ ٣٥٤.

صنف الفارابي الكثير من المؤلفات في شتى العلوم التي كانت مرتبطة بالفلسفة في ذلك الزمان. ومن العلوم التي صنف فيها نذكر: المنطق، الأخلاق، السياسة، الرياضيات، التنجيم، الكيمياء، الموسيقى، التصوف.

والفارابي، فيلسوف المسلمين غير مدافع، شرح الكتب المنطقية وأظهر غامضها، وكشف سرها وقرب متناولها، وجمع ما يحتاج إليه منها في كتب صحيحة العبارة، لطيفة الإشارة، مُنَبِّهةً على ما أغفله الكندي وغيره، من صناعة التحليل وأنحاء التعليم، وأوضح القول فيها عن طرق المنطق، وأفاد الإمتاع بها، وعرف طرق استعمالها، وكيف يصرف صورة القياس في كل مادة منها؛ فجاءت كتبه في ذلك الغاية الكافية والنهاية الفاضلة.

ثُمَّ له بعد هذا كتاب في إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها لم يسبق إليه، ولا ذهب أحد مذهبه فيه، ولا يستغني طلاب العلوم كلها عن الاهتداء به وتقديم النظر فيه.

وله كتاب في أغراض أفلاطون وأرسطاليس، يشهد له بالبراعة في صناعة الفلسفة، والتحقق بفنون الحكمة، وهو أكبر عون على تعلم النظر، اطلع فيه على أسرار العلوم وثمارها، علماً علماً، وبين كيف التدرج من بعضها إلى بعض.

وكَتب الفارابي في العلم الإلهي والعلم المدني كتابين لا نظير لهما، أحدهما المعروف بالسياسة المدنية، والآخر المعروف بالسيرة الفاضلة، عرف فيهما بجمل عظيمة من العلم الإلهي على مذهب أرسطو في المبادئ الروحانية، وكيف يوجد منها الجواهر الجسمانية على ما هي عليه من النظام واتصال الحكمة، وعرف فيها بمراتب الإنسان وقواه النفسانية، وفرق بين الوحي والفلسفة، ووصف أصناف المدن الفاضلة واحتياج المدنية إلى السير الملكية والنواميس النبوية.

قَدِمَ الفارابي على سيف الدولة الحمداني، في حلب، بِزي التصوف، وأقام عنده مدة، فقدمه سيف الدولة وأكرمه، وعرف موضعه من العلم

ومنزلته من الفهم؛ ورحل في صحبته إلى دمشق، فأدركه أجله بها سنة ٣٣٩هـ/ ٩٥٠م، عن عمر يناهز الثمانين عاماً.

ب ـ أبو سليمان السجستاني

محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني[١]، المنطقي[٢] نزيل بغداد؛ قرأ على متى ابن يونس وأمثاله، وتصدر للإفادة في هذا الشأن؛ قصده الرؤساء والأجلاء، وكان منزله حافلاً بالعلماء والحكماء. كان عضد الدولة يكرمه ويفخمه؛ كتب له السجستاني رسائل عدة في فنون مختلفة من الحكمة[٣]. وله كتب، منها: رسالة في مراتب قوى الإنسان[٤]، وشرح كتاب أرسطو. وقد توفي ـ على الأرجح ـ في أواخر القرن الرابع للهجرة.

أهم آرائه

لعل أفضل من يطلعنا على آراء أبي سليمان السجستاني الفلسفية، تلميذه أبا حيان التوحيدي (ت٤١٤هـ/ ١٠٢٣م) فقد كان جاره ومُعاشره، ولصيقه وملازمه، وحافظ غاية خبره[٥]، درس الحكمة والمنطق عليه، فكان كثير الأخذ عنه وتدوين كلامه، ومن يتصفح كتاب «المقابسات» للتوحيدي، يجد أن أغلب المحاورات والمناظرات التي دونها التوحيدي هي من أحاديث أستاذه السجستاني[٦]. كذلك نجد في كتاب «الإمتاع والمؤانسة للتوحيدي»، الكثير من آراء السجستاني الفلسفية[٧].

---

(١) النديم: **الفهرست**، ص٥٣٥.
(٢) القفطي: **أخبار العلماء بأخبار الحكماء**، ص١٨٥؛ والتوحيدي: **الإمتاع والمؤانسة**، ١/ ٣٠.
(٣) القفطي: م. ن، ص١٨٦.
(٤) ذكر النديم هذه الرسالة وسماها: مقالة في قوى الإنسان وكيفية الإنذارات التي تنذر بها النفس مما يحدث في عالم الكون.
(٥) التوحيدي، أبو حيان: م.س، ١/ ٢٩.
(٦) الكيلاني، إبراهيم: مقدمة كتاب **مثالب الوزيرين**، للتوحيدي، ص(هـ).
(٧) راجع كتاب أبي حيان التوحيدي: م.س، ٣/ ١٠٦ ـ ١٢٦ (الليلة ٣٥) و٣/ ١٢٨ ـ ١٤٧ (الليلة ٣٧).

ومن القضايا الفلسفية التي كانت تطرح في مجالس الفلاسفة، الحديث عن النفس، والروح، والإنسان، والطبيعة، والعقل، والفرق بين الأنفس، وأصناف الحياة، والحديث عن الأخلاق والعادات والطباع، والحديث عن السحر، وآراء الفلاسفة والعلماء بشأن علم الكلام والمتكلمين، وغير ذلك من القضايا.

وها هو أبو سليمان السجستاني يجيب عن كل هذه الأسئلة التي حيرت العقول؛ فيعرض آراء العلماء والفلاسفة والمتكلمين، ثُمَّ يردّ عليها ويبين رأيه بكل وضوح، بعبارة فلسفية تدلّ على ثقة هذا الفيلسوف بصواب ما يقول.

يقول السجستاني[1]: «يكفي أن تعلم أن النفس قوة إلهية، واسطة بين الطبيعية المُصَرِّفة للإسطقسات والعناصر المتهيئة، وبين العقل المُنير لها، الشائع فيها، المحيط بها. . . وأمَّا فعل النفس فقد وضح أنه إثارة العلم من مظانِّه، واستخلاصه من العقل بشهادته. . .

والنفس شيء بسيط، عالي الرتبة، بعيد عن الفساد، مُنَزَّه عن الاستحالة، ثُمَّ إن النفس تبقى ولا تفنى، وليس يطرأ عليها ما يفنيها، لبساطتها وبعدها من التركيب العجيب.

أمَّا الإنسان، فهو الشيء المنظوم بتدبير الطبيعة للمادة المخصوصة بالصور البشرية، المؤيد بنور العقل من قبل الإله.

وأمَّا الطبيعة، فهي أيضاً قوة نفسية؛ فإن قلت عقلية، لم تبعد، وإن قلت إلهية لم تبعد، وهي التي تسري في أثناء هذا العالم، مُحركة ومُسكنة، ومُجددة ومُبلية، ومُنشئة ومبيدة، ومُحيية ومُميتة.

أمَّا العقل؛ فهو قوة إلهية، هو خليفة الله، وهو القابل للفيض الخالص؛ فإن قيل: هو نور في الغاية، لم يكن ببعيد، وإن قيل: بأن اسمه مُغْنٍ عن نَعْتِهِ لم يكن بمنكر؛ فأمَّا إذا فحص عن آثاره فإنه تمييزٌ، وتحصيل،

(١) التوحيدي، أبو حيان: الإمتاع والمؤانسة، ٣/ ١٠٥ ـ ١٢٦، الليلة الخامسة والثلاثون.

وتصفح، وحكم، وتصويب، وتخطئة، وإجازة، وإيجابٌ، وإباحة... وأما مرتبته عند الإله فقد وضح بأنه كالشمس، تطلع فتحيي، وتضيء فتنفع...

وأمَّا المعاد ـ عود النفس ـ فإنَّما هو تخليتها للبدن إذا حان وقت التخلية؛ إما لأن البدن غير محتمل لمادة الحياة، وإما لأن النفس قد أزمعت أمراً آخر، ولا يتم لها ذلك إلا بتخلية هذا، وإما لهما.

أمَّا الحياة؛ فأنت إذا حددت الحيّ أو الحياة لم تقدر أن تصف الله بشيء من ذلك، لأن ما يعلو وينزه عن الصفات لا يقال له إلا حي. أمَّا الإنسان فإنه يقال له حي بسبب الحسّ والحركة وما يتبعهما مما هو كمال الحيّ؛ فالله الذي لا سبيل للعقل أن يدركه أو يحيط به أو يجده وجداناً، أولى وأحرى أن يمسك عنه عجزاً، إلا بما وقع الإذْن به من جهة صاحب الدين، والذي هو مالك أزمة العقول ومرشدها إلى السعادات، وزاجرها عن التخطي إلى ما لا يجوز. وليس للخلق من هذا الواحد الأحد إلاَّ الإنية والهوية؛ فأمَّا كيف، ولِمَ، وما هو، فإنَّها طائرة في الرياح، كما تسمع وترى».

ونكتفي بهذا القدر من آراء أبي سليمان السجستاني في هذه القضايا؛ ومن أراد المزيد فليرجع إلى كتب التوحيدي فهي غنية بها.

موقف السجستاني من الجمع بين الدين والفلسفة

ومن الآراء المهمة التي يبديها السجستاني رفضه لآراء الفلاسفة في الجمع بين الفلسفة والدين، وفي ارتباط الفلسفة بالحقائق الشرعية كما يدعي الفلاسفة، وقد كان هذا الادعاء الشغل الشاغل لفلاسفة القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد.

يقول السجستاني[1]: «لقد اختلفت الأمة ضروباً من الاختلاف في

(١) نقلاً عن الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي تلميذ السجستاني، الجزء الثاني، ص٩ ـ ١٠ (الليلة السابعة عشرة).

الأصول والفروع، وتنازعوا فيها فنوناً من التنازع في الواضح والمشكل من الأحكام، والحلال والحرام، والتفسير والتأويل، والعيان والخبر، والعادة والاصطلاح، فما فزعوا (أي توجهوا) في شيء من ذلك إلى منجم ولا طبيب، ولا منطقي، ولا مهندس، ولا موسيقي، ولا صاحب عزيمة وشعبذة وسحر وكيمياء[1]، لأن الله تعالى تَمم الدين بنبيه صلى الله عليه وسلم، ولم يُحْوِجْهُ بعد البيان الوارد بالوحي إلى بيانٍ موضوعٍ بالرأي.

وكما لم نجد في هذه الأمَّة من يفزع إلى أصحاب الفلسفة في شيء من دينها؛ فكذلك أمَّة عيسى عليه السلام، وهي النصارى، وكذلك المجوس.

ومما يزيدك وضوحاً ويريك عجباً، أن الأمَّة اختلفت في آرائها ومذاهبها ومقالاتها؛ فصارت أصنافاً فيها وفرقاً، كالمرجئة والمعتزلة والشيعة والسنة والخوارج؛ فما فزعت طائفة من هذه الطوائف إلى الفلاسفة، ولا حققت مقالتها بشواهدهم وشهادتهم، ولا اشتغلت بطريقتهم، ولا وجدت عندهم ما لم يكن عندها بكتاب ربها وأثر نبيها. وهكذا الفقهاء الذين اختلفوا في الأحكام منذ أيام الصدر الأول إلى يومنا هذا، لم نجدهم تظاهروا بالفلاسفة فاستنصروهم، ولا قالوا لهم: أعينونا بما عندكم، واشهدوا لنا أو علينا بما قبلكم. (أي بما عندكم). قال: فأين الدين من الفلسفة؟ وأين الشيء المأخوذ بالوحي النازل، من الشيء المأخوذ بالرأي الزائل؟

فإن أَدَلُّوا (أي قدموا الدليل) بالعقل، فالعقل موهبة من الله جل وعز لكل عبد، ولكن بقدر ما يدرك به ما يعلوه، كما لا يخفى به عليه ما يتلوه؛ وليس كذلك الوحي؛ فإنه على نوره المنتشر.

قال: وبالجملة، النبي فوق الفيلسوف، والفيلسوف دون النبي[2]،

---

(١) يريد بذلك العلوم التي كان يتعاطاها الفلاسفة.

(٢) هذا ردٌّ من السجستاني على من يقول: إن النبوّة فرع من فروع الفلسفة وأن الفلسفة أصل علم العالم، وأن النبي محتاج إلى تتميم ما يأتي به من جهة الحكيم، والحكيم غني عنه. (الإمتاع والمؤانسة، لأبي حيان التوحيدي، ٢/ ٢١).

وعلى الفيلسوف أن يتبع النبي، وليس على النبي أن يتبع الفيلسوف، لأن النبي مبعوث، والفيلسوف مبعوث إليه.

ويقول أخيراً: إن الفلسفة مأخوذة من العقل المقصور على الغاية، والديانة مأخوة من الوحي؛ ومما يؤكد هذه الجملة أن الشريعة قد أتت على معقول كثير، بنور الوحي المنير، ولم تأت الفلسفة على شيء من الوحي، لا كثير ولا قليل.

وجدير بالذكر أخيراً، أن أبا إسماعيل السجستاني، هو الذي حمل إليه أبو حيان التوحيدي، تلميذه، رسائل إخوان الصفا، وعرضها عليه ليُبدي رأيه فيها، ويرد على ما جاء فيها من أقوال وآراء، رداً يُظهِر سعة معرفته وقوة حجته، وسداد منطقه؛ وهذا ما سأشير إليه عند حديثي عن إخوان الصفا.

ج ـ إخوان الصفا

يقول بروكلمان[1]: «بعد أن أثقل ردَّ الفعل السني، الذي صدر عن المتوكل (الخليفة العباسي)، النفوس طويلاً، وكبح خاصّة الاشتغال بالفلسفة، أتى مُعز الدولة البويهي، عند استيلائه على السلطة في بغداد سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م، بالتحرير من الاضطهاد والمحاكمة، لأنه وهو شيعي، لم يكن يهتم بدعم المذهب السني. وعقب ذلك، بدأت بالظهور جهود الباطنية، الذين ارتبطوا بالأفكار المانوية، التي كانت شائعة بين المثقفين. وتبع ذلك أن ازداد نفوذ الأفلاطونية الجديدة، فكبحت مذهب أرسطو، الذي كان يمثله الكندي وتلاميذه.

وكانت نصرة هذا الاتجاه الفكري الجديد، هدف رجالٍ مُزَودين بثقافة فلسفية، التقوا بالبصرة في منتصف القرن الرابع، وكان هؤلاء الرجال المثقفين، المعتصمين بالسرية، يُسَمُّون أنفسهم «إخوان الصفا».

---

(١) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ٤/ ١٥٤ ـ ١٥٥.

وقد اتسع نشاطهم متجاوزاً البصرة إلى بغداد؛ ونعتقد أن هذا النشاط وصل إلى بلاد المشرق الإسلاميّ، حيث إن إحدى رسائلهم المُسمّاة بـ«الجامعة» تثبت صلتهم بصفة خاصة بالإسماعيلية.

لقد وضعت هذه الجماعة لنفسها مذهباً أرادت به تطهير الشريعة من الجهالات التي علقت بها، وذلك بواسطة الفلسفة، معتقدة أن الكمال إنما يتألف من امتزاج الفلسفة اليونانية بالشريعة الإسلاميّة[1].

وكانت هذه الجماعة تتألف من أربع طبقات:

ـ **الطبقة الأولى**: قوامها الشبان، الذين تتراوح أعمارهم بين خمسة عشر وثلاثين، وواجبهم طاعة معلميهم.

ـ **والطبقة الثانية**: قوامها رجال بين الثلاثين والأربعين، يتلقون الحكمة الدنيوية، ويتعلمون علماً يتناسب مع هذه المرحلة من العمر.

ـ **والطبقة الثالثة**: أفرادٌ سنهم بين الأربعين والخمسين، وهم يعرفون الناموس الإلهي، معرفةً تتناسب مع مرتبتهم، وهي مرتبة الأنبياء.

ـ **الطبقة الرابعة**: إذا نيّف الرجل على الخمسين، شهد حقائق الأشياء على ما هي عليه، وتلك هي منزلة الملائكة المقربين.

ولإخوان الصفاء رسائل هي أشبه ما تكون بدائرة معارف، تشتمل على علوم عصرهم، وهي تتألف من إحدى وخمسين رسالة ـ وقيل اثنتين وخمسين ـ مختلفة الموضوعات والمصادر، تبدأ بالرياضيات ثُمَّ المنطق والطبيعيات، وتنتهي إلى صوفية تحاول الاقتراب من معرفة الله.

ومذهب إخوان الصفا مقتبس من مختلف المذاهب؛ فهو تلفيقي؛ على **أن المبدأ الأساسي عندهم هو العقل؛** ولذلك فهم يعدون ظاهر الشريعة

(١) **الموسوعة الفلسفية المختصرة**، راجعها وأشرف عليها زكي نجيب محمود، مكتب الأنجلو ـ المصرية، القاهرة، سلسلة الألف كتاب (٤٨١)، ١٩٦٣، ص٣٠ ـ ٣١.

صالحاً للعامة دون الخاصّة؛ أمّا هؤلاء الخاصّة فنصيبهم النظر الفلسفي العقلي العميق.

إن أقدم مصدر ذكر إخوان الصفا ورسائلهم وآراءهم هو كتاب أبي حيان التوحيدي (ت ٤١٤هـ/ ١٠٢٣م) «الإمتاع والمؤانسة» حيث يذكر في الجزء الثاني منه، الليلة السابعة عشرة[١]، أسماءهم وآراءهم، ونقد العلماء لهم، وذلك عندما طلب منه وزير صمام الدولة البويهي[٢]، أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان، أن يخبره بما علمه عنهم من صديقه زيد بن رفاعة، الذي كان على اتصال بهم، عندما أقام بالبصرة. وها نحن نثبت ما جاء به التوحيدي:

قال متحدثاً عن زيد بن رفاعة: «وقد أقام بالبصرة زماناً طويلاً، وصادف بها جماعة لأصناف العلم، وأنواع الصناعة؛ منهم:

- أبو سليمان محمد بن معشر البَيستي[٣]، ويعرف بالمقدسي.
- وأبو الحسن علي بن هارون الزنجاني (أو الريحاني).
- وأبو أحمد محمد المهرجاني[٤] (أو النهر جوري).
- والعَوفي، وغيرهم.

آراؤهم: (كما ذكرها التوحيدي)

وكانت هذه العصابة قد تآلفت بالعشرة، وتصافت بالصداقة واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة؛ فوضعوا بينهم مذهباً، زعموا أنهم قرّبوا به (الطريق) إلى الفوز برضوان الله، والمصير إلى جنته؛ وذلك أنهم قالوا:

---

(١) التوحيدي، أبو حيان: **الإمتاع والمؤانسة**، ٢/ ٤٩.

(٢) وكان ذلك سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة، على ما ذكر القفطي في كتابه «**أخبار العلماء بأخبار الحكماء**»، ص٥٨.

(٣) البيستي: نسبة إلى بيست، من قرى الري.

(٤) المهرجاني: نسبة إلى مهرجان، من قرى إسفرايين.

الشريعة قد دُنِّسَتْ بالجهالات، واختلطت بالضلالات، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة، لأنها حاوية للحكمة الاعتقاديّة، والمصلحة الاجتهادية.

وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربيّة[1]؛ فقد حصل الكمال. وصنفوا خمسين رسالة في جميع أجزاء الفلسفة: عِلميها وعمليها؛ وأفردوا لها فهرستاً، وسموها: رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء؛ وكتموا أسماءهم، وبثوها في الوراقين، ولقنوها للنَّاس، وادّعوا أنَّهم ما فعلوا ذلك إلاَّ ابتغاء وجه الله، عز وجل، وطلبَ رضوانه، ليخلصوا النَّاس من الآراء الفاسدة، التي تضر النفوس، والعقائد الخبيثة التي تضر أصحابها، والأفعال المذمومة التي يشقى بها أهلها؛ وحَشوا هذه الرسائل بالكَلِم الدينية، والأمثال الشرعية، والحروف المحتملة[2]، والطرق الموهمة.

فقال (أي الوزير، مخاطباً أبا حيان): هل رأيت هذه الرسائل؟ قلت: قد رأيت جملة منها، وهي مبثوثة من كل فنٍّ، نتفاً بلا إشباع ولا كفاية؛ وفيها خرافات، وكنايات، وتلفيقات، وتلزيقات، وقد غرق الصواب فيها، لغلبة الخطأ عليها».

ثُمَّ يذكر أبو حيان أنه حمل عدة من هذه الرسالة إلى شيخه أبي سليمان المنطقي السجستاني، محمد بن بهرام، وعرضها عليه.

ثُمَّ يبدأ بإيراد رأي شيخه في هذه الرسائل وفي أصحابها، ويفند آراءهم، بل يسفّهها، ويقول: «تعبوا وما أغنَوْا، وحاموا وما وردوا، وغنوا وما أطربوا، ونسجوا فهلهلوا، ظنوا ما لا يكون، ولا يمكن، ولا يستطاع. . . ظنوا أنهم يمكنهم أن يدسوا الفلسفة في الشريعة، وأن يضموا الشريعة إلى الفلسفة.

(١) يريد أن الدَّعوة الإسلاميّة بدأت بالعرب، ثُمَّ توسعت لتشمل النَّاس كافة.

(٢) الحروف المحتملة: أي الكلمات التي تحتمل أوجهاً عدة من المعاني.

ثُمَّ يقول: فأين الدين من الفلسفة؟ وأين الشيء المأخوذ بالوحي النازل، من الشيء المأخوذ بالرأي الزائل؟...

قال: ولو كان العقل يكتفى به، لم يكن للوحي فائدة ولا غناء. على أن منازل النَّاس متفاوتة في العقل، وأنصباءهم مختلفة فيه؛ فلو كُنا نستغني عن الوحي بالعقل، كيف كنا نصنع؟

ويتابع التوحيدي عرض آراء شيخه أبي سليمان السجستاني، راداً على مقولات إخوان الصفاء، مُسَفِّهاً آراءهم، داعماً رأيه بالحُجج والبراهين، وذلك حتى نهاية ما ورد في هذه الليلة.

ونكتفي بهذا القدر من بيان آراء إخوان الصفا، وعلى من يرغب في المزيد من الاطلاع والمعرفة الرجوع إلى كتاب التوحيدي؛ مع الإشارة إلى أن القفطي نقل معظم ما جاء في هذه الليلة من ردود على أقوال إخوان الصفاء(1).

ثالثاً: التصوّف

١ ـ تطوّر الفكر الصوفي حتى القرن الرابع للهجرة

مما لا شك فيه أن انطلاقة الاتجاه نحو التصوف في الإسلام كانت متأثرة بزهد بعض صحابة رسول الله وتابعيهم، من الذين فهموا ما جاء في القرآن الكريم من آيات تشير إلى أن الحياة الآخرة خيرٌ وأبقى من الحياة الدنيا التي هي لهوٌ ولعب. من ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٌ وَأَبۡقَىٰٓ﴾(2)، وقوله: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٌ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ﴾(3) وقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾(4)، وقد فهم هؤلاء الصحابة والتابعين أن الله تعالى يدعوهم إلى

---

(١) القفطي: أخبار العلماء بأخبار الحكماء، دار الآثار للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت (د.ت.)، ص٥٨ ـ ٦٣.

(٢) سورة الأعلى، الآية: ١٧.

(٣) سورة الضحى، الآية: ٤.

(٤) سورة غافر، الآية: ٣٩.

الزهد في هذه الدنيا، وذلك في قوله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[1]، كذلك كان الصحابة يسمعون من رسول الله أحاديث في الحث على عدم الانشغال بالدنيا[2]، وكذلك الحث على القناعة والرضى بما يقسمه الله لهم من رزق[3]، وهذه القناعة هي أساس الزهد في الدنيا.

ومن أدعية رسول الله المشهورة، قوله: «اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همّنا ولا مبلغ علمنا».

فهذه الأحاديث، وتلك الآيات، فيها دَعوة إلى الزهد في الدنيا، وعدم التمسك بها، بل العمل للآخرة التي هي خيرٌ وأبقى.

إن هذا الاتجاه في الزهد الذي عرف في صدر الإسلام كان ظاهراً في حياة الصحابة أو بعضهم على الأقل؛ لكن قضية تدوين نصوص الزهد لم تكن ظاهرة في تلك الفترة، وإن وُجِدَت بعض النصوص التوجيهية أو الوعظية التي تحثّ على ترك الدنيا وملذاتها، والعمل على تحصيل ما ينفع في الآخرة، كبعض وصايا الصحابة، أو بعض الخطب الدينية الوعظية، أو ما شابه ذلك.

وتجعل كتب التصوف الإسلاميّ، وبالأخص كتب تراجم الزهاد والعبّاد ورجال الصوفية، الحسن البصري من الزهّاد الروّاد الثمانية، وأكثرهم من التابعين، وهم[4]:

- هرم بن حيان (المتوفى بعد سنة ٢٦هـ/ ٦٤٧م).

---

(١) سورة القصص، الآية: ٨٣.

(٢) من ذلك قول رسول الله: «... إني لا أخشى عليكم أن تُشرِكوا، ولكني أخشى عليكم الدنيا، أن تنافسوا فيها وتقتتلوا، فتهلكوا كما هلك من كان قبلكم». راجع نص الحديث في كتاب منهاج الصالحين، لعز الدين بليق ص٨٣٧، الحديث رقم ١٤٦٤.

(٣) من ذلك قول رسول الله: «قد أفلح من أسلم، وكان رزقه كفافاً، وقنعه الله بما أتاه». راجع: م.س، ص٨٢٧، الحديث رقم ١٤٢٨.

ـ أويس بن عامر القرني (المتوفى سنة ٣٧هـ/ ٦٥٧م).

ـ عامر بن عبد الله بن عبد قيس (المتوفى قبل سنة ٦٠هـ/ ٦٧٩م).

ـ الربيع بن خيثم (المتوفى سنة ٦٢هـ/ ٦٨٢م).

ـ أبو مسلم عبد الله بن ثوب الخولاني (المتوفى سنة ٦٢هـ/ ٦٨٢م).

ـ مسروق بن الأجدع (المتوفى سنة ٦٣هـ/ ٦٨٣م).

ـ الأسود بن يزيد النخعي (المتوفى سنة ٧٥هـ/ ٦٩٤م).

ـ الحسن البصري (المتوفى سنة ١١٠هـ/ ٧٢٨م).

ولم تهتم المصادر الإسلاميّة بتسجيل أولية تدوين هؤلاء الثمانية لأقوالهم؛ ويوصفون عادة بأنَّهم «نُسّاك» أو «زهاد» أو «عبّاد»، ولم يُذكر منهم صراحة إلا الحسن البصري مؤلفاً للكتب أو الرسائل الوعظية، وما تركه غيره لا يتعدى كونه أقوالاً ومواعظ وحكماً ومواعظ. وقد خصص الجاحظ[1] في كتابه «البيان والتبيين» فصلاً قائماً بذاته تحت عنوان «كتاب الزهد» ذكر فيه مختارات من أقوال هؤلاء الرجال وأمثالهم.

كذلك تجد في كتاب أبي نُعيم الأصبهاني، أقوالاً عديدة لمن ترجم لهم من الزهاد الأوائل[2].

وقد تطوّرت عملية جمع أقوال الزهاد العباد مع بداية العصر العباسي؛ وأقدم ما وصل إلينا من تلك الفترة كتاب الزهد لعبد الله بن المبارك (ت ١٨١هـ/ ٧٩٧م).

وفي القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، أخذت مكتبة الزهد ـ

(١) أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء، ٢/ ٧٩ ـ ٩٨، ١٠٢ ـ ١٦١؛ وانظر أيضاً: فؤاد سزكين، **تاريخ التراث العربي**، ٢/ ٤٢٠.

(٢) الجاحظ: **البيان والتبيين**، ٣/ ١٢٥ ـ ٢٠٢.

بالمعنى الحقيقي للكلمة تتكون، واستمر كذلك ما كان المُحدثون وأهل التقى والورع قد اهتموا به من قبل[1].

وما إن نصل إلى القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، حتى نجد عالماً صوفياً اهتم بتصنيف العديد من الكتب حول موضوع التصوف، هو أبو عبد الرحمن السُّلمي، المتوفى سنة ٤١٢هـ/ ١٠٢١م فمن مصنفاته نذكر: «آداب الصوفية»، «الأربعين في الحديث»، وهي رسالة ضمن أربعين حديثاً في الزهد، «تاريخ الصوفية»، «جوامع آداب الصوفية»، «كتاب الزهد»، «سلوك العارفين»، «مناهج العارفين»، و«طبقات الصوفية»، الذي أورد فيه أخبار الكثير من رجال الصوفية وما نسب إليهم من أقوال.

٢ ـ الحركة الصوفية في القرن الرابع للهجرة/ وأشهر رجالها

هذا القرن شهد نشاطاً ملحوظاً للحركة الصوفية في العالم الإسلاميّ، وعلى الأخص في بلاد المشرق.

(١) **عبد الله بن منازل**[2]: أبو محمد، من أجل مشايخ نيسابور، له طريقة يتفرد بها.

صحب أبا صالح، حمدون بن أحمد القصار، وأخذ عنه طريقته. كان عالماً بعلوم الظاهر، كتب الحديث الكثير. مات بنيسابور سنة ٣٢٩ هـ/ ٩٤٠م.

من أقواله: «لم يضيع أحد فريضة من الفرائض إلاّ ابتلاه الله بتضييع السنن، ولم يبتل أحد بتضييع السنن إلاّ أوشك أن يبتلى بالبدع». وقوله: «العبودية الرجوع في كل شيء إلى الله تعالى، على حد الاضطرار».

---

(١) أبو نعيم الأصبهاني، **حلية الأولياء**، راجع فهرس الكتاب ففيه أسماء من ترجم لهم من السلف الصالح.

(٢) فؤاد سزكين، **تاريخ التراث العربي**، ٢/ ٤٣١.

(٢) **إبراهيم بن شيبان القَرْمَسيني**[١]: أبو إسحاق، شيخ الجبل في وقته، له مقامات في الورع يعجز عنه الخلق إلا مثله. كان شديداً على المدعين، متمسكاً بالكتاب والسنة، لازماً لطريقة المشايخ والأئمة. قيل عنه: «إبراهيم حجة الله تعالى على الفقراء، وأهل الآداب والمعاملات».

من أقواله: «إن الخوف إذا سكن القلب أحرق مواضع الشهوات فيه، وطرد عنه رغبة الدنيا، وبعده عنها». وقوله: «التوكل سر بين الله وبين العبد، فلا ينبغي أن يطلع على ذلك السر أحد».

وقوله: «تعلم العلم لآداب الظاهر، واستعمل الورع لآداب الباطن، وإياك أن يشغلك عن الله شاغل».

(٣) **محمد بن عَليان النَّسَوي**[٢]: من كبار مشايخ نَسَا، كان إمام أهل المعارف، وكان يخرج من نسا إلى نيسابور للقاء أبي عثمان الحيري، في مسائل يريد أن يسأله عنها؛ فلا يأكل ولا يشرب في الطريق، حتى يصل إلى نيسابور، فيسأله عن تلك المسائل. وهو من أعلى المشايخ هِمّةً؛ له الكرامات الظاهرة.

من أقواله: «الزهادة في الدنيا مفتاح الرغبة في الآخرة»؛ وقوله: «من أظهر كراماته فهو مُدَّعٍ، ومن ظهرت عليه الكرامات فهو ولي». وقوله: «من خدم الله تعالى لطلب ثواب، أو خوف عقاب، فقد أظهر خِسَّته، وأبدى طمعه؛ فقبيح بالعبد أن يخدم سيده لعوض».

(٤) **أبو العباس السياري**[٣]: واسمه القاسم بن القاسم بن مهدي. كان من أهل مرو، وشيخهم، وأول من تكلم عندهم من أهل بلدهم في حقائق

---

(١) السلمي: **طبقات الصوفية**، ص٣٦٦ ـ ٣٦٩.
(٢) فؤاد سزكين، **تاريخ التراث العربي**، ص٤٠٢ ـ ٤٠٥.
(٣) السلمي: م.س، ص٤١٧ ـ ٤١٩.

الأحوال. صَحِب أبا بكر الواسطي، وإليه ينتمي في علوم هذه الطائفة. كان أحسن المشايخ لساناً في وقته، يتكلم في علوم التوحيد، على لسان الجبر، وجميع من بكورته من أهل السنة، فهم أصحابه. كان فقيهاً عالماً. كتب الحديث الكثير ورواه. توفي سنة ٣٤٢هـ/ ٩٥٣م. من أقواله: «من حفظ قلبه مع الله بالصدق، أجرى الله على لسانه الحكمة».

(٥) الرازي الشعراني[١]: أبو محمد، عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الرازي الشعراني، رازي الأصل، ومولده ومنشؤه بنيسابور. صحب المشايخ الكبار، وهو من جِلّة أصحاب أبي عثمان الحيري النيسابوري، وكان أبو عثمان يكرمه ويُجِلّه ويعرف له محله ومكانته.

وهو من أجل مشايخ نيسابور في وقته، له من الرياضات ما يعجز عنها إلاّ أهلها، وكان عالماً بعلوم الطائفة، وكَتَب الحديث الكثير ورواه، وكان ثقة. مات سنة ٣٥٣هـ/ ٩٦٤م.

من أقواله: «المعرفة تهتك الحجب بين العبيد ومولاهم، والدنيا هي التي تحجبهم عن مولاهم».

سئل عبد الله الرازي: ما بال النَّاس يعرفون عيوبهم، وعيوب ماهم فيه، ولا ينتقلون من ذلك، ولا يرجعون إلى طريق الصواب؟ فأجاب: «لأنهم اشتغلوا بالمباهاة بالعلم ولم يشتغلوا باستعماله، واشتغلوا بآداب الظواهر وتركوا آداب البواطن؛ فأعمى الله قلوبهم عن النظر إلى الصواب، وقيد جوارحهم عن العبادات».

(٦) أبو عبد الله محمد بن خفيف[٢]: الشيرازي، المقيم بشيراز، وكانت أمه نيسابورية، وكان شيخ المشايخ في وقته. صحب العديد من

(١) نسا: مدينة بخراسان، والنسبة إليها نسوي ونسائي.
(٢) السلمي: **طبقات الصوفية**، ص٤٥١ ـ ٤٥٣.

صوفية عصره، وكان عالماً بعلوم الظاهر، وعلوم الحقائق. أوحد المشايخ في وقته، حالاً وخلقاً. توفي سنة ٣٧١هـ/ ٩٨١م.

ذكره سزكين في كتابه فقال[١]: «قام برحلات واسعة، وحج مراراً. وقدم البصرة سنة ٣٠٠هـ/ ٩١٢م، وسمع دروس الأشعري، وأخذ عنه تعاليم العقيدة، والتقى في بغداد سنة ٣٠٣هـ/ ٩١٥م بالصوفي المعروف رُوَين بن أحمد. وتختلف الروايات حول لقاء ابن خفيف مع الجنيد البغدادي اختلافاً بعيداً؛ ورغم هذا فمن المؤكد أنه عرف الحلاج وزاره في حبسه ببغداد، وكان ابن خفيف صوفياً متمسكاً بصوفيته، في منزلةٍ وسطى بين كبار الصوفية القدامى من جانب، والصوفية التابعين من أهل الطبقة الخامسة[٢] أو السادسة من الجانب الآخر. وترجع شهرة ابن خفيف ـ إلى حد كبير ـ إلى رفضه «للسالمية»[٣]. وكان ابن خفيف مؤلفاً كثير التصانيف، تتلمذ عليه كثيرون، منهم: أبو نصر السراج، وأبو نعيم الأصفهاني».

(٧) **بنداد بن الحسين الشيرازي**[٤]: أبو الحسين، من أهل شيراز، سكن أُرجان، كان عالماً بالأصول، له اللسان المشهور في علم الحقائق، وكان أبو بكر الشبلي يكرمه ويعظم قدره. وبينه وبين ابن خفيف مفاوضات في مسائل شتى. توفي سنة ٣٥٣هـ/ ٩٦٤م.

من أقواله: «الصوفي من اختاره الله لنفسه فصافاه، وعن نفسه براه، ولم يرده إلى تعمل وتكلف بدعوى. وصوفي على زنة عوفي، أي عافاه

(١) السلمي: **طبقات الصوفية**، ص٤٦٢ ـ ٤٦٦.

(٢) سزكين، فؤاد: **تاريخ التراث العربي**، ٢/ ٤٨٣.

(٣) ذكره السلمي في طبقاته ضمن مجموعة أئمة الصوفية من الطبقة الخامسة.

(٤) السالمية: نسبة إلى أبي عبد الله بن سالم البصري، تلميذ سهل التستري، وله بالبصرة أصحاب ينتمون إليه، وهو من أهل الاجتهاد، ومذهبه أو مدرسته «السالمية» ذات مذهب في الأصول، وكان للحنابلة موقف خاص منهم. للتوسع يمكن مراجعة مقالة «ماسينيون في **دائرة المعارف الإسلامية**، بعنوان: «السالمية».

الله، وكوفيّ: أي: كافأه الله، وجوزي، أي: جازاه الله؛ فَفِعْلُ الله تعالى ظاهر على اسمه».

وقوله أيضاً متحدثاً عن الصوفية ومنازلهم، وأحوالهم في علاقتهم مع ربهم، ودرجاتهم في الأصول: «الصوفية متفقون في الوحدانية ـ في الجملة ـ قولاً، متفرقون في الوصول إليها مُعاينةً ومُنازلةً، وكل واحد يستحق اسم ما ظهر عليه من حاله، الذي هو به موصوف، بعد اتفاقهم في الوحدانية قولاً، فمن بين مجتهد، وزاهد، وعابد، وخائف، وراجٍ، وغني، وفقير، ومُريد، ومراد، وصابر، وراض، ومتوكل، ومحب، ومستهتر، ومستأنس، ومشتاق، ووالهٍ، وهائم، وواجدٍ، وفانٍ، وباقٍ، وأحوال يكثر تعدادها، وقد تجتمع الأحوال كلها في واحد، ويسمى بما عليه من الجميع».

(٨) **أبو العباس الدِّينوري**[1]: واسمه أحمد بن محمد، صحب كبار مشايخ عصره، وهو من أفتى المشايخ، وأحفظهم طريقة واستقامة، ورد نيسابور، وأقام بها مدة، وكان يعظ الناس، ويتكلم على لسان المعرفة بأحسن كلام. ثم رحل من نيسابور إلى سمرقند، مع ميل أهل نيسابور إليه، وسئل عن سبب ذلك فقال:

إذا عقد القضاء عليك عقداً فليس يحلّه غيرُ القضاءِ

وقد توفي في سمرقند بعد سنة ٣٤٠هـ/ بعد ٩٥١م.

ومن أقواله: «اعلم أن أدنى الذكر أن ينسى ما دونه، ونهاية الذكر أن يغيب الذاكر في الذكر عن الذكر، ويستغرق بمذكوره عن الرجوع إلى مقام الذكر، وهذا حال فناء الفناء».

وقال: «ليس يبلغ بالإنسان إلى مراتب الأخيار إلاّ الصدق، وكل وقت وحال خلا عن الصدق فباطل».

(١) السلمي: طبقات الصوفية، ص٤٦٧ ـ ٤٧٠.

(٩) أبو عبد الله الدَّينوري[١]: محمد بن عبد الخالق، من جِلّة المشايخ، وأكبرهم حالاً، وأعلاهم همة، وأفصحهم في علوم هذه الطائفة، مع ما كان يرجع إليه من صحبة الفقر، والتزام آدابه، ومحبة أهله، أقام بوادي القرى[٢] سنين، ثم رجع إلى دينور ومات بها، وهو من علماء الصوفية في نهاية القرن الرابع للهجرة.

ومن أقواله: «أرفع العلوم في التصوف، علم الأسماء والصفات، وتمييز الخلاف من الاختلاف، وإخلاص أعمال الظاهر، وتصحيح أحوال الباطن». وكان يقول الشعر، فمن شعره يخاطب ربه:

أغثني، فمالي عنك بالصبر طاقةٌ ... وجد لي فقد ضاقت عليّ مذاهبي

ومنه أيضاً:

بقلبي من نفى عني نعاسي ... وأرّقني، وبات ولم يُواسي

ومَنْ حُبّي له أبداً جديدٌ ... وثوب صدوده أبداً لباسي

(١٠) السُّلَمي[٣]: أبو عبد الرحمن، محمد بن الحسين بن موسى الأزدي السُّلمي، ولد سنة ٣٢٥هـ/ ٩٣٦م في نيسابور، تتلمذ على عدد من شيوخ عصره كالدارقطني، وأبي نصر السرّاج، وأبي عمرو نُجَيْد (جده لأمه). رحل إلى العراق والحجاز، وسمع هناك من عدد من المحدثين والصوفية، وألف عدداً من الكتب في التصوف، وفي تفسير القرآن، وعلم الحديث. وتقوم شهرته ـ أولاً وقبل كل شيء ـ على كتابه «طبقات الصوفية».

وتكمن أهمّية هذا الكتاب بما أورد فيه السلمي من معلومات عن رجال

---

(١) السلمي: **طبقات الصوفية**، ص٤٧٠ ـ ٤٧٨.

(٢) السلمي: م.ن، ص٥١٥ ـ ٥١٧.

(٣) وادي القرى: وادٍ قريب من المدينة المنورة باتجاه الشام، كانت فيه قرى عديدة.

الصوفية، استقاها من مصادر عنهم، مفقودة أو ما زالت مجهولة المكان إلى اليوم. كما أن السُّلمي يطلعنا على الكثير من أخبار رجال الصوفية، وخاصّة أولئك الذين عاشوا في بلاد المشرق الإسلاميّ، وبذلك يكون هذا الكتاب من أهمّ ـ إن لم يكن أهمّ ـ مصادر الحركة الصوفية وتطوّرها في بلاد المشرق الإسلاميّ.

كان والد أبي عبد الرحمن شيخاً ورعاً زاهداً، دائم المجاهدة، له القدم في علوم المعاملات؛ وقد صحب ابن منازل، وأبا علي الثقفي، وهما من شيوخ الملامتية في خراسان، ومن تلاميذ أبي عثمان الحيري. وكان على ضيق ذات يده، صوفياً جليل القدر.

نشأ أبو عبد الرحمن في رعاية والده، الشيخ الصوفي، ووالدته التقية الورعة، وجده لأُمّه أبي عمرو بن نجيد.

صرف أبو عبد الرحمن همه إلى دراسة الحديث والتصوف، ولقي شيوخ عصره فيهما؛ فرحل في طلبهما إلى العراق، والري، وهَمَذان، ومَرْو، والحجاز وغيرها، كما جرت بذلك عادة طلاب العلم في زمانه، فوق تتلمذه لشيوخ نيسابور، التي كانت يومئذ من أمهات المدن الإسلاميّة، والتي بلغت قمة الاكتمال في العمران والفكر.

كذلك تتلمذ على يديه كبار العلماء، منهم: أبو بكر الشيرازي النيسابوري، مُسْنِدُ خراسان، وقد روى عن أبي عبد الرحمن السلمي كتبه؛ وأبو محمد الجويني عبد الله ابن يوسف، إمام عصره بنيسابور، ووالد أبي المعالي الجويني إمام الحرمين؛ وأبو القاسم القشيري، صاحب «الرسالة القشيرية» وغيرهم كثير.

وكان لأبي عبد الرحمن «بيت كتب (مكتبة) جمع فيه من الكتب ما لم يسبق إلى ترتيبه، من طرائف كتب الصوفية والمحدثين، وكان ينقطع فيه

للقراءة والتأليف؛ وكان شيوخ نيسابور يستعيرون منه بعض ما يحويه هذا البيت من نفائس»[1].

وفي أخريات أيامه، ابتنى للصوفية خانقاه صغيرة، كانت مشهورة في نيسابور، وفي ما جاورها، أو بعد عنها من أقاليم؛ حتى أن الخطيب البغدادي ـ صاحب تاريخ بغداد ـ حين ذهب إلى نيسابور، زارها، وقد كان يسكنها الصوفية يومئذ[2]. وفي هذه الخانقاه دفن أبو عبد الرحمن السلمي عقب وفاته سنة ٤١٢هـ/ ١٠٢١م.

ولا يستطيع الباحث أن يرتب مصنفات أبي عبد الرحمن السلمي كلها ترتيباً تاريخياً، حتى يستطيع أن يحكم بصدق، على تطوّر تفكيره واتجاهاته، ولكن يمكن القول إن أول ما صنّف هو كتابه «حقائق التفسير»، ثُمَّ ألف بعده كتاب «تاريخ الصوفية»، وأخيراً كتاب «طبقات الصوفية»، وذلك استناداً على بعض الإشارات التاريخية الواردة في هذه الكتب.

٣ ـ خاتمة الكلام على الحركة الصوفية في القرن الرابع للهجرة

من المفيد أن نختم كلامنا على الحركة الصوفية في القرن الرابع للهجرة بما ذكره آدم متز[3] عن الصراع بين أهل الشريعة (الفقهاء) وأهل الحقيقة (الصوفية)، فيقول:

«كان الصوفية خصوماً ألدّاء لجميع الفقهاء، ولم يقنعوا قط من التشنيع عليهم، وقد عبروا عن احتقارهم لعلم الفقه، الذي يسمونه علم الدنيا تعبيراً قاسياً. ومن أمثلة ذلك ما يقوله المكّي[4]، المتوفى عام ٣٨٦هـ/ ٩٩٦ م،

---

(١) سزكين، فؤاد: تاريخ التراث العربي، ٢/ ٤٩٧؛ ومقدمة كتاب طبقات الصوفية، للسُّلَمي الذي حققه نور الدين شرابية.

(٢) مقدمة كتاب م.ن، للسلمي، ص٢٩.

(٣) السلمي: م.س، ص٣١.

(٤) متز، آدم: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ١/ ٣٥٢.

أخذاً عن السيد المسيح عليه السلام، فهو يقول: «وروينا عن عيسى عليه السلام: مثل علماء السوء، مثل صخرة وقعت على فم النهر، لا هي تشرب الماء، ولا تترك الماء يخلص إلى الزرع. وكذلك علماء الدنيا، قعدوا على طريق الآخرة، فلا هم نفذوا، ولا تركوا العباد يسلكون إلى الله عز وجل، قال: ومثل علماء السوء كمثل قناة الحشّي، ظاهرها حسن وباطنها نَتِن، ومثل القبور المشيدة، ظاهرها عامر، وباطنها عظام الموتى».

ويتابع آدم متز قائلاً: «ونجد بين العلماء كالشافعية مثلاً، كثيراً من الصوفية، وهذه حقيقة واقعة، وكانت علوم الصوفية الدينية أهمّ العلوم وأكثرها نجاحاً؛ فقد كانت هي الحركة العلمية التي ضمت أعظم القوى الدينية في ذلك العهد، والحركة الصوفية في القرنين الثالث والرابع أوجدت في الإسلام ثلاثة مبادئ، أثّرت فيه تأثيراً كبيراً، وهي: ثقة وطيدة كاملة بالله تعالى، والاعتقاد بالأولياء، وإجلال النبي محمد عليه الصلاة والسلام، ولا تزال هذه المبادئ الثلاثة أهمّ العوامل وأقواها تأثيراً في الحياة الإسلاميّة».

ازدهرت الحركة الثقافية في بلاد المشرق الإسلامي خلال القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، ازدهاراً كبيراً، بعد أن شهدت نموّاً وتطوراً في القرون اسابقة.

وقد ساهم في هذا الإزدهار مجموعة عوامل، أهمها كثرة مجالس العلم في بلاطات الأمراء والوزراء، وتشجيع هؤلاء العلماء واختيار أفاضلهم ليجالسوهم ويناقشوهم في قضايا الفكر والفلسفة، خاصة وأن عدداً من هؤلاء الأمراء والوزراء كانوا على مستوى عالٍ من الثقافة والعلم، كابن العميد، والمهلّبي، والصاحب بن عبّاد وغيرهم.

إضافة إلى ما سبق فإن الحرية الفكرية التي كانت سائدة في المجتمع، ساعدت كثيراً على بروز آراء وأفكار عديدة، وبالتالي تلاقح هذه الأفكار وتصارعها أحياناً في جوّ من الحريّة، حرية الفكر والمعتقد.

لذا ظهرت في هذه البلاد حركة فكرية فلسفية دينية، بلغت أوجها، ووسعت كل ما نشأ من أفكار وآراء ومذاهب، دون أن يعترض وجودها معترض، أو يحدّ من نشاطها عامل، حتى أصبحت هذه البلاد في حركتها الفكرية كالبحر الذي تحرّك أمواجه رياح الفكر، فتشتد حيناً وتتراخى حيناً آخر؛ وقد تتلاطم أحياناً، لكنها أخيراً لا تضرّ هذا البحر ولا تؤذيه، بل تزيده حيويةً ونشاطاً.

الفصل الثالث

التاريخ والجغرافية

أولاً: التاريخ

لعل من المفيد في البداية الحديث باختصار عن مفهوم التاريخ عند العرب، فقد وردت لفظة التاريخ بمعنى التوقيت[١]، وهذا المعنى كان مستعملاً منذ القديم وما يزال حتى اليوم، أي ذِكْر الوقت الذي حدث فيه أمر ما. وذكر الوقت هذا يعني ذكر اليوم والشهر والسنة، معاً، أو بعض منها. وهذا الاستخدام لمعنى التاريخ وجدناه في الوثائق والمعاهدات التي كتبها القواد المسلمون لأهل البلاد التي فتحوها؛ ولعل أول من استخدم تأريخ الوثائق والمعاهدات هو خالد بن الوليد، ففي المعاهدة التي عقدها مع أهل الحيرة[٢]. عندما صالحهم، ذكر أسماء شهود هذه المعاهدة ـ وهذا عمل توثيقي هام جداً، بل لعله أول عمل توثيقي في التاريخ كما ذكر الوقت (التاريخ) الذي كتبت فيه، وهو شهر صفر سنة اثنتي عشرة؛ ثم يعقد خالد بن الوليد معاهدة مع أهل دمشق[٣]، ويؤرخها بسنة ثلاث عشرة.

وعندما فتح المسلمون بيت المقدس (إيليا) طلب أهلها من قائد

(١) راجع **القاموس المحيط**، للفيروز آبادي، مادة أرخ.

(٢) راجع نص هذه المعاهدة في كتاب **مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة**، لمحمد حميد الله، دار النفائس، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٨٣، الوثيقة رقم (٢٩٣)، ص. ٣٨٢.

(٣) محمد حميد الله، م. ن، الوثيقة رقم (٣٥٢)، ص٤٥٧.

الجيش الإسلاميّ أبو عبيدة بن الجراح، أن يكون الخليفة عمر بن الخطاب من يعطيهم الأمان ويكتب لهم المعاهدة[١]، فكان لهم ذلك، فحضر الخليفة إلى بيت المقدس وكتب لهم معاهدة الأمان، وأرّخه في نهايته فقال: «وكتب وحضر سنة خمس عشرة»[٢].

وتتوالى المعاهدات بعد ذلك بين القواد المسلمين وسكان البلاد المفتوحة، بعضها يرد فيه تاريخ كتابة المعاهدة، وبعضها لم يرد. ومن الوثائق المهمة التي ذكرت تاريخ المعاهدات هذه، تلك المعاهدات التي عقدها القادة المسلمون مع أهل بلاد المشرق، ومنها:

- معاهدة مع أهل جرجان[٣]، عقدها سويد بن مقرن سنة ثماني عشرة.
- معاهدة مع أهل طبرستان[٤]، عقدها سويد بن مقرن أيضاً، سنة ثماني عشرة.
- معاهدة مع أهل أذربيجان[٥]، عقدها عتبة بن فرقد، سنة ثماني عشرة.
- معاهدة مع أهل موقان[٦] (جبل القبج)، عقدها بُكَيْر بن عبد الله، سنة إحدى وعشرين.

ولدينا وثيقة هامة جداً، وهي نص كتاب التحكيم بين الخليفة علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان[٧]، جاء في آخرها أنها كتبت يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من صفر سنة سبع وثلاثين. وهذا يعني دقة التوثيق لتاريخ حصول هذا الحدث.

---

(١) محمد حميد الله: **مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة**، الوثيقة رقم (٣٥٣)، ص٤٨٢.

(٢) محمد حميد الله: م.ن، الوثيقة رقم (٣٥٧ ألف)، ص٤٨٧ ـ ٤٨٩.

(٣) محمد حميد الله: م.س، الوثيقة رقم (٣٣٧)، ص٤٤٤.

(٤) محمد حميد الله: م.ن، الوثيقة رقم (٣٣٨)، ص٤٤٥.

(٥) محمد حميد الله: م.س، الوثيقة رقم (٣٣٩)، ص٤٤٥.

(٦) محمد حميد الله: م.ن، الوثيقة رقم (٣٥٠)، ص٤٥٦.

(٧) محمد حميد الله: م.س، الوثيقة رقم (٣٧٢)، ص٥٣٨.

وقد حصل تطوّر في مدلول مصطلح التأريخ واستخدامه، فقد استُخدِمَ بعد ذلك للدلالة على الحدث ذاته إضافة إلى توقيته؛ والإخبار عن الحدث دخل في العمل التاريخي أو الكتابة التاريخية؛ وبما أن الحدث قد يرتبط بالأشخاص، فإن أعمالهم الجيدة (المآثر) أو السيئة (المثالب) دخلت في سيرة هؤلاء الأشخاص، أي في سيرة حياتهم وما حصل فيها من أحداث.

ولمّا كانت حياة العربي في الجاهلية تتخذ شكلاً قبلياً، فإن أحداث القبيلة، أي ما حصل معها من غزوات أو معارك، (وقد عرفت بالأيام) دخلت أيضاً في كتابة التاريخ؛ وكأننا هنا بدأنا ننتقل من ذكر وإيراد أخبار وأحداث الفرد، إلى ذكر وإيراد أخبار الجماعة. ومن ضمن أخبار الجماعة (القبيلة) سلسلة نسبها، لذا نرى علم الأنساب يأخذ مكانه ضمن الكتابة التاريخية.

ولو عدنا إلى كتاب الفهرست للنديم، فإننا سنرى أنه خصص الفن الأول من المقالة الثالثة[١]، في أخبار **الإخباريين والنسابين، وأصحاب السير والأحداث**، وأسماء كتبهم.

وهكذا توسعت الكتابة التاريخية لتشمل ما يحفظ من أخبار وأحداث من جهة، وسير القوم وأنسابهم، كلهم أو بعضهم، من جهة ثانية.

ومن هنا فإن المؤرخ ـ بالمعنى القديم ـ هو الإخباري (أي راوي الأخبار) والنساب أو الناسب (العالم بالأنساب)، والعارف بأيام العرب، وأيام الناس، وهو أيضاً صاحب السِّير، والعالم بالمآثر والمثالب؛ وكل هذه المصطلحات أوردها النديم عندما ذكر أسماء من اتصف بهذه الصفات[٢].

---

(١) النديم: **الفهرست**، ص١٧٩.

(٢) النديم: م.ن، ص١٧٩ ـ ١٨٧ حيث استخدم النديم هذه الصفات للدلالة على معنى مصطلح المؤرخ.

١ ـ تطور الكتابة التاريخية وتعدد مواضيعها

وكذلك فإن أول ما ذكر من مدونات تاريخية، كتاب ينسب لعبيد بن شريه الجوهري، الذي وفد على معاوية بن أبي سفيان؛ فسأله عن الأخبار المتقدمة وملوك العرب والعجم، وأمره معاوية أن يدون؛ فكتب «كتاب الملوك وأخبار الماضين»[١].

ثُمَّ يرد ذكر عوانة بن الحكم بن عياض الكلبي[٢]، وهو من علماء الكوفيين، راوية للأخبار، عالم بالشعر والنسب، وقد توفي سنة ١٤٧هـ/ ٧٦٤م، وله من الكتب: كتاب التاريخ، وكتاب سيرة معاوية وبني أميّة. وهذه أول مرة نرى فيها ذكراً لكتاب تاريخ، وكتاب سيرة رجل وجماعة، ويرِدُ بعد ذلك عند أبي اسحاق، إبراهيم بن محمد الفزاري[٣]، المتوفى سنة ١٨٨هـ، ذكر كتاب له بعنوان: «كتاب السير في الأخبار والأحداث» ولعل هذا يعني أنه كتاب في التاريخ العام.

أمّا ابن إسحاق[٤]، صاحب السير، أبو عبد اللهِ محمد بن إسحاق بن بشار المتوفى سنة ١٥٠هـ، فله «كتاب الخلفاء» و«كتاب السيرة والمبتدأ والمغازي» وهنا بدأنا نرى ذكراً لتاريخ الخلفاء، وذكراً آخر لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، مع أخبار مغازيه أيضاً، وهي الغزوات التي حصلت في أيامه، شارك فيها أم لم يشارك. ويأتي بعده نجيع المدني[٥]، ويؤلف «كتاب المغازي» ليفرد بذلك أخبار غزوات الرسول عن باقي سيرته.

وبعد ذلك تتوالى كتب الأحداث المفردة منها: «كتاب صفين» و«كتاب

---

(١) النديم: الفهرست، ص١٨٠.
(٢) النديم: م.ن، ص١٨١ ـ ١٨٢.
(٣) النديم: م.س، ص١٨٣.
(٤) النديم: م.ن، ص١٨٣ ـ ١٨٤.
(٥) النديم: م.س، ص١٨٤.

الجمل»، وكتاب «مقتل الحسين بن علي» رضي الله عنهما[1]، وكذلك «كتاب الفتوح» و«كتاب الردة»[2].

فإذا وصلنا إلى مطلع القرن الثالث للهجرة/ الثامن للميلاد، فإننا نجد مؤرخاً صنف العديد من الكتب في مواضيع تاريخية متنوعة، وهذا المؤرخ هو هشام بن محمد الكلبي[3]، المتوفى عام ٢٠٦هـ/ ٨٢١م.

ويذكر النديم مصنفاته على المواضيع كالتالي:

* كتب في الأحلاف.
* كتب في المآثر والبيوتات والمنافرات والموءودات.
* كتب في أخبار الأوائل.
* كتب فيما قارب الإسلام من أمر الجاهلية.
* كتب في أخبار الإسلام.
* كتب في أخبار البلدان.
* كتب في أخبار الشعراء وأيام العرب.
* كتب في الأخبار والأسمار.
* كتب في الأنساب.

أما معاصره الواقدي[4]، محمد بن عمر (ت ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م) فقد كان يماثله في عمله، ومضيفاً إلى عمله كتب الفتوح (فتوح الشام وفتوح العراق)؛ ثم يخلفه كاتبه محمد بن سعد[5]، فيكتب في الطبقات، أي طبقات الرجال،

---

(١) النديم: الفهرست، ص١٨٥، وهذه الكتب لنصر بن مزاحم.

(٢) النديم: م.ن، ص١٨٦، وهما لسيف بن عمر.

(٣) النديم: م.س، ص١٨٩ ـ ١٩٤.

(٤) النديم: م.ن، ص١٩٤ ـ ١٩٦.

(٥) النديم: م.س، ص١٩٦.

موزعة على المدن والبلدان، وقد استفاد من كتب من سبقه كالواقدي، وابن الكلبي، والهيثم بن عدي[1] والمدائني[2] أبو الحسن علي بن محمد (ت ٢١٥هـ/ ٨٣٠م) أو (٢٢٥هـ/ ٨٣٩م) وله الكثير من المصنفات، ذكرها النديم وبوّبها على النحو التالي:

* كتب في أخبار النبي صلى الله عليه وسلم.
* كتب في أخبار قريش.
* كتب في مناكح الأشراف وأخبار النساء.
* كتب في أخبار الخلفاء.
* كتب في الأحداث.
* كتب في الفتوح.
* كتب في أخبار العرب.
* كتب في أخبار الشعراء.
* كتب في مواضيع أخرى متنوعة.

وهكذا تنوعت مواد الكتابة التاريخية وتطوّر مفهومها، بحيث أصبح موضوع التاريخ قائماً على الإنسان والزمان وأحوالهما، أي إن دراسة حركة المجتمع البشري مرتبطة بالزمان والمكان.

وتأكيداً على ارتباط حركية المجتمع بالزمان، رأينا كتباً تاريخية اعتمدت التسلسل الزمني في سرد الأحداث التاريخية، وهو ما عرف «بالحوليات»، وأفضل من يمثل هذا النوع من الكتب كتاب «تاريخ الرسل والملوك» أو « الأمم والملوك» لمحمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٢م)

(١) النديم: **الفهرست**، ص١٩٦ ـ ١٩٨.
(٢) النديم: م.ن، ص١٩٩ ـ ٢٠٧.

وكتاب «تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء» لحمزة بن الحسن (أو الحسين) الأصفهاني (ت قبل سنة ٣٦٠هـ/ ٩٧٠م)؛ ثم أصبح هذا النهج تقليداً سار عليه العديد من المؤرخين المسلمين.

ومن المفيد الإشارة إلى أن بداية التدوين التاريخي وجدت في السيرة النبوية مادة أساسية لموضوعها، وبالتالي مغازي الرسول، ونسبه ونسب قبيلته، ثُمَّ اتسعت هذه الدائرة لتشمل سيرة الخلفاء الراشدين، وذكر أهمّ الأحداث التي حصلت على عهدهم.

وكذلك كان القرآن الكريم حافزاً ومشجعاً للمسلمين على الاهتمَام بتدوين الأخبار التاريخية؛ فقد ورد في القرآن العديد من الأخبار عن أمم قديمة وشعوب وقبائل شتى، ذكرها القرآن للموعظة والتفكر، وأوردها باعتبارها قصصاً وأنباءً، فأراد المسلمون أن يتوسعوا في معرفة هذه الأخبار والقصص، وفهم أخبار هذه الشعوب والأمم، ومعرفة تاريخها.

ومنذ أوائل القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد، أصبحنا نلاحظ زيادة جوهرية في المادة التاريخية، خاصّة بعد أن استقرت الفتوحات الإسلاميّة، ونشات الدويلات على جوانب الخلافة العباسية، وبعد أن أخذت الدواوين موقعها في تنظيم شؤون البلاد، وأصبح لكتّاب الدواوين موقعهم في الإدارة، خاصّة في تدوين المراسلات والمعاهدات، وتعيين الأمراء والقواد والعمال وكبار الموظفين، كل ذلك جعل المادة التاريخية أكثر دسامة وأكبر أهمية مما سبق؛ فاستفاد المؤرخون منها في تصنيف كتبهم.

وسنحاول التعرف على أشهر المؤرخين في القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلادي، وعلى أهمّ مؤلفاتهم التاريخية، خاصّة أولئك المؤرخون الذين ينتمون إلى بلاد المشرق الإسلاميّ.

٢ ـ أشهر كتّاب التاريخ العام والخاص وأهمّ مؤلفاتهم

أ ـ **الطبري**[1]: أبو جعفر محمد بن جرير، مؤرخ أعجمي الأصل، ولد سنة ٢٢٥هـ/ ٨٣٩م، في بلدة آمل، من بلدان طبرستان. رحل الطبري في طلب العلم إلى الري ثم بغداد؛ فالشام ومصر، ثُمَّ عاد إلى بغداد، وكان يعلم فيها الحديث والفقه، وكان في أول أمره شافعي المذهب، ثُمَّ أسس مذهباً خاصاً به، تبعه عليه بعض العلماء.

والطبري كاتب خصب الإنتاج، ولم يقتصر جهده على الحديث والتاريخ، بل تجاوز ذلك إلى القرآن وعلوم الفقه، وقد جمع في كتبه ومصنفاته نقولاً واقتباسات بالغة الأهمّية، أخذها من كتب ضاعت أصولها. ويعتبر الطبري بحق عمدة المؤرخين ومرجعهم في التحقيق. من مؤلفاته: «كتاب الرسل والملوك» المشهور بتاريخ الطبري. توفي الطبري في بغداد سنة ٣١٠هـ/ ٩٢٣م.

كتاب «تاريخ الرسل والملوك»

من أشهر كتب التاريخ العام، وهو تاريخ للعالم منذ بدء الخلق إلى عصره، ينهج فيه منهج الحوليات (إيراد الأحداث حسب السنوات) من تاريخ الهجرة النبوية إلى سنة ٣٠٢هـ/ ٩١٤م.

وقد ساعدته ثقافته الواسعة، واطلاعه على مؤلفات سابقيه، في جمع مادة كتابه، وكذلك ساعده منهج التأليف في الحديث النبوي، في الاعتماد

---

(١) راجع أخباره وترجمته لدى:
- ـ الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد**، ٢/ ١٦٢ ـ ١٧٠.
- ـ ياقوت الحموي: **معجم الأدباء**، ٦/ ٤٢٣ ـ ٤٦٢.
- ـ ابن السبكي: **طبقات الشافعية**، ٢/ ١٣٥ ـ ١٤٠.
- ـ الذهبي: **تذكرة الحفاظ**، ٢/ ٢٥١ ـ ٢٥٢.
- ـ ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ٣/ ٢٦٥.

على رواية الأخبار بأسانيدها؛ فهو يروي الحادثة عن جملة من الرواة، بدءاً بالرواية التي يراها الأصح، ثم يتدرج في عرض روايات الحدث، رواية بعد أخرى، تاركاً للقارئ اختيار أفضل الروايات وأصحّها.

وقد تشدد في إسناد الروايات على طريقة المحدثين، حيث يبدأ بذكر سلسلة السند، ثُمَّ يتبعها بذكر الرواية أو الخبر. وقلّما كان يبدي رأيه في الروايات التي ينقلها، أو يناقش ما ينقل، مع اهتمامه بصحة السند في أكثر الأحيان.

ويمكن تقسيم كتاب الطبري إلى قسمين

ـ **القسم الأول**: وهو التاريخ الخاص بما قبل الإسلام، أي من بدء الخليقة إلى بدء الرسالة المحمدية. وقد اتبع في هذا القسم طريقة عرض الحوادث دون تحديدٍ زمنيٍّ لها، بل بترتيب الأنبياء كما ورد ذكرهم في التوراة، وما جرى لهم من أحداث. وهذا القسم يمكن اعتباره تاريخ الرسل.

ـ **القسم الثاني**: وهو التاريخ الخاص بما بعد الإسلام، بدءاً بسيرة الرسول محمد، صلى الله عليه وسلم، متبعاً الترتيب الزمني للأحداث، كما فعل كتاب السيرة. ثم تليها أهمّ الأحداث مرتّبة على السنوات، ويذكر من كان الخليفة، وبعضاً من أخباره وسيرته.

ويعتبر الطبري في هذا الكتاب جامعاً للروايات والأخبار، آخذاً عن الثقات في أكثر الأحيان، مقتبساً من مصادر قديمة ذات أهمّية كبرى في دراسة التاريخ وأحداثه، ولكنها ضاعت؛ فكان الطبري حافظاً لها أو لمَا اقتبسه منها. ومن الملاحظ أننا لا نجد الطبري مؤرخاً ناقداً، معللاً للحوادث وأسبابها، نافذاً إلى أسرارها وأبعادها، بل تاركاً لغيره هذه المهمة الشاقة.

ب ـ مسكويه[١]: أحمد بن محمد بن يعقوب، أبو علي، أصله من الري، وسكن أصفهان، وتوفي بها.

مؤرخ، اشتغل بالفلسفة والكيمياء والمنطق، ثُمَّ أولع بالتاريخ والأدب والإنشاء. كان قيّماً على خزانة كتب عضد الدولة البويهي؛ فلقب بالخازن، ثُمَّ اختص ببهاء الدولة البويهي، وعظم شأنه عنده. «كان عارفاً بعلوم الأوائل معرفة جيدة، صنف كتاب «تجارب الأمم» في التاريخ[٢]. توفى سنة ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م.

كتاب «تجارب الأمم وتعاقب الهمم»

كتاب عظيم النفع[٣]، ابتداؤه من بعد الطوفان، وانتهاؤه إلى سنة تسع وستين وثلاثمائة[٤]، قصد منه إلى أن ما جرى على الأمم التي قبلنا، والملوك والناس، عبارة عن درس ووعظ وإرشاد؛ ولذلك يلتفت إلى ما لا يلتفت إليه غيره، ويقف عند أمر صغير قد يكون منه درس كبير؛ وكان مسكويه ذا شغفٍ بالأمور السياسية والاجتماعية، شديد البحث في خفايا السياسة؛ وغايته من ذلك قبل كل شيء أن يكون علم التاريخ علماً للوزراء والساسة، ومن بيدهم الحل والعقد؛ فيقدم لهم تجارب الأمم وما يتصل بالسياسات وعمارة البلدان، وجَمْع كلمة الرعية، وإصلاح أمور الجند، وحيل الحروب، ومكايد الرجال، كل ذلك بهدف وعظي تعليمي. لذا

---

(١) راجع ترجمته وأخباره لدى:
- ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ٣/ ٥ ـ ١٩، وفيه: «كان مجوسياً وأسلم»
- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ١/ ٣٢ و ١٣٦.
- أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، ١/ ٣٢ و١٣٦.
- الزركلي: الإعلام، ١/ ٢١١ ـ ٢١٢.

(٢) ياقوت الحموي: م.س، ٣/ ١٠.

(٣) حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ١/ ٣٤٤.

(٤) ياقوت الحموي: م.س، ٣/ ١٠.

يكتفي مسكويه من الماضي بذكر الحوادث المهمة التي لها فائدة عملية للإنسان ويبتعد عن الأساطير والخرافات والقصص الشعبية التي كانت تروى عن الأمم القديمة، ولم يتوسع إلا في أخبار الفرس، وهو منهم، مدفوعاً إلى ذلك بنزعته القومية تجاههم.

وفي روايته لأحداث السبعين سنة الأولى من القرن الرابع الهجري؛ فإنه يمثل مستوى عالياً من الكتابة التاريخية، متبعاً منهج الحوليات، ذاكراً كل ما له قيمة وفائدة؛ فيعرض الأحداث الهامَّة بشكل معقول ومتماسك.

إن النسخة المطبوعة التي بين أيدينا اليوم هي باعتناء المستشرق هـ.ف.آمدروز، صدرت في جزأين[1]: الأول يحتوي على حوادث خمس وثلاثين سنة، من سنة ٢٩٥هـ/ ٩٠٧م إلى سنة ٣٢٩هـ/ ٩٤١م، والثاني يحتوي على حوادث أربعين سنة، من سنة ٣٢٩هـ/ ٩٤١م، إلى سنة ٣٦٩هـ/ ٩٧٩م.

ولا نملك معلومات عن الأجزاء السابقة التي يتحدث فيها عن تجارب الأمم في القرون الإسلاميّة الثلاثة الأولى، ولا عن تجارب الأمم السابقة على الإسلام، علماً أنه ابتدأ تاريخه من بعد الطوفان إلى عهد نوح عليه السلام كما ذكر ياقوت، مع الإشارة إلى أن الزركلي[2] ذكر في ترجمة مسكويه أن كتاب تجارب الأمم «منه نسخة كاملة مصورة في مؤسسة كايتاني»، في إيطاليا، ولا نعلم لماذا لم يسع المؤرخون للحصول عليها وتحقيقها حتى الآن.

---

(١) وقد طبع الجزء الأول من الكتاب سنة ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م، وطبع الجزء الثاني سنة ١٣٣٣هـ/ ١٩١٥م بمطبعة شركة التمدن الصناعية بمصر.

(٢) الزركلي: الإعلام، ١/ ٢١٢.

ج ـ حمزة بن الحسن الأصفهاني[1]: أبو عبد الله

ولد في أصفهان سنة ٢٨٠هـ/ ٨٩٣م، وبها شبّ وقضى حياته، ولم يغادرها إلى سواها، إلاّ في بعض رحلات علمّية قام بها إلى بغداد.

شبّ حمزة في جو ثقافي جيد، ففي البيت أبٌ مؤدب، وفي مدينته علماء مشاهير، وفي بغداد خيرة أهل العلم، وفي سبيل هذا العلم رحل إليها عدة مرات؛ فزارها سنة ٣٠٨هـ/ ٩٢٠م، حيث لقي على ما يحكيه هو عن نفسه «أحداً من علماء اليهود المتبحّرين في تاريخ قومه»، ورحل إليها ثانية ليجمع روايات لديوان أبي نواس، ثُمَّ رحل إليها ثالثة سنة ٣٢٣هـ/ ٩٣٥م، ثُمَّ عاد إلى أصفهان وشهد المجاعة العظيمة التي حصلت فيها.

وقد أمضى معظم حياته في أصفهان، إلى أن توفاه الله حوالي سنة ٣٦٠هـ/ ٩٧٠م على الأرجح.

شارك حمزة في معظم علوم عصره، ولا سيما التاريخ والحديث والتفسير واللغة والنحو والأدب، متبحراً في اللغة الفارسية. وقد شهد له علماء عصره ومن جاء بعدهم بطول باعة في المعرفة.

---

(١) راجع ترجمته وأخباره في الكتب التالية:
- النديم: **الفهرست**، مطبعة دار قطري بن الفجاءة، ص٢٦٧.
- القفطي: **إنباه الرواة عن أخبار النحاة**، ١/ ٣٣٥.
- حاجي خليفة: **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، ١/ ٢٦٨ و٢٨٢.
- البغدادي: **هدية العارفين**، ١/ ٣٣٦.
- الذهبي: **ميزان الاعتدال**، ١/ ٢٨٤.
- أبو نعيم الأصفهاني: **كتاب ذكر أخبار أصبهان**، ١/ ٣٠٠ (طبعة طهران).
- السمعاني: **الأنساب**، ١/ ٤١.
- كحالة، عمر رضا: **معجم المؤلفين**، ٤/ ٧٨.
- الأمين، محسن: **أعيان الشيعة**، ٢٩/ ١٤٠ ـ ١٤١.
- بروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، ٣/ ٦٠.
- الزركلي: **الأعلام**، ٢/ ٢٧٧.

كان حمزة، الفارسي الأصل، يفخر بنسبه؛ وقد أجمع أكثر من طالع كتبه، على تعصّبه لغير العرب، وعلى تعويله على المصادر الفارسية قبل أي شيء؛ فقد قال جرجي زيدان[١]: «كان يتعصّب لغير العرب، وعول فيما كتبه على المصادر الفارسية». وقد تابعه في ذلك السيد محسن الأمين[٢]. ولعل أول من ذكر تعصبه للفرس ضد العربّ، القفطي عندما قال[٣]: «وكان ينسب إلى الشعوبية، وأنه يتعصب على الأمة العربية». ومن الممكن أن يكون سبب ذلك أن حمزة صنّف لعضد الدولة البويهي كتاب «الخصائص والموازنة بين العربيَّة والفارسية»، تعصب فيه للفارسية، كما قال القفطي، وسماه «الموازنة بين العربيِّ والعجمي»[٤].

صنف حمزة الأصفهاني العديد من الكتب في الأدب والأمثال والتاريخ واللغة، وما يهمنا منها هو:

كتاب تاريخ سني ملوك الأرض

رتب حمزة هذا الكتاب على عشرة أبواب[٥]، ووصل فيه إلى سنة ٣٥٠هـ/ ٩٦١م. وقد ذكر فيه شيئاً من أنساب حِمير، وسائر دول العرب قبل الإسلام، كدولة الغساسنة ودولة المناذرة اللخميين، ومملكة كِندة، فضلاً عن ملوك الفرس والروم وغيرهم من الأمم.

ويذكر حمزة في مقدمة كتابه أسماء الكتب الفارسية التي استعان بها في تأليف كتابه هذا.

(١) زيدان، جرجي: تاريخ آداب اللغة العربيّة، ٢/ ٣٦٥.

(٢) الأمين، السيد محسن، أعيان الشيعة، ٢٩/ ١٤٠.

(٣) القفطي: إنباه الرواة عن أخبار النحاة، ١/ ٣٣٥.

(٤) القفطي: م.ن، ١/ ٣٣٦.

(٥) الأصفهاني، حمزة بن الحسن: كتاب التنبيه على حدوث التصحيف، حققه محمد أسعد طلس، دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٢، مقدمة المحقق، ص١٣.

ألّف حمزة كتابه على نمط الحسابات التأريخية للفلكيين، وهو أشبه بكتاب البيروني «الآثار الباقية» منه إلى الكتب التاريخية. ومن المعروف أن كتاب حمزة هو المصدر الرئيس لكتاب البيروني[1].

توجه همّ حمزة إلى تحقيق سنة ولادة ووفاة الأشخاص الذين تحدث عنهم، وكذلك مدة حكم الأمراء والحكام والملوك، وهذا جعله يتثبت من التواريخ التي يذكرها، وينسق تواريخ مختلف الأمم؛ ولم يتوقف كثيراً عند الأحداث التي كانت تحصل أيام الخلفاء والأمراء، وقليلاً ما ذكر بعض الأمور الهامَّة كالزلازل والأوبئة والمجاعات.

كذلك خصص حمزة في كتابه فصولاً لتاريخ خراسان وطبرستان، اللتين كانتا تؤدّيان في نظره، دوراً عظيم الأهمّية في تاريخ الإسلام، نظراً لمَا قام به أبو مسلم الخراساني عند بدء إنشاء الدولة العباسية، وكذلك ما قام به آل بويه.

ولحمزة الأصفهاني ثلاث كتب أخرى في التاريخ هي:

(أ) تاريخ أصفهان[2]، يقول عنه القفطي[3] «وهو من الكتب المفيدة العجيبة الوضع، الكثيرة الغرائب».

(ب) تاريخ العرب قبل الإسلام، وقد حقق المستشرق راسموسن قطعة منه، ونشرها مع ترجمة لاتينية وذلك سنة ١٨١٧.

(ج) تاريخ كبار البشر، أو تواريخ كبار البشر[4].

---

(١) كحالة، عمر رضا: **التاريخ والجغرافيا في العصور الإسلامية**، المطبعة التعاونية بدمشق، ١٩٧٢، ص٥٢.

(٢) ورد ذكر هذا الكتاب عند محسن الأمين في كتابه **أعيان الشيعة** (١٤١/٢٩) باسم: تاريخ أصبهان وأخبارها، وعند النديم في **الفهرست**، (ص ٢٦٧) كتاب أصبهان وأخبارها.

(٣) القفطي: **إنباه الرواة بأنباء النحاة**، ٣٦٦/١.

(٤) راجع عن هذه الكتب الثلاثة مقدمة كتاب **التنبيه على حدوث التصحيف للأصبهاني**، ص١٣ ـ ١٤.

د ـ **المسعودي**(١): أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، مِنْ وَلَدِ عبد الله بن مسعود، وإليه نسب.

ولد المسعودي في بغداد من عائلة عربية، ورحل وهو شاب إلى أهم حواضر العالم الإسلاميّ طلباً للعلم والحديث؛ فقد كان أسلوب الثقافة في زمانه يتطلب منه الرحلة للقاء العلماء والشيوخ، والأخذ عنهم. وقد دفعه تطلعه العلميّ إلى التجوال في البلاد والتعرف على أحوالها وأخبارها؛ فطاف في بلاد فارس وكرمان، وأقام في إصطخر سنة ٣٠٣هـ/ ٩١٥م، ثم رحل إلى الهند، فزار «ملتان» و«المنصورة»، ثُمَّ وصل إلى «سرنديب» في جزيرة «سيلان»، ثُمَّ أبحر مع جماعة من التجار إلى الصين، ثُمَّ رجع إلى «زنجبار»، وعُمان. وقام بجولة في البلدان المحيطة ببحر الخزر، ثُمَّ انتقل سنة ٣١٤هـ/ ٩٢٦م إلى طبرية في فلسطين. وفي سنة ٣٣٢هـ/ ٩٤٣م نجده يطوف في أنطاكية والثغور الشامية، ثُمَّ يذهب إلى البصرة، ثُمَّ إلى دمشق سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م، وفي السنة ذاتها ينزل مدينة الفسطاط بمصر، ويظل يتردد بين الشام والفسطاط، التي استقر بها أخيراً، حيث توفي بها سنة ٣٤٥هـ/ ٩٥٦م، وقيل: سنة ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م.

ويعتبر المسعودي أشهر كتّاب القرن الرابع للهجرة، وأكثرهم تحصيلاً

---

(١) راجع أخباره وترجمته في المصادر التالية:
- النديم: **الفهرست**، ص٢٩٣.
- ياقوت الحموي: **معجم الأدباء**، ٥/ ١٤٧ ـ ١٤٩.
- السبكي: **طبقات الشافعية**، ٢/ ٣٠٧.
- ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ٣/ ٣١٥.
- الكتبي: **فوات الوفيات**، ٢/ ١٥.
- بروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، ٣/ ٥٦ ـ ٥٨.
- كحالة، عمر رضا: **التاريخ والجغرافيا في العصور الإسلامية**، ص٥١ ـ ٥٣.
- الزركلي: **الإعلام**، ٤/ ٢٧٧.

لجوانب المعرفة والعلم؛ فقد زوّدته رحلاته بزاد ثقافي معرفي قل نظيره عند مؤرخي وكتاب عصره.

ترك المسعودي العديد من المؤلفات، معظمها في التاريخ وأصول الدين، ومجموعة رسائل، وقد ضاع الكثير من كتبه.

والمسعودي ليس مؤرخاً مميزاً فقط، بل هو مؤرخ وجغرافي معاً،فهو رحالة من الطراز الأول، أغنى مؤلفاته التاريخية بالعديد من المعلومات الجغرافية عن البلاد التي زارها.

أمّا مؤلفاته التاريخية فهي[١]:

- مروج الذهب ومعادن الجوهر، يقع في أربعة أجزاء.
- التنبيه والإشراف، يقع في جزء واحد[٢].
- أخبار الزمان ومن أباده الحدثان[٣]، يقع في ثلاثين جزءاً، لكنه فُقِدَ، ولم يبق منه إلا الجزء الأول.
- أخبار الخوارج.
- ذخائر العلوم وما كان في سالف الدهور.
- الاستذكار بما مر في سالف الأعصار.
- أخبار الأمم من العرب والعجم، سماه ابن النديم: التاريخ في أخبار...

---

(١) النديم: **الفهرست**، ص٢٩٣، والزركلي: **الأعلام**، ٤/ ٢٧٧، وسركيس، يوسف إليان: **معجم المطبوعات العربيّة والمعربة**، ص١٧٤٣.

(٢) بروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، ٣/ ٥٩، يقول: «وهو آخر مصنف له، ألفه سنة ٣٤٥هـ/ ٩٥٦م.

(٣) بروكلمان: م.ن، ٣/ ٥٧، ويذكر تمام عنوانه كالتالي: «**كتاب أخبار الزمان ومن أباده الحدثان، من الأمم الماضية، والأجيال الخالية، والممالك الدائرة**». ويقول: بدأ في تصنيفه سنة ٣٣٢هـ/ ٩٤٣م.

ويعتبر التاريخ عند المسعودي علماً جامعاً، فهو فلسفته التي تبين حقيقة ما كان وما هو كائن؛ وهو يجعله شاملاً لحكمة الدنيا ولتاريخها، ويقول: إنه لولا التاريخ لبادت آثار العلوم منذ زمان بعيد، لأن العلماء عرضة للزوال، ولكن التاريخ هو الذي يدون ما تجود به عقولهم، فيحفظ صلة الماضي بالحاضر، وهو ينبئنا بآراء النَّاس، ويقصّ علينا ما وقع من حوادث. على أن المسعودي يترك للقارئ ربط الحوادث بعضها ببعض، كما يترك له البحث عن آراء المؤلف نفسها[1].

مروج الذهب ومعادن الجوهر

هذا الكتاب هو حلقة من سلسلة الكتب التاريخية التي ألفها المسعودي، ولعله أهمّ كتاب تاريخي له.

يذكر المسعودي في هذا الكتاب قصة خلق العالم، ثُمَّ يعقبها بوصف طبيعة الأرض، ثُمَّ يبحث تاريخ العرب قبل الإسلام، مؤكداً على العناصر الحضاريّة في تاريخهم، وقد جمع البحث عن العرب مع أبحاث أخرى عن الأمم الأعجمية في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، ويحتل هذا البحث نصف الكتاب تقريباً.

أمَّا تاريخ الرسول محمد صلى الله عليه وسلم؛ فقد خصص له صفحات قليلة جداً[2]، مرتباً إياه ترتيباً زمنياً، ومتخذاً من سني حياة الرسول أساساً لتنظيم سني التاريخ الجاهلي.

وقد أعار المسعودي الأحداث المتعلقة الخليفة علي بن أبي طالب اهتماماً كبيراً؛ ويحث تاريخ الخلفاء تبعاً لسنوات حكم كُلٍّ منهم، وكان كثير

(١) كحالة، عمر رضا: **التاريخ والجغرافيا في العصور الإسلامية**، ص٥٢.

(٢) يذكر رضا كحالة: م.ن، ص٥٢ ـ ٥٣ أن المسعودي يشير إلى كتاب آخر له. بحث في سيرة الرسول بإسهاب وتفصيل.

الاهتمام بما يتصل بالشعر والأدب وغيرهما من طرائف الأمور، كما أورد بعض المعلومات المتعلقة بعلم الكلام وبالفلسفة. ثُمَّ ختم كتابه بتلخيص لتواريخ حكم الخلفاء وأهمّ أحداث حكمهم. وعليه؛ فإن المسعودي من المؤرخين القلائل الذين اعتنوا بالتفسير الحضاري للتاريخ وأحداثه.

ومن كتب التاريخ الخاص، المؤلفات التي وقفها أصحابها على شخصية واحدة، كخليفة أو أمير أو حاكم، وكذلك المؤلفات التي وقفها صاحبها على مدينة من المدن.

وما يعنينا هنا هو ما كتب عن واحد من شخصيات بلاد المشرق الإسلاميّ، ممن عاش في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، أو مدينة كان لها موقعها السياسي والثقافي والحضاري في ذلك العصر.

وقد صنف أول كتاب من هذا النوع على أرض بلاد المشرق الإسلاميّ، وهو سيرة السلطان التركي محمود الغزنوي، كتبها الكاتب والأديب والمؤرخ أبو النصر محمد بن عبد الجبار العتبي؛ فمن هو هذا الرجل، وما هو كتابه؟

هـ ـ العُتبي(١): أبو النصر محمد بن عبد الجبار

مؤرخ من الكتاب والشعراء، يرجع نسبه إلى أصول عربيَّة، حيث يرجع تاريخ أسرته إلى عتبة بن غزوان، مُمَصِّر البصرة. وكان أحد أجداده قد

(١) للاطلاع على ترجمته وأخباره راجع:
ـ الثعالبي: **يتيمة الدهر**، ٤/ ٣٩٧.
ـ الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ٣/ ٢١٦.
ـ حاجي خليفة: **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، ٢/ ٢٠٥٢.
ـ البغدادي، إسماعيل: **هدية العارفين**، ٦/ ٦٨.
ـ بروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، ٦/ ١.
ـ الزركلي: **الإعلام**، ٦/ ١٨٤ ـ ١٨٥.

استوطن مدينة الري، وشغل اثنان من هذه الأسرة منصب الوزارة للسامانيين هما: أبو جعفر العتبي، وأبو الحسن العُتبي.

ويذكر الثعالبي[(١)] أن العتبي هذا فارق وطنه الري في اقتبال شبابه، وقَدِمَ خراسان على خاله أبي نصر العتبي، وهو من وجوه العمال بها وفضلائهم؛ فلم يزل عنده كالولد العزيز عند الوالد الشفيق، إلى أن مضى أبو نصر (أي خاله) لسبيله».

اشتغل العتبي فيما بعد بالكتابة للأمير أبي علي المظفر بن محمد بن إبراهيم بن سيمجور (ت ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م)، ثُمَّ للأمير أبي منصور سبكتكين (ت ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م)، والد السلطان محمود الغزنوي، ثُمَّ للسلطان محمود نفسه. وتولى لفترة قصيرة منصب النيابة بخراسان، لشمس المعالي قابوس ابن وشمكير، واستوطن نيسابور، وأقبل على خدمة الآداب والعلوم.

ويذكر العتبي أن الوزير شمس الكفاة قلده منصب صاحب البريد، في كنج رستاق[(٢)]، ولكن هذا المنصب لم يدم طويلاً بسبب سوء علاقته مع عاملها أبي الحسن البغوي، مما جعله يكتب في هجائه رسالة قاسية اللهجة، شديدة الوقع على سامعها، عرض فيها بشخص البغوي تعريضاً عنيفاً[(٣)].

وقد ظل العتبي في نيسابور إلى أن توفي بها سنة ٤٣١هـ/ ١٠٣٩م[(٤)].

اليميني[(٥)]: في شرح أخبار السلطان يمين الدولة وأمين المِلة محمود الغزنوي.

---

(١) الثعالبي: يتيمة الدهر، ٤/ ٣٩٧.

(٢) العتبي: اليميني، ص٤٤٩.

(٣) العتبي: م.ن، ص ٢٥٤، وما بعدها.

(٤) البغدادي، إسماعيل: هدية العارفين، ٦/ ٦٨، بينما يذكر الصفدي أن العتبي توفي سنة ٤١٣، الوافي بالوفيات، ٣/ ٢١٦، ويذكر بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ٤/ ١، أن وفاته كانت سنة ٤٢٧/ ١٠٣٦م.

(٥) شرح هذا الكتاب وحققه إحسان ذنون الثامري، ونشرته دار الطليعة في بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.

لقد حرص المؤرخون المسلمون من كتاب التراجم والسير المفردة، على الاتصال الشخصي بالذي يترجمون له، والقرب منه، وتتبع حركاته وسكناته، حتى تأتي مادة ترجمتهم مطابقة للواقع؛ وهذا ما فعله العتبي، الذي يُعَدُّ أول مصنف لهذا النوع من الكتابة التاريخية (السيرة المفردة)؛ فقد جمع سيرة السلطان محمود الغزنوي، وبَسط الحديث في حروبه في خراسان وما وراء النهر، وعلاقاته مع القوى السياسية المحيطة به، وخاصّة مع الخلافة العباسية، ولكنّ جُلَّ اهتمَامه انصبَّ على غزواته في بلاد الهند، كما تطرّق لذكر شيء من أعماله العمرانية، كبنائه مسجد غزنة الجامع؛ فكان الكتاب سجلاً حافلاً بحياة السلطان محمود الغزنوي، يتتبع تحركاته وأحواله لحظةً بلحظة، وخطوةً بخطوة. وبهذا يكون العتبي قد قدم صورة واضحة عن حياة السلطان محمود الغزنوي السياسية، وجهوده في نشر الإسلام في بلاد الهند؛ وكذلك قدّم صورة واضحة عن أعماله داخل مملكته في تثبيت دعائم حكمه وأركان مملكته الناشئة، وحروبه التي شنها على خصومه وأعدائه الداخليين، وذلك في الفترة الزمنية الواقعة ما بين ٣٦٥هـ/ ٩٧٥م، و٤٠٩هـ/١٠١٨م [(١)]. وكذلك لم ينس العتبي ذكر شيء من سيرة الأمير سبكتكين، والد السلطان محمود، مما جعل الكتاب يُعرف في بعض الأحيان بـ(تاريخ سبكتكين)، لكن العتبي اختار عنوان كتابه بشكل واضح، وهو «اليميني» نسبة للقب السلطان محمود (يمين الدولة وأمين الملة) وتيمناً بهذا اللقب، الذي منحه إياه الخليفة العباسي القادر بالله (٣٨١ ـ ٤٢٢هـ/ ٩٩١ ـ ١٠٣٠م)[(٢)].

يتسم كتاب العتبي بأسلوبه الأدب المغرق بالمحسنات البديعية والسجع المتكلف، والتأنق اللفظي، والأساليب البلاغية الأخرى،

(١) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ١/٦.

(٢) العتبي: اليميني، ص١٧٨.

مما جعل لغته عسيرة على الفهم، وهذه اللغة هي التي كانت سائدة لدى كتاب القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، كما نرى ذلك واضحاً من النماذج المختارة في كتاب يتيمة الدهر للثعالبي.

ورغم هذا الأسلوب المُغرِق بالمحسنات البديعية، إلا أن المؤلف قدم مادة تاريخية شديدة الأهمّية، تكاد تكون المادة الأولية لكثير من المؤرخين الذين أتوا بعده وترجموا للسلطان محمود الغزنوي، كابن الأثير، وابن خلكان، والذهبي وغيرهم. كذلك ضم الكتاب مواد أدبية جيدة ونادرة، وعلى الأخص من شعر أبي الفتح البستي، وأبي منصور الثعالبي.

هذه الأهمّية التاريخية والأدبية واللغوية، أكسبت الكتاب شهرة كبيرة في عصر ابن خلكان (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م)، وقيمة عظيمة، حتى قال عنه السبكي[1] (ت ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م): «وأهل خوارزم وما والاها، يعتنون بهذا الكتاب، ويضبطون ألفاظه أشد من اعتناء أهل بلادنا بمقامات الحريري».

و ـ **البيهقي**[2]: أبو الفضل، محمد بن حسين البيهقي. ولد في قرية بيهق، في الجنوب الشرقي لخراسان، حوالي سنة ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م، وتوفي سنة ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م.

عاش البيهقي في مطلع حياته بنيسابور، حيث تعلم علوم القرآن والحديث، والأدب، وعاشر أهل العلم، كان واسع الاطلاع على الثقافتين الفارسية والعربيَّة.

التحق بالعمل في ديوان الرسائل كتلميذ لأبي نصر مشكان، رئيس الديوان، أيام السلطان محمود الغزنوي وأخيه مسعود، وكان في السابعة

---

(١) السبكي: طبقات الشافعية، ٥/ ٣١٥.

(٢) للاطلاع على ترجمة البيهقي وأخباره تراجع مقدمة كتاب «**تاريخ البيهقي**» التي أعدها مترجم الكتاب، الأستاذ يحيى الخشاب، وهي غنية بالمعلومات والتفاصيل الدقيقة، وقد استغرقت حوالي ٤٠ صفحة.

والعشرين من عمره آنذاك. وقد حال صغر سنّه دون ارتقائه إلى رياسة ديوان الرسائل بعد وفاة أستاذه؛ فلبث في منصبه متعاوناً مع أبي سهل الزوزني، وظل يعمل في ديوان الرسائل حتى أصبح رئيساً له في عهد السلطان عبد الرشيد، ثُمَّ عكف في آخر أيامه في بيته على القراءة والكتابة إلى أن مات.

ومن أهمّ مؤلفاته كتاب «تاريخ البيهقي»[١]، وقد كتبه باللغة الفارسية. وهو في كتابه هذا سياسي ومؤرخ وأديب.

تاريخ البيهقي

إن النَّص المطبوع باللغة العربيَّة هو جزء من سفر كبير كان في ثلاثين جزءاً، ولكن الكتاب ضاع ولم يبق منه إلاَّ هذا القسم. ويرى المستشرق بارتولد[٢] أن «تاريخ البيهقي» ليس تاريخاً لدولة أو لبلد بالمعنى المعروف، إنَّما هو حديث رجل سياسي عن حياة الملوك الذين عمل معهم، وعما كان يجري في الشؤون الداخلية والخارجية. ثُمَّ يقول بارتولد: وإذاً فلدينا صورة قوية عما جرى في البلاط الغزنوي أيام السلطان مسعود، وعن طرائق الحكم في الدولة التي أنشأها سبكتكين، ومحمود، صورة ليس لدينا ما يماثلها عن أي عصر آخر في القرون الوسطى الإسلاميَّة». وقد بين البيهقي منهجه في تصنيف كتابه فقال[٣]: «لم تذكر كتب التاريخ الأخرى هذه التفاصيل؛ فقد

---

(١) يقول الزركلي (الأعلام، ٦/ ١٠٠) «له كتاب في تاريخ ناصر الدين محمود بن سبكتكين، سماه «الناصري»، ذكر دولته يوماً يوماً من أولها إلى آخر أيامه، وهو في ثلاثين مجلداً، بالفارسية». وهذا يعني أن البيهقي في تسميته كتابه «بالناصري» سار على نهج العتبي الذي سمى كتابه «باليميني» نسبة إلى يمين الدولة محمود الغزنوي. والمعروف أن ناصر الدين هو لقب سبكتكين وليس ابنه محمود. فاقتضى التنويه، ولعل في الأمر لَبساً أو خطأً.

(٢) بارتولد: **دائرة المعارف الإسلامية** (بالعربيّة) مادة بيهق، نقلاً عن مقدمة كتاب **تاريخ البيهقي**، ص١٠ ـ ١١.

(٣) أبو الفضل البيهقي، م.ن، ترجمة إلى العربيَّة يحيى الخشاب وصادق نشأت، دار النهضة العربيَّة، بيروت ١٩٨٢، ص١١.

أخذوا الأمور في يسر، ولم يذكروا إلا القليل؛ أمَّا أنا، وقد عَرَضْتُ لهذا العمل؛ فإني أود أن أؤدي حق التاريخ كاملاً، وأن أبحث عن الخفايا، حتى لا يخفى شيء من الحوادث. . . فليس من حادث إلا وهو جدير بأن يقرأ، ولا تخلو قصة من عبرة».

والظاهر أن البيهقي بدأ تاريخه من سنة ٤٠٩هـ/١٠١٨م، وأنه وصل بالتاريخ إلى عهد أبي المظفر إبراهيم بن ناصر دين الله في سنة ٤٥١هـ/١٠٥٩م. أي هو دون الخمسين سنة من تاريخ الدولة الغزنوية.

وتكمن أهمّية الكتاب في أن مؤلفه شاهد عيان على العصر، وعلى الأحداث التي ذكرها، خاصّة وأنه كان يعمل في ديوان الرسائل، أي ديوان المراسلات بين مركز الحكم والأطراف، وكذلك المراسلات بين السلطان والجهات الخارجية. فوثائقه من رسائل ومعاهدات وتواقيع من أهمّ الوثائق وأصدقها وأدقها، لذا فالكتاب من أهمّ مصادر التاريخ السياسي للفترة التي ذكرها من حكم الغزنويين. كذلك فالكتاب غني بالعادات والنظم الاجتماعية التي كانت سائدة في عصره، كالاحتفالات بالأعياد والمواسم، وما كان يدور فيها ويقدَّم من أطعمة وأشربة.

ويتكلم البيهقي على نظام السخرة، خاصّة تسخير العمال لإزالة الثلوج من الطرقات أيام الشتاء. كما يتكلم على نظام الجاسوسية الدقيق التنظيم في الدولة الغزنوية.

ز ـ النرشخي[1]

أبو بكر محمد بن جعفر؛ ولد سنة ٢٨٦هـ/٨٩٩م، وتوفي سنة ٣٤٨هـ/٩٥٩م.

(١) الذهبي: أعلام النبلاء، ٢٢/٣٠٩؛ وبروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ٣/٢٨.

وهو من مؤرخي المشرق الإسلامي في القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد عاصر قيام الدولة السامانية، وامتدت حياته حتى عهد الأمير نوح بن نصر، وكان يكتب له. وقد ألّف النرشخي كتاب «تاريخ بخارى».

تاريخ بخاري

كتاب يدخل في كتب التاريخ الخاص، لكن ليس للأشخاص، بل للمدن، ويصل به إلى سنة ٣٣١هـ/ ٩٤٢م. وأهمية هذا الكتاب هو أن صاحبه يلقي الضوء على تاريخ بلدٍ كان قديماً جزءاً من تركستان، وغدا بعد الفتح الإسلاميّ عاصمة لدولة كبيرة هي الدولة السامانية.

ويتناول هذا الكتاب تاريخ السامانيين ـ حتى سنة ٣٣١هـ كما ذكرنا ـ وخُطَطَ بخارى، وأوضاعها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ويذكر حكامها وقضاتها وأخبارها، وتاريخ فتحها، وانتشار الإسلام فيها. ولكن المؤلف عندما يكتب عن بخارى قبل الإسلام يذكر الكثير من الأساطير[١].

ح ـ القُمّي[٢]

الحسن بن محمد بن الحسن القُمّي، المتوفى عام ٤٠٦هـ/ ١٠١٥م.

صنف القمي كتاب «تاريخ قم» للصاحب بن عباد، وذلك سنة ٣٧٨هـ/ ٩٨٨م.

ولا نملك معلومات كافية عن مؤلف الكتاب ولا عن الكتاب إلا أن عنوانه ينبئ عن مضمونه.

(١) هكذا ذكر الذهبي في كتابه أعلام النبلاء، ٢٢/ ٣٠٩.

(٢) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ٣/ ٢٩.

وهكذا أكون قد تحدثت عن حركة تأليف الكتب التاريخية في القرن الرابع للهجرة، بدءاً بالكتب التاريخية العامّة، ثم بكتب السير المفردة، أي كتب التاريخ الخاص، وتاريخ الدول، ثُمَّ انتهيت بذكر كتابين من كتب تاريخ المدن الإسلاميَّة في المشرق، راجياً أن أكون قد وفيت الموضوع حقه.

* * *

ثانياً: الجغرافية

كانت معلومات العرب الجغرافية قبل الإسلام محدودة، لا تتعدى بلادهم والبلاد المجاورة لهم، بحكم احتكاكهم بها للتجارة، وهذا يعني أن العربَ لم يهتموا إلاّ بمعرفة طرق القوافل التجارية، وما يساعدهم على معرفتها من معلومات عامَّة تتعلق بمواقع النجوم (الجغرافيا الفلكية).

وفي العصر الإسلاميّ، وخلال الفتوحات التي وسّعت رقعة الدولة الإسلاميّة شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، كان لا بُدَّ من الاستعانة بمعلومات جغرافية تتعلق بالدول والمدن التي سيتم فتحها، وبالطرق المؤدية إليها، وببعض أخبار شعوبها، ولا يمكن أن نتصوّر فتوحات تتم بهذه السرعة وتتوسع على هذا النحو، دون اعتماد قادة الجيوش على معلومات جغرافية أولية كانوا يستمدونها من أدلاّء (جمع دليل) يرشدهم إلى الطرقات والمفاوز، وهذه المعلومات الأولية هي بدايات علم الجغرافيا عند المسلمين، وإن كنا لا نملك دراسات وأبحاثاً حول هذا الموضوع، تبيّن لنا بوضوح كيفية استخدام هذه المعلومات الجغرافية الأولية.

كذلك علينا أن لا نزيل من الحسبان إنشاء ديوان البريد في أوائل العصر الأموي، والذي كان دوره الأساسي إيصال الرسائل والمعلومات من مركز الخلافة إلى عمّال وأمراء المناطق المترامية الأطراف، وهذا يعني ضرورة معرفة الطرق وأحوالها والمسافات بين المدن وطبيعة هذه المدن وجغرافيتها.

ومن العوامل التي أدت إلى إيجاد معلومات جغرافية عند المسلمين عن البلاد المفتوحة وجوب معرفة خراجها (ضريبة الأراضي وإنتاجها) وهذا المورد المالي المهم لبيت مال المسلمين، يضاف إليه الفيء والجزية وغيرها من تشريعات مالية، أوجب بلا شك مسح الأراضي ومعرفة متوجاتها وعدد سكانها وغيرها من المعلومات المتعلقة بما أصبح يُعرف بالجغرافية البشرية والجغرافية الاقتصادية، نضيف إلى ذلك أيضاً اتساع نطاق التجارة بين البلاد الإسلاميَّة، شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، مما استوجب معرفة جيدة بمعلومات جغرافية متنوعة.

ومن العوامل الأخرى التي ساعدت على تقدم المعارف الجغرافية وجوب أداء فريضة الحج على كل مسلم مستطيع؛ فكان تنظيم رحلات الحج من بلدان بعيدة إلى مكة المكرمة حيث الكعبة المشرفة، ثُمَّ زيارة المدينة المنوّرة حيث قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا يستتبع معرفة دقيقة بالطرق والبلدان وأحوال الجو والطقس وما إلى ذلك.

ونحن نعتقد أن ما عُرف عند العلماء بموضوع «الرحلة في طلب العلم» لم ينشط ويزدهر إلاَ بعد أن أصبحت المعلومات الجغرافية حول الطرق والمدن والبلدان وأحوال المعيشة وأحوال الطقس وغيرها من المعلومات متوفرة، أو يسهل الحصول عليها من مصادر محدّدة.

١ ـ تطوّر الكتابة الجغرافية وتعدد مواضيعها

استناداً إلى العوامل التي ذكرتها سابقاً، فقد أخذ العلماء بتصنيف كتب تقويم البلدان، المعمورة والمشهورة، ومنهم من اقتصر على ذكر البوادي والقفار، واقتصر على منازل العرب ومضاربهم في الصحراء، تلك المعلومات التي ورد قسم مهم منها في أشعار العرب وأخبارهم.

ونظراً لحاجة المسلمين إلى المعارف الجغرافية؛ فقد لجأوا إلى ما كتبه

اليونان قبلهم؛ فتعرّفوا على كتاب بطليموس في الجغرافية، وترجموه، واستفادوا من المعلومات الواردة فيه، وحذوا حذوه، وكان ذلك في نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث للهجرة.

ويعتبر كتاب ابن خُرْداذبه «المسالك والممالك» من أقدم الكتب التي وصلتنا معتمدة على كتاب بطليموس[١].

وابن خرداذبه[٢]، تولى البريد والخبر بنواحي الجبل، وكان موظفاً في ديوان البريد المركزي ببغداد. ولعل هذا السبب، أي عمله في ديوان البريد المركزي في بغداد، ثُمَّ في ديوان البريد والخبر في بلاد الجبل، هو الذي دفعه لتأليف كتاب «المسالك والممالك».

ولمَّا نقل ثابت بن قرّة (ت٢٨٨هـ/ ٩٠٠م) كتاب بطليموس في الجغرافيا، وكان نقله أفضل من نقل الكندي، استطاع الجغرافيون المسلمون الاستفادة منه بشكل أفضل؛ فقام محمد بن موسى الخوارزمي (من علماء القرن الثالث) بتصنيف كتاب «صورة الأرض» على نهج كتاب بطليموس، ونقل صورة الجداول التي ذكرها بطليموس، ثُمَّ جاء بعده من صحح أزياج بطليموس[٣].

وترك الجغرافيون والفلكيون المسلمون مجموعة كبيرة من الخرائط. ويذكر بروكلمان[٤] أبا زيد البلخي وكتابه «صور الأقاليم»، ويقول: «هو في أساسه كتاب خرائط، وربما أقيم على أساس أطلس إسلاميّ أقدم تأليفاً».

وكان محمد بن موسى الخوارزمي من أسبق من عرف أهمية الخريطة

---

(١) بروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، ٤/ ٢٣٤.

(٢) النديم: **الفهرست**، ص٢٨٣؛ وبروكلمان: م.ن، ٤/ ٢٣٤، والزركلي: **الأعلام**، ٤/ ١٩٠.

(٣) كحالة، عمر رضا: **التاريخ والجغرافيا في العصور الإسلاميّة**، ص٢٢٢.

(٤) بروكلمان: م.س، ٤/ ٢٤٦/ ٢٤٧.

كوسيلة لتوضيح المعلومات الجغرافية؛ فقد أضاف مجموعة من الخرائط إلى كتابه «**صورة الأرض**».

ورسم المقدسي خرائط مستقلة لكل قسم من الأقسام الأربعة عشرة التي قسم إليها العالم الإسلامي، واستخدم في تلك الخرائط طرقاً لتمثيل التضاريس الجغرافية المختلفة، حتى يمكن فهمها فهماً صحيحاً، فرسم الطرق المعروفة بالحُمرة، والرمال بالصُفرة، والبحار والأنهاء بالزُّرقة، والجبال بالغبرة.

وقد تطوّر علم الخرائط عند المسلمين، وأحسن نموذج من الخرائط التي وضعها الجغرافيون المسلمون خرائط الشريف الإدريسي التي أوردها في كتابه القيّم «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»، وظلت خرائط الإدريسي مقبولة ومعتمدة عدة قرون بعده[١].

ويضاف إلى كل ما سبق الكتب التي صُنفت ضمن «أدب الرحلات»، وهي كتب تمد الباحث بالكثير من المعلومات الجغرافية والتاريخية على السواء، ككتاب «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» للمقدسي، وكتاب «رسالة ابن فضلان» لابن فضلان، وما شابههما من الكتب الجغرافية الوصفية.

وقد نشطت حركة التأليف الجغرافي في القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، فقامت نتيجة ذلك مدرسة جغرافية، يصح أن يطلق عليها اسم المدرسة التقليدية للجغرافيا العربيّة[٢]، ورائد هذه المدرسة هو أبو زيد أحمد بن سهل البلخي (ت٣٢٢هـ/ ٩٣٣م) وهذه المدرسة ظهرت في بلاد المشرق الإسلاميّ، حول بلاط السامانيين في خراسان.

---

(١) بروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، ٤/ ٢٤٧؛ (٤٥٤).

(٢) كحالة، عمر رضا: **التاريخ والجغرافيا في العصور الإسلامية**، ص٢٢٩.

وكان إلى جانب مدرسة البلخي طائفة من المؤلفين، عاشوا في القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، وساهموا في نشر المعارف الجغرافية، ويمكن تقسيم مؤلفاتهم الجغرافية إلى قسمين:

- مؤلفات تحاول الحديث عن العالم المعروف في ذلك الوقت بأسره.
- ومؤلفات تقف عند الحديث عن ممالك أو أقاليم محدّدة.

وسنحاول عند حديثنا عن أشهر الجغرافيين في بلاد المشرق الذين عاشوا في القرن الرابع للهجرة، الإشارة إلى هذا الأمر عند التعريف بمؤلفاتهم.

٢ ـ أشهر الجغرافيين وأهمّ مؤلفاتهم

أ ـ ابن خُرْداذبه[١]

أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خُرْدَاذبه، كان جده خرداذبه مجوسياً ثُمَّ اعتنق الإسلام على يد البرامكة[٢] وكان أبوه والياً على طبرستان.

نشأ ابن خرداذبه في بغداد، ودرس الموسيقى والأدب على إسحاق الموصلي (ت٢٣٥هـ/٨٤٩م)، وظهر ذلك في مؤلفاته عن أصل الموسيقى، وعن الغناء والنغم[٣].

---

(١) راجع ترجمته وأخباره في المراجع التالية:
- النديم: **الفهرست**، ص٢٨٣.
- بروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، ٤/ ٢٣٤.
- فروخ، عمر: **تاريخ العلوم عند العرب**، ص٢٥٩.
- زيدان، جرجي: **تاريخ آداب اللغة العربيّة**، ٢/ ٢٣٦.
- كحالة، عمر: **التاريخ والجغرافيا في العصور الإسلاميّة**، ص٢٢٨.

(٢) زيدان، جرجي: م. س، ٢٢/ ٢٣٦، وانظر مقدمة كتاب **المسالك والممالك**، لابن خرداذبه، من إعداد دي غويه.

(٣) النديم: م.س، ص٢٨٣.

ثُمَ تولى ابن خرداذبه ديوان البريد بنواحي الجبل، ولعله كان سابقاً موظفاً في ديوان البريد المركزي في بغداد.

أمّا عن تاريخي ميلاده ووفاته، فلا نعرف على وجه اليقين هذين التاريخين، حيث لم تمدّ كتب التراجم بمعلومات عن ذلك، علماً أن الباحثين اختلفوا في تحديد هذين التاريخين؛ فيذكر جرجي زيدان أن ابن خرداذبه توفي في أواسط القرن الثالث للهجرة، ويقول عمر كحالة بأنه توفي عام ٢٨٠ للهجرة، بينما يذكر ناشر كتاب المسالك والممالك، أن ابن خرداذبه متوفى في حدود سنة ٣٠٠هـ/ ٩١٢م[١] علماً أن محقق الكتاب المستشرق دي غويه يذكر في مقدمته أن عُمُرَ بن خرداذبه كان في عام ٢٥٦ يزيد على خمسين سنة، وهذا يعني أن ابن خرداذبه توفي فيما بعد عام ٣٠٦هـ/ ٩١٨م.

كتاب المسالك والممالك[٢]

يقول ابن خرداذبه في مطلع كتابه إنه ذكر[٣] «مسالك الأرض وممالكها، وصفتها، وبُعدها، وقُربها، وعامرها، وغامرها، والمسير بين ذلك منها، من مفاوزها وأقاصيها، ورسوم طرقها، وطسوقها، على ما رسمه المتقدمون منها». ثم يذكر أنه استقى معلوماته من كتاب بطليموس فيقول[٤]: «فوجدت بطليموس قد أبان الحدود، وأوضح الحجة في صفتها، بلغة أعجمية، فنقلتها عن لغته باللغة الصحيحة».

(١) وهذا التاريخ يذكره أيضاً عمر فروخ في كتابه **تاريخ العلوم عند العرب**، ص٢٥٦، كما يحدد تاريخ ميلاد ابن خرداذبه نحو سنة ٢٠٥هـ/ ٨٢٠م.

(٢) طبع هذا الكتاب لأول مره باللغة العربيّة بعناية المستشرق دي غويه، بمطبعة بريل في مدينة ليدن بهولندا، ذلك سنة ١٨٨٩م. ضمن سلسلة المكتبة الجغرافية العربيّة، الكتاب السادس. وأعادت مكتبة المثنى ببغداد تصويره ونشره (د.ت.) وبالتعاون مع دار الكتاب اللبناني في بيروت. وقع وضع له المستشرق دي غويه مقدمة مفيدة وهامّة باللغة الفرنسية.

(٣) ابن خرداذبه: **المسالك والممالك**، ص٣.

(٤) ابن خرداذبه: م.ن، ص٣.

وقع وضع ابن خرداذبه الكتاب فيما يبدو لخدمة الإداريين وعمال الدواوين، وهو أوّل مصنَّف كامل يصلنا في الجغرافية الوصفية، وقد استغرق تأليف هذا الكتاب المدة ما بين ٢٣٢هـ و٢٧٣هـ/ ٨٤٦م و٨٨٥م[(١)].

ويتضمن الكتاب وصف طرق العالم الإسلاميّ بدرجات متفاوتة من التفصيل، وإحصاء جباية الدولة العباسية في أواسط القرن الثالث الهجري، وملاحظات عن التقسيمات الإدارية، وقد يستشهد بالشعر عند الحديث عن بعض الأمكنة. وقد أفاد ابن خرداذبه من عمله في ديوان البريد المركزي في بغداد، وفي ديوان البريد في بلاد الجبل، باطلاعه على الوثائق الرسمية؛ فاتسمت كتابته بالدقة في المعلومات وفي إحصاءات جباية الدولة العباسية، ولكنها افتقرت إلى التبويب المنهجي السليم.

كذلك تضمن الكتاب فصولاً تناولت تقسيم الأرض وعجائب العالم، ووصف الطرق في العهود الإسلامية الأولى. ويختم ابن خرداذبه كتابه بذكر بعض المعلومات عن الصين والتيبت وما جاورهما، لكن دون تفاصيل تذكر. وقد ظهر أثر هذا الكتاب في مؤلفات جغرافيين جاؤوا بعده كاليعقوبي، وابن رُسته، وابن حوقل، والمسعودي، وكانت مادته مصدراً مهماً لما كتبوه في الجغرافية.

ب ـ اليعقوبي[(٢)]

أحمد بن يعقوب بن إسحاق بن جعفر، أبو العباس، جغرافي ومؤرخ،

---

(١) هكذا ذكر عمر فروخ: م.س، ص٢٦٠؛ وقد ذكر آدم متز في كتابه **الحضارة الإسلاميّة في القرن الرابع الهجري**، ص٧، أن الكتاب ظهر حوالي سنة ٢٣٢هـ/ ٨٤٦م.

(٢) راجع ترجمته وأخباره في:
- ياقوت الحموي: **معجم الأدباء**، ٥/ ١٥٣ (الترجمة رقم ٣٤).
- بروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، ٤/ ٢٣٦.
- زيدان، جرجي: **تاريخ آداب اللغة العربية**، ٢/ ٢٢٩ و ٢٣٧.
- فروخ، عمر: **تاريخ العلوم عند العرب**، ص٢٧٧.

ولد ببغداد، وطاف كثيراً في بلاد العالم الإسلاميّ؛ فزار أرمينية وخراسان والهند وفلسطين ومصر والمغرب. وألف في رحلته هذه كتاباً سمّاه «كتاب البلدان»[(١)]، وهو أقدم كتاب عربي وصل إلينا في موضوعه[(٢)].

كان اليعقوبي على علاقة وثيقة بالعباسيين؛ فنال المناصب الرفيعة، منها الولاية على أرمينية وأذربيجان، وقضى شبابه في خدمة الدولة الطاهرية بخراسان، وبعد سقوط الدولة الطاهرية ذهب إلى مصر، وفيها كتب كتابه في الجغرافيا سنة ٢٧٨هـ/ ٨٩١م.

توفي اليعقوبي سنة ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م[(٣)]، وقيل سنة ٢٧٨هـ/ ٨٩١م[(٤)] وقيل أيضاً: سنة ٢٩٢هـ/ ٩٠٥م[(٥)].

كتاب البلدان[(٦)]: جمع فيه مؤلفه ما عرفه بنفسه من أحوال البلدان في عصره، من خلال أسفاره التي قام بها؛ فكان كلما رأى رجلاً من تلك البلاد، بالمشرق أو بالمغرب سأله عن وطنه ومصره وأهله وأجناسهم وأكلهم وشربهم ولباسهم، والأبعاد بين البلاد ومبالغ الخراج، ويدوّن ما وصل إليه، وهو يقول[(٧)]: ثُمّ أُثبت كل ما يخبرني به من أثق بصدقه، وأستظهر بمسألة قوم بعد قوم، حتى سألت خلقاً كثيراً وعالماً من الناس، في الموسم وغير

(١) ذكره ياقوت باسم «أسماء البلدان»، م.س، ٥/ ١٥٤.

(٢) زيدان، جرجي: **تاريخ آداب اللغة العربية**، ٢/ ٢٢٩.

(٣) هكذا ذكر ياقوت الحموي في **معجم الأدباء**، ٥/ ١٥٤، وبروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، ٤/ ٢٣٦، وكذلك محقق الكتاب المستشرق دي غويه.

(٤) هكذا ذكر جرجي زيدان: م.س، ٢/ ٢٣٧.

(٥) هكذا ذكر فروخ، عمر: **تاريخ العلوم عند العرب**، ص٢٧٧.

(٦) طبع هذا الكتاب باعتناء المستشرق دي غويه ضمن كتب المكتبة الجغرافية العربية، الكتاب السابع، القسم الثاني (من ص٢٣٢ حتى ص٣٧٣)، وكان القسم الأول يتناول كتاب **الأعلاق النفيسة** لابن رسته. وقد طبع الكتاب لأول مره بمطبعة بريل سنة ١٨٩١ ميلادية.

(٧) اليعقوبي: كتاب البلدان، طبعة دي غويه، ص٢٣٢ ـ ٢٣٣؛ وانظر: آدم متز، **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**، ٢/ ٩ ـ ١٠.

الموسم. . . فلم أزل أكتب هذه الأخبار، وأؤلف هذا الكتاب دهراً طويلاً، وأضيف كل خبر إلى بلده، وكل ما أسمع به من ثقات أهل الأمصار، إلى ما تقدمت عندي معرفته.

لذا فإن هذا الكتاب يعتبر من أمهات كتب الجغرافيا التي وصلت إلينا، لأن مؤلفه جمع فيه ما عرفه بنفسه من أحوال البلاد والعباد في عصره، نتيجة لأسفاره الطويلة والمديدة.

وقد حدد اليعقوبي منهاجه في كتابه قائلاً[1]: «وقد ذكرت أسماء الأمصار والأجناد والكور، وما في كل مصر من المدن والأقاليم والطاليج، ومن يسكنه، ويغلب عليه، ويترأس فيه من قبائل العرب وأجناس العجم، ومسافة ما بين البلد والبلد، والمِصر والمصْر، ومن فتحه من قادة جيوش الإسلام، وتاريخ ذلك في سنته وأوقاته ومبلغَ خراجه، وسهله وجبله، وبره وبحره، وهواءه في شدة حره وبرده، ومياهه وشربه». ومن ثم جاء كتابه جديداً في عرضه، معتمداً على الدراسة الميدانية.

وقد بدأ اليعقوبي كتابه بدراسة مستفيضة شملت نحو رُبْعه، لبغداد وسامراء، كما كانتا في عصره، «لأنهما مدينتا الملك ودار الخلافة، كما يقول؛ ثُمّ انتقل إلى وصف بلاد المشرق، وهي في اصطلاحه بلاد فارس، شرقي العراق إلى تركستان؛ ثُمّ تناول وصف بلاد العرب فالشام؛ فمصر؛ فالنوبة؛ فالمغرب؛ فالأندلس.

ويعنى اليعقوبي في كتابه بطرق المواصلات وطول المسافات، كذلك يهتم بكثير من المعلومات التي لا نجدها في مصادر أخرى؛ ومن خلال اطلاعنا على هذا الكتاب تبدو لنا نزعته التحليلية العلمية واضحة.

---

(١) اليعقوبي: كتاب البلدان، ص٢٣٣.

جـ الإصطخري

أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي، المعروف أيضاً بالكرخي، ينسب إلى إصطخر، من أعمال فارس؛ من جغرافيي القرن الرابع؛ توفي في النصف الثاني من هذا القرن؛ وقد صنف في الجغرافيا كتابين[1]: «كتاب الأقاليم» و«كتاب المسالك والممالك».

المسالك والممالك[2]

وهو يشتمل على حدود الممالك وصور أقاليم الأرض ومدنها وبحارها وأنهارها، والمسافات بين المدن.

بدأ الاصطخري هذا الكتاب ببلاد العرب، فبحر فارس، وديار المغرب والأندلس ومسافاتها، ومصر وأقسامها وبلادها، وأرض الشام وبيت المقدس، والمسافات بينها، وصفة بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) وأرض الجزيرة والعراق، ومسافاتها وأنهارها، ثُمّ خوزستان وبلاد فارس ومسافاتها، وبلاد كرمان والسند، وأذربيجان، والجبال، وطبرستان، وبحر الخزر، وخراسان، وسجستان وأفغانستان، وبلاد ما وراء النهر، ومسافاتها، وقد وضّح ذلك كله بالخرائط، ويسميها «الصُّور»، وعددها تسع عشرة صورة كبيرة.

والاصطخري يدرس في هذا الكتاب الخريطة السياسية للعالم المعروف في ذلك الوقت، فيقسمه إلى ممالك، وهو يرى أن عماد ممالك

---

(١) زيدان، جرجي: **تاريخ آداب اللغة العربية**، ٢/٣٧٨ ـ ٣٨٨، ويبدو أن هذين الكتابين هما كتاب واحد بقسمين، طبعا قديماً مستقلين، وهذا ما أوقع زيدان في اللبس.

(٢) صدر هذا الكتاب باعتناء المستشرق دي غويه، ونشر ضمن المكتبة العربية الجغرافية، الكتاب الأول، وطبع في ليدن سنة ١٨٧٠م. وأعادت نشره وزارة الثقافة والإرشاد القومي بتحقيق محمد جابر عبد العال الحسيني، ومراجعة محمد شفيق غربال، سنة ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م.

الأرض (أي الدول العظمى في المصطلح الحديث) أربعة هي: مملكة الصين، ومملكة الهند، ومملكة الروم، ومملكة الإسلام. ويتناول الاصطخري أيضاً وبإيجاز الجغرافيا الطبيعية.

وعندما يتحدث عن بلاد الإسلام يقسمها إلى عشرين إقليماً، يخص كل إقليم منها بفصلٍ مستقل، يتحدث فيه عن مدنه وطرقه ومظاهره الطبيعية؛ وقد يتناول بإيجاز أموراً أخرى، كالقبائل التي تعيش في الإقليم، ويتطرق إلى بعض الجوانب التاريخية.

وترجع أهمية هذا الكتاب إلى اعتماده الخريطة أساساً للدراسة الجغرافية؛ فأفرد لكل إقليم خريطة خاصَّة به.

د ـ ابن رُسْتَه[١]

أبو علي، أحمد بن عمر، من رجال القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، كتب في أصفهان بعد سنة ٣١٠هـ/ ٩٢٢م موسوعة عنوانها «الأعلاق النفيسة» يتناول الجزء السابع منها الجغرافيا[٢].

ولا نعلم معلومات كافية عن هذا المؤلف، ولا عن كامل موسوعته؛ فقد عُثر على الجزء السابع منه فقط[٣].

الأعلاق النفيسة (الجزء السابع)

يبدأ هذا الجزء بذكر الفلك وحركته وكيفيته، وبيان قدرة الله في صنعته وتركيبه، ثُمَّ يتكلم على الأرض ومقدار جرمها ومدنها المشهورة، ووصف

(١) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ٤/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠.
(٢) زيدان، جرجي: تاريخ آداب اللغة العربية، ٢/ ٢٣٨.
(٣) نشر هذا الجزء باعتناء المستشرق دي غويه ضمن المكتبة العربية الجغرافية. وطبع في ليدن سنة بمطبعة بريل، سنة ١٨٩١م.

المسالك، والممالك فيها؛ فيبدأ بذكر مكة المكرمة، والكعبة والمسجد الحرام، وبئر زمزم، ويتناول بعد ذلك مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم. وينتقل بعد ذلك إلى عجائب الأرض وصفة البحور والأنهار.

بعد ذلك ينتقل إلى ذكر أقاليم الأرض؛ فيذكر أنها سبعة ويتكلم على مدنها، مع وصف مفصل لإيران والبلاد المحيطة بها.

هـ ـ أبو زيد البلخي

أحمد بن سهل، ولد سنة ٢٥٤هـ/٨٦٨م في بلخ، بقريةٍ تُدعى شامستيان، وكان أبوه سجزياً (أي من سجستان) يُعَلّم الصبيان. نشأ أبو زيد في العراق طلباً للإمام المهدي المنتظر، إذ كان على مذهب الإمامية.

وقد درس العلوم المتوفرة في بغداد، وأدرك الفيلسوف الكندي وأخذ عنه العلوم[١] حتى صار في كل فن من فنون العلم قدوة، وفي كل نوع من أنواعه إماماً، فعاد إلى بلدته بلخ، وانتشر بها علمه، وعمل كاتباً عند أحمد بن سهل بن هاشم المروزي إلى حين وفاة هذا الأمير.

ويعتبر أبو زيد البلخي من علماء الكلام المعدودين، وكان يقال له بالعراق «جاحظ خراسان»، وهذا يعني أنه كان على مذهب الاعتزال.

توفي أبو زيد البلخي في قريته ببلخ سنة ٣٢٢ هـ/ ٩٣٤م[٢]، عن سبع وثمانين سنة.

ذكر النديم[٣] لأبي زيد البلخي ثلاثة وأربعين مصنفاً في علوم شتى،

(١) بروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، ٢٤٦/٤؛ وزيدان جرجي: **تاريخ آداب اللغة العربية**، ٢/ ٢٣٣.

(٢) ما أوردناه من معلومات عن البلخي مأخوذ عن كتاب ياقوت الحموي: **معجم الأدباء**، ٣/ ٦٤ ـ ٨٦ بتصرف.

(٣) النديم: **الفهرست** ص١٥٣ (طبعة طهران رضا ـ تجدد).

بينما ذكر له ياقوت سبعاً وخمسين مصنفاً. قال النديم: كان فاضلاً في سائر العلوم القديمة والحديثة، يسلك في تصنيفاته وتأليفاته طريقة الفلاسفة، إلا أنه بأهل الأدب أشبه، ومنهم أقرب.

كتاب صُوَر الأقاليم[1]

قال زيدان[2]: «وهو أقدم كتاب جغرافي عربيّ موضّح بالخرائط، أو هو خرائط موضحة ببعض الشروح... فرسم الأرض وأشكالها والأقاليم الإسلاميّة بالخرائط الملونة على ما بلغ إليه جهد العربَ في ذلك الوقت».

ويقول عنه بروكلمان[3]: «هو في أساسه كتاب خرائط، وربما أُقيم على أساس أطلس إسلاميّ أقدم تأليفاً» ثُمَ يقول: «وكتاب المسالك والممالك الذي صنفه محمد الفارسي الإصطخري في حدود سنة ٣٢٠هـ/ ٩٥١م، هو نسخة موسعة من كتاب البلخي، ويبدو أنه أُلِّف أصلاً بالفارسية، وهو على أية حال يصور الجغرافيا بروح إيرانية، وينمُّ عن اهتمام قوي بالساسانيين».

ويضيف بروكلمان: «وكتاب البلخي هو أيضاً الأساس الذي أقام عليه أبو القاسم ابن حوقل في حدود سنة ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م، كتاب صورة الأرض».

---

(١) هكذا ورد اسم الكتاب عند جرجي زيدان: **تاريخ آداب اللغة العربية**، ٢/ ٣٧٨، وعند بروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، ٤/ ٢٤٥٦، وكذلك عند كحالة، عمر رضا: **التاريخ والجغرافيا في العصور الإسلامية**، ص٢٢٩. والغريب أن النديم وياقوت الحموي، اللذين ذكرا مؤلفات البلخي، لم يذكرا هذا الكتاب بهذا الاسم، فلدى النديم ورد «كتاب تفسير صُور كتاب أسماء العالم لأبي جعفر الخازن»، وكذلك عند ياقوت، وأعتقد أن تسمية الكتاب ب «صورة الأقاليم» هو تغيير في عنوان الكتاب ذاته، لا نعلم متى حصل وكيف، ومن الذي قام به.

(٢) زيدان، جرجي: م.ن، ٢/ ٣٧٨.

(٣) بروكلمان: م.س، ٤/ ٢٤٧، وكلام بروكلمان يؤكد ما ذهبنا إليه أن الكتاب هو «تفسير صور كتاب أسماء العالم» لأبي جعفر الخازن.

وتعطينا المصوّرات الجغرافية الواردة في كتابَيْ الاصطخري وابن حوقل وما يماثلهما، فكرة وافية عن مصورات كتاب البلخي، الذي يشمل معظم مصورات العالم، وشبه جزيرة العرب، وبحر فارس، والمغرب، ومصر، والشام، وبحر الروم، (الأبيض المتوسط)، كما يشمل أربعة عشر مصوراً لآخر الأنحاء من أواسط العالم الإسلاميّ وشرقه.

٣ ـ أدب الرحلات

من الأهمية بمكان الاستفادة من أدب الرحلات في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وهذا التصنيف لم يكن تصنيفاً أدبياً بما تعنيه كلمة أدب من معنى، بل كان تصويراً واقعياً لمشاهدات ومعايشات حصلت مع من صنّفه.

وسنتناول هنا رسالة ابن فضلان، وكتاب «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» للمقدسي.

أ ـ ابن فضلان

أحمد بن فضلان بن عباس بن رشيد بن حماد. كان الخليفة العباسي، المقتدر بالله، قد أرسله في بعثة إلى ملك البلغار[1] (بلغار الفولغا)، وذلك في صفر سنة ٣٠٩هـ/ حزيران ٩٢١م؛ فوصل إليه في المحرم من سنة ٣١٠هـ/ أيار ٩٢٢م[2]. وبعد عودته إلى بغداد وصف رحلته في رسالة عرفت «برسالة ابن فضلان»؛ ونكاد لا نعرف شيئاً عن ابن فضلان، ولكن يظهر من

---

(١) بلغار: هي عاصمة مملكة الصقالبة، تقع وسط الأراضي الروسية على ضفاف نهر الفولغا، وتبعد نحو ٦٠٠ ميل شرق موسكو؛ وبلغار هذه ليست بلغاريا الحديثة، إحدى دول البلقان، وقد يكون شعب البلغار هاجر قديماً من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، وسكن البلاد التي تعرف اليوم ببلغاريا.

(٢) هكذا ذكر بروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، ٤/ ٢٤١، بينما ذكر محقق رسالة ابن فضلان، حيدر محمد غيبة، أن الرحلة استغرقت ثلاث سنوات (**رسالة ابن فضلان**، ص٢٤).

رسالته أنه كان مثقفاً، وغير متقدم في السن، وقد بين بوضوح أنه كان يمت بِصلَةٍ إلى الخليفة العباسي المقتدر بالله.

لقد كان ابن فضلان شاهداً ذكياً، اهتم بالتفاصيل اليومية، وبحياة ومعتقدات الشعوب التي التقى بها أثناء رحلته. كما يبدو أسلوبه غريباً بالنسبة للعقلية العربيّة، فالقصص التي يرويها يقدّمها لنا بأسلوب واقعي جداً، مستخدماً ألفاظاً كان يسمعها من النّاس مباشرة.

رسالة ابن فضلان[١]

لم يكتب ابن فضلان رسالته بهدف التسلية، أو لتعزيز أساطير الشعب الذي عاش بين ظهرانيه، بل كانت رسالته عبارة عن تقرير يقدمه سفير لرئيس دولته، يسجل فيه الواقع الذي عاشه وعاينه؛ فكان صريحاً ونزيهاً، ينقل الواقع بحذافيره، والعبارات التي يسمعها بحرفيّتها، ويصوّر المشاهدات التي عاشها كما هي، بعين صادقة لا تبدّل ولا تغيّر، لا تجمّل ولا تزيّن، حتى ولو كان المنظر فجاً، والعبارات نابية، لذلك كثيراً ما استخدم عبارة «لقد رأيت بأم العين».

ويعرف ابن فضلان برسالته فيقول[٢]: «هذا هو كتاب أحمد بن فضلان، بن عباس بن رشيد بن حماد، مولى محمد بن سليمان، مبعوث المقتدر إلى ملك الصقالبة، يروي فيه ما شاهده في أرض الأتراك والخزر

(١) حصلت محاولات عديدة لطبع هذه الرسالة من قبل المستشرقين، مع تعليقات وملاحظات، وبلغات عدة. ثُمّ طبعت باللغة العربيّة سنة ١٩٧٧ بتحقيق سامي الدهان، وقد صدرت عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي السورية.
ثُمّ طبعت ثانية بتحقيق الدكتور حيدر محمد غيبة، في صورة جديدة، أكثر اكتمالاً من سابقاتها، ونشرتها الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ١٩٩١.

(٢) ابن فضلان: **رسالة ابن فضلان**، تحقيق حيدر محمد غيبة، ص٣٣ (المقدمة).

والصقالبة والباشغرد والروس وأهل الشمال، وعن قصص ملوكهم وسلوكهم في كثير من شؤون حياتهم».

تبدأ رحلة ابن فضلان انطلاقاً من بغداد، باتجاه بلاد العجم، والترك، ويتكلم على أتراك الغزية وعاداتهم وتفاصيل حياتهم، ثُمّ ينتقل إلى بلاد الصقالبة، ويتكلم على ما رآه من عجائب «ما لا أحصيها كثرة».

ثُمّ يتكلم على بلاد الروس، والاتصال بالإسكندنافيين القدماء (الفايكنغ) وعن عاداتهم وأخلاقهم، ثم يتكلم على طريق العودة من بلاد الشمال إلى الوطن؛ وينهي رسالته بالحديث عن زيارة بلاد الخزر، ولا ينسى عادات ملكها وشعبها.

ومما لا شك فيه أن هذه الرسالة ـ التقرير، هي من أهمّ الكتابات القديمة عن حياة الشعوب التي زارها ابن فضلان، كما يذكر فيها المدن التي زارها والمسافات بينها. أوصافها وغير ذلك من المعلومات الداخلة في إطار الجغرافيا البشرية والسكانية، وجغرافية المدن. وقد بقيت المعلومات التي قدمها ابن فضلان مصدراً أساسياً للكثير من العلماء الذين كتبوا عن تلك البلاد أو عن شعوبها.

ب ـ **المقدسي**(1): شمس الدين أبو عبد الله، محمد بن أبي بكر، البنّاء البشاري، المقدسي.

ولد في القدس عام ٣٣٥هـ/ ٩٤٦م، وهو حفيد بنّاء معماري (مهندس)

(١) راجع في ترجمته وأخباره المصادر التالية:
ـ بروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، ٤/ ٢٥٣ ـ ٢٥٤.
ـ زيدان، جرجي: **تاريخ آداب اللغة العربية**، ٢/ ٣٧٩.
ـ فروخ، عمر: **تاريخ العلوم عند العرب**، ص٢٧٣.
ـ كحالة، عمر رضا: **التاريخ والجغرافيا في العصور الإسلامية**، ص٢٢٦ ـ ٢٢٧.

بنى أبواب عكا لأحمد بن طولون (ت ٢٧٠هـ/ ٨٨٤م)، الذي ولاّه الخليفة العباسي المتوكل إمارة دمشق ثم إمارة مصر؛ سنة ٢٥٤هـ/ ٨٦٨م.

جال المقدسي في معظم أرجاء العالم الإسلاميّ، لكنه لم يزر بلاد الأندلس. وفي هذه الرحلات انتفع بكل المصادر الأدبية التي أتيحت له، وكان يزاول هذه المهنة حيناً، وتلك المهنة حيناً آخر، يخبر الحياة خبرة شاملة عميقة. وهكذا استطاع المقدسي من خلال تجاربه الخاصّة، واستناداً إلى نتائج من سبقه من العلماء والجغرافيين، أن يعرض صورة للعالم الإسلاميّ، شديدة الوضوح، غنية المحتوى، وكان في وصفه للبلاد المختلفة يحبّ الإشارة بين الحين والحين، على سبيل المقارنة إلى وطنه فلسطين.

ولا يخلو أسلوب المقدسي في كتابته من بعض التصنع، ذلك التصنع الذي أخذ ينتشر في الكتابة الديوانية خصوصاً، والأدبية عموماً، في القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد.

وقد كتب كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم[1] سنة ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م.

وقد نال المقدسي إعجاب كل من اطلع على كتابه فقال آدم متز[2]: «ثُمّ جاء كتاب المقدسي في القرن الرابع الهجري؛ فكان في الذروة التي بلغها العرب في وصف البلدان؛ فقد سافر المقدسي حتى دوّخ الممالك، واستهوته حياة الارتحال والسياحة على طريقة المسلمين».

يقول المقدسي عن نفسه إنه لم يبق شيء مما يلحق المسافرين إلا وقد

---

(١) قال زيدان، جرجي: «هو أفضل الجغرافيات العامّة في ذلك العصر»، **تاريخ آداب اللغة العربية**، ٢/ ٣٧٩.

(٢) متز، آدم: **الحضارة الإسلاميّة في القرن الرابع الهجري**، ٢/ ١٠

أخذ منه نصيباً، غير الكدية وركوب الكبيرة[1]، وإنه أنفق في أسفاره ما يزيد على عشرة آلاف درهم[2].

ويؤكد المقدسي أنه لم يذكر إلا مملكة الإسلام، و«لم يتكلف ممالك الكفّار، لأنّنا لم ندخلها، ولم نر فائدة في ذكرها، بلى قد ذكرنا مواضع المسلمين منها»[3].

كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم[4]

يذكر المقدسي القواعد التي أسس عليها كتابه فيقول[5]:

«هذا الكتاب أسّسته على قواعد محكمة، وأسندته بدعائم قوية، وتحرّيت جهدي الصواب، واستعنت بفهم أولي الألباب. . . أرصف بنيانه على ما شاهدته وعقلته، وعرفته وعلقته، وما استعنت به على تبيانه سؤال ذوي العقول من النّاس، ومن لم أعرفهم بالغفلة والالتباس، عن الكور والأعمال في الأطراف التي بعدت عنها، ولم يقتدر لي الوصول إليها؛ فما وقع عليه اتفاقهم أثبتّه، وما اختلفوا فيه نبذته».

ويقول أيضاً مبيناً منهجه في إعداد الكتاب[6]: «وقد ذكرنا ما رأيناه، وحكينا ما سمعناه؛ فما صح عندنا بالمعاينة، وأخبار التواتر، أرسلنا به

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص٤٤.
(٢) المقدسي: م.ن، ص٤٥.
(٣) المقدسي: م.س، ص٩.
(٤) طبع هذا الكتاب باعتناء المستشرق دي غويه ـ طبعة ثانية بمطبعة بريل، في مدينة ليدن، سنة ١٩٠٦، وقد أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد، لصاحبها قاسم محمد الرجب، دون ذكر تاريخ هذه الطبعة. (٤٩٣).
(٥) المقدسي: م. س، ص٣.
(٦) المقدسي: م. ن، ص٨.

القول، وما شككنا فيه، أو كان من طريق الآحاد، أسندناه إلى الذي منه سمعناه».

وهذا المنهج في تقصي الخبر، اتّبعه المقدسي متأثراً بعلماء الحديث النبوي، الذين لا يأخذون إلا بالحديث المتواتر، وهو الذي ينقله راوٍ عن راوٍ فوقه، حتى تبلغ الرواية منتهاها.

مصادر الكتاب

يُحَدّد المقدسي مصادر كتابه على النحو التالي[1]:

انتظم كتابنا هذا ثلاثة أقسام:

- **أحدها**: ما عايَنّاه (المشاهدة المباشرة).
- **والثاني**: ما سمعناه من الثقات (السماع من الثقات على طريقة علماء الحديث).
- **الثالث**: ما وجدناه في الكتب المصنفة في هذا الباب، وفي غيره. (البحث والمطالعة وتقصّي المعلومات).

ولم يصدر المقدسي كتابه إلاّ بعد أن بلغ الأربعين، ووطئ جميع الأقاليم[2]. وهذا يعني أنه بلغ سن النضج والوعي التام لما شاهد وعاين، وطالع واختبر بنفسه، حتى وجد نفسه أهلاً لإصدار هذا الكتاب القيم.

محتوى الكتاب

صَدَّر المقدسي كتابه بمقدمة فريدة، تناول فيها تاريخ علم الجغرافيا عند العرب، ضمنها نقداً منهجياً للعلماء الذين سبقوه وألفوا في هذا العلم.

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص٤٣.

(٢) المقدسي: م. ن، ص٨.

يلي المقدمة وصف البحار والأنهار، ثُمَّ يعقد فصلاً للحديث عن الأماكن وأسمائها؛ فيتناول المواضع المختلفة التي يجمعها اسم مشترك، كذلك الموضع الواحد الذي يحمل أكثر من اسم، ويتبع ذلك بفصلين، يتحدث فيهما بإيجاز عن خصائص الأقاليم المختلفة، والمذاهب الإسلاميَّة، وعن الأقاليم السبعة المعروفة، وموضع القبلة من هذه الأقاليم، وامتداد مملكة الإسلام. وهذه الفصول الأولى التي يمكن اعتبارها مدخلاً للكتاب تحتل ٦٦ صفحة من مجموع ٤٩٦ صفحة.

وينتقل المقدسي بعد ذلك، وفقاً لمنهج ثابت، إلى وصف البلاد الإسلاميَّة التي قسمها إلى سبعة أقاليم، يتناول في كل إقليم أهمّ مُدُنه، وكوره، وشعبه، وعاداتهم، وأخلاقهم، ومذاهبهم، ومساجدهم، وفرقهم، وانتماءاتهم وغير ذلك من الأمور التفصيلية والحياتية، كمآكلهم، ومشاربهم، وزراعتهم، وتجارتهم، ثم أخيراً يذكر المسافات الفاصلة بين المدن، وطرق المواصلات بينها.

ويلاحظ أنه عند نهاية حديثه عن كل إقليم، يذكر خلاصة ما أورد من معلومات، تحت عنوان «جملة شؤون هذا الإقليم». ومن الملاحظ أن النص المطبوع للكتاب يخلو من الرسوم والخرائط التي أشار إليها المقدسي، حيث يقول(١):

«... مملكة المسلمين قسمناها أربعة عشر إقليماً... ورسمنا حدودها وخططها، وحرّرنا طُرُقها المعروفة، بالحُمرة، وجعلنا رمالها الذهبية، بالصُّفرة، وبحارها المالحة، بالخُضرة، وأنهارها المعروفة بالزُّرقة، وجبالها المشهورة بالغُبرة، ليقرب الوصف إلى الأفهام، ويقف عليه الخاص والعام».

(١) المقدسي: **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ص٩.

لكن بروكلمان يذكر[١] أن المستشرق ميلر نشر هذه الخرائط في ألمانيا (شتودغرت) ما بين سنتي ١٩٢٦م و١٩٣١م، تحت عنوان «خرائط عربيَّة». ويبدو أن جهود المقدسي في رسم خرائط هذه لم تصل إلى الكثير من العلماء العرب، والباحثين في عصرنا الحاضر.

أهمية الكتاب

ترجع أهمية الكتاب «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» إلى سلامة منهجه العلميّ، المعتمد على المشاهدة والسماع من الثقات، ثُمّ على بحثه في مصادر التراث الجغرافي، واطّلاعه على كل ما كتب حول موضوعه، والاستفادة منه على أفضل وجه.

وقد عدّه المستشرقون الذين أطلعوا عليه، أكثر المصنفات الجغرافية العربيَّة قيمة؛ فقد قال بروكلمان عن المقدسي: إنّه آخر جغرافيي هذه الفترة (أي القرن الرابع للهجرة) وأهمهم في الوقت نفسه[٢].

ويقول آدم متز[٣]: إن كتاب المقدسي كان في الذروة التي بلغها العرب في وصف البلدان. أمّا إشبر نجلر فقال عن المقدسي[٤]: «إنه أكبر جغرافيّ عرفته البشرية قاطبة، ولم يسبقه شخص في اتساع مجال أسفاره، وعمق ملاحظاته، وعَرْضِه للمادة التي جمعها في صياغة منظّمة».

إنّ تسارع الأحداث وتطوّرها في بداية الدعوة الإسلامية، ثم في عصر الفتوحات الإسلامية، جعل المسلمين يحتاجون إلى تأريخ هذه الأحداث، مما أدّى إلى نشوء علم التاريخ عندهم.

---

(١) بروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، ٤/ ٢٥٤.
(٢) بروكلمان: م.ن، ٤/ ٢٥٣.
(٣) آدم متز، **الحضارة الإسلاميَّة في القرن الرابع الهجري**، ٢/ ١٠.
(٤) فروخ، عمر: **تاريخ العلوم عند العرب**، ص٢٧٤ ـ ٢٧٥.

ثم مع توالي الأحداث في العصور الإسلامية اللاحقة، أخذ هذا العلم يتطوّر مع جهود العلماء الذين أرّخوا لها، كما أرّخوا لِسِير الحكام والامراء، فكان نوع آخر من التأريخ، كان منطلقة تأريخ أحداث السيرة النبوية. ولعلّ الطبري كان أول من أرّخ الأحداث حسب تسلسلها الزمني، Histoire chronologique، مع الإشارة إلى أن معظم المؤرخين عمدوا إلى بداية مؤلفاتهم بتاريخ الأمم قبل الإسلام.

وقد شهدنا أنواعاً عديدة من مناهج التأريخ عند المسلمين، توضحها عناوين مؤلفاتهم، فالطبري عنون كتابه «تاريخ الأمم والملوك أو الرسل والملوك»، ومسكويه عنونه «تاريخ سني ملوك الأرض»، والمسعودي عنونه «مروج الذهب» والعتبي نسب كتابه إلى يمين الدولة فسمّاه «اليميني» والنرشخي والقمّي نَسَبا كتابهما إلى المدن، فالأول سمّاه «تاريخ بخارى» والثاني سمّاه «تاريخ قم» وهكذا تظهر كتابات المؤرخين متّصفة بالغاية التي سعوا إليها والمنهج الذي اتبعوه في تأليفها، وكلها كتب قيّمة جمعت إلى جانب التاريخ أخباراً مهمة عن الحياة الاجتماعية والفكرية خلال المرحلة التي أرّخوا لها.

أما ما يخص علم الجغرافية والكتابات الجغرافية، فقد كانت الحاجة إلى معرفة طبيعة البلاد التي قام المسلمون بفتحها، وكذلك معرفة طرقها وأفضل السبل للوصول إليها، من أهم العوامل التي أدت إلى نشوء هذا العلم، وبالتالي تطوّره على يد كبار الجغرافيين، الذين أغنوا التراث الجغرافي بعدد من الكتب القيّمة، التي تناولت المسالك والممالك، أو البلدان أو الأقاليم وصورها، فكانت هذه الكتب مصدراً مهماً وأساسياً لكثير من الجغرافيين الذين جاؤوا بعدهم.

ولعل من أهم المصادر الجغرافية التي أُلّفت في القرن الرابع للهجرة،

كتاب الرحّالة المقدسي، الذي جال في طول البلاد وعرضها، مشرقاً ومغرباً، فوصف لنا بدقة كل ما وقعت عليه عيناه، أو سمعته أذناه، فجاء كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» مما يمكن أن يوصف بالجغرافية البشرية الواقعية.

وكذلك فعل ابن فضلان في «رسالته»، أي في ذكر أخبار رحلته التي كانت باتجاه بلاد البلغار (روسيا وشمال أوروبا) علماً أن كتاب المقدسي جاء أشمل وأوسع وأدقّ، يغني الباحث بالكثير الكثير من المعلومات في جوانب عديدة من الدراسات الجغرافية.

* * *

الفصل الرابع

اللغة والأدب في المشرق الإسلاميّ

ازدهرت حركتا اللغة والأدب في المشرق الإسلامي خلال القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، ازدهاراً كبيراً، تجلّى في كثرة النتاج اللغوي والأدبي في هذا القرن، وكذلك كثرة العلماء والأدباء كثرة واضحة تثير الإنتباه والاهتمام، نظراً لتشجيع الخلفاء والملوك والأمراء والولاة للكتابات اللغوية والأدبية، ولمنح العلماء والأدباء الأعطيات الجزيلة؛ فقد كانت مجالس العلم تعقد في قصور الخلفاء والملوك والأمراء، يشارك فيها أهل العلم والأدب، كما كان يشارك فيها العديد من رجالات الدولة، الذين كان معظمهم من العلماء أو الأدباء، او من متذوّقي العلوم والآداب، مما أدّى إلى نشوء نهضة ثقافية عامة في بلاد المشرق الإسلامي وفي حواضره.

المبحث الأول

علوم اللغة

أولاً: النحو

يبدو أن بدايات النحو العربي ما تزال محفوفة بالغموض، ولا يمكننا إصدار رأي قاطع وحازم حول تأثر علماء اللغة العربيّة بالدراسات النحوية أو النماذج النحوية التي عرفت عند الشعوب الأخرى. وقد لا نبتعد عن الصواب كثيراً إذا اعتبرنا بداية التأثير الأجنبي في علم اللغة العربيّة حصل

على يد سيبويه، الفارسي الأصل[1]، تلميذ الخليل ابن أحمد الفراهيدي العربي، وكتاب سيبويه في النحو المشهور باسم «الكتاب» هو أقدم مصنف جمع مسائل النحو العربي كافة، ومع أن علماء النحو الذين أتوا بعده زادوا كثيراً من تحديد مقاصد النحو وتبيين حدوده، إلا أنّهم لم يضيفوا شيئاً ذا بالٍ على المواضيع والقضايا التي ذكرها سيبويه.

وقد وردت روايات كثيرة تعزو بدايات النحو إلى أبي الأسود الدؤلي بإشارة من الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولكن لا يمكن الوثوق بهذه الروايات ثقة تجعلنا نُسَلِّم بها، ونتخذها أساساً لتكوين فكرة صحيحة عن أوّل مؤسس للنحو العربي.

وكذلك لا يمكن الوثوق بالروايات التي تدّعي بداية نشوء النحو العربي إلى تأثر العلماء العرب بالنحو الهندي أو القواعد اللاتينية، أو المنطق الأرسطي، وإن كان ذلك قد حصل جزئياً بعد فترة نشوء النحو، وذلك عند تقعيد القواعد وتأصيل أصولها، وبناء هذه الأصول على مبدأ العلة والمعلول، أو نظرية العوامل النحوية أو ما إلى ذلك.

وجدير بالذكر أن علماء اللغة قسموا مذاهب النحاة تبعاً لمكان وجود هؤلاء النحاة وانتشار مذهبهم بين تلاميذهم، حيث كانت مجالس العلم تعجّ بمثل هؤلاء التلاميذ.

من هنا يمكن القول بالتقسيم التالي:

١ ـ مدرسة البصرة، التي تعتمد القياس أساساً في النحو.

٢ ـ مدرسة الكوفة، التي تعتمد الرواية عن الأعراب أساساً.

(١) توفي سيبويه في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة / نهاية القرن الثامن للميلاد، وقد اختلف العلماء في تحديد سنة وفاته.

٣ ـ مدرسة بغداد، التي توفّق بين المدرستين السابقتين.

٤ ـ مدرسة الأندلس، التي انفردت بآراء خاصَّة بها.

ومما لا شك فيه أن علماء النحو في بلاد فارس، لم يتعدوا بآرائهم عند المدارس النحوية الثلاثة الأولى، ولم يكوّنوا مدرسة خاصة بهم، تستقل بآرائهم عن آراء أصحاب المدارس المذكورة، بل كانوا تبعاً لها، كما سنرى لاحقاً.

وما يعنينا هنا، هو ذكر علماء المشرق الإسلاميّ حسب انتمائهم إلى أية مدرسة من هذه المدارس.

ويبدو أن الخلافات اللغوية بين لهجات القبائل العربيّة، بعضها مع بعض من جانب، وبينها وبين لغة القرآن والشعر العربي القديم من جانب آخر، وكذلك حاجة العناصر غير العربيّة، التي دخلت في الإسلام، إلى فهم لغة القرآن الكريم، والحديث النبوي، وما انبثق عنهما من أحكام تشريعية، وحاجة من بقي على دينه من هذه العناصر، إلى التفاهم مع رجال الحكم، وفهم وما يصدر عنهم من تعليمات، كل ذلك ساعد على الاهتمَام بإيجاد قواعد اللغة العربيّة وأساليب الكتابة والتعبير بها، هذا الاهتمَام الذي وجدناه أكثر ما وجدناه عند علماء أعاجم غير عرب في معظم الأحيان.

١ ـ أشهر النحاة في المشرق الإسلاميّ[١]

سنقصر هنا الحديث عن علماء القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد،

---

(١) من أهم المصادر التي يمكن الرجوع إليها للاطلاع على تراجم النحويين، الكتب التالية:
- **طبقات النحويين البصريين**، لأبي سعيد السيرافي.
- **طبقات النحويين واللغويين**، لأبي بكر الزبيدي.
- **المقتبس في أخبار النحويين البصريين**، للمرزباني.
- **إنباه الرواه عن أنباه النحاة**، لعلي بن يوسف القفطي.
- **البلغة في تاريخ أئمة اللغة**، للفيروز أبادي. =

حسبما حدّدنا الإطار الزمني للدراسة، ومتتبعين هؤلاء العلماء بحسب مدارسهم النحوية.

أ ـ نُحاة المدرسة البصرية

(١) **سيبويه**[1]: أبو بشر (أو أبو الحسن)، عمرو بن عثمان بن قنبر؛ ولد قرب شيراز سنة ١٤٨هـ/ ٧٦٥م؛ قَدم البصرة وهو غلام؛ فلزم الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ/ ٧٩١م) الذي يُعتبر المؤسس الحقيقي لعلم النحو العربي، الذي وضعه سيبويه في كتابه، بعد أن تلقاه عنه وتعلمه عليه، وقد فاق التلميذ أستاذه. وقد أضاف إلى كتابه آراء العلماء السابقين أيضاً؛ فوصل به إلى مكانة بحيث لم يُصَنف قبله ولا بعده كتاب مثله.

وبعد أن أكمل سيبويه دراسته في البصرة، وأتم تصنيف كتابه، وفد إلى بغداد بطلب الشهرة في دار الخلافة، موئل العلماء، مناظره الكسائي، مؤدب الخليفة العباسي الأمين بن هارون الرشيد وغلبه، فعاد سيبويه إلى شيراز مغتاظاً، وتوفي بعد ذلك، ودفن فيها، سنة ١٨٠هـ/ ٧٩٦ على الأرجح[2].

وقد قام العديد من العلماء منذ ذلك الوقت بشرح كتاب سيبويه،

= ـ **طبقات النحاة اللغويين**، لابن قاضي شهبة.
ـ **بغية الوعاة** في طبقات اللغويين والنحاة، للسيوطي.
ـ **المزهر في فقه اللغة**، للسيوطي. (الجزء الثاني)

(١) رغم اقتصارنا في الحديث عن علماء القرن الرابع للهجرة، إلا أنه ليس بالإمكان إغفال ذكر سيبويه، رأس المدرسة البصرية، ومصنف أول وأشهر كتاب في النحو.

(٢) للاطلاع على مزيد من المعلومات حول سيبويه وكتابه، راجع:
ـ النديم: **الفهرست**، ص١٠٣ ـ ١٠٤.
ـ ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، ١/ ٣٨٥. رقم الترجمة (٤٧٧).
ـ ابن كثير: **البداية والنهاية**، ١٠/ ١٧٦.
ـ الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد**، ١٢/ ١٩٤.
ـ الزبيدي: **طبقات النحويين واللغويين**، ص٦٦ ـ ٧٤.
ـ ياقوت الحموي: **معجم الأدباء**، ٦/ ٨٠ ـ ٨٦.
ـ السيوطي: **بغية الوعاة**، ١/ ٣٦٦.

وشرح شواهده، منهم أبو سعيد السيرافي (ت ٣٦٨هـ/٩٧٨م)، وأبو نصر هارون بن موسى (ت ٤٠١هـ/١٠١٠م). ويُعتبر سيبويه رأس المدرسة البصرية ورئيسها.

(٢) **السيرافي**: أبو سعيد الحسن بن عبد الله بن المرزبان. ولد السيرافي سنة ٢٨٠هـ/٨٩٣م في سيراف (من بلاد فارس) كان أبوه مجوسياً بادئ الأمر، يدعى بهزاد؛ فأسلم وتسمى عبد الله.

بدأ أبو سعيد تعلمه في سيراف، وتفقه في عمان، ثُمَّ قَدِمَ بغداد، فأخذ اللغة عن أبي بكر بن دريد (ت٣٢١هـ/ ٩٣٤م). ولتضلّعه في الفقه تولّى القضاء في بغداد، وظلّ يفتي خمسين سنة على مذهب أبي حنيفة، في مسجد الرصافة، ولكنه كان مثابراً على تدريس علوم اللغة، وذاعت شهرته، وعظُمت مكانته؛ فكان يكاتبه الأمير نصر بن نوح الساماني، ووزيره البلعمي، وأمير الديلم، وكانوا يخاطبونه بإمام المسلمين وشيخ الإسلام، ويسألونه عن عويص النحو وتفسير القرآن. توفي السيرافي سنة ٣٦٨هـ/ ٩٧٩م.

ومن أشهر مؤلفاته شرح كتاب سيبويه، وأخبار النحويين البصريين، أو طبقات النحويين البصريين، وشرح كتاب إصلاح المنطق لابن السكيت[1]. وكان من مشاهير المدرسة البصرية في النحو.

---

(١) للمزيد من المعلومات حول السيرافي، راجع:
- الزبيدي: **طبقات النحويين واللغويين**، ص٥٣.
- ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، ١/ ١٣٠.
- ياقوت الحموي: **معجم الأدباء**، ٣/ ٨٤ ـ ١٢٥.
- الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد**، ٧/ ٣٤١.
- السيوطي: **بغية الوعاة**، ١/ ٢٢١.
- ابن العماد: **شذرات الذهب**، ٣/ ٦٥.
- بروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، ٢/ ١٨٧.
- الزركلي: **الأعلام**، ٢/ ١٩٥ ـ ١٩٦.

(٣) **أبو علي الفارسي**: الحسن بن أحمد بن عبد الغفار، الفَسَوي (نسبة إلى فسا، من بلاد فارس، حيثُ ولد) الفارسي، الشيرازي. ولد سنة ٢٨٨ هـ/ ٩٠٠م، وكانت أمه عربيّة، من عرب سدوس، الذين هاجروا إلى فارس. قدم بغداد سنة ٣٠٧هـ/ ٩١٩م، ولمَّا استكمل التعلم والدراسة زار الأمير سيف الدولة الحمداني بحلب سنة ٣٤١هـ/ ٩٥٢م، ثُمَّ انتقل إلى بلاط عضد الدولة البويهي في شيراز، وصنّف له كتاب «الإيضاح» و «التكملة» في النحو، وكان يعلّمه النحو. ورجع بعد ذلك إلى بغداد، وتوفي بها سنة ٣٧٧هـ/ ٩٨٧م. وكان يتبع نحو علماء البصرة.

وكان أثناء تجواله في المدن يسأل عن مسائل في النحو؛ فيجيب عنها، وقد صنف في أسئلة كل بلد كتاباً، منها: «المسائل الشيرازية ـ أو الشيرازيات»، و«المسائل العسكريات» نسبة إلى بلدة عسكر مكرم، و«المسائل البصريات» ألقاها في مسجد البصرة، و«المسائل الحلبيات» و«المسائل البغداديات» و«المسائل العضديات»، وهي ما سأله عضد الدولة البويهي، والذي كان يقول: «أنا غلام أبي علي في النحو»[١].

ب ـ نحاة المدرسة الكوفية

نشأت مدرسة الكوفة في الدراسات النحوية بعد مدرسة البصرة على الأرجح، بعد أن أخذ الكوفيون عن البصريين وتأثروا بهم. وبهذا

(١) للاطلاع على المزيد من أخباره، راجع:
- النديم: **الفهرست**، ص١٢٩.
- ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، ١/ ٨٠ (طبعة دار الثقافة ـ بيروت).
- الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد**، ٧/ ٢٧٥.
- ياقوت الحموي: **معجم الأدباء**، ٧/ ٢٣٢.
- القفطي: **أنباه الرواة**، ١/ ٢٧٣.
- أبو حيان التوحيدي: **الامتاع والمؤانسة**، ١/ ١٣١.
- السيوطي: **بغية الوعاة**، ١/ ٢١٦.

يقول النديم[1]: «إنَّما قدّمنا البصريين أولاً لأن علم العربيّة عنهم أخذ».

وقد فضل العديد من المتأخرين من علماء النحو الذين تحدثوا عن الخلاف بين المدرستين، المذهب البصري، الذي يؤثر القياس في الدقائق النحوية، على عكس المذهب الكوفي الذي يتجه إلى واقع الاستعمال اللغوي (السماع)، حيث الفروق اللغوية في تعبيرات أهل البادية من أشعارهم وأقوالهم، وما يتطلبه سبر أغوار هذه الفروق من تتبع واستقراء عمليين.

ومما يلاحظه الباحث أن علماء النحو من أهل بلاد المشرق الإسلاميّ، خاصّة في القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، لم يكونوا من أتباع المدرسة الكوفية، ولا من أتباع المدرسة البغدادية؛ فمن ورد ذكرهم في فهرست النديم (ص١٣٠ ـ ١٥١) لم يكونوا من العلماء الكبار المشهورين، كما رأينا علماء المدرسة البصرية. ولعل من أسباب ذلك سيطرة الاتجاه البصري في النحو على علماء تلك البلاد، خاصة وأن المدرسة الكوفية تعتمد أساساً لها، ما نقل عن الأعراب في البادية، أي السماع عن الأعراب، وأغلب الظن أن هؤلاء الأعراب لم يكونوا متواجدين بشكل كاف في بلاد المشرق، تلك البلاد التي غلب عليها العنصر الأعجمي، من فرس وأتراك وغيرهما.

ثانياً: المعاجم

ظهرت الحاجة الماسّة في القرن الرابع لتأليف معاجم لغوية؛ فتصدى لهذا الأمر علماء كبار، أغنوا المكتبة اللغوية بمعاجم قيّمة، أفادت، وما زالت تفيد الدارسين والباحثين.

---

(١) النديم: الفهرست، ص١٣٠.

أ ـ علماء اللغة مصنفو المعاجم

(١) إسماعيل بن حماد الجوهري: أبو نصر

بدأ دراسته في موطنه «فاراب» عند خاله إسحاق بن إبراهيم الفارابي (ت٣٥٠هـ/ ٩٦١م)، واستكملها عند أبي علي الفارسي وأبي سعيد السيرافي في بغداد، ثم رحل في طلب اللغة والتبحّر فيها، وعاد أخيراً إلى خراسان، فنزل في الدامغان، ثم قدم نيسابور حاضرة خراسان، ولم يزل مقيماً بها على التدريس والتصنيف إلى أن توفي سنة ٣٩٣هـ/ ١٠٠٣م على الأرجح.

من مؤلفاته

ـ تاج اللغة وصحاح العربيّة: وهو معجم لغوي، مشهور بالصحاح قيل: إن الجوهري استقى مادته من ديوان الأدب للفارابي، خاله. وقد ألّف محمد بن أبي بكر الرازي كتاب «مختار الصحاح».

ويلاحظ أن كتاب الصحاح لقي اهتَماماً كبيراً من قبل العلماء لأهميته وغزارة مادته العلمية والنحوية[١].

(٢) الأزهري: أبو منصور، محمد بن أحمد بن أزهر الهروي. ولد بهراة سنة ٢٨٢هـ/ ٨٩٥م، وأخذ اللغة عن أبي الفضل المنذري، ثم قَدِمَ وهو شاب إلى بغداد، فأخذ بها عن ابن السراج ونفطويه.

ويُذكر أن الأزهري، عندما كان عائداً من الحج سنة ٣١٢هـ/ ٩٢٤م، اعترضته جماعة من القرامطة، وأخذوه إلى مناطق متعددة في الجزيرة العربيّة؛ فاستفاد من مجاورة الأعراب؛ فنقل عنهم ألفاظاً جمة ونوادر كثيرة.

---

(١) للاطلاع على المزيد من المعلومات حول الجوهري وكتابه الصحاح، راجع:
ـ ابن الأنباري: **نزهة الألباء**، ص٤١٨ ـ ٤٢١.
ـ الثعالبي: **يتيمة الدهر**، ٤/ ٢٨٩.
ـ ياقوت الحموي: **معجم الأدباء**، ٢/ ٢٦٦ ـ ٢٧٣.
ـ السيوطي: **بغية الوعاة**، ١/ ١٩٥.

ثُمّ رجع إلى هراة؛ فاشتغل فيها بالتدريس، وبقي في عمله حتى توفي سنة ٣٧٠هـ/ ٩٨٠م[(١)].

ومن أشهر كتبه كتاب «تهذيب اللغة»، صنفه بعد بلوغه السبعين، وهو معجم لغوي مرتب حسب مخارج الحروف مثل كتاب «العين» للخليل بن أحمد.

(٣) **أحمد بن فارس:** أبو الحسين، أحمد بن فارس، بن زكرياء بن حبيب القزويني، الهمذاني، الرازي. ولد بقزوين، ونشأ بهمذان؛ ولما بدأ التدريس بها كان بديع الزمان الهمذاني صاحب المقامات، من ملازمي حلقته. ثم دعاه فخر الدولة البويهي إلى الري، ليؤدب ابنه أبا طالب.

وعلى الرغم من أن ابن فارس كان أعجمي الأصل، إلا أنه أحبَّ اللغة العربية وتحمّس لها، ودفع عنها مثالب الشعوبية. وقد استُدعي ابن فارس إلى الري ليكون مدرساً لمجد الدولة ابن فخر الدولة البويهي، فأقام بها، وكان الصاحب بن عبّاد يكرمه ويتتلمذ على يديه[(٢)]. وقد صنف له كتاب «الصاحبي» في فقه اللغة. توفي ابن فارس بالريّ سنة ٣٩٥هـ/ ١٠٠٥م على أصح الأقوال.

من مؤلفاته

- كتاب المجمل في اللغة: وهو معجم لغوي مرتب بحسب أوائل الكلمات على حروف المعجم. وهو يُعنى فيه باللغة الفصيحة.

---

(١) بروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، ٢/ ٢٦٣.
وللاطلاع على المزيد من المعلومات عن الأزهري، راجع:
- ياقوت الحموي: **معجم الأدباء**، ٦/ ٢٩٧ ـ ٢٩٩.
- ابن العماد: **شذرات الذهب**، ٣/ ٧٢.
- السيوطي: **بغية الوعاة**، ٢/ ١١٠.

(٢) ياقوت الحموي: م.س، ٤/ ٨٠.

ـ كتاب فقه اللغة، قدّمه إلى الصاحب بن عباد، وهو مقدمة مسهبة للدراسة اللغوية من وجهة نظر فلسفية.

ـ كتاب اللامات.

ـ مقاييس اللغة، وهو معجم لغوي أيضاً[1].

* * *

ثالثاً: علوم البلاغة

١ ـ نشأة البلاغة العربيّة وتطوّر التأليف فيها

كان القرن الثاني للهجرة / الثامن للميلاد، أول شاهد على نشأة البلاغة العربيّة، حيث إننا لا نجد قبل ذلك إلا كلاماً عاماً لا يتصف بالدقة والوضوح في تحديد معنى البلاغة وعناصرها وعلومها[2]. وأهم ما يُؤثرُ من ذلك ما ورد في صحيفة بشر بن المعتمر، من زعماء المعتزلة (ت٢١٠ هـ/ ٨٢٥ م) التي أشار فيها إلى البلاغة[3]، وكذلك تفسير ابن المقفع للبلاغة[4]. ويورد الجاحظ آراء غير العرب في تعريف البلاغة؛ فينتقل رأي الفارسي واليوناني والرومي والهندي[5]، وما ذلك إلا ليصل أخيراً إلى رأي العرب في البلاغة وتعريفها ويبين آلاتها وعناصرها.

---

(١) للاطلاع على مزيد من المعلومات عن ابن فارس، راجع:
ـ ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، ١/١١٨ ـ ١٢٠.
ـ القفطي: **انباه الرواه**، ١/ ٩٢.
ـ ابن الأنباري: **نزهة الألباء**، ص٢١٩.
ـ السيوطي: **بغية الوعاة**، ١/١٥٣.
ـ الثعالبي: **يتيمة الدهر**، ٣/٤٠٢.

(٢) راجع كتاب «**البيان والتبيين**» للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٦٨، ١/٨٨.

(٣) راجع نص هذه الصحيفة في كتاب م.ن، للجاحظ، ١/ ١٣٥.

(٤) الجاحظ: م.س، ١/ ١١٥.

(٥) الجاحظ: م.ن، ١/٨٨.

ويقسم الكندي، فيلسوف العرب (ت ٢٦٠هـ/ ٨٧٣م) البلاغة إلى ثلاثة أنواع[١]:

- نوع لا تعرفه العامّة ولا تتكلم به.
- ونوع بالعكس.
- ونوع تعرفهُ ولا تتكلم به، وهو أحمدها.

ثُمَّ أُلِّفت بعد ذلك كتب جمعت كثيراً من الآراء والأفكار الموجزة حول البلاغة، وبعضها ينطلق من دراسة بلاغة القرآن الكريم؛ من ذلك كتاب «مجاز القرآن» لأبي عبيدة معمر بن المثنّى(ت٢٠٧هـ/ ٨٢٢م) وكتاب «البلاغة لأبي الطيب عبد الرحيم بن أحمد الحرّاني[٢]، وكتاب «البلاغة والخطابة» للمروزي[٣] جعفر بن أحمد، أبو العباس. وكتاب «تهذيب الفصاحة» للأبهري الأصبهاني[٤].

وقد بدأ العلماء يدرسون أسلوب القرآن الكريم، ويتعرّضون لنواحي الإعجاز البلاغي فيه، وكانت دراساتهم تشكل اللّبنة الأولى في الدراسات النقدية والبلاغية لمن جاء بعدهم من العلماء.

والمتتبع للدراسات القرآنية والبلاغية منذ أوائل القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد، يرى أنّها قد تطوّرت؛ فأخذت الفنون والمصطلحات البلاغية تظهر وتسجل جوانب الجمال في الأسلوب، وتداخلت الدراسات وامتزجت؛ فكانت دراسة أسلوب القرآن تعتمد على بلاغته، وكانت البلاغة تعمد إلى الشاهد القرآني، لتستعين به في توضيح المصطلحات البلاغية وتثبيتها في الأذهان، إلى جانب الشواهد الشعرية والأدبية الأخرى.

---

(١) ابن رشيق: العمدة، ١/ ٢١٩.

(٢) النديم: الفهرست، ص١٣٦ (الطبعة الإيرانية، تحقيق رضا ـ تجدد).

(٣) النديم: م. ن، ص١٦٧.

(٤) النديم: م. س، ص١٥٢.

وجدير بالذكر أن المصطلحات البلاغية منذ نشأتها الأولى كانت مختلطة، غير مستقرة أو محدودة؛ فكان «المجاز» مثلاً، في أوائل القرن الثالث يعني التوسع في الاستعمال، أو الترخص في التعبير بصفة عامّة؛ فيجمع بذلك كل ما يمكن أن ينطوي تحت هذا المعنى في اللغة والنحو والبلاغة[1].

أخذت المصطلحات البلاغية الأخرى تظهر وتسجل في بحوث علماء القرآن والبيان، وكان أوّلها شيوعاً عندهم: الاستعارة، والتشبيه، والإيجاز، والتكرار، والسجع، والتجنيس، والكناية، والتعريض، والمبالغة.

وقد تعرض أبو عبيدة والفرّاء لبعض هذه المصطلحات في أسلوب القرآن في كتابيهما «مجاز القرآن» و«معاني القرآن»، كما تعرض الجاحظ لكثير منها في كتابه «البيان والتبيين» عندما تعرّض لنصوص من القرآن والشعر وكلام العرب وخطبهم.

وقد شارك أصحاب البديع والأدباء مِن بعدُ، في وضع المصطلحات البلاغية ودراستها، من هؤلاء المبرّد (ت ٢٨٦ هـ/ ٨٨٩ م) وثعلب (ت٢٩١ هـ/ ٩٠٣ م) وابن المعتز (ت٢٩٦هـ/ ٩٠٨م).

وقد بلغت هذه المصطلحات عند ابن المعتز في كتابه «البديع» خمسة هي: الاستعارة، التجنيس، المطابقة، ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها، والمذهب الكلامي.

ثُمَّ تفرعت أبواب البلاغة عند أبي هلال العسكري (ت٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م) إلى ٣٧ نوعاً. ومما يلاحظ في تبويبه التفريع في الفن الواحد، كأن يفرع من المبالغة الإيغال والغلو، ويجعل من الكناية والتعريض بابين منفصلين.

(١) راجع ما يذكره الجاحظ في كتاب «البيان والتبيين» ١/ ٩٦ حول مصطلح الإيجاز.

وقد ساهم أدباء القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد، في الدراسات البلاغية؛ فالمرزباني (ت ٣٧٨ هـ/ ٩٨٨م) ألف كتاباً سمّاه «المفصل في البيان والعربيّة والكتابة»، وابن العميد (ت ٣٦٠هـ/ ١٠١٢م) ألف كتاب «المذهب في البلاغات»، والصاحب بن عباد (ت ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م) ألف كتاب «الكشف عن مساوئ المتنّي»، والخطّابي (ت ٣٨٨هـ/ ٩٩٨م) والباقلاني (ت٤٠٣هـ/ ١٠١٢م) ألف كتاب «إعجاز القرآن».

وسأتحدث عن ثلاثة من هؤلاء العلماء الذين تركوا أثراً مباشراً في الدراسات البلاغية، وقد وصلت إلينا كتبهم، هؤلاء هم: الخطّابي، العسكري، الباقلاني.

٢ ـ أشهر البلاغيين وأهم مؤلفاتهم:

(أ) ـ الخطّابي

أبو سليمان حَمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي[١] البستي[٢] (أديب، لغوي، محدث. ولد سنة ٣١٩هـ/ ٩٣١م) وأقام ببست، وتوفي فيها، ونُسِبَ إليها.

نشأ محباً للعلم؛ فاجتهد لتحصيله من كل سبيل، وطوّف من أجله في البلاد شرقاً وغرباً، للتزود من العلماء؛ فقد رحل إلى العراق وتلقى العلوم بالبصرة وبغداد، وذهب إلى الحجاز، وأقام بمكة زماناً، وعاد إلى خراسان، واستقر به المقام في نيسابور، وصنف بها بعض كتبه، ثُمَّ خرج إلى ما وراء النهر، وانتهت به الرحلة إلى مدينته بست؛ فأقام بقية حياته فيها، وتوفي بعد حياة حافلة بالأدب والعلم، سنة ٣٨٨ هـ/ ٩٩٨م.

(١) الخطابي: نسبة إلى زيد بن الخطاب، أخي عمر بن الخطاب.
(٢) البستي: نسبة إلى مدينة بست، مدينة قرب كابل (أفغانستان).

ألف الخطابي الكثير من الكتب غلب عليها الفقه والحديث، وما سنقف عنده هو كتابه «بيان إعجاز القرآن».

في هذا الكتاب يتحدث الخطابي عن البلاغة، ويُعيب على القائلين بها اعتمادهم على التقليد، وعدم تحققهم، وقصور كلامهم عن الإقناع، ويقرر أن بلاغات القرآن اجتمعت في صفتي الضخامة والعذوبة، وهما على الانفراد في نعومتهما كالمتضادين، أما اجتماعهما في القرآن فهو فضيلة خُصّ بها، ويسرها اللطيف الخبير، لتكون آية بيّنة لنبيّه محمد صلى الله عليه وسلم. وإنّما تعذّر على البشر الإتيان بمثله لأن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة وأوضاعها، ولا تدرك أفهامهم جميع المعاني المحمولة على تلك الألفاظ.

وإنّما صار القرآن معجزاً، لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف، مضمّناً أصحّ المعاني. وعمود البلاغة التي تجتمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ موضعه الأخص به.

ويحلل الخطابي بعض النصوص القرآنية تحليلاً فنياً جميلاً، يكشف فيه عن مواطن الجمال في الآيات القرآنية، وكذلك يتكلم على تأثير القرآن في القلوب والنفوس.

(ب) أبو هلال العسكري[1]

الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري؛ ولد سنة ٢٩٣هـ/ ٩٠٥م، تلقى العلم في بغداد والبصرة وأصبهان. ونحن لا نملك معلومات وافية عن هذا الرجل؛ فقد ضَنّت علينا كتب التراجم بذلك، وقد أثنى عليه العلماء ووصفوه بالعلم والفقه، وكان الغالب عليه الأدب

(١) راجع ترجمته في كتاب **معجم الأدباء**، لياقوت الحموي، ٨/٢٥٨ ـ ٢٦٧.

والشعر. قال ياقوت الحموي[1]: «له كتاب صناعتي النظم والنثر، وهو كتاب مفيد جداً. توفي أبو هلال العسكري بعد سنة ٣٩٥ هـ/ ١٠٠٤ م. فقد ورد في آخر كتابه «الأوائل» ما نصه[2]: «وفرغنا من إملاء هذا الكتاب سنة خمس وتسعين وثلاثمائة».

كتاب الصناعتين[3]

استعان أبو هلال العسكري في تأليف كتابه هذا بِجُلِّ ما كتب سابقوه ممن عالجوا مثل موضوعه، أو جانباً من جوانبه. نذكر على سبيل المثال:

- ابن سلاّم، وكتابه: طبقات فحول الشعراء.
- الجاحظ، وكتابه: البيان والتبيين.
- ابن قتيبة، وكتابه: نقد الشعر.
- ابن المعتز، وكتابه: البديع.
- الآمدي، وكتابه: الموازنة بين الطائيّن، أبي تمام والبحتري.
- القاضي الجرجاني، وكتابه: الوساطة بين المتنبي وخصومه.

وقد استطاع أبو هلال أن يعرض لنا زبدة هذه الكتب في كتابه. ويتبين لنا من خلال اطلاعنا على كتاب الصناعتين أن أبا هلال العسكري تطرّق إلى مواضيع بلاغية بشيء من التفصيل والدقة، ضمن أبواب الكتاب وفصوله، من ذلك ما جاء في الباب الأول: فصل في الإبانة عن موضوع البلاغة،

(١) ياقوت الحموي: **معجم الأدباء**، ٨/ ٢٦٠.
(٢) ياقوت الحموي: م.ن، ص٢٦٤.
(٣) العسكري، أبو هلال، **كتاب الصناعيين**، الكتابة والشعر، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٧١ هـ/ ١٩٥٢م.

وفصل ثانٍ في الإبانة عن حد البلاغة، وفصل ثالث في تفسير ما جاء عن العلماء والحكماء في حدود البلاغة.

وفي الباب الثاني تحدث عن تمييز الكلام، جيّده ورديئه. أمّا في الباب الثالث فقد تناول معرفة صُنعة الكلام وترتيب الألفاظ، وفي الباب الرابع تحدث عن البيان وحسن النظم؛ وفي الباب الخامس تناول الإيجاز والإطناب؛ الباب السادس: في حُسن الأخذ وحل المنظوم؛ الباب السابع في التشبيه، الباب الثامن: في الأسجاع والازدواج، الباب التاسع في شرح البديع، وهو أطول أبوابه، حيث تضمن خمساً وثلاثين فصلاً في ضروب البلاغة في المنظوم والمنثور؛ ثم أنهى كلامه في الباب العاشر بذكر مبادئ الكلام ومقاطعه.

إن شمولية مواضيع هذا الكتاب تجعله من أهمّ كتب البلاغة العربيّة وأوسعها وأكثرها تفاصيل وشواهد، بحيث لا يمكن لأي باحث في علوم البلاغة الاستغناء عنه أو تجاهله، وأكثر من جاء بعده من علماء البلاغة كانوا عيالاً عليه.

ج ـ الباقِلّاني (١)

أبو بكر محمد بن الطيب بن جعفر بن القاسم، المعروف بالباقِلّاني، المتكلم المشهور؛ كان على مذهب أبي الحسن الأشعري، مؤيداً اعتقاده، ناصراً طريقته. صنف التصانيف الكثيرة المشهورة في علم الكلام وغيره، وكان في علمه أوحد زمانه، وانتهت إليه الرياسة في مذهبه.

ولد الباقلاني بالبصرة، ولم يذكر أحد من المؤرخين عام ولادته؛ وقد

(١) ترجمته في:
ـ تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، ٥/ ٣٧٩ (الترجمة رقم ٢٩٠٦)
ـ وفيات الأعيان، لابن خلكان، ٤/ ٢٦٩ (الترجمة رقم ٦٠٨)

تلقى العلم على أعلامها، ثُمَّ رحل إلى بغداد؛ فأخذ عن علمائها، واتخذها داراً لإقامته، وقد طار صيته في الآفاق وهو ما زال في ريعان الصبا، حتى وصل صيته إلى شيراز، التي كانت في ذلك الوقت حاضرة ملك أبي شجاع، فَنَّاخسرو ابن ركن الدولة البويهي، الذي آل إليه ملك فارس بعد وفاة عمه عماد الدولة في سنة ٣٣٨هـ/ ٩٤٩م)، فتلقب بعضد الدولة، وكان عضد الدولة أميراً عظيم الهيبة، واسع الثقافة، يقدر العلم والعلماء، ويؤثر مجالستهم على مجالسة الأمراء، ويغدق عليهم الأعطيات، ويضم مجلسه أكابر العلماء، ويطلبهم من كل مكان.

كتب عضد الدولة إلى عامله بالبصرة ليبعث إليه بالباقلاني؛ فحضر الباقلاني إلى شيراز، والتقى في مجلس عضد الدولة بكبار العلماء؛ فسُئل عن مسائل كلامية، كتكليف الله الخلق ما لا يطيقون، ومسألة الرؤية، هل يُرى البارئ سبحانه وتعالى بالعين؟ وهل تجوز عليه أو تستحيل، وغيرها من المسائل؛ وكأن علماء المجلس يريدون اختبار الباقلاني ومعرفة مكانته العلمية، وفي نهاية المجلس أعجب عضد الدولة بذكاء الباقلاني وسِعة مداركه وعلومه، فهيأ له منزلاً أسكنه فيه، ثُمَّ دفع إليه ابنه صمصام الدولة ليعلمه؛ فعلمه وألّف له كتاب «التمهيد».

ولم يزل الباقلاني مع عضد الدولة، إلى أن قدم بغداد، وكان ذلك سنة ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م. وظل الباقلاني أثيراً لدى عضد الدولة، حتى أنه جعله رئيس البعثة التي أوفدها سنة ٣٧١هـ/ ٩٨١م إلى ملك الروم[1]. وعاد الباقلاني إلى بغداد، وظل مع عضد الدولة حتى وفاته سنة ٣٧٢هـ/ ٩٨٢م، وتولى بعده ابنه صمام الدولة، وقد تولى الباقلاني وظيفة القضاء أيضاً. توفي الباقلاني سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م).

---

(١) راجع مقدمة كتاب إعجاز القرآن للباقلاني، بتحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف بمصر، ط٣، ١٩٧٩م، ص٢١، وما بعدها.

كان الباقلاني يمارس التأليف والكتابة يومياً، حتى زادت مؤلفاته على خمسين كتاباً، لم يصل إلينا منها إلاَّ اليسير.

وما يعنينا في هذا المقام كتابه «إعجاز القرآن» الذي يبين فيه آراءه البلاغية الدالة على إعجاز القرآن.

كتاب إعجاز القرآن

ذكر الباقلاني في مقدمته أن الذين ألفوا في معاني القرآن من علماء اللغة، لم يبسطوا القول في الإبانة عن وجود معجزته، والدلالة على مكانته، وقال: «إنه لا يزعم أنه يمكنه أن يبين ما رام بيانه وأراد شرحه وتفصيله إلاَّ لمن كان من أهل صناعة العربية، وقد وقف على جُمَلٍ من محاسن الكلام ومتصرفاته ومذاهبه، وعرف جُمْلَةً من طرق المتكلمين، ونظر في شيء من أصول الدين[(١)].

ويتكلم الباقلاني على وجود الإعجاز في القرآن[(٢)]؛ فيشير إلى «أنه بديع النظم، عجيب التأليف، متناهٍ في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه». ثم قال[(٣)]: «وقد بينا في نظم القرآن، أن الجملة تشتمل على بلاغة منفردة، والأسلوب يختص بمعنى آخر من الشرف». ثُمَّ يقول[(٤)]: «تجد فيه الحكمة وفصل الخطاب، مجلوة عليك في منظر بهيج، ونظم أنيق، ومعرض رشيق، غير معتاص على الأسماع، ولا مغلق على الأفهام، ولا مستكرهٍ في اللفظ، ولا مستوحشٍ في المنظر ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾[(٥)].

(١) الباقلاني: **إعجاز القرآن**، ص٧.
(٢) الباقلاني: م. ن، الفصل الثالث، ص٤٨، وجوه إعجاز القرآن.
(٣) الباقلاني: م.س، ص٣٠٠.
(٤) الباقلاني: م.ن، ص٣٠٢.
(٥) سورة فصلت، الآية: ٤٢.

لقد أنزل الله تعالى القرآن: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[1]، فالقرآن أعلى منازل البيان، وأعلى مراتبه ما جمع من وجوه الحُسن وأسبابه، وطُرُقه وأبوابه: من تعديل النظم وسلامته، وحُسنه وبهجته، وحسن موقعه في السمع، وسهولته على اللسان، ووقوعه في النفس موقع القبول، وتصوّره تصور المشاهد... وإذا علا الكلام في نفسه، كان له من الوقع في القلوب، والتمكن في النفوس، ما يُذهل ويُبهج، ويُقلق ويؤنس، ويُطمع ويؤيس، ويُضحك ويُبكي، ويُحزِن ويُفرح، ويُسكن ويُزعج، ويُشجي ويُطرب، ويَهُز الأعطاف ويستميل نحوه الأسماع... وله مسالك في النفوس لطيفة، ومداخل إلى القلوب دقيقة»[2].

ثُمَّ يقول[3]: «وأمّا بيان القرآن، فهو أشرف بيان وأهداه، وأكمله وأعلاه، وأبلغه وأسناه». ويختم قائلاً[4]: «وقد ذكرنا من قبل: أن البيان يصح أن يتعلق به الإعجاز، وهو معجز من القرآن».

المبحث الثاني

الأدب

إن من يطلع على التراث الأدبي لأدباء القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد يلاحظ بشكل واضح غلبة الشعر على هذا التراث؛ فقد حرص كتّاب هذا العصر على نظم الشعر وخوض غماره؛ فبعضهم أجاد وبرع وبعضهم وقف دون ذلك، وجاء شعره بارداً، أو قليلاً، أو خالياً من الصفات والمميزات التي تجعله شعراً راقياً، كجمال الصورة وحسن العبارة، ومتانة التركيب، وغير ذلك. وقد لفت انتباهي مشاركة العديد من العلماء والفلاسفة

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٩٥.

(٢) الباقلاني: **إعجاز القرآن**، ص٢٧٦ ـ ٢٧٧.

(٣) الباقلاني: م. ن، ص٢٨٢.

(٤) الباقلاني: م. س، ص٢٨٣.

والأطباء وعلماء النحو وغيرهم من رجال المعرفة، في نظم الشعر، وكأن العالِمَ لا ينال منزلته ومكانته عند الملوك والأمراء ورجال الدولة ـ وهذا كان هدفه المنشود ـ إلاَّ إذا نظم الشعر؛ أو لعل هؤلاء العلماء أرادوا أن يثبتوا مكانتهم في مجتمعاتهم بمشاركتهم الشعراء في شعرهم أيضاً.

وها هو أبو هلال العسكري، وهو من أشهر أدباء القرن الرابع للهجرة، يفضل الشعر على النثر، فيقول[1]: «وفضل الشعر على النثر يرجع إلى استفاضته في النَّاس، وبعد سيره في الآفاق، وإلى تأثيره في الأعراض والأنساب، وإلى أنه ليس شيء يقوم مقامه في المجالس الحافلة، والمشاهد الجامعة وإلى أن مجالس الظرفاء والأدباء لا تطيب ولا تؤنس إلاَّ بإنشاء الأشعار».

ومع محاولات الكتّاب نظم الشعر؛ فقد كان بعضهم من المبرزين في كلا الفنّين، النثر والنظم، ويكفي أن أذكر مثلاً أبا العلاء المعرّي، صاحب «اللزوميات»، و«سقط الزند»، وهما من دواوين الشعر الممتازة، وهو نفسه صاحب رسالة الغفران، التي تُعَدُّ من عيون النثر الفني في الأدب العربي؛ وكذلك الشريف الرضي، وهو من كبار الشعراء، وديوانه يشهد على شاعرية فذة، وقدرة عالية في نظم الشعر فاقت الكثير من شعراء عصره، أو ممن سبقه أو جاء بعده؛ وكتاباته النثرية، تظهر روعة أسلوبه ودقة عباراته، ومتانة تراكيبه.

أمَّا الكتّاب الذين غلب النثر على شهرتهم، وكان لهم مع ذلك شعر جيد، فهم عديدون، نذكر منهم: علي بن عبد العزيز الجرجاني، وأبو بكر الخوارزمي، وأبو الفضل بن العميد، وأبو إسحاق الصابي، وبديع الزمان الهمذاني، وأبو الفرج الببغاء، وهؤلاء جميعاً كانوا يجيدون نظم الشعر إجادة تامَّة مع إجادتهم للكتابة النثرية[2].

---

(١) العسكري، أبو هلال: كتاب الصناعتين، ص١٠٣.

(٢) راجع أخبار هؤلاء الأدباء ونماذج من شعرهم في كتاب الثعالبي، يتيمة الدهر، (الجزء الثالث والجزء الرابع)، حيث يتكلم على جودة رسائلهم (نثرهم) وجودة شعرهم.

وسأُفرد الشعر فصلاً مستقلاً لكثرة الشعراء وتعدد مواضيع الشعر في ذلك القرن.

النثر الفني في القرن الرابع للهجرة

تنوعت الفنون النثرية في القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد بشكل واضح؛ وكان من أبرز هذه الفنون، فنّ الرسائل بقسميه: الرسائل الديوانية (الرسمية) والرسائل الإخوانية (الخاصّة)، ثم فن المقامات، والمناظرات، وسأقف لاحقاً عند كل فن من هذه الفنون النثرية. لكن من الجدير ذكره أن هذه الفنون لم تنشأ من فراغ، بل كانت تباشيرها تظهر شيئاً فشيئاً في القرون الثلاثة السابقة، لكنها ظهرت قوية واضحة عند أولئك الكتّاب، الذين طبعوا بصماتهم في سجل التراث الأدبي النثري، الذي بقي خالداً ومخلداً تراث هؤلاء الكتاب العظام، من أمثال: ابن العميد، أبو بكر الخوارزمي، بديع الزمان الهمذاني، أبو حيان التوحيدي، إبراهيم بن هلال الصابي، وأمثالهم.

١ ـ خصائص النثر الفني في القرن الرابع للهجرة

من خلال اطلاعي على الإرث النثري الذي خلّفه هؤلاء الأدباء الكبار، يمكن ملاحظة مجموعة خصائص تميز بها النثر الفني في هذه الحقبة من الزمان، مع التأكيد أن هذه الخصائص لم تولد من فراغ، بل كانت تباشيرها وإرهاصاتها تظهر شيئاً فشيئاً عند أدباء القرون السابقة، لكنها ظهرت بوضوح وجلاء في هذا القرن؛ من حيث الشكل ثُمَّ من حيث المضمون.

(١) إن أولى هذه الخصائص إيثار البديع في معظم كتابات هؤلاء الكتاب

إن أولى هذه الخصائص هي إيثار البديع في معظم كتابات هؤلاء الكتّاب؛ فقد كان السابقون يميلون إلى المحسنات البديعية، ولكن من غير قصد مباشر أو بحث عنها، وإن وُجِدَت فورودها جاء عفو الخاطر، ودون

قصد مباشر ودون إسراف؛ فلمّا جاء القرن الرابع للهجرة، قصد الكتّاب إلى المحسنات البديعية قصداً، وأسرفوا في توشية كتاباتهم المختلفة بأنواع التورية والجناس والطباق والكناية.

(٢) التزام السجع

وذلك وبالأخص في الرسائل وفي المقامات،ويلاحظ أيضاً أن المناظرات لم تَخْلُ من استخدام الأسجاع، كتلك المناظرة التي حصلت بين بديع الزمان الهمذاني وأبي بكر الخوارزمي، وكالعديد من المناظرات التي أثبتها أبو حيان التوحيدي في كتابه: «الإمتاع والمؤانسة».

(٣) مختارات من الأشعار والأمثال

هذه المختارات من الأشعار والأمثال، تكون في بداية الرسالة، أو في نهايتها، أو ترصع بها الرسالة أثناء الكلام؛ فيرتبط النص النثري بالنص الشعري ارتباط البناء المتجانس قلباً وقالباً؛ ورسائل بديع الزمان الهمذاني خير دليل على ذلك، حيث يظهر الكاتب مقدرته الفنية، وثقافته الشعرية، مع ما في دمج هذين الفنيين، النثر والشعر، من صعوبة ومشقة، خاصّة إذا أراد الكاتب أن يزاوج بين أسجاع الكلام المنثور وقوافي الشعر المنظوم.

(٤) نقل مواضيع كانت خاصّة بالشعر إلى النثر

من ذلك الغزل والهجاء والمديح والفخر والوصف؛فمن المعروف أن هذه المواضيع تدخل في إطار الشعر، ولكن بما أن معظم كتاب هذا العصر (القرن الرابع للهجرة) كانوا شعراء أيضاً، وبعضهم كان من أكابر الشعراء، فقد تأثر نثره بنظمه من حيث استخدام محاسن الشعر وصوره وتراكيبه وأنغامه؛ فكثر استخدام الاستعارات والتشابيه والصور والأخيلة؛ فجاء النثر في هذا الحال مزاحماً للشعر في هذه المواضيع، خاصّة وأن النثر غير ملزم

بالتقيد بقوانين النظم كالوزن والقافية، مما جعل النثر يتفوق أحياناً على الشعر في التعبير عن الخواطر والوجدان والأحاسيس والعواطف، وهذا ما رأيناه في الرسائل الإخوانية عند العديد من كتاب هذا العصر[1]. وخير مثال على ما نقول، رسالة بديع الزمان الهمذاني في ذم أحد القضاة، يقول فيها[2]:

«وهذا الحيري، رجل من السفلة، طلب الرياسة بغير تحصيل آلاتها، وأعجله حصول الأمنية عن تَمَحُّلِ أدواتها:

والكلب أحسن حالةً وهو النهاية في الخساسة

ممن تصدر للريا سة قبل إبّان الرياسة

فَوَلي المظالم وهو لا يعلم أسرارها، وحمل الأمانة وهو لا يعلم مقدارها؛ والأمانة عند الفاسق، خفيفة المحمل على العاتق، تشفق منها الجبال، وتحملها الجهال... وما قولك في رجل يعادي الله في الفلس، ويبيع الدين بالثمن البخس؛ وفي حاكم يبرز في ظاهر أهل السَّمْت، وباطل أصحاب السَّبت؛ فعله الظلمُ البحت، وأكلُه الحرام السُّحت؟ وما رأيك في سوسٍ لا يقع إلا في صوف الأيتام، وجرادٍ لا يسقط إلا على الزرع الحرام، ولص لا ينقب إلا خزانة الأوقاف، وكردي لا يغير إلا على الضعاف، وذئب لا يفترس عباد الله إلا بين الركوع والسجود، ومحاربٍ لا ينهب مال الله إلا بين العهود والشهود؟».

وهذه الرسالة ليست إلا قصيدة منثورة، وهذا النمط من الكلام لم يكن كثير الوقوع قبل القرن الرابع للهجرة، وهو كثير عند أدباء من أمثال بديع الزمان وأضرابه.

---

(١) سنذكر لاحقاً نماذج عديدة من هذه الرسائل عند الحديث عن كل كاتب من الكتاب المبدعين.

(٢) مبارك، زكي: النثر الفني في القرن الرابع، ١/ ١٣٠ ـ ١٣١.

(٥) المقدمات الفخمة للرسائل

وتظهر في مخاطبة الرؤساء مبالغة في الجمل الدعائية، المتجانسة مع التقاليد الدينية. من ذلك رسالة ابن العميد إلى عضد الدولة البويهي، يقول فيها[١]: «أطال الله بقاء الأمير الأجل عضد الدولة، دام عزّه وتأييده، وعُلُوه وتمهيده، وبسطته وتوطيده، وظاهر له من كل خير مزيده».

أو كقول الخوارزمي يخاطب الصاحب بن عباد[٢]: «كتابي إلى الوزير، وأنا على بُعدِ الدار سالم في جملته، مستظهر على الإمام بدولته، والحمد لله على سلامي في سلامته، وصلى الله على سيدنا محمد وعترته».

(٦) تصوير الحياة الفكرية

إن الأدباء الكبار الذين مثلوا الحياة الأدبية في القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، والذين عنوا بالبلاغة وعلومها والأساليب وفنونها، والألفاظ ومدلولاتها، لم يكونوا بعيدين عن واقع الحركة الفكرية، وعن النزاعات والخلافات العقلية والفلسفية والسياسية والدينية أيضاً؛ بل خاضوا غمار كل ذلك، وأثبتوا أنهم خير من يمثل الواقع الحياتي من مختلف جوانبه.

فعلى المستوى السياسي الديني والعقدي، نجد في رسائل بديع الزمان الهمذاني، وأبي بكر الخوارزمي وغيرهما من كتّاب الشيعة في ذلك العصر، نجد أصدق صورة وأوضحها عن الواقع المرير الذي عاشه الشيعة في ذلك الوقت؛ وربما كانت رسالة الخوارزمي التي بعثها إلى الشيعة بنيسابور، لمّا قصدهم إليها محمد بن إبراهيم، الإمام الزيدي، تمثل خير تمثيل هذا الواقع.

---

(١) الحصري: زهر الآداب، مصر ١٩٢٥، ٤/ ١٨٠.

(٢) الخوارزمي: رسائل الخوارزمي، القاهرة، ١٢٧٩هـ، ص١٥٢.

يقول الخوارزمي[١]: «وأنتم ونحن ـ أصلحنا الله وإياكم ـ عصابة لم يرضَ الله لنا ثواب العاجل، فأعد لنا ثواب الآجل، وقسمنا قسمين: قسماً مات شهيداً، وقسماً عاش طريداً؛ فالحي يحسد الميت على ما صار إليه، ولا يرغب بنفسه عما جرى إليه. قال أمير المؤمنين ويعسوب الدين[٢] عليه السلام: «والمِحن إلى شيعتنا أسرع من الماء إلى الحدور»، وهذه مقالة أسست على المحن، وولد أهلها في طالع الهزاهز والفتن؛ فحياة أهلها نغص، وقلوبهم حشوها غصص، والأيام عليهم متحاملة. والدنيا عليهم مائلة. فإذا كنا شيعة أئمتنا في الفرائض والسنن، ومتبعي آثارهم في كل قبيح وحسن؛ فينبغي أن نتبع آثارهم في المحن. غصبت فاطمة بنت الرسول، صلى الله عليه وسلم، ميراث أبيها، صلوات الله عليه وعلى آله، يوم السقيفة، وأُخِّر أمير المؤمنين عن الخلافة، وسُمَّ الحسن رضي الله عنه سراً، وقتل أخوه [الحسين] رضي الله عنه جهراً، وصلب زيد بن علي على الكناسة[٣]، بعد أن قطع رأسه في المعركة، وقتل ابناه محمد وإبراهيم على يد عيسى بن موسى العباسي، ومات موسى بن جعفر في حبس هارون، وسُمّ علي ابن موسى بيد المأمون، وهزم إدريس بفخ[٤] حتى وقع إلى الأندلس فريداً، ومات عيسى ابن زيد طريداً شريداً... الخ».

ويخوض أدباء هذا العصر في المعارك الكلامية التي كانت الشعوبية تُغذيها وتنفخ في نارها، خاصة وأن عدداً لا بأس به من وزراء الخلافة العباسية كانوا من الفرس، وكذلك أمراء المناطق في المشرق الإسلاميّ، بل وحكام هذه المناطق الذين أنشؤوا دولاً مستقلة عن مركز الخلافة في بغداد؛

(١) الخوارزمي: **رسائل الخوارزمي**، ص١٥٣.
(٢) اليعسوب: ذكر النّحل، والأمير الكبير، كنّي به عن الخليفة علي رضي الله عنه (انظر: **القاموس المحيط**، للفيروز آبادي، مادة عَسب).
(٣) الكناسة: موقع بالكوفة؛ وهي أيضاً الشجرة أو مجمع الشجر.
(٤) فخ: موقع بمكة.

فكان من الطبيعي أن تشتد وتقوى جذوة الشعوبية في قلوب ونفوس وعقول من كان عندهم قبس منها؛ فظهرت الكتب والرسائل في المفاضلة بين العرب والعجم، كلٌّ يعظم تاريخه ويذكر مآثره. وخير من يمثل هذه الظاهرة بديع الزمان الهمذاني، وأبو حيان التوحيدي[1]، إضافة إلى ما سبق فإن أدباء ذلك العصر ساهموا في إعطائنا صورة واضحة عن الحياة العقلية وعن المناظرات الفكرية والفلسفية والكلامية التي كانت تشهدها مجالس الوزراء والأمراء والعلماء. وفي كتاب أبي حيان التوحيدي «الإمتاع والمؤانسة» خير نموذج لهذه الحياة العقلية، المعبرة عن مجالس العلم والعلماء[2].

(٧) تصوير الواقع بلغة صريحة وعبارات مكشوفة

عبر بعض أدباء هذا العصر عن الواقع بلغةٍ لا تسترها كناية أو تلميح، بل تصريح، ولو خدش الحياء ومزق أستاره، ومع أن هذه القضية ـ أي قضية الأدب الإباحي والصريح ـ ليست وليدة هذا العصر، بل كانت موجودة في العصر الجاهلي عند بعض الشعراء، واستمرت في العصور اللاحقة، لكن هنا أصبحنا نجدها في النثر، إضافة إلى الشعر، بشكل أوضح وأصرح، ونجد من يدافع عن هذا النوع من التعبير الصريح[3]، ويعتبر أن الإفصاح عن العورات أو استخدام الأسلوب الفاحش يجب أن لا يؤدي إلى الإعراض بالوجه عنه، لأن ذكر أسماء الأعضاء لا يؤثم، وإنما الذي يؤثم هو شتم الأعراض وقول الزور والكذب وأكل لحوم الناس بالغيب.

---

(١) للاطلاع على هذه الحركة الشعوبية الأدبية يمكن مراجعة الهمذاني، بديع الزمان: رسائل الهمذاني؛ وأبو حيان التوحيدي: كتاب **الإمتاع والمؤانسة**، وعلى الأخص الليلة السادسة، ص٦٩ وما بعدها (طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت).

(٢) راجع مثلاً ما ورد في كتاب م.ن، لأبي حيان التوحيدي، الليلة السابعة، والليلة الثامنة، والليلة الثالثة عشرة، والليلة السادسة عشرة.

(٣) راجع مقدمة كتاب **عيون الأخبار** لابن قتيبة، طبعة دار المعارف بمصر، الطبعة الأولى، ١٩٣٠.

هذه الظاهرة ـ ظاهرة هتك العذار، وما يتبعها من إسقاط الهيبة والحشمة والوقار، وُجِدَت في مجالس العلماء والوزراء والأمراء، وذكرها الأدباء في مؤلفاتهم دون حرج أو وجل، فهم يصفون واقعاً اجتماعياً قائماً؛ فالصراحة مطلوبة عندهم، ولو كانت جارحة، أو تؤذي نفوس وآذان من يستمع إليها؛ وهذه الظاهرة هي خير دليل على وجود الأدب الواقعي في تراثنا، بل الواقعي جداً. ويكفي للدلالة على هذه الظاهرة في أدب القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، الرجوع إلى مؤلفات أبي حيان التوحيدي، خاصّة كتاب «الإمتاع والمؤانسة»[1] وكتابه «البصائر والذخائر» ففيهما الشيء الكثير عن مجالس المجون والخلاعة وهتك العذار واطّراح الحشمة والوقار.

ومثل هذه الأخبار لم تغب عن الشعر؛ فقد عرف العديد من الشعراء الذين وصفوا بالخلاعة والمجون، كابن سكّرة، أبي الحسن محمد بن عبد الله (ت ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م) وسأتحدّث عن هذا الأمر لاحقاً عند حديثي عن الشعر ومواضيعه وفنونه في القرن الرابع للهجرة.

(٨) شيوع أدب الفكاهة

ومما امتاز به النثري هذا العصر شيوع أدبِ الفكاهة، حيث أصبح هذا النوع من الأدب واضح المعالم، مقصوداً لدى الأدباء، يتنافسون في إبداء براعتهم وقدرتهم على الكتابة فيه. وخير ما يمثل أدب الفكاهة ما جاء في مقامات بديع الزمان الهمذاني، كالمقامة الشامية[2]، والمقامة المضيرية[3] وهما من أمتع أنواع الكتابة الفكاهية في تراثنا الأدبي[4]. ورغبة في بيان هذا

(١) راجع مثلاً ما ورد في كتاب **الإمتاع والمؤانسة**، لأبي حيان التوحيدي، الليلة الثامنة عشرة.

(٢) الهمذاني، بديع الزمان: **مقامات الهمذاني**، شرح محمد عبده، المكتبة الشرقية ـ بيروت، ١٩٨٦، ص٩٢.

(٣) الهمذاني، م.ن، ص ١٠٤.

(٤) سنتحدث بالتفصيل عن فن المقامة لاحقاً.

النوع من الفن الأدبي، نودّ أن نقتبس مقطعاً واحداً من المقامة المضيرية، ليكون القارئ على علم وتحقق مما نقول: «قال عيسى بن هشام: كنت بالبصرة، ومعي أبو الفتح الإسكندري، رجل الفصاحة والبلاغة؛ وحضرنا معه دعوة بعض التجار؛ فقدمت إلينا مضيرة، تثني على الحضارة، وتؤذن بالسلامة، وتشهد لمعاوية رضي الله عنه بالإمامة، في قصعة يذل عنها الطرف، ويموج فيها الظرف. فلما أخذت في الخوان[1] مكانها، ومن القلوب أوطانها، قام أبو الفتح الإسكندري يلعنها وصاحبها، ويمقتها وآكلها، ويثلبها وطابخها؛ وظنناه يمزح، فإذا الأمر بالضد، وإذا المزح عين الجد؛ وتَنَحى عن الخوان، وترك مساعدة الإخوان، ورفعناها فارتفعت معها القلوب، وسافرت خلفها العيون، وتحلبت لها الأفواه، وتلمظت لها الفاه، واتقدت لها الأكباد، ومضى في إثرها الفؤاد...».

ويمضي الهمذاني في اعتماد هذا الأسلوب الهزلي الضاحك، بانياً مقامته على عدد من المواقف الفكاهية التي تثير في النفس المرح والسرور على ما حصل لبطله من أحداث ومواقف.

(٩) ظهور فن الغزل في النثر ظهوراً رائعاً

يمكن مقارنة الرسائل الغزلية الغراميّة بأكثر القصائد الغزلية، تعبيراً عن الشوق إلى الحبيب، وإظهار لواعج الحب وما يتركه في نفوس العاشقين. لقد أبدع كتاب القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، في هذا الفن، وتفوّقوا فيه، وأظهروا قدرتهم على التعبير عن المشاعر والعواطف تجاه المحبوبة على أفضل وأدقّ ما يكون التعبير.

من ذلك ما كتبه ابن العميد في إحدى رسائله[2]:

(١) الخوان: طاولة الطعام.

(٢) الحصري: زهر الآداب، ٤/ ٢٧.

«سألتني عمّن شغفني وجدي به، وشغفني حبي له؛ وزعمت أني لو شئت لذهلت عنه، أو لو أردت لاعتضت منه، زعماً، لعمر أبيك ليس بمزعم؛ كيف أسلو عنه وأنا أراه، وأنساه وهو لي تجاه؛ هو أعلب عليّ وأقرب إليّ، من أن يرخي لي عناني، أو يخليني واختياري، بعد اختلاطي بملكه، وانخراطي في سلكه، وبعد أن ناط حبه بقلبي نائط، وساطه بدمي سائط، وهو جارٍ مجري الروح في الأعضاء، مُتَنَسِّمٌ تَنَسُّم الروح للهواء.

إن ذهبت عنه رجعت إليه، وإن هربت منه وقعت عليه. هذا على أنه إن أقبل عليّ بهتني إقباله، وإن أعرض عني لم يطرقني خياله... وَصْلُه ينذر بِصَدِّه، وقربه يؤذن ببعده، يدني عندما ينزح، ويأسر مثل ما يجرح؛ فحالته أحوال، وخلته خِلال، وحكمه سجال، الحسن في عوارفه، والجمال من منائحه، والبهاء من أصوله وصفاته، والسناء من نعوته وسماته. اسمه مطابق لمعناه، وفحواه موافق لنجواه».

ومثل هذه الرسالة كثير، لدى كتاب هذا العصر، ورسائلهم شاهدة على هذا الفن الرَّاقي.

ومن مصطلحات الغزل، مصطلح التشبيب، وهو ذكر صفات المرأة المحبوبة، وكذلك النسيب، وهو ذكر عاطفة الإنسان المحب[(١)]، وإن كان العلماء لا يفرقون أحياناً ما بين الغزل والنسيب والتشبيب. وما يعنينا هنا أن نذكر تفنن كتاب القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، بوصف جمال المرأة ومفاتنها، وصفاً دقيقاً لا يخلو أحياناً من صراحة جارحة أو خادشة للحياء عندما يصفون مواضع معينة في جسد المرأة، بإباحية مستغربة في أيامنا هذه، لن نتطرق إليها، بل سنكتفي بإيراد شواهد على وصف جمال المرأة فقط[(٢)]:

---

(١) الزبيدي: تاج العروس، ٨/ ٤٣، مادة غزل.

(٢) راجع كتاب النثر الفني في القرن الرابع، زكي مبارك، ١/ ١٩٤، نقلاً عن:
- الثعالبي: سحر البلاغة، ص٢٩ وما بعدها.
- الحصري: زهر الآداب، ٣/ ١٤٧ ـ ١٤٩.



- هي روضة الحسن، وضرة الشمس، وبدر الأرض.
- هي مَن وجهها في صباح شامس، ومَن شعرها في ليل دامس، كأنها فلقة قمر على برج فضة، بدر التَّم يضيء تحت نقابها، وغصن البان يهتز تحت ثيابها.
- قد أنبت صدرها ثمر الشباب.
- مطلع الشمس من وجهها، ومنبت الدر من فمها، وملقط الورد من خدها، ومنبع السحر من طرفها، ومبادي الليل من شعرها، ومغرس الغصن من قدها، ومهيل الرمل من ردفها.
- شادن فاتر طَرْفُه، ساحر لَفْظُه.

وتجدر الإشارة هنا إلى شيوع الغزل بالغلمان في هذا العصر، وقد عبر الكتاب عن ولعهم بالغلمان، فتغزلوا بهم ووصفوا محاسنهم ومفاتنهم دونما حرج أو خجل، وكأن الأمر عادة من عادات أبناء العصر، ظهرت في العصر العباسي، لدى الشعراء والكتاب، فأدلى كل واحد منهم بدلوه، نظماً أو نثراً، من ذلك قولهم:

- غلام تأخذه العين، ويقبله القلب، وترتاح إليه الروح.
- شادن فاتر طرفه، ساحر لفظه.
- كأن البدر قد ركب على أزراره، لا يشبع منه الناظر، ولا يُروى منه الخاطر.
- شادن منتقب بالدر، ومكتحل بالسحر.
- غمزات طرفه تُخبر عن ظرفه، ومنطقته تنطق عن وصفه.
- شادن يضحك عن الأقحوان، ويتنفس عن الريحان.
- له عينان حشو أجفانهما السحر، كأنه قد أعار الظبي جيده، والغصن قدّه، والراح ريحه، والورد خدّه.

وتكثر مثل هذه العبارات والأوصاف في رسائل أدباء هذا العصر، لتصور لنا واقع الحياة الاجتماعية بجدّها ولهوها، بفرحها ومرحها، بأسلوب صريح واضح، لا يحتاج فيه الأديب إلى تورية أو كناية أو مجاز؛ فأدب العصر صورة صادقة عن الواقع الذي يعيشه أدباؤه، في مجالسهم الخاصة، أو مجالس الأمراء والوزراء.

(١٠) استخدام العبارات البديعة الموجزة

لقد تفنن كتاب هذا العصر باختراع الألفاظ والعبارات البديعة الموجزة، الشديدة الإيحاء، الدقيقة الإيجاز، والتي كانوا يستخدمونها في كتاباتهم ورسائلهم أجمل استخدام، وهذا دليل على مقدرتهم العالية في التعبير عن أدق المعاني بأفضل الألفاظ وأجملها، وهذا منتهى البلاغة عند العلماء. ويورد الثعالبي ـ وهو من كبار كتاب هذا العصر ـ عدداً من الشواهد على بدائع الكتاب والبلغاء[١]، من ذلك:

ـ من كلام أبي القاسم الإسكافي[٢]: أعوذ بالله من نزقات الشباب ونزغات الشيطان. ومن كلامه أيضاً: الزمان صروف تجول، وأمور تحول.

ـ من كلام عبد العزيز بن يوسف[٣]، إلى قوم من العصاة: احذروا أن ينقلكم الله بأقدامكم إلى مصارع حِمامكم.

ـ ومن كلام أبي بكر الخوارزمي[٤]: الكريم من أكرم الأحرار،

(١) الثعالبي: الإعجاز والإيجاز: منشورات المكتب العالمي، بيروت، ١٩٩٢، ص١١٣ وما بعدها.

(٢) الإسكافي: أبو القاسم علي بن محمد، من أهل نيسابور، كان واحد خراسان في الكتابة والبلاغة، تقلد ديوان الرسائل عند الأمير نوح بن نصر الساماني.

(٣) هو عبد العزيز بن يوسف الشيرازي الجكار، وزير، من الكتاب الشعراء، تقلد ديوان الرسائل لعضد الدولة البويهي، وولي الوزارة لبعض أولاده، توفي سنة ٣٨٨هـ/ ٩٩٨م.

(٤) أبو بكر الخوارزمي: محمد بن العباس، من أئمة الكتاب، وأحد الشعراء العلماء، وهو صاحب الرسائل المشهورة، توفي سنة ٣٨٣هـ/ ٩٩٣م.

والكبير من صغّر الدينار. وكتب كتاباً لصديق جاء فيه: قد أراحني الشيخ ببره، بل أتعبني بشكره، وخفف ظهري من ثقل المحن، لا بل أثقله بأعباء المنن، وأحياني بتحقيق الرجا، لا بل أماتني بفرط الحيا.

ـ ومن كلام بديع الزمان الهمذاني[1]: نعم الرفيق التوفيق. الكلب يزمن[2] حتى يسمن، ولا يتبع حين يشبع. ومن كلامه: ما كل نابعٍ ماء، ولا كل سقف سماء، ولا كل بنية بيت الله، ولا كل محمد رسول الله. ومن أقواله أيضاً: الشمس تقبح في الأعين الرُّمد.

ـ ومن كلام أبي الفتح البستي[3] في بعض الفتوح: كتبت وقد هبت ريح النصر من مهبها، والأرض مشرقة بنور ربها.

ومن كلامه أيضاً: الرشوة رشاء[4] الحاجة؛ والمعاشرة ترك المعاسرة. ومن أقواله: إن لم يكن لنا طمع في دَرْك[5] دُرِّك[6]، فاعفنا من شِرك شَرك.

ومن أقواله: إذا بقي ما قاتك[7]؛ فلا تأس على ما فاتك. وقوله: لا ضمان مع الزمان ولا ضياع بين الصناعة والقناعة.

ويلاحظ أن هذه الأقوال أقرب إلى الحِكم والأمثال السائرة، لشدة إيجازها، وعمق معناها، وقوة سبكها.

---

(١) بديع الزمان الهمذاني: ستأتي ترجمته لاحقاً.

(٢) يزمن: يصاب بمرض مزمن يقعده عن الحركة.

(٣) أبو الفتح البستي: علي بن محمد، شاعر عصره وكاتب دهره. من كتّاب الدولة السامانية في خراسان، ارتفعت مكانته عند الأمير سبكتكين، وخدم ابنه السلطان محمود (يمين الدولة)، مات سنة ٤٠٠هـ/ ١٠١٠م.

(٤) رشاء: حبل الدلو، أي أن الحاجة هي التي تدعو المرء إلى الرشوة.

(٥) دَرك: إدراك.

(٦) دَرُّك: عطائك، ودُرّك: ذهبك.

(٧) ما قاتك: ما كان قوتاً وطعاماً لك.

٢ ـ الفنون النثرية وأنواعها في القرن الرابع للهجرة

تعددت الفنون النثرية في هذا العصر، واتخذت لها أشكالاً وأنواعاً ميزت كل نوع عن الآخر، في لغته وأسلوبه ومواضيعه، وإن كان الغالب على معظمها الصناعة اللفظية.

وقد شهدت دول المشرق الإسلاميّ في القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد نشاطاً أدبياً ملحوظاً، بل لعله أكثر العصور العربيَّة احتفاء بالنشاط الأدبي، والكتابة الفنية على الأخص، ولعل من أهمّ أسباب هذا النشاط تنافس حكام هذه الدول في استقطاب الأدباء، وتكليفهم بالوزارة؛ فأصبحنا نرى في كل دولة من دول المشرق أدباء كبار، يتولون شؤونها، ويشرفون على إدارتها، وبالتالي على مكاتباتها ورسائلها السلطانية؛ فعند السامانيين نجد أسرة بني ميكال، وعند البويهيين نجد ابن العميد والصاحب بن عباد، وهما أهمّ وأشهر كتاب العصر. وفي الدولة الزيارية نجد أميراً من أمرائها يتولى شؤون الكتابة والمراسلات وهو الأمير قابوس بن وشمكير. كذلك وجدنا في الإمارات الصغيرة كتاباً مشهورين مثل أبي الفتح البُسْتي، كاتب أمير مدينة بست في أفغانستان، ثُمَّ كاتب الدولة الغزنوية فيما بعد. ويكفي للدلالة على اعتداد الحكام بالكتّاب والسعي إلى ضمهم لمجالسهم ودولهم، تكليف أبي إسحاق الصابي برئاسة ديوان الرسائل، وهو غير مسلم، وإغراؤه بمنصب الوزير إن ترك دين آبائه الصابئة وتحول الإسلام، ولكنه رفض ذلك[١].

ومما يدلّ على قيمة الكتابة والكتّاب في هذا العصر ما رواه الثعالبي[٢] في كتابه «يتيمة الدهر». من أن ابن العميد كتب رسالة إلى ابن بلكا عند استعصائه على ركن الدولة البويهي وخروجه عليه؛ فلمّا قرأها ابن بلكا رجع

---

(١) سنذكر لاحقاً هذا الخبر عند الحديث عن الصابي.

(٢) الثعالبي: يتيمة الدهر، ٣/ ١٦٧.

عن عصيانه، وقال: «لقد ناب كتاب ابن العميد عن الكتائب في عَرك أديمي واستصلاحي، وَرَدّي إلى طاعة صاحبه»؛ فلا غرابة إذن أن يهتم كل أمير بوزرائه وكتّابه، الذين كانوا يقومون بأدوار سياسية وأدبية كتابية معاً.

ومن أهمّ الفنون النثرية التي ازدهرت في القرن الرابع للهجرة فن الرسائل بقسميه: الديوانية أو السلطانية، والإخوانية.

* * *

أ ـ فن الرسائل

(١) الرسائل الديوانية، أو السلطانية

وهي عبارة عن المكاتبات التي كانت تصدر عن ديوان الرسائل في الدولة، وتخرج بتوقيع الحاكم أو الأمير، إلى الولاة والعمال والقضاة، داخل الدولة، أو إلى ملوك وأمراء الدول الأخرى.

وخير من يمثل الكتابة الديوانية ابن العميد، فهو أكبر كتاب الرسائل الديوانية[١]، وأبو إسحاق الصابي.

(أ) نموذج من رسائل ابن العميد[٢]

«كتابي، وأنا مترجّح بين طمع فيك، ويأس منك، وإقبال عليك، وإعراضٍ عنك؛ فإنك تدلّ بسابق حرمة، وتمت بسالف خدمة، أيسرهما يوجب رعاية، ويقتضي محافظة وعناية، ثُمَّ تشفعهما بحادث غلول، وخيانة، وتتبعهما بآنف خلافٍ ومعصية، وأدنى ذلك يُحبط أعمالك، ويمحق كل ما يرعى لك. لا جرم أني وقفت بين ميل إليك وميل عليك، أقدم رجلاً

(١) متز، آدم: **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع**، ١/ ٤٤١.

(٢) من رسالته التي كتبها إلى ابن بلكا ونداد خورشيد عند استعصائه على ركن الدولة. (الثعالبي: **يتيمة الدهر**، ٣/ ١٦٧ ـ ١٦٨).

لصدمك، وأؤخر أخرى عن قصدك، وأبسط يداً لاصطلاحك واجتياحك، وأثني ثانية لاستبقائك واستصلاحك. . . فقد يغرب العقل ثم يؤوب، ويعزب اللب ثم يثوب. . . وكما أنك أتيت من إساءتك بما لم تحتسبه أولياؤك، فلا بدع أن تأتي من إحسانك بما لا ترتقبه أعداؤك؛ وكما استمرت بك الغفلة حتى ركبت ما ركبت، اخترت ما اخترت، فلا عجب أن تنتبه انتباهةً تبصر فيها قبح ما صنعت، وسوء ما آثرت، وسأقيم في الإبقاء والمماطلة ما صلح، طمعاً في إنابتك وتحكيماً في حسن الظن بك. . . فإن يشأ الله يرشدك، ويأخذ بك إلى حظك ويسددك، فإنه على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير. . .».

وفي نهاية الرسالة يقول له: «تأمل حالك فستنكرها، والمس جسدك وانظر هل يحسّ؟ واجسس عرقك هل ينبض؟ وفتش ما حنا عليك، هل تجد في عرضها قلبك؟ وهل حلي بصدرك أن تظفر بفوتٍ سريح، أو موت مريح؟ ثم قس غائب أمرك بشاهده، وآخر شأنك بأوله».

ويعلق الثعالبي على هذه الرسالة قائلاً: «وقد أجمع أهل البصيرة في الترسل، على أن رسالته التي كتبها إلى ابن بلكا ونداد خورشيد، عند استعصائه على ركن الدولة، غزرة كلامه، وواسطة عقده، وما ظنك بأجود كلام، لأبلغ إمام».

(ب) نماذج من رسائل الصابي، أبو إسحاق، إبراهيم بن هلال:

عمل الصابي رئيساً لديوان الرسائل عند عزّ الدولة البويهي، فهو في رسائله يتكلم على شؤون خاصة بالدولة التي يخدمها، أو الأمير الذي يخدمه، من عهود ومواثيق ومراسلات بين الأمير وعمّاله، فقد كان آلة ماضية في يد من كتب لهم من الخلفاء والوزراء، والظاهر أن تأثيره من هذه الناحية كان قوياً جداً، حتى استباح لنفسه أن يقول[١]:

---

(١) الثعالبي: **يتيمة الدهر**، ٢/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣.

(من البحر الطويل)

وقد علم السلطان أني أمينُه ... أُ آزره فيما عرى وأمده

فيمناي يُمناه ولفظيَ لفظه ... ولي فقر تضحي الملوك فقيره

أَرُدُّ بها رأس الجموح فينثني ... وكاتبه الكافي السديد الموفقُ

برأي يريه الشمس والليل أغسقُ ... وعيني له عين بها الدهر يرفقُ

إليها، لدى أحداثها حين تطرقُ ... وأجعلها سوط الحرون فيُعلِقُ

ومن رسائل الصابي كتاب عن بختيار إلى مؤيد الدولة، لمّا قبض على أبي الفتح ابن العميد، ذي الكفايتين، في الشفاعة له[1].

وهذا غلام أفسدته سجية ركن الدولة الشريفة في شدة الاحتمال، والصبر على الإذلال، واجتمع له ذلك التقلب في نعمة حازها حيازة وإرث لها، لم يكدح في تأثيلها، ولامسه النصب في تثميرها، ولا اهتدى إلى طريق استيفائها، ولا تحزن من طرق دواعي انتقالها. ومن ألزم اللوازم في حكم الرعاية، أن نحفظه من سكر نعمة نحن سقيناه بكأسها، وأن نعذره عن هفوة قد شاركناه في إيجاد أسبابها، وأن تكون نفسه محروسة، والبقية من حاله بعد أخذ. فضلها المفسد له متروكة، وأن يتحدث النَّاس بأن سيدي الأمير، أصاب غرض الحزم بالقبض عليه، ثُمَّ طبق مفصل الكرم في التجاوز عنه».

وكتب الصابي عن بختيار إلى سبكتكين بن محمود الغزنوي (الغَزْني)[2]:

«ليت شعري، بأي قدم توافقنا، وراياتنا خافقة على رأسك، ومماليكنا عن يمينك وشمالك، وخيلنا موسومة بأسمائنا تحتك، وثيابنا المنسوجة في طرزنا على جسدك، وسلاحنا المشحوذ لأعدائنا في يدك».

---

(١) الثعالبي: يتيمة الدهر، ٢/٢٤٧ ـ ٢٤٨.

(٢) الثعالبي: م.ن، ٢/٢٥٢.

وهاتان الرسالتان وأمثالهما، تظهران الصابي أديباً فناناً يُحْكِم القول، ويُجيد الوصف، ويُعَمِّرُ أفضل تعبير عن الأمور التي يتحدث عنها.

(٢) الرسائل الإخوانية

وهي المكاتبات التي كانت تقع بين الإخوة والأصدقاء أو من تجمعهم علاقة ما، أو معرفة أو ما شابه ذلك؛ وتهدف إلى التهنئة بعيد، أو بمولود، أو بشفاء من مرض، كما يمكن أن يكون هدفها تعزية بفقد عزيز، أو تهدف إلى طلب تحقيق غاية أو مساعدة أو تلبية حاجة أو ما شابه؛ وقد نظم شأن هذه الرسائل الإخوانية في القرن الرابع للهجرة، حتى أصبحت الكتابة الإخوانية حرفة بعض الكتاب، يتكسبون منها، ويتفننون في صياغة عباراتها بأسلوب مُسَجّع غني بالمحسنات اللفظية التي تظهر براعة الكاتب.

وكان من أشهر كتاب الرسائل الإخوانية، أبو حيّان التوحيدي، وبديع الزمان الهمذاني، وأبو بكر الخوارزمي، أشهر كتاب الرسائل الأخوانية[١].

أ ـ نماذج من رسائل أبي حيان التوحيدي

يعتبر أبو حيان التوحيدي أفضل من كتب في الإخوانيات، وكتابه «الصداقة والصديق» من أنفس ذخائر اللغة العربيّة في هذا الموضوع؛ فهو غني جداً بإيضاح مفهوم الصداقة، والأخوة، والمودّة، والمحبة، وقد جاء بأجمل الصور الفنية الرائعة، معبراً عن الخواطر والأفكار والتأملات؛ فهو يصور خواطر النّاس وآراءهم في الحياة تصويراً عجيباً، يفصِح عن قدرته البلاغية، أيّما إفصاح، كما يظهر في ثنايا كلامه غنى لغته وقوة خياله، بحيث يحيط المعاني من جميع جهاتها. من ذلك قوله في الحب والبغض[٢]: «وما من أحد إلا وله في هذا الفن حصة، لأنه لا يخلو أحد من جار أو صاحب أو

(١) الثعالبي: يتيمة الدهر، ص ٤٥١.
(٢) التوحيدي، أبو حيان: رسالة في الصداقة والصديق، ص٧٣.

رفيق أو حبيب أو صديق... كما لا يخلو من عدو أو كاشح أو مُداجٍ أو حاسد أو شامت أو منافق أو مُؤذٍ...» وهذا الكلام يدلّ على قدرة صاحبه على تصوير المعاني النفسية والوجدانية التي تختلج في صدور النَّاس، تصويراً يعجز عنه كبار الكتاب.

* ويقول التوحيدي مبيّناً الفرق بين الصداقة والعلاقة[(١)]:

«الصداقة أذهب في مسالك العقل، وأدخل في باب المروءة، وأبعد من توازي الشهوة، وأنزه عن آثار الطبيعة، وأشبه بذوي الشيب والكهولة، وأرمى إلى حدود الرشاد، وآخذ بأهداب السداد، وأبعد من عوارض الغرارة والحداثة.

وأمَّا العلاقة، فهي من قبيل العشق والمحبة، والكلف والشغف والتَّتَيمُ والتَّهيُّم، والهوى والصبابة، والتدافق والتشاجي وهذه كلها أمراض أو كالأمراض، بشركة النفس الضعيفة والطبيعة القوية، وليس للعقل فيها ظل ولا شخص، ولهذا تسرع هذه الأعراض إلى الشباب، من الذكران والإناث، وتنال منهم وتملكهم، وتحول بينهم وبين أنوار العقول وآداب النفوس وفضائل الأخلاق، ولهذا وأشباهه يحتاجون إلى الزواجر والمواعظ، ليفيئوا إلى ما فقدوه من اعتدال المزاج والطريق الوسط.

* ومن رسالة كتبها أبو حيان التوحيدي إلى أبي الفضل العباس بن الحسين، وكان بينهما تواصل، بعد وفاة أبي جعفر الصيمري[(٢)]:

«إني ـ حفظك الله وحفظني لك، وأمتعك بي وأمتعني بك ـ قد بلوتك طول أيام أبي جعفر، قدّس الله روحه؛ فوجدتك ذا شهامة فيما يناط بك، حَسَنَ الكفاية فيما يوكل إليك، كتوماً للسر إذا استحفظته، حسن

(١) التوحيدي، أبو حيان: **رسالة في الصداقة والصديق**، ص٤٠.
(٢) أبو حيان التوحيدي: م.ن، ص ٧٠ـ ٧١.

المساعدة فيما يجمل بك الوفاق عليه، وقد حداني هذا كله على اجتبائك وتقريبك، وإدنائك وتقديمك، وغالب ظني أنك تعينني على ذلك بميمون نقيبتك، ومأمون ضريبتك. وجعلت دعامة هذا كله أني أجريتك مجرى الصديق، الذي يفاوض في الخير الشر، ويشارك في الغثّ والسمين، ويستنام إليه في الشهادة والغيب، ولي معك عينان: إحداهما مغضوضة عن كل ما ساءني منك، والأخرى مرفوعة إلى كل ما سرّني فيك، فإن كنت تجد في نفسك على قولي هذا شاهداً صدوقاً وأمّاراً نطوقاً، فعرفني لأعلم أن فراستي لم تفل، وحدسي عن طريق الصواب لم يمل. والحالة التي جدّدها الله لي، هي محروسة لك ومفرغة عليك، ومستقلة بك، فأشركني فيها بخالصة الوفاء، أو تفرد بها إن شئت بحقيقة الصفاء».

* وفي رسالة أخرى يقول أبو حيان التوحيدي[(١)]:

«قلت لابن الأبهري: من الصديق؟ قال: من سلم سِرّه لك، وزيّن ظاهره بك، وبذل ذات يده عند حاجتك، وعفَّ عن ذات يدك عند حاجته، يراك منصفاً وإن كنت جائراً، ومُفْضِلاً وإن كنت ممانعاً، رضاه منوط برضاك، وهواه محوط بهواك، إن ضللت هداك، وإن ظمئت أرواك، وإن عجزت آداك[(٢)]. يبين عنك بالجسم والرسم، ويشاركك في القسم والرسم».

قلت: «أمّا الوصف فحسن، وأما الموصوف فعزيز».

قال: «إنّما عزّ هذا في زمانك حيث خبثت الأعراق، وفسدت الأخلاق، واستعمل النفاق في الوفاق، وخيف الهلاك في الفراق».

وهذا كلام التوحيدي ينبئ عن تجربة مريرة في الحياة، ينقلها لنا بأسلوب رائع معبر، صادق في كل ما كتبه، لأنه صادر عن قلبه.

(١) التوحيدي، أبو حيان: **رسالة في الصداقة والصديق**، ص١٢٤.
(٢) آداك: أي أدّى عنك ما عجزت عن أدائه.

(ب) نماذج من رسائل بديع الزمان الهمذاني

هو أبو الفضل أحمد بن الحسين، بديع الزمان ومعجزة همذان[1]. وهو من الذين أكثروا من الرسائل الإخوانية، حتى أن الثعالبي عندما ذكره لم يورد نثراً إلاَّ من غرر رسائله الإخوانية.

كتب بديع الزمان الهمذاني إلى الأمير أبي نصر الميكالي[2]:

«كتابي ـ أطال الله بقاء الأمير ـ وبِودّي أن أكونه، فأسعد به دونه، ولكن الحريص محروم، لو بلغ الرزق فاه، لَوَلاّه قفاه.

وبعد؛ فإني في مفاتحته بين ثقة تعد، ويد ترتعد؛ ولم لا يكون ذلك، والبحر وإن لم أره فقد سمعت خبره؟ ومن رأى من السيف أثره، فقد رأى أكثره، وإذا لم ألقه، فلم أجهل إلا خلقه.

وما وراء ذلك من تالد أصل ونشب، وطارف فضل وأدب، فمعلوم تشيد به الدفاتر، والخبر المتواتر، وتنطق به الأشعار، كما تختلف عليه الآثار. والعين أقل الحواس إدراكاً، والآذان أكثرها استمساكاً.

* ومن رسائله قوله[3]: «أجدني قد اكتهلت، والكهل قبيح به الجهل، ولاحت الشعرات البيض، وجعلت تفرخ وتبيض. جزى الله المشيب خيراً فإنه أناة، ولا ردّ الشباب فإنه هنات، وبئس الداء الصِّبا، وليس دواؤه إلا انقضاؤه، وبئس المثل: النار ولا العار، ونعم الرائضان: الليل والنهار. أظن الشباب والشيب لو مثلا لمثّل الأول كلباً عقوراً، والآخر شيخاً وقوراً، ولاشتعل الأول ناراً، والآخر نوراً؛ فالحمد لله الذي بيّض القار[4]، وسماه

---

(١) الثعالبي: يتيمة الدهر، ٤/ ٢٥٦.

(٢) الثعالبي: م.ن، ٤/ ٢٦٣.

(٣) الثعالبي: م.س، ٤/ ٢٨٥.

(٤) القار: الزفت، أراد به شعره الأسود كلون الزفت.

الوقار، وعسى الله أن يغسل الفؤاد كما غسل السواد. إن السعيد من شابت جملته، ولم تُخص بالبياض لحيته.

(ج) نماذج من رسائل أبي بكر الخوارزمي

هو محمد بن العباس الخوارزمي، «عَلم النثر والنظم، كان يجمع بين الفصاحة العجيبة والبلاغة المفيدة»[1]، كان من كبار الأدباء في عصره، في رسائله صور بالغة من السجع والبديع؛ فهو ينتخب ألفاظه كما ينتخب أسجاعه، وهو يُعنى بالسجعات القصيرة التي تستسيغها الآذان، وقد يلجأ إلى الطباق، فيرصع رسائله ترصيعاً جميلاً، لا تملّه الأذواق.

* فمن رسائله[2]: «صادف ورود الكتاب رمداً في عيني، حتى حصرني في الظلمة، وحبسني بين الغمّ والغُمّة، وتركني أدرك بيدي ما كنت أدرك بعيني، كلِيل سلاح البصر، قصير خَطْوِ النظر، قد ثكلتُ مصباح وجهي، وعدمتُ بعضي الذي هو آثر عندي من كُلّي؛ فالأبيض عندي أسود، والقريب مني بعيد. قد خالط الوجع أجفاني، وقبض عن التصرف بناني، ففراغي شغل، ونهاري ليل، وطول ألحاظي قصار، وأنا ضرير، وإن عددت في البصراء، وأُمّي، وإن كنت من جملة الكتاب والقراء. قَصَّرَت العلة خطوتي قلمي وبناني، وقامت بين يديَّ ولساني. . .»

* ومن رسالة كتبها إلى أبي علي البلعمي، لما طال عتبه، وكثرت رقاعه[3]:

«الكريم ـ أيّد الله تعالى الشيخ ـ إذا قدر غفر، وإذا أوثق أطلق، وإذا

(١) الثعالبي: يتيمة الدهر، ٤/ ١٩٤.

(٢) هذه الرسالة هي رد على رسالة كتبها صديق له، وصادف أن كان الخوارزمي مصاباً بالرمد. (الثعالبي: م.ن، ٤/ ٢٠٢).

(٣) الخوارزمي: رسائل الخوارزمي، ص٩٦.

أَسَرَ أَعتق؛ ولقد هربت من الشيخ إليه، وتسلحت بعفوه عليه، وألقيت ربقة حياتي ومماتي بيديه، فليذقني حلاوة رضاه عني، كما أذاقني مرارة انتقامه مني، ولتَلُحْ على حالي غُرَّة عفوه، كما لاحت عليها مواسم غضبه وسطوه؛ وليعلم أن الحر كريم الظفر إذا نال أقال، وأن العبد لئيم الظفر إذا نال استطال، وليغتنم التجاوز عن عثرات الأحرار، وليتنهز فُرَصَ الأقدار، وليحمد الله تعالى أقامه مقام من يرجى ويخشى، وركب نصابه في رتبة شاب الزمان ومجدها فتي، وأخلق العالم وذكرها طري. وليعتقد أنه قد هابه من استتر، ولم يذنب إليه من اعتذر، وأن من رد عليه عُذره، فقد خرج من الشجاعة بعد الجبن، وأخرج ذنبه على صحو اليقين من سترة الظن. وفق الله تعالى الشيخ لما يحفظ عليه قلوب أوليائه، وعصمه بما يزيد به في جماجم أعدائه، وليس بين الموالاة والمعاداة إلا لقية بشعة، أو لفظة قَذِعَة».

ب ـ فن المقامات

(١) تعريف المقامة

المقامة نوع من القصص القصيرة، تحفل بالحركة التمثيلية، وفيها تدور المحاورة بين شخصين. وقد ابتكر هذا الفن بديع الزمان الهمذاني؛ ففي أخباره أنه كان يختم مجلسه أو مقامه في نيسابور بقصّة من هذه القصص، ولعله من أجل ذلك اختار لها اسم المقامات[١].

ولا نريد أن نخوض هنا في تحقيق مبتكر هذا الفن[٢]، أو تاريخ بداياته

(١) ضيف، شوقي: الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف بمصر، ط٤، ١٩٦٥، ص٢٤٦ ـ ٢٤٧.

(٢) ذكر الحريري في مقدمة مقاماته أن المقامات ابتدعها بديع الزمان؛ فسار النقاد على دربه، ورددوا مقالته. وكذلك يُروى أن مبتكر فن المقامات هو ابن دريد (ت٣٣١هـ/٩٤٢م)، وكان قد سمّاها مجالس.

وأولياته وإرهاصاته، لكن يكفي القول: إن عمل بديع الزمان في هذا الفن هو الذي أوحى لمن جاء بعده من كُتَّاب المقامات بتقليدة، ولم يكن في أذهانهم إلاَّ مقامات بديع الزمان، حيث أخذت هذه التسمية موقعها من التراث الأدبي، انطلاقاً من عمل الهمذاني.

نعود للقول إن المقامة قصة قصيرة، أودعها الكاتب ما يشاء من فكرة أدبية أو فلسفية أو خطرة وجدانية، أو لمحة من لمحات الدعابة والفكاهة، بأسلوب يميل إلى الزخرف في الإنشاء، والتصنّع في العبارة، واستخدام الغريب من اللفظ؛ ويدور موضوع المقامة على التسول والكدية.

(٢) الهمذاني مبدع فن المقامات

ألف بديع الزمان الهمذاني مقاماته بعد وصوله إلى نيسابور سنة ٣٨٢هـ/ ٩٩٢م، وعددها أربعمائة مقامة كما يقول الثعالبي: «. . . واستقرت عزيمته على قصد نيسابور؛ فوافاها في سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة. . . وأملى أربعمائة مقامة، نحلها أبا الفتح الإسكندري في الكِدْيَة وغيرها، وضمّنها ما تشتهي الأنفس وتلذّ العين، من لفظٍ أنيق، قريب المأخذ، بعيد المرام، وسجعٍ رشيقِ المطلع والمقطع، كسجع الحمام، وجد يروق فيملك القلوب، وهزلٍ يشوق فيسحر العقول».

ومن المعروف أن ما وصل إلينا من مقامات الهمذاني لم يتعد الخمسين مقامة؛ فهل ضاعت المقامات الباقية وعددها كبير، أم اختار بديع الزمان خمسين مقامة لتبقى على مر الزمان شاهدة صنيعه وفنه؟ ولعل الأبحاث والدراسات اللاحقة توضح ما خفي علينا حول عدد هذه المقامات.

ويسوق بديع الزمان الهمذاني مقاماته في شكل قصص درامية قصيرة، تدخلها الفكاهة من بعض جوانبها، كذلك يمكن اعتبار المقامات الخمسين كلها، قصة واحدة، تعبّر عن أطوار متعددة ومتنوعة من حياة بطلها أبي الفتح

الإسكندري، أو تعبر عن حوادث مستقلة حصلت في أيامه، صاغها الهمذاني بأسلوب قصصي تمثيلي، يشيع فيه الحوار، وفيها نرى أبا الفتح الإسكندري ـ بطل هذه القصص ـ يحتال على النَّاس بطرق مختلفة، وبأسلوب بلاغي متميز، ليبتز أموالهم؛ وفي أغلب الأحيان يلتقي به عيسى بن هشام، فيعجب بفصاحته وبلاغته، ويكشف اللثام عن وجهه، وفي كل مرّة لا يخطئه؛ فهو أبو الفتح الإسكندري.

(٣) الهدف من المقامات

ومن خلال قراءتنا ودراستنا لهذه المقامات، يبدو لنا أن بديع الزمان الهمذاني كان يهدف إلى أن يجمع في كل مقامة من مقاماته، طائفة من الأساليب البلاغية المصنعة، التي تعتمد على السجع والبديع وأنواع الزخارف اللفظية، مما يشغل القارئ عن موضوع المقامة فينصرف إلى أسلوبها ولغتها، وكأنه ألّف مقاماته لغاية تعليمية، وهي التمرن على الكتابة والتعبير، فإنه لا يصف شيئاً إلاَّ راكم فيه العبارات والمترادفات، ليزود القارئ بكمٍ من الألفاظ لمعانٍ متقاربة، وبأنواع من التعابيرعن أفكار متجانسة، ولا يرى حرجاً من استخدام الألفاظ الغريبة، التي يعود ليشرحها أحياناً بألفاظ أكثر وضوحاً واستعمالاً، مما يؤكد أن غايته في هذه المقامات لم تكن قصصية، بل تعليمية، أو لعله أراد من وراء كل ذلك إثبات مقدرته اللغوية وقدراته التعبيرية التي كانت لها المكانة الأولى في القرن الرابع للهجرة، وهذا ما جعله من كبار أدباء عصره.

(٤) من خصائص ومميزات مقامات بديع الزمان الهمذاني

١ ـ في مقامات بديع الزمان نماذج من القصة القصيرة، ففيها العقدة، وتحليل الشخصيات، ثم الحل.

٢ ـ في مقامات بديع الزمان تصوير لواقع اجتماعي يزخر بالسيئات

والأخلاق الفاسدة. (راجع المقامة الشامية والمقامة الرصافية، والمقامة الدينارية).

٣ - بروز فن الوصف في المقامات بشكل واضح، والهمذاني يملك قدرة رائعة على وصف الأشياء. (راجع المقامة الأسدية).

٤ - تناول الهمذاني في بعض مقاماته الكلام على الشعر والشعراء، وكأنه يعرض ويستعرض آراء نقدية في الشعر والشعراء، كما يتكلم على الشعراء القدامى والمحدثين في عصره ويفاضل بينهم. (راجع المقامة القريضية).

٥ - كذلك يتناول الهمذاني أحياناً بعض المشكلات الكلامية، فيتعرض للمعتزلة بالتحقير، ويسفه آراءهم.

٦ - ويتناول الهمذاني في إحدى مقاماته فساد الحياة الاجتماعية، كأعمال اللصوص وحيلهم، وأوضاع الناس وطرق معاشهم. (راجع المقامة الرصافية).

٧ - ويمكن اعتبار بعض مقامات الهمذاني نموذجاً لأدب الفكاهة في التراث العربي، أو لعل هذه المقامات صورة أولى لأدب الفكاهة.

ولا يتسع المجال لذكر نماذج من هذه المقامات، فمن أراد الاطلاع عليها فليرجع إلى ما جمعه الشيخ محمد عبده منها، وهي مطبوعة منشورة ومشهورة.

إن مقامات بديع الزمان الهمذاني تحفة من تحف النثر الفني في القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، فيها إضافةً إلى اللغة والأسلوب المميزين، صور عن الحياة الاجتماعية في مختلف مظاهرها وتوجهاتها، ولعل هذه المقامات من أفضل المصادر لدراسة الحياة الاجتماعية ومظاهرها في القرن الرابع للهجرة، في بلاد المشرق الإسلاميّ خاصّة، وفي بعض عواصم العالم الإسلامي عامة.

ج ـ فن المناظرات

(١) تعريف المنـاظرة

المناظرة لغة[١]: من قولهم: دور متناظرة، أي: متقابلة، أو من النظير، أو من النظر، إما بمعنى التبصر، أو الإبصار، أو الانتظار.

واصطلاحاً[٢]: هي النظر بالبصيرة من الجانبين[٣] في النسبة بين الشيئين[٤]، إظهاراً للصواب[٥].

(٢) أنواعها

تعددت أنواع المناظرات في التراث الأدبي عبر العصور؛ فكانت المناظرات الدينية والسياسية والفكرية والأدبية واللغوية، وغيرها، مما كان يبتكره الأدباء والعلماء والفلاسفة من محاورات تأخذ شكل المناظرات، خاصة ما بتنا نشهده في العصور العباسية، حيث بلغ النشاط الفكري أوجه، وكثرت الفرق والمذاهب والجماعات، وكلٌّ يريد أن يدحض آراء خصمه ويثبت صحة دعواه، وبالتالي تفوقه على غيره.

ومن أشهر من اهتمّ بتدوين مناظرات القرن الرابع للهجرة، أبو حيان التوحيدي، خاصّة في كتابه «الإمتاع والمؤانسة»، وقد كان التوحيدي يهتم بتدوين المناظرات الفلسفية والكلامية والفقهية واللغوية.

---

(١) الفيروز آبادي: **القاموس المحيط**، مادة نظر.

(٢) الأنصاري، الشيخ زكريا: **فتح الوهاب بشرح الآداب** (وهو شرح الرسالة السمرقندية في آداب البحث وطرق المناظرة، لمؤلفها شمس الدين محمد السمرقندي) الورقة رقم (٦) من المخطوطة رقم (٨١٥) من مقتنيات المجمع الثقافي ـ أبو ظبي.

(٣) الجانبين: أي المتناظرين في حكم، متوافقين فيه أو متخالفين.

(٤) بين الشيئين: أي القضيتين.

(٥) إظهاراً للصواب: احترازاً عما لا يكون الغرض إظهاراً للصواب، كالمكابرة والمجالدة والمغالطة.

وقد يذكر أبو حيان موضوع المناظرة، وأسماء المتناظرين بشكل واضح، أو يذكر حواراً بين متحاورين دون ذكر عبارة «مناظرة»، مع أن مضمون الكلام وسياقه وطريقة عرضه ينطبق على مصطلح المناظرة.

(٣) نماذج من المناظرات

من ذلك الحوار الذي حصل في الليلة السادسة حول موضوع المفاضلة بين العرب والعجم[١]، وكذلك الحوار الذي حصل في الليلة السابعة حول موضوع المفاضلة بين علم الحساب وعلوم البلاغة والكتابة والإنشاء[٢].

* ويذكر أبو حيان مناظرة[٣] جرت في مجلس الوزير أبي الفتح، الفضل بن جعفر بن الفرات، بين أبي سعيد السيرافي، وأبي بشر متّى بن يونس، ويحدد أبو حيان تاريخ انعقاد هذا المجلس وأسماء العلماء الذين حضروه، وكذلك موضوع المناظرة، وهو قول أبي بشر متّى في حديث المنطق: «لا سبيل إلى معرفة الحق من الباطل، والصدق من الكذب، والخير من الشر، والحجة من الشبهة، والشك من اليقين، إلاَّ بما حويناه من المنطق، وملكناه من القيام به، واستفدناه من واضعه، على مراتبه وحدوده، فأطلعنا عليه من جهة اسمه على حقائقه، فأحجم القوم وأطرقوا.

قال ابن الفرات: واللهِ إن فيكم لمن يفي بكلامه ومناظرته وكسر ما يذهب إليه... ثُمَّ وجه كلامه لأبي سعيد السيرافي قائلاً: أنت لها يا أبا سعيد».

وتبدأ المناظرة، بين أبي بشر متَّى، وأبي سعيد السيرافي، يقدم متَّى حججه وبراهينه، فيرد عليه السيرافي حججه ويُسَفِّهها.

---

(١) التوحيدي، أبو حيان: **الإمتاع والمؤانسة**، الليلة السادسة، ص٦٩، (طبعة دار الكتب العلمية).

(٢) التوحيدي، أبو حيان: م.ن، ص٩٠، (الليلة السابعة).

(٣) أبو حيان التوحيدي: م.س، ص٩٦ ـ ١١٥، (الليلة الثامنة).

ثُمَّ تأخذ المناظرة وجهة نحوية؛ فيعجز متَّى عن الإجابة وتقديم الحجج؛ فتنتهي المناظرة بقول الوزير ابن الفرات لأبي سعيد السيرافي:

«عين الله عليك أيها الشيخ؛ فقد نَدَّيْتَ أكباداً، وأقررت عيوناً، وبيضت وجوهاً، وحكت طِرازاً لا يبليه الزمان، ولا يتطرق إليه الحدثان».

* ومن المناظرات الممتعة تلك المناظرة التي حصلت بين بديع الزمان الهمذاني وأبي بكر الخوارزمي، إثر خلاف حصل بينهما؛ فدعا النَّاس إلى مناظرة تقوم بين الرجلين؛ فتردد الخوارزمي وهش بديع الزمان، ثُمَّ ركب الخوارزمي في جمع من أصحابه وتلامذته، ثُمَّ ابتدأت المناظرة بينهما، وكانت نتيجتها أن أفحم بديع الزمان أبا بكر الخوارزمي؛ فخرج من المجلس غاضباً، وتوفي بعد مدة قصيرة. وها هو الثعالبي يذكر لنا كيف انتهت حياة الخوارزمي إثر هذه المناظرة فيقول[1]:

«رُمِيَ (أبو بكر الخوارزمي) في آخر أيامه بحجرٍ من الهمذاني، الحافظ البديع، وبُلِيَ بمساجلته ومناظرته ومناضلته، وأعان الهمذاني الحافظ البديع، عليه قوم من الوجوه كانوا مستوحشين منه جداً، فلاقى ما لم يكن في حسابه، وأنف من تلك الحال، وانخزل انخزالاً شديداً، وكسف باله، وانخفض طرفه، ولم يحل عليه الحول حتى خانه عمره، ونفذ قضاء الله تعالى فيه».

وقد أثبت الهمذاني نص هذه المناظرة ضمن رسائله[2]، فمن أراد الاطلاع عليها بتفاصيلها يمكنه العودة إلى رسائله، وهي مناظرة أدبية لغوية ممتعة، تظهر مقدرة كلٍّ من الرجلين على فن المناظرة، وعلى تقديم الحجج والأدلة على سعة أفق علومهما، في اللغة والشعر والنثر، وفي حفظ الروايات

(١) الثعالبي: **يتيمة الدهر**، ٤/٢٠٨ ـ ٢٠٩.

(٢) الهمذاني، بديع الزمان: **رسائل بديع الزمان**، ص٧٨ ـ ٨٣.

الأدبية، كما تظهر اهتمام العلماء بمثل هذه المناظرات، وحضور حشد منهم مجلسها، لسماع أقوال المتناظرين، وكل طرف له جمهوره وأتباعه ومؤيدوه، وكأننا أمام مباراة فكرية علميّة أدبيّة فلسفية شاملة.

* * *

(٣) أشهر كتاب القرن الرابع للهجرة وأهمّ ما تميزوا به

قبل البدء بالحديث عن أشهر كتاب هذا العصر، علينا أن نشير إلى أن هؤلاء الكتاب الذين برعوا في الكتابة النثرية، برعوا أيضاً في نظم الشعر، إن لم يكن كلهم، فأكثرهم، وهذا ليس بغريب على أدباء القرن الرابع للهجرة، لأن ثقافة الأديب كانت ثقافة شمولية؛ فهو ناثر وناظم في آن، وقد يجمع إلى الأدب والفلسفة بعضاً من العلوم التي كانت سائدة في عصره.

وسنتحدث باختصار عن أشهر الكتاب وأهمّ ما تميزوا به، ممن ذكرنا مشاركتهم في فنون نثرية متعددة، أو ممن لم نذكرهم سابقاً، مع الإشارة إلى أنّهم كانوا أيضاً من كبار أدباء القرن الرابع للهجرة، والذين تركوا أثراً مباشراً في الحياة الأدبيّة، وكان لهم مجالس أدب تعج بالأدباء والعلماء كالصاحب بن عباد مثلاً، أو كان لهم دور في رعاية الأدباء وتشجيعهم وبذل الأعطيات لهم حتى يستمروا في عطاءاتهم، فكانوا يؤلفون الكتب ويهدونها إلى هؤلاء الوزراء أو الأمراء فينالون عليها أسخى الأعطيات.

(١) أبو بكر الخوارزمي:

محمد بن العباس الخوارزمي، ويقال له أيضاً الطبرخزي[١]، وسمي بذلك لأن أباه كان من خوارزم، وأمه من طبرستان، وهي أخت المؤرخ المشهور محمد بن جرير الطبري.

(١) الطبرخزي: كلمة منحوته من لفظتين: طبرستان وخوارزم.

ولد أبو بكر الخوارزمي سنة ٣٢٣هـ/ ٩٣٥م، وكان يقيم في شبيبته بحلب، في بلاط سيف الدولة الحمداني، ثم توجه إلى بخارى قاصداً أبا علي البلعمي، وزير آل سامان، ولكنه فارقه سريعاً، فقصد نيسابور وسجستان. وفي سجستان حبسه واليها طاهر بن محمد زماناً لهجائه إيّاه. ثُمّ لمّا خرج من السجن توجه إلى أصفهان وشيراز، ونال فيهما من الإكرام ما تمناه، واستقر بعد ذلك في نيسابور، فلمّا تجاسر بها على هجاء الوزير العُتبي، صادر والي نيسابور أمواله وحبسه، ولكنه تمكن من الهرب إلى جرجان، فلما قتل العتبي دعاه خَلفهُ أبو الحسين المزني إلى نيسابور وَرَدَّ إليه أمواله.

ويروى أن بديع الزمان الهمذاني ناظر أبا بكر الخوارزمي، وهو في عزّ جاهه ومكانته، واستطاع أن يغلبه ويزعزع مكانته، مما أدى إلى انكسار الخوارزمي، ولم يتحمل هذه الصدمة؛ فتوفي بعد مدة يسيرة، وذلك سنة ٣٨٣هـ/ ٩٩٣م[١].

وللخوارزمي ديوان شعر، وديوان رسائل، قال عنه ابن خلكان[٢]: «أحد الشعراء المجيدين الكبار والمشاهير، كان إماماً في اللغة والأنساب، وكان مشاراً إليه في عصره».

ويورد الثعالبي[٣] لأبي بكر الخوارزمي «كلمات تجري مجرى الأمثال» أخرجها من رسائله، منها قوله:

---

(١) للاطلاع على المزيد من المعلومات حول ترجمته وأخباره، راجع:
- الثعالبي: **يتمة الدهر**، ٤/ ١٩٤ ـ ٢٤١.
- ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، ٤/ ٤٠٠ ـ ٤٠٣ (الترجمة رقم ٦٦٤).
- الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ٣/ ١٩١.
- ابن العماد: **شذرات الذهب**، ٣/ ١٠٥.
- بروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، ٢/ ١١٠.

(٢) ابن خلكان: م.س، ٤/ ٤٠١.

(٣) الثعالبي: م.س، ٤/ ١٩٤ ـ ١٩٥.

ـ الشكر على قدر الإحسان، والسِّلع بأزاء الأثمان.

ـ النفس مائلة إلى أشكالها، والطير واقعة على أمثالها.

ـ الاعتذار في غير موضعه ذنب.

ـ الدواء لغير حاجة إليه داء، كما أنه عند الحاجة إليه شفاء.

ـ البخل بالعلم على غير أهله قضاء لحقه، ومعرفة بفضله.

ـ الغضب يُنسي الحرمات، ويدفن الحسنات، ويخلق للبريء جنايات.

ـ لا خير في حبّ لا تحمل أقذاؤه، ولا يُشرب على الكدر ماؤه.

ومن شعره في النسيب والغزل[١]:

(من البحر الوافر)

وشمس ما بَدَت إلا أرتنا ... تزيد على السنين ضيا وحسنا

بأن الشمسَ مطلعها فضولُ ... كما رقّت على العِتق الشمولُ

وأبو بكر الخوارزمي كما يراه الثعالبي[٢]، هو من غرر فضلاء خوارزم، باقعة الدهر، وبحر الأدب، وعلم النثر والنظم، وعالم الفضل والظرف، كان يجمع بين الفصاحة العجيبة والبلاغة المفيدة، ويحاضر بأخبار العرب وأيامها ودواوينها، ويدرس كتب اللغة والنحو والشعر، ويتكلم بكل نادرة، ويأتي بكل فقرة ودرة، ويبلغ في محاسن الأدب كل مبلغ، ويغلب على كل محسنٍ بحسن مشاهدته، وملاحة عبارته، ونعمة نعمته، وبراعة جِدّه، وحلاوة هزله، وديوان رسائله مُخلد سائر، وكذلك ديوان شعره.

(٢) **إبراهيم بن هلال الصابي**[٣]: أبو إسحاق، الحرّاني، أَوْحد الدنيا

---

(١) الثعالبي: يتيمة الدهر، ٤/ ٢٠٩.

(٢) الثعالبي: م.ن، ٤/ ١٩٤.

(٣) راجع ترجمته وأخباره في:

ـ الثعالبي: م.س، ٢/ ٢٤٢. =

في إنشاء الرسائل، والاشتمال على جهات الفضائل. ولد الصابي سنة ٣١٣هـ/ ٩٢٥م، وتوفي سنة ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م أي أنه عاش حوالي سبعين سنة، علماً أن الثعالبي يقول إنه قارب التسعين(١).

خدم أبو إسحاق الصابي الخلفاء، والأمراء من بني بويه، والوزراء، وتقلد أعمالاً جليلة، ومدحه الشعراء. عرض عليه عز الدولة بختيار بن معز الدولة الوزارة إن أسلم؛ فامتنع. وكان حسن العشرة للمسلمين، عفيفاً في مذهبه. وكان ينوب أولاً عن الوزير أبي محمد المهلبي في ديوان الإنشاء، وأمور الوزارة.

ولمّا ورد عضد الدولة إلى بغداد، سنة سبع وستين وثلاثمائة نقم عليه بسبب بعض كتاباته عن الخليفة وعن عز الدولة بختيار؛ فحبسه؛ فتوسط له بعض رجال الدولة، فقال عضد الدولة: قد سوغته نفسه، فإن عمل كتاباً في مآثرنا وتاريخنا أطلقته، فشرع في محبسه في تأليف كتاب «التاجي»(٢) في أخبار دولة بن بويه. وقيل: إن بعض أصدقائه دخل عليه الحبس، وهو في تبييض وتسويد في هذا الكتاب، فسأله عمّا يعمله، فقال: أباطيل أنمقها، وأكاذيب ألفقها، فأخبر الرجل عضد الدولة بذلك؛ فأمر أن يلقى تحت أرجل الفيلة، ثم جاء من يشفع له، فوضع في السجن بضع سنين، إلى أن أُطلِق سراحه في أيام صمصام الدولة ابن عضد الدولة.

وكان بين الصابي والصاحب بن عباد مراسلات وصداقات، وكذلك

= ـ ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ٢/ ٢٠.
ـ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ١/ ٥٢.
ـ بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ٢/ ١١٩.
ـ مبارك زكي: النثر الفني في القرن الرابع، ٢/ ٣٥٣.

(١) الثعالبي: م.س، ٢/ ٢٤٢.
(٢) التاجي: نسبة إلى تاج الملة، من ألقاب عضد الدولة.

بينه وبين الشريف الرضي، محمد بن الحسين الموسوي، مع اختلاف الملل وتباين النحل، وإنَّما كان يجمعهم سلك الأدب.

وكان الوزير المهلبي لا يرى إلاَّ به الدنيا، ويحن إلى براعته ويصطنعه لنفسه، ويستدعيه في أوقات أنسه[١]، وكان الصاحب بن عباد يعتبره أحد أربعةٍ هم كتاب الدنيا وبلغاء العصر[٢].

ويذكره الثعالبي في «يتيمة الدهر»[٣]؛ فيقول: «أوحد العراق في البلاغة، ومن به تثنى الخناصر في الكتابة، وتتفق الشهادات له ببلوغ الغاية، من البراعة والصناعة،... تقلد الأعمال الجلائل، مع ديوان الرسائل، وحلب الدهر أشطره، وذاق حلوه ومره، ولابس خيره ومارس شره، ورئِس ورأس، وخُدِم وخَدَم، ومدحه شعراء العراق في جملة الرؤساء، وسار ذكره في الآفاق. ورسائل الصابي مشهورة تشهد له بعلو مكانته في البلاغة والترسل، كما أن شعره يشهد له بقدرته على النظم وبراعته في اقتناص المعاني والتنوع في الفنون.

قال شعراً في الغزل، وفي وصف الخمرة، وفي وصف الورود وغيرها، وفي الفخر والمديح والرثاء والهجاء، والتهاني والتهادي، (الإخوانيات) والعتاب والشكوى، والحكمة والشيب، وهذا يعني أن أبا إسحاق تطرق إلى جميع فنون الشعر، وأبدع فيها؛ فكان من كبار الشعراء كما كان من كبار المترسلين أيضاً.

ونختم حديثنا عن الصابي بمختارات من قصيدة الشريف الرضي التي

(١) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ٢/ ٢٩.
(٢) ياقوت الحموي: م.ن، ٢/ ٥١.
(٣) الثعالبي: يتيمة الدهر، ٢/ ٢٤٢.

رثى فيها الصابي صديقه. وهي من أجمل المراثي في التراث العربي ومطلعها:

(من البحر الوافر)

أعلمتَ من حَملوا على الأعواد أرأيت كيف خبا ضياءُ النادي

(٣) بديع الزمان الهمذاني[١]:

أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد الهمذاني. ولد سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م، في همذان، وأخذ النحو فيها عن أبي الحسين أحمد بن فارس. وفي سنة ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م، قدم إلى جرجان، ثُمَّ انتقل منها سنة ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م، إلى نيسابور، ولقي بها أبا بكر الخوارزمي وهو في ذروة شهرته؛ فناظره في موضوعات أدبية مختلفة، واستطاع بديع الزمان أن يجذب إليه أنظار الحاضرين بسرعة بديهته، وتغلب على الخوارزمي؛ فذاع صيته في الأقطار الإسلامية، وصار يتنقل فيها، إلى أن استقر في هراة، فحسنت حاله، وأقبلت عليه الدنيا، خاصّة بعد أن صاهر أحد علمائها الأعلام، ولكن المنية فاجأته وهو في ريعان شبابه، في سن الأربعين، وذلك سنة ٣٩٨هـ/ ١٠٠٧م.

وقيل: إنه دفن قبل وفاته؛ فقد أصابته سكتة، فظنه أهله ميتاً[٢].

والهمذاني مبتكر فن المقامات في الأدب العربي، وإن قيل إنه عارض بمقاماته ابن دريد[٣]؛ وعلى منوال الهمذاني نسج الحريري مقاماته، واحتذى

---

(١) راجع ترجمته وأخباره في:
- الثعالبي: **يتيمة الدهر**، ٤/ ٢٥٦ ـ ٣٠١.
- ياقوت الحموي: **معجم الأدباء**، ٢/ ١٦١ ـ ٢٠٢.
- آدم متز: **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**، ١/ ٤٥٤.
- بروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، ٢/ ١١٢.
- مبارك زكي: **النثر الفني في القرن الرابع**، ٢/ ٣٩٥ ـ ٤٢٥.

(٢) ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، ١/ ١٢٧ (الترجمة رقم ٥٢).

(٣) مبارك زكي: م.س، ١/ ٢٤٣.

حذوه، واقتفى أثره، واعترف في خطبته بفضله، وأنه الذي أرشده إلى سلوك ذلك المنهج[1].

ذكره الثعالبي في «يتيمة الدهر»[2]، فقال:

وهو أحمد بن الحسين، بديع الزمان، ومعجزة همذان، وفرد الدهر، وغُرة العصر، ومن لم يلق نظيره في ذكاء القريحة وسرعة الخاطر، وشرف الطبع وصفاء الذهن، وقوة النفس، ومن لم يدرك قرينه في ظرف النثر ومُلحه، وغُرر النظم ونكته. ولم يُرَ ولم يُرْو أن أحداً بلغ مبلغه من لب الأدب وسِره، وجاء بمثل إعجازه وسحره، فإنه كان صاحب عجائب، وبدائع وغرائب... وكان مع هذا كله مقبول الصورة، خفيف الروح، حسن العشرة، ناصع الظرف، عظيم الخُلق، شريف النفس، كريم العهد، خالص الود، حلو الصداقة، مُرّ العداوة.

ثُمَّ يقول: حين بلغ أشده، وأربى على أربعين سنة، ناداه الله فلباه، وفارق دنياه، في سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة؛ فقامت عليه نوادب الأدب، وبكاه الأفاضل مع الفضائل، ورثاه الأكارم مع المكارم، على أنه ما مات من لم يمت ذكره، ولقد خلد من بقي على الأيام نظمه ونثره».

وبعد أن يورد الثعالبي مختارات من نثره انتقاها من رسائله، يعود ليذكر بعض أقواله الحِكَميّة التي سارت مسير الأمثال، وتناقلتها الأجيال. من ذلك قوله:

- المرء لا يعرف ببُرده، كالسيف لا يعرف بغمده.
- جُرْحُ الجَور، بعيد الغَوْر.
- الحذق لا يزيد الرزق.

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ١/ ١٢٧.

(٢) الثعالبي: يتيمة الدهر، ٤/ ٢٥٦ ـ ٢٥٨.

(٤) أبو حيان التوحيدي

علي بن محمد بن العباس، اختلف المؤرخون في أصله بين أنه شيرازي أو نيسابوري أو واسطي، ومهما يكن من خلاف فلا شك في أنه فارسي الأصل.

ومن المرجح أنه ولد في بغداد سنة ٣١٢هـ/ ٩٢٤، وبها نشأ. تلقى أبو حيان علومه ومعارفه على شيوخ بغداد، ثم البصرة، وأخذ عن كثير من العلماء العلوم والفنون والآداب والفلسفة والمنطق والطبيعيات والإلهيات والتصوف، وعلم الكلام على مذهب المعتزلة، والنحو واللغة وسائر معارف عصره.

وكان أبو حيان، فيما نقل ياقوت[١]، متقناً في جميع العلوم، من النحو، واللغة، والشعر، والأدب، والفقه، والكلام، وكان صوفي السمت والهيئة، وكان يتألّه (أي يتنسّك) والنَّاس على ثقة من دينه، وكان جاحظياً يسلك في تصانيفه مسلك الجاحظ، ويشتهي أن ينتظم في سلكه؛ فهو شيخ الصوفية، وفيلسوف الأدباء، وأديب الفلاسفة، ومحقق المتكلمين، ومتكلم المحققين، وإمام البلغاء... فرد الدنيا الذي لا نظير له، ذكاءً وفطنة، وفصاحة ومكنة، كثير التحصيل للعلوم في كل فن.

وقد كان تفوقه في العلوم، وتبحره في المعارف، وانتهاجه منهج الجاحظ، وذهابه مذهبه في مزج العلوم بالآداب، وعرضها في الأساليب البليغة، وتقريبها من الأذهان، في أعلى طبقات البيان، كان ذلك سبباً في تقربه من الأمراء والوزراء، ومن في طبقتهم من الكتاب والرؤساء، ومن أجل هذا دعاه أبو الفضل بن العميد إلى الري وصحبه زماناً.

ولم يكن أبو حيان ذا حظ من هناءة العيش وهدوء البال، بل كان على

(١) ياقوت الحموي: **معجم الأدباء**، ص٢/ ١٦١.

كثرة ما صحب من ذوي السلطان وأصحاب النفوذ في الدولة، يائساً، فقيراً، رقيق الحال، مشرد الفكر، قلقاً، لا يكاد يستقر في مكان إلاَّ ويزعجه أمر، فيضطر إلى ارتياد سواه.

وكان يعلن الشكوى من زمانه، ويبكي في تصانيفه على حرمانه. صحب التوحيدي الوزيرين أبا الفضل بن العميد والصاحب بن عباد زمناً، فلم ينل عندهما ما تمناه؛ فخرج غاضباً، متتبعاً عوراتهما، وقد أنشأ فيهما كتاباً[(١)]، كان سبباً في نفور النَّاس عنه، حتى قال ياقوت: «ولم أر أحداً من العلم ذكره في كتاب، ولا دمجة في ضمن الخطاب، وهذا من العجب العجاب».

أمَّا أسلوبه ومنهجه في الكتابة؛ فهو جاحظي الأسلوب، له طبع دافق، وفكر سابق، وعقل فياض بالحكمة. كان يمزج الأدب بالحكمة، والتصوف بالفلسفة، ويولد من بين هذا المزيج مذهباً خاصاً به لم يسبق إليه.

ويظهر أن التوحيدي ضاق ذرعاً بما أصابه من مشكلات في حياته؛ فرأى أن مجتمعه لا يستحق ما كتبه من مؤلفات؛ فأحرق ما كان لديه من مصنفات، ولعل ما وصلنا من هذه المصنفات هو ما كان قد خرج منه قبل حرقها، منها: كتاب الأمتاع والمؤانسة، كتاب البصائر والذخائر، كتاب المقابسات، كتاب تقريظ الجاحظ، كتاب مثالب الوزيرين، كتاب الإشارات الالهية، رسالة في الصداقة الصديق. وغيرها من المؤلفات.

توفي التوحيدي على أرجح الأقوال سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م[(٢)] ومن

---

(١) هو كتاب مثالب الوزيرين.

(٢) للاطلاع على مزيد من المعلومات حول ترجمته وأخباره، راجع:

- ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، ٥/ ١١٢.
- ياقوت الحموي: **معجم الأدباء**، ١٥/ ٥ ـ ٥٢.
- مبارك زكي: **النثر الفني في القرن الرابع**، ٢/ ١٥١.
- التوحيدي، أبو حيان: **المقابسات** (المقدمة من إعداد حسن السندوبي). الطبعة الأولى ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٩م. المكتبة التجارية الكبرى بمصر.

خلال اطلاعنا على مؤلفاته نلاحظ أنه كان عالماً بدقائق الأسلوب الرائع، حيث تطغى الصناعة والزخرف دون تكلف.

«ولم يُكتب في النثر العربي بعد أبي حيان ما هو أبسط وأقوى وأشد تعبيراً عن مزاج صاحبه مما كتب أبو حيان»[(١)].

(٥) أبو الفضل بن العميد[(٢)]

هو أبو الفضل محمد بن العميد، أبي عبد الله الحسين بن محمد الكاتب، المعروف بابن العميد، والعميد لقب والده، لقبوه بذلك على عادة أهل خراسان في إجرائه مجرى التعظيم، وكان فيه فضل وأدب، وله تَرسل.

أمَّا ولده الفضل، فإنه كان وزير ركن الدولة أبي علي، الحسن بن بويه، والد عضد الدولة، وذلك سنة ٣٢٨هـ/٩٣٩م، «وكان ابن العميد، باتفاق من ترجموا له، أكتبَ أهل عصره، وأحفظهم للغة والغريب، وأكثرهم توسعاً في النحو والعروض، واهتداء إلى الاشتقاق، والاستعارات، وأعرفهم بشعراء الجاهلية والإسلام، وأدراهم بتأويل القرآن وحفظ مشكله ومتشابهه، وأبصرهم باختلاف فقهاء الأمصار، وأنفذهم سهماً في الهندسة والمنطق وعلم النفس والإلهيات»[(٣)].

أمَّا الأدب والترسل فلم يقاربه فيه أحد في زمانه، وكان يسمى الجاحظ

(١) متز آدم: **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**، ١/ ٤٦٥.

(٢) راجع ترجمته وأخباره في:
- الثعالبي: **يتيمة الدهر**، ٣/ ١٥٨ ـ ١٨٥.
- ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، ٥/ ١٠٣.
- ياقوت الحموي: **معجم الأدباء**، ١٤/ ٢٧١ ـ ٢٨٢.
- ابن مسكويه: **تجارب الأمم**، ٢/ ٢٧١ ـ ٢٨٢.
- ابن العماد: **شذرات الذهب**، ٣/ ٣١.

(٣) مبارك زكي: **النثر الفني في القرن الرابع**، ٢/ ٢٣٥.

الثاني. وكان الثعالبي يقول[1]: «بُدِئت الكتابة بعبد الحميد، وختمت بابن العميد»[2].

وكان من بعض أتباعه إسماعيل بن عباد، ولأجل صحبته قيل له: الصاحب؛ وكان الصاحب ابن عباد قد سافر إلى بغداد، فلما رجع إليه قال له: كيف وجدتها؟ فقال: بغداد في البلاد، كالأستاذ في العباد، وكان يقال له: «الأستاذ»، وكان سائساً مدبراً للملك، قائماً بحقوقه.

قصد ابنَ العميد جماعةٌ من مشاهير الشعراء من جميع أنحاء البلاد، ومدحوه بأحسن المدائح، منهم أبو الطيب المتنبي، ورد عليه وهو بأُرَّجان، ومدحه بقصائد منها قوله:

مَن مُبْلِغ الأعراب أنّي بعدها ... وسمعت بطليموس دارس كتبه

ولقيت كل الفاضلين كأنما ... شاهدت رسطاليس والإسكندرا

متملّكاً متبدّياً متحضّراً ... ردّ الإله نفوسهم والأعصُرا

وللصاحب بن عباد فيه مدائح كثيرة، ويقول الثعالبي في «يتيمة الدهر»[3] ما نصه:

«هو أبو الفضل، محمد بن الحسين، عين المشرق، ولسان الجبل، وعماد ملك آل بويه، وصدر وزرائهم، وأوحد العصر في الكتابة، وجميع أدوات الرياسة، وآلات الوزارة، والضارب بالآداب بالسهام الفائزة، والآخذ من العلوم بالأطراف القوية، يدعى الجاحظ الأخير، والأستاذ، والرئيس،

(1) الثعالبي: **يتيمة الدهر**، ٣/١٥٨.

(2) عبد الحميد: الكاتب المشهور، من كتّاب العصر الأموي، يُضرب به المثل في البلاغة والترسّل اختصّ بمروان ابن محمد آخر الخلفاء الأمويين، توفي سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م. (٦٢٥).

(3) الثعالبي: م.س، ٣/١٥٨.

يضرب به المثل في البلاغة، وينتهى إليه في الإشارة بالفصاحة والبراعة، مع حسن الترسل، وجزالة الألفاظ وسلاستها، إلى براعة المعاني ونفاستها».

عاش ابن العميد نيّفاً وستين سنة، وتوفي بهمذان سنة ٣٦٠هـ/ ٩٧٠م.

(٦) الصاحب بن عباد[١]

كافي الكفاة، أبو القاسم، إسماعيل بن عباد، بن العباس، الصاحب، الطالقاني.

ولد الصاحب بن عباد في إصطخر، وقيل: في الطالقان، وهي مدينة على مقربة من أصفهان، سنة ٣٢٤هـ/ ٩٣٦م، وكان أبوه كاتب ركن الدولة وعضد الدولة ابنَي بويه، كما كان يشتغل بالأدب ويؤلف التآليف.

درس الصاحب على أبيه بالري، كما درس بالري أيضاً على أبي الحسين أحمد ابن فارس، وأكمل دراسته بعد ذلك ببغداد؛ فلمّا عاد إلى وطنه بدأ حياته العملية في ديوان الوزير أبي الفضل بن العميد، ولمّا ولي مؤيد الدولة البويهي بعد أبيه على الري وأصبهان سنة ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م، جعل إسماعيل وزيره، ولقبه بالصاحب، وكافي الكفاة. وقيل: لقب بالصاحب لأنه كان يصحب أبا الفضل بن العميد، فقيل له: صاحب ابن العميد، ثم أطلق عليه هذا اللقب لمّا تولى الوزارة، وبقي علماً عليه[٢].

واستطاع الصاحب، الذي فتح للبويهيين خمسين حصناً، أن يحتفظ

---

(١) راجع ترجمته وأخباره في:
- ياقوت الحموي: **معجم الأدباء**، ٦/ ١٦٨.
- ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، ١/ ٢٢٨.
- الثعالبي: **يتيمة الدهر**، ٣/ ١٩٢.
- مبارك، زكي: **النثر الفني في القرن الرابع**، ٢/ ٢٩٦.
- بروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، ٢/ ٢٦٨.

(٢) ابن خلكان: م.ن، ١/ ٢٢٩.

بمقامه ومكانته عندهم، حتى بعد وفاة مؤيد الدولة سنة ٣٧٣هـ/ ٩٨٣م، واستيلاء أخيه فخر الدولة على الحكم، بعد أن كان فخر الدولة قد هرب خوفاً من مؤيد الدولة، إلى بني سامان، فدعاه الصاحب إلى الري، وأيده على الإمارة، وبقي وزيراً له.

وكانت مدة وزارة الصاحب ثماني عشرة سنة، استطاع فيها أن يشجع العلم والأدب، فكان كثير البِرّ والصنائع للأدباء والعلماء، ومنهم أستاذه أحمد بن فارس، وأبو الفرج الأصبهاني، صاحب كتاب الأغاني، وبديع الزمان الهمذاني، وغيرهم من أدباء ذلك العصر والمصر، كما كان هو أيضاً كاتباً وشاعراً.

صنف ابن عبّاد العديد من الكتب منها كتاب «المحيط»، وهو معجم عربي في سبع مجلدات، رتبه على حروف المعجم، وكتاب «الكافي» في الرسائل، وكتاب «الأعياد وفضائل النيروز»، وكتاب «الإمامة» يذكر فيه فضائل الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ويثبت إمامة من تقدمه، وكتاب «الوزراء»، وكتاب «الكشف عن مساوئ شعر المتنبي»، وكتاب «أسماء الله تعالى وصفاته» وله رسائل بديعة ونَظْمٌ جيد[١]. ونختم حديثنا عن الصاحب بن عباد بما قاله الثعالبي عنه[٢]:

«هو صدر المشرق، وتاريخ المجد، وغرة الزمان، وينبوع العدل والإحسان، من لا حرج في مدحه بكل ما يمدح به مخلوق، ولولاه ما قامت للفضل في دهرنا سوق، وكانت أيامه للعلوية والعلماء، والأدباء والشعراء، وحضرته محط رحالهم، وموسم فضلائهم، ومترع آمالهم، وأمواله مصروفة إليهم، وصنائعه مقصورة عليهم... بلغ من البلاغة ما يُعَد في السحر،

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ١/ ٢٠٣.
(٢) الثعالبي: يتيمة الدهر، ٣/ ١٩٢ ـ ١٩٣.

ويكاد يدخل في حد الإعجاز، صار مجلسه مجمعاً لصوْب العقول، وذَوْب العلوم، ودرر القرائح...» توفي الصاحب بن عباد بالري، سنة ٢٨٥هـ/ ٩٩٥م.

(٧) الأمير أبو الفضل الميكالي[١]

عبيد الله بن أحمد، من آل ميكال، الذين جمعوا أول المجد وآخره، وقديم الفضل وحديثه، وتليد الأدب وطريفه، قوم مدحهم البحتري، وخدمهم ابن دريد، وألف لهم كتاب «الجمهرة»، وسير فيهم «المقصورة»، وانخرط في سلكهم أبو بكر الخوارزمي، وبديع الزمان الهمذاني، وغيرهم من أعيان الفضل وأفراد الدهر من العلماء والكتّاب والشعراء.

وأشهر أعلام هذه الأسرة العريقة الأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي، المتوفى سنة ٤٣٦هـ/ ١٠٤٥م، من الكتاب الشعراء، أورد له الثعالبي في «يتيمة الدهر» محاسن من نظمه ونثره، وهو يلتزم السجع والازدواج في رشاقة وعذوبة.

وفيه يقول الثعالبي[٢]: «ومن أراد أن يسمع سر النظم، وسحر النثر، ورقية الدهر، ويرى صوب العقل، وذوب الظرف، ونتيجة الفضل، فليستنشد ما أسفر عنه طبع مجده، وأثمره عالي فكره، من مُلحٍ تمتزج بأجزاء النفوس لنفاستها، وتتشرَّبُ القلوب لسلاستها...»

---

(١) راجع ترجمته وأخباره في:
- الثعالبي: **يتيمة الدهر**، ٤/ ٣٥٤.
- الكتبي: **فوات الوفيات**، ٢/ ٢٥.
- الحصري: **زهر الأدب**، ٤/ ٩٣.
- مبارك زكي: **النثر الفني في القرن الرابع**، ٢/ ٣٨٨.
- الزركلي: **الأعلام**، ٤/ ١٩١١.

(٢) الثعالبي: **فقه اللغة**، المقدمة.

وأظهر الفنون التي كان يجيدها الميكالي هو فن الرسائل الإخوانية (الإخوانيات)، ورسائله إلى أصدقائه مشربة بأنفاس الحنين، حتى لتحسبها رسائل عاشق لا رسائل صديق[١]، مثال ذلك قوله من رسالة: «أيام ظلّ العيش رطب، وكنف الهوى رحب، وشُرْب الصبا عذب، وما لشرق الأنس غرب»[٢]، وله من رسالة أخرى: «أنا في مقاساة حرّ الشوق إليك، كما اعتاد محموماً بخيبر صالب، وفي تذكر الاجتماع معك، كما اهتز من صرف المدامة شارب، وفي تكلف الصبر عنك، كطالب جدوى خُلّة لا تواصل، وفي القلق لفراقك، كطائر جو أعلقته الحبائل.

وله أيضاً: «كتبت هذه الأحرف وأنا أودّ أن مدادها سواد طَرْفي، وبياضها جلدة بين عيني وأنفي، وحاملها دون سائر النَّاس كفي».

كذلك يورد له الثعالبي فصولاً من باب الشكر والثناء، ومن باب العتاب والذمّ وشكوى الحال، ومن باب التهاني، والعيادة، والتعازي، ونُبذ من شعره في الغزل، وفي الأوصاف والتشبيهات، ومن شعره في الإخوان، وفي المداعبات، والمراثي، وفي التوجع وشكوى الدهر، وفي الحكمة والأمثال والزهد.

* * *

إن الكتابة الفنية قد ازدهرت في هذا العصر ازدهاراً لم تعرفه في أي عصر سابق، إذ كان كل حاكم في إمارة من إمارات المشرق يختار في حاشيته جماعة من الأدباء الممتازين، لينافس بهم حكام الإمارات والدول الأخرى، وبذلك ظهرت في كل عاصمة من عواصم هذه الإمارات والدول حركة أدبيّة

(١) مبارك، زكي: النثر الفني في القرن الرابع، ٢/٣٨٨.

(٢) الثعالبي: يتيمة الدهر، ٤/٣٥٩، وما بعدها.

رائجة، وساعد في ذلك أن هؤلاء الحكام، استوزروا كبار الأدباء في بلاهم، ومن ثم أصبحنا نسمع في كل إمارة باسم أديب، بل باسم أدباء، يتولون شؤونها ويشرفون على مرافقها؛ فعند السامانيين نجد العميد وابن العميد، ونجد أيضاً أسرة بني ميكال النيسابورية، وقد ولي كثير منها دواوين السامانيين. وعند البويهيين نجد ابن العميد أيضاً كما نجد الصاحب بن عباد، وهما أشهر كتّاب العصر.

وكما اهتمّ كل أمير بوزرائه وكتّابه، اهتم الوزراء والكتّاب أنفسهم بثقافتهم وكتابتهم، وأدخلوا عليها كل ما يمكن من ضروب التصنيع والزخرف، والبلاغة.

ومهما يكن من أمر؛ فإن دول المشرق الإسلاميّ هيأت لنهضة أدبية واسعة؛ فبرز أدباء كبار، طبّقت شهرتهم الآفاق، وأخذوا يتنقلون من بلاط إلى بلاط، يرفعون كتبهم ومؤلفاتهم إلى الملوك والأمراء، الذين كانوا يكرمونهم ويكرمون كل من يفد إليهم من العلماء والأدباء والشعراء، حتى أصبحت البلاطات في بلاد المشرق تعج بهؤلاء، وتعقد مجالس العلم فيها على الدوام؛ فاشتهرت البلاد بشهرة علمائها وأدبائها وشعرائها، إضافة إلى شهرة ملوكها وأمرائها وحكامها.

يتفق الباحثون على أنّ اللغة هي وعاء الفكر، وأنّ الأدب هو التعبير عن الذات البشرية. لذا كان لا بدّ من دراسة اللغة وتطوّرها في بلاد المشرق الإسلامي، خلال القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد.

ويلاحظ الباحث أن المدارس النحوية المعروفة لم تلق اهتماماً في بلاد المشرق، حيث بقي نشاطها في البصرة والكوفة وبغداد، لكن علم المعاجم وتأليفها لقي مكانةً عند علماء المشرق، حيث تبيّن أن معظم مؤلفي هذه المعاجم هم من بلاد المشرق، كالجوهري والهروي والزمخشري وابن فارس وابن جني وغيرهم.

كما اشتهر علم البلاغة في بلاد المشرق، وكثر العلماء الذين ألفوا كتباً عديدة في هذا العلم، منهم الخطّابي، وأبو هلال العسكري، والباقلّاني، وهؤلاء العلماء كانوا وما يزالون روّاداً في علوم البلاغة، ومازالت مصنفاتهم مصادر أساسية يعتمد عليها الباحثون حتى عصرنا الحاضر.

أمّا أسواق الأدب فقد كانت رائجة في بلاد المشرق، خاصة وأن الحكام والأمراء رعوا الأدباء وشجعوهم على الكتابة والتأليف، وأغدقوا عليهم الأعطيات، وأدخلوهم مجالسهم، وسمعوا منهم.

ويكفي أن أذكر من كبار كتاب القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، في بلاد المشرق: الجرجاني، والخوارزمي، والصابي، وابن العميد، وبديع الزمان الهمذاني صاحب المقامات، وأبا حيان التوحيدي.

لقد تنوّعت الفنون النثرية عند هؤلاء الأدباء بشكل واضح، وكان من أبرزها فنّ الرسائل بقسميه: الرسائل الديوانية والرسائل الإخوانية؛ ثم فنّ المقامات.

وتميّزت هذه الفنون النثرية بمجموعة خصائص كان من أهمها غلبة الشكل على المضمون، أي غلبة فنّية التراكيب والصور على الأفكار والمعاني؛ كذلك بروز الأدب المكشوف، ذي العبارات الصريحة، والتي تميل إلى الإباحية والمجون؛ وهذا دليل على جنوح المجتمع نحو الفساد الأخلاقي والانحلال الاجتماعي.

أما فن المقامات، الذي ظهر بوضوح على يد بديع الزمان الهمذاني، فإنه يعبّر عن تفشّي ظاهر الكدية (الشحادة) في بعض مجتمعات المشرق الإسلامي خلال هذا القرن.

إنّ الأدب صورة صادقة عن المجتمع وعن حياة الأفراد والجماعات؛ ولعل أدب هذا العصر خير دليل على ذلك.

* * *

الفصل الخامس

الشعر في بلاد المشرق الإسلامي

أولاً: تطوّر الحركة الشعرية في المشرق الإسلاميّ

حدث في الشعر ما حدث في النثر من تطوّر من حيث اللغة والأسلوب والمعاني، التي تبوأت المقام الأول، وكان الشعراء يتلمسون العبارات ذات المعاني الرائعة، ويُضمنون الأبيات لطائف التشبيهات والتصورات، بحيث أصبح الشعراء في بلاد المشرق خاصّة، وفي البلاد الإسلاميّة عامّة، يرون الأشياء بعيونهم لا بعيون المتقدمين منهم، فابتعدوا عن التقليد الأعمى للأساليب والصور والأخيلة القديمة، وذلك انطلاقاً من ثقافتهم الشموليّة التي عاشوها في أحضان حضارة جمعت شعوباً وأعراقاً شتى، وتأثرت بالبيئة الجديدة. وأصبحنا نجد الشعراء يجرون وراء ما هو غير مألوف من المعاني الجديدة المبتكرة طوال القرن الرابع للهجرة.

وأول ما يلاحظ أن الشعر لم يكن له بد أن يقوم مقام الفن التصويري؛ فالكثير مما يعبر عنه الشعراء ما هو إلاّ تصوير ورسم لما تجيش به نفوسهم. وقد ازداد وجود هذا الشعر التصويري عندما تسلم زمام الأدب عموماً والشعر خصوصاً شعراء من بلاد المشرق، توسعت آفاقهم وكثرت مواضيعهم، وتغيرت حياتهم عما كانت عليه أيام كان الشعراء يقفون على الأطلال، ويذكرون الحبيبة، ويصفون ما تقع عليه أعينهم من طبيعة جامدة وصحراء قاحلة. لقد أصبح الشعراء يتمتعون بجمال الطبيعة، فيصفون الجنان

والأشجار، ويشربون بين الورد والنرجس والجلنار والأقحوان وتغريد الطيور؛ ولا شك أن العديد من شعراء المشرق تأثروا بالشاعر أبي بكر الصنوبري[١] (ت ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م) شاعر الرياض والأزهار والأطيار، الذي عاش في حلب، وكان أول شاعر للطبيعة الحية في الأدب العربي. ويذكر الثعالبي أن الوزير المهلبي كان كثير الإنشاد لشعر الصنوبري، ينسج على منواله؛ وكذلك تأثر الوزير الصاحب بن عباد بالصنوبري عندما وصف الثلج قائلاً:

(من البحر الكامل)

هات المدامة يا غلام معجلاً — فالنفس في قيد الهوى مأسوره

أو ما ترى كانون ينشر ورده — وكأنما الدنيا به كافوره

وقد لاحظ أبو بكر الخوارزمي أن هذه الأبيات وأمثالها من الثلجيات عيال على قول الصنوبري[٢].

وقد أغرت الحياة بمظاهرها المختلفة، وجوانبها الحضارية المتنوعة الشعراء، فأدخلوا في شعرهم مواضيع لم تكن معروفة سابقاً، فالشاعر أبو طالب المأموني[٣]، الذي فارق وطنه بغداد، وورد الري، وامتدح الصاحب بن عباد بقصائد فرائد، ملكه العُجب بها، وأبهره التعجب منها، وقد رآه الثعالبي في بخارى سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة ونقل أكثر شعره، واختار منه في الأوصاف والتشبيهات التي لم يسبق إلى أكثرها[٤]، من ذلك نظمه أشعاراً في المنارة، والكرسي، وطست الشمع، والنار، والحمام، والليف،

---

(١) الصنوبري، أبو بكر: من شعراء حلب المشهورين، عُرف بشاعر الروض، ولم يتكسّب بشعره. قيل: كان خازن مكتبة سيف الدولة الحمداني.

(٢) الثعالبي، يتيمة الدهر، ٣/ ٢٦٥.

(٣) الثعالبي: م.ن، ٤/ ١٦١.

(٤) الثعالبي: م. س، ٤/ ١٧٢.

والمنشفة، والزنبيل، والشرابية، وله شعر في الجليد، وفي كأس جُلاب، وفي المربيات، وفي اللوز الرطب واليابس، والزبيب، والعناب، والباقلاء، والبطيخ، والكمثرى، والرمّان، والخبز، والجبن والزيتون، والشواء، والسمك المشوي، الهريسة، البيض، اللوزينج، الخبيص، الفالوذج، أليست كل هذه المواضيع وما شاكلها أثراً من آثار حياة جديدة لم يعرفها الشاعر العربي سابقاً، وهي وليدة مجتمع جديد بكل مقوماته وعناصره وطبيعته ونتاجه؟

ومن المواضيع الجديدة التي لا يكاد يراها الباحث إلاَّ في شعر القرن الرابع للهجرة، موضوع الكِدية والمكدين الطوافين.

وقد دخل في الأدب على أيدي المكدين شعر حر ترنموا به، كما دخل الشعر العاطفي الغنائي المرح الذي لا تكلف فيه.

ويعتبر الأحنف العكبري، أبو الحسن عقيل بن محمد، شاعر المكدين الطّوافين، الذين يطوفون في البلاد، ويعيشون على ما يأخذون من العباد. يقول العكبري[1] واصفاً تنقله في البلاد:

(من البحر الهزج)

علـــى أنـــي بـــحـــمـــد الـــلـــه	فـــي بـــيـــتٍ مـــن الـــمـــجـــد
بـــإخـــوانـــي بـــنـــي ســـاســـا	ن، أهـــل الـــجـــد والـــحـــد[2]
لـــهـــم أرض خـــراســـان	فـــقـــاشـــان إلـــى الـــهـــنـــد
إلـــى الـــروم إلـــى الـــزنـــج	إلـــى الـــبـــلـــغـــار والـــســـنـــد
إذا مـــا أعـــوز الـــطـــرق	عـــلـــى الـــطـــراق والـــجـــنـــد
حـــذاراً مـــن أعـــاديـــهـــم	مـــن الأعـــراب والـــكُـــرد

(١) الثعالبي: **يتيمة الدهر**، ٣/ ١٢٢.

(٢) بنو ساسان: لقب عرف به المكدون (الشحاذون).

قطعنا ذلك النهج بلا سيف ولا غمد
ومن خاف أعاديه بنا في الرَّوْع يستعدي[1]

ومن أكبر الشعراء الشعبيين غير مدافع، ابن الحجاج[2] (ت ٣٩١هـ/ ١٠٠١م) كان في قصائده يستعمل عبارات المُكِدّين وأهل الشطارة[3]، وقد أتاح هو وأمثاله فرصة لظهور الفحش المستبشع في المدن الشرقية، فرفع هذا الفحش رأسه بعد أن كانت قد أخمدته الروح العربيّة، وأخرجته من الأدب العربي؛ وما أشبه برجلٍ كانت تقيده سلطة خارجية، فتحرر منها، وانطلق في السخف؛ وكان أساس مبالغته في ذلك، أنه أراد أن يتخذ من الإسراف في الفحش طريقاً لمعارضة الشعراء الآخرين، الذين كانوا يعالجون في شعرهم الموضوعات الحسنة[4]، وهو يقول[5]:

(من البحر الوافر)

وشعري سُخفة لا بد منها فقد طبنا وزال الاحتشامُ
وهل دارٌ تكون بلا كنيفٍ فيمكن عاقلاً فيها المقامُ؟

وكان ابن الحجاج لا يبني جل أقواله إلاَّ على سخف، ولم ير كاقتداره على ما يريده من المعاني، مع سلامة الألفاظ وعذوبتها، وكان لا يبالي

(١) يريد أن ذوي الثروة وأهل الفضل والمروءة، إذا وقع أحدهم في أيدي قطاع الطريق وأحب التخلص، قال: أنا مكدي.

(٢) ابن الحجّاج، الحسن بن أحمد: من شعراء القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، مدح الملوك والأمراء، والزراء والرؤساء. كان من شعراء الهزل والمجون. ديوان شعره كان منتشراً بين الناس، فكان شاعر العصر، ومن كتّاب العصر البويهي. (وفيات الأعيان لابن خلكان، ١/ ١٥٧، الثعالبي: **يتيمة الدهر**، ٣/ ٣١، والأعلام للزركلي، ٢/ ٢٣١).

(٣) الثعالبي: م.ن، ٣/ ٣١.

(٤) متز، آدم: **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**، ١/ ٤٩٩.

(٥) الثعالبي: م.س، ٣/ ٣٤.

بالوزن والقافية. وقد حوى ديوانه كثيراً من الكلمات غير المعروفة، أخذها من لغة العامّة ببغداد في القرن الرابع الهجري[1].

ويظهر أن ابن الحجاج لم يلحقه عند معاصريه ضرر أو أذى بسبب شعره الماجن، المبني على السخف والفحش؛ فقد كان الشريف الرضي، نقيب العلويين في بغداد، من المعجبين بابن الحجاج والمتعصبين له، وقد رثاه عندما توفي بقصيدة[2] مطلعها:

(من البحر المتقارب)

نعوه على ضَنٍّ قلبي به   فلله، ماذا نعى الناعيانِ

ويختمها بقوله:

لِيبكِ الزمانُ طويلاً عليك   فقد كنت خِفة روح الزمانِ

وكذلك اختار من شعره السليم أشياء كثيرة. يقول الثعالبي[3]: «وديوان شعره أسير في الآفاق من الأمثال. وقد كان ابن الحجاج يعيش في أكناف الملوك والوزراء والأمراء، عيشة راضية، ويستثمر نعمةً صافية ضافية»[4].

وهذا يعني أن الشعر في القرن الرابع للهجرة، لم يترك باباً من أبواب الحياة إلاّ وطرقه، جدها وهزلها، حيائها ومجونها، جمالها وبشاعتها، مآكلها ومشاربها؛ فهو صورة صادقة عن هذه الحياة، بل لعله أصدق صورة لهذا التنوع الاجتماعي الإنسانيِّ الحضاري، الذي لم تشهد مثله العصور الإسلاميّة وهي في أرقى مجدها وعزها، وحضارتها وثقافتها، وتنوع مشاربها

---

(١) متز، آدم: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ١/ ٥٠٠ ـ ٥٠١.
(٢) ديوان الشريف الرضي، تحقيق محمود حلاوي، ٢/ ٣٧٦.
(٣) الثعالبي: يتيمة الدهر، ٣/ ٣٢.
(٤) الثعالبي: م.ن، ٣/ ٣٢.

ونوازعها، حياة تضجّ وتعجّ بكل شيء مما يخطر على البال أو ما لا يخطر، مع وجود حرية فكرية دينية ثقافية اجتماعية لا يقيدها قيد، ولا يحول دونها حائل. وسنلقي الضوء لاحقاً على بعض شعراء بلاد المشرق الإسلاميّ متبعين منهجين:

الأول: شعراء الدول والمدن في المشرق الإسلاميّ.

والثاني: شعراء الوزراء والأمراء.

وسيكون مصدرنا الأساسي الذي سنعول عليه كتاب «يتيمة الدهر» للثعالبي، فهو أفضل مصدر وأشمل مرجع يرجع إليه في مثل هذه الدراسة.

* * *

ثانياً: شعراء الدول والمدن في المشرق الإسلاميّ

إن دراسة شعراء الدول والمدن في المشرق الإسلاميّ خلال القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد تقتضي منا الاستعانة بمصدر يعتبر أساسياً لإعداد هذه الدراسة، عنيت به كتاب «يتيمة الدهر للثعالبي»، فهو «أوفى المراجع الأدبية لمن يريد أن يدرس الشعر العربيّ في القرن الرابع، وصَدْرٍ من القرن الخامس الهجري»[1]، وكذلك لمن يريد أن يدرس الحركة الشعرية وأعلامها في هذه الفترة؛ فهذا الكتاب «يجمع بدائع أعيان الفضل، ونجوم الأرض من أهل العصر، ويشتمل من نَسج طباعهم، وسبك أفهامهم، وصَوغ أذهانهم، على الحلل الفاخرة الفائقة، والحلى الرائعة الشائقة، وتتضمن من طرفهم وملحهم لطائف أمتع من بواكير الرياحين والثمار...»[2].

والكتاب ينقسم إلى أربعة أقسام؛ وما يعنينا هما:

---

(١) الثعالبي: يتيمة الدهر، ١/١٠.

(٢) الثعالبي: م.ن، مقدمة المؤلف ١/١٩ ـ ٢٠.

القسم الثالث: في محاسن أشعار أهل الجبال وفارس وجرجان وطبرستان وأصفهان، من وزراء الدولة الديلمية، وكتّابها وقضاتها، وشعرائها وسائر فضلائها، وما ينضاف إليها من أخبارهم وغُرر ألفاظهم.

القسم الرابع: من محاسن أشعار أهل خراسان وما وراء النهر، من إنشاء الدولة السامانية والغزنية، والطارئين على الحضرة ببخارى من الآفاق، وما يستطرف من أخبارهم، وخاصة أهل نيسابور، والغرباء الطارئين عليها والمقيمين بها.

إذاً، فهذا الكتاب يشتمل على معظم ـ إن لم يكن كل ـ ما نريد من شعراء دول المشرق الإسلامي في القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد.

(١) من شعراء أصبهان ومحاسن شعرهم في الدولة البويهية

قال الثعالبي[١]: «لم تزل أصبهان مخصوصة من بين البلدان بإخراج فضلاء الأدباء، وفحولة الكتاب والشعراء. فلمّا أخرجت الصاحب أبا القاسم (بن عباد) وكثيراً من أصحابه وصنائعه، وصارت مركز عزه، ومجمع ندمائه، ومطرح زواره، استحقت أن تدعى مثابة الفضل، وموسم الأدب... فإذا قرأت ما ينطق به من ذكر شعرائها وغرر كلامهم.. حكمت لها بوفور الحظ من أعيان الفضل وأفراد الدهر».

(أ) عبدان الأصبهاني/ المعروف بالخوزي[٢]

هو على سياقة المولدين، وفي مقدمة العصريين، خفيف روح الشعر،

(١) الثعالبي: يتيمة الدهر، ٣/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠.

(٢) الثعالبي: م.ن، ٣/ ٣٠٠ ـ ٣٠٤؛ وورد ذكره عند سزكين: **تاريخ التراث العربي**، المجلد الثاني، الجزء الرابع، ص٢٦٢ (الطبعة السعودية)، وقال: كان معاصراً للثعالبي، وأصغر منه سناً.

ظريف الجملة والتفصيل، كثير الملح والظرف، يقول في الخضاب ما لم أسمع أحسن منه ولا أظرف، ولا أعذب منه ولا أخف:

(من البحر الخفيف)

في مشيبي شماتة لعداتي ... وهو ناعٍ منغصٌ لحياتي

ويعيب الخضاب قومٌ، وفيه ... لي أنسي إلى حضور وفاتي

وكان الشاعر خفيف الحال، متخفّف المعيشة، وهو القائل:

(من البحر الخفيف)

قلت للدهر من فضولي قولاً ... وحداني عليه طيب الأماني

أتراني بخلعةٍ أنا أحيا ... ذات يومٍ وفاخر الحملان؟

قال: هيهات أنت والنحس تر ... بان وقد كنتما رضيعي لِبانِ

لا تؤمل ركوب متنٍ سوى النعـ ... ـش، ولا خلعةً سوى الأكفان

(ب) أبو سعيد الرستمي[1]: محمد بن محمد بن الحسن بن علي ابن رستم:

من أبناء أصبهان، وأهل بيوتاتها، ومن يقول الشعر في الرتبة العليا، ومن شعراء العصر في الطبقة الكبرى، ومن نظر في شعره المستوفي أقسام الحسن والبراعة، والمستكمل فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة، أقبلت عليه الملح تتزاحم، والفقر تتراكم، والدرر تتناثر، والغرر تتكاثر:

---

(١) الثعالبي: يتيمة الدهر، ٣/ ٣٠٤ ـ ٣٢٥؛ ورد ذكره عند ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ٢/ ٣٢٦؛ وذكره سزكين: تاريخ التراث العربي، المجلد الثاني، الجزء الرابع، ص٢٦١ (الطبعة السعودية)، وقال عنه: شاعر نابه، من شعراء الصاحب بن عباد.

(من البحر الكامل)

كلم هي الأمثال بين الناس إلاَّ ... أنَّها أضحت بلا أمثال

وكان الصاحب بن عباد يقول مرة: هو أشعر أهل مصره، وتارة: هو أشعر أهل عصره، ويقدمه على أكثر ندمائه وصنائعه، وينظمه في عقد المختصين به. ومن محاسن شعره، ومن قصيدة له فريدة في مؤيد الدولة، بدأها بمطلع غزلي سار فيه على منوال الشعراء القدامى، ثُمَّ قال:

(من البحر الطويل)

أميرٌ كأن الغيث من نفحاته ... يصوب، ومن أخلاقه الروض زاهرُ

إذا ما علا صدر السرير جرى لنا ... به فلكٌ بالخير والشر دائرُ

يد لأمير المؤمنين طويلةٌ ... وناب إذا ما نابه الخَطْب كاشرُ

إلى أي أرضٍ أوجلُ العيش صادياً ... وبحرك مورودٌ وروضك ناضر؟

فأقسمت ما في الأرض غيرك ماجدٌ ... يُزار، ولا في الأرض غيري شاعرُ

بقيت مدى الدنيا وملكك راسخٌ ... وظلك ممدود، وبابك عامرُ

يرد سناك البدر والبدر زاهر ... ويقفو نداك البحر، والبحر زاخرُ

(ج) أبو محمد الخازن[1]: عبد الله بن أحمد

من حسنات أصبهان وأعيان أهلها في الفضل، ونجوم أرضها وأفرادها في الشعر، ومن خواص الصاحب بن عباد ومشاهير صنائعه، وذوي السابقة في مداخلته وخدمته. كان في اقتبال شبابه وريعان عمره يتولى خزانة كتبه، وينخرط في سلك ندمائه، ويقتبس من نور آدابه، ويستضيء بشعاع سعادته؛

(١) الثعالبي، يتيمة الدهر، ٣/ ٣٢٥ ـ ٣٣٩، وورد ذكره عند سزكين: تاريخ التراث العربي، المجلد الثاني، الجزء الرابع، ص٢٦٠ (الطبعة السعودية) قال: من أهل أصبهان، كان شاعراً وخازناً للكتب عند الصاحب ابن عباد.

فتصرف في الخدمة فيما قصر أثره فيه، عن الحد الذي يحمده الصاحب ويرتضيه، لذا عزله الصاحب، فذهب مغاضباً أو هارباً بضع سنين، ثُمَّ عاد إلى حضرة الصاحب، حاملاً كتاب اعتذار، سلّمه إلى أبي بكر الخوارزمي، ليشفع له عند الصاحب، وهو كتابٌ غنيٌّ بالبلاغة وبراعة الكلام، يجمع بين الجزالة والحلاوة، وحسن التصرف، ويُعرب عما وراءه من أدب.

وقد نظم أبو محمد الخازن عدداً من القصائد، في الاستعطاف والاعتذار عند تغير الصاحب عليه، منها قوله:

(من البحر الوافر)

وإعـراض الـوزيـر أشـد مـسّـاً	عـلـى الأحـرار مـن ضـرب الـرقـابِ
ولـم تـبـق الـلـيـالـي فـي بـقـيـا	لـعـتـبٍ مـنـك، فـضـلاً عـن عـقـابـي
وجـد بـرضـاك فـهـو الـعـيـش غـضـاً	وكـلاً فـهـو ريـعـان الـشـبـاب
عـلـى أنـي أتـوب إلـيـك مـمـا	كـرهـتَ، فَـرِقَّ لـي وأقـبـل مـتـابـي

ويورد الثعالبي قصيدة أخرى للشاعر في الاعتذار ويقول[1]:

«هي أحسن عندي من اعتذارات النابغة الذبياني إلى النعمان بن المنذر، وإبراهيم بن المهدي إلى المأمون، وعلي بن الجهم إلى المتوكل».

يقول فيها:

(من البحر الوافر)

لـنـار الـهـمِّ فـي قـلـبـي لـهـيـبُ	فـعـفـواً أيـهـا الـمـلـك الـمـهـيـبُ
تـجـاوزت الـعـقـوبـة مـنـتـهـاهـا	فـهـب ذنـبـي لـعـفـوك يـا وهـوبُ
صـبـبـت عـلـيَّ سـوطـاً مـن عـذاب	يـذل لـبـأسـه الـدهـر الـغـلـوبُ
ومـا عـونـي عـلـى بـلـواي إلا	رجـائـي فـيـك، والـدمـع الـسـكـوبُ

(١) الثعالبي: يتيمة الدهر، ٣/ ٣٣١.

ولـكـن كـادنـي خـبٌّ حـقـودٌ | لـعـقـرب كـيـده نـحـوي دبـيـبُ
ولا يـشـفـيـه مـنـي لـو رآنـي | وقد أخذت بحلقومي شَعوبُ[1]
فـلـم لا يـنـتـهـي ويـكـف عـنـي | عـقـابك بعدما انتهت الذنوبُ؟

* * *

(٢) ـ من شعراء الجبل[2]

(أ) ـ أبو سعد الهمذاني[3]: علي بن محمد بن خلف

أحد أفراد الزمان، الذين ملكوا القلوب بفضلهم، وعمروا الصدور بودهم، يرجع إلى أدب غزير، وفضل كثير، ويقول شعراً بارعاً، كأنما أوحي بالتوفيق إلى صدره، وحبس الصواب بين طبعه وفكره. وكان الأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي جاز به عند منصرفه من الحج، فخدمه أبو سعد بنفسه، ونَظْمِه ونَثْرِه، من ذلك قوله:

(من البحر الطويل)

أبى الفضلُ أن يحظى به غير أهله | من الناس فاختصّ الأمير أبا الفضلِ
وإنـي وإن أصـبـحـت حـراً فـإنـنـي | عبيد عبيد الله ذي المن والفضلِ
هـل الـفـضـل إلا مـا حـوتـه خـلالـه | ومـا بـعـده فـضـل يـعـد مـن الـفـضـلِ

ومن غرر شعره التي رضي فيها عن طبعه قوله:

(من البحر الطويل)

أُصـرِّحُ بـالـشـكـوى ولا أتـأولُ | إذا أنـت لـم تـجـمـل فـلـم أتـجـملُ؟

---

(١) شعوب: كناية عن الموت.
(٢) الثعالبي: يتيمة الدهر، ٣/ ٤٠٠ ـ ٤١٨.
(٣) الثعالبي: م.س، ٣/ ٤١٢.

أفي كل يوم من هواك تحاملٌ ... عليّ، ومن كل يومٍ تحملُ؟
وإني على ما كان منك لصابر ... وإن كان من أدناه يذبل يذبلُ[1]
وما أدعي أني جليد، وإنما ... هي النفس ما حملتها تتحملُ

(ب) الهرندي[2]: أبو القاسم عمر بن عبد الله

من مختار شعره في الغزل:

(من مجزوء الكامل)

الريح تحسدني عليـ ... ـك ولم أخلها في العدا
لَمّا هَمَمْتُ بقبلةٍ ... ردت على الوجه الرِّدا

(ج) ـ ابن حماد البصري[3]: هو من الشعراء الطارئين على بلاد الجبل

(من البحر البسيط)

قال:

إن كان لا بد من أهلٍ ومن وطنٍ ... فحيث آمن من ألقى ويأمنني
يا ليتني مُنكرٌ من كنت أعرفه ... فلست أخشى إذاً من ليس يعرفني
لا أشتكي زمني هذا فأظلمه ... وإنما أشتكي من أهل ذا الزمنِ
قد كان لي كنزٌ صبر فافتقرت إلى ... إنفاقه في مزاراتي لهم وفَنِي
وقد سمعت أفانين الحديث، فهل ... سمعتَ قَطُّ بِحُرٍّ غير ممتحنِ؟

---

(١) يذبل الأول: اسم جبل، والثاني: فعل مضارع من الذبول.
(٢) الثعالبي: يتيمة الدهر، ٣/ ٤١٤ ـ ٤١٥.
(٣) الثعالبي: م.ن، ٣/ ٤١٧.

(٣) ـ من شعراء أهل فارس والأهواز

(أ) هبة الله الشيرازي[١]

أبو بكر بن الحسين، المعروف بابن العلاّف، كان بفارس مجمعاً، وللشعر مفزعاً، مع التصرف في مدارج الأحكام، والمعرفة بشعب الحلال والحرام، والقبول التام، عند الخاص والعام.

بلغ التسعين ولم تبيض له شعرة، وهو القائل في التبرم بشبابه من قصيدة:

(من البحر الوافر)

إلام وفيم يظلمني شبابي ... ويلبس لُمَّتي حلل الغراب؟[٢]

وآمل شعرة بيضاء تبدو ... دُوَّ البدر من خلل السحاب

ألا يا خاضب الشيب المُعَنّى ... أعِنّي في الشباب على الخِضابِ

فكافور الشباب أجلُّ عندي ... وفي فَوْدَيَّ من مِسْك الشبابِ

وهذه المعاني من نوادر الشعر، حيث يشكو الشعراء من الشيب ويخضبون شعرهم الأبيض حتى يظهروا شباباً، على عكس ما يتمنى هذا الشاعر.

(ب) ـ ابن خلاد الرامهرمزي، القاضي[٣]

هو أبو محمد، الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد. من أنياب الكلام وفرسان الأدب، وأعيان الفضل، وأفراد الدهر، وجملة القضاة الموسومين بمداخلة الوزراء والرؤساء؛ كان مختصاً بابن العميد، تجمعها كلمة الأدب

(١) الثعالبي: يتيمة الدهر، ٣/ ٤١٩.

(٢) اللمة: الشعر، وحلل الغراب: أراد بذلك اللون الأسود، وهو لون الغراب.

(٣) الثعالبي: م.س، ٣/ ٤٢٣.

ولحمة العلم، وتجري بينهما مكاتبات بالنثر والنظم؛ وهكذا كانت حاله مع المهلبي الوزير، وقد كتب إليه لما استوزر:

(من البحر البسيط)

الآن حين تعاطى القوس باريها ... وأبصر السَّمت في الظلماء ساريها

الآن عاد إلى الدنيا مهلبها ... سيف الوزارة، بل مصباح داجيها

تضحى الوزارة تُزهى في مواكبها ... زهوَ الرياض إذا جادت غواديها

معزّ دولتها هُنئتها فلقد ... أيّدتها بوثيق من رواسيها

وقوله من قصيدة يمدح بها عضد الدولة أبا شجاع:

(من البحرالكامل)

عَمَرَت من الأدب الفقيد دياره ... ودنا من الكرم البعيد مزارُ

والفقه والنظر المعظم شأنه ... ظهرا وناضل عنهما أنصارُ

عادت إلى الدنيا بنوها واغتدت ... تبني القوافي يعرب ونزارُ

أحيا الأمير أبو شجاعٍ ذكرهم ... فنما القريض وعاشت الأشعار

ج ـ محمد بن عبد العزيز السوسي(١)

يقول قصيدة تربي على أربعمائة بيت في وصف حاله وتنقله في الأديان والمذاهب والصناعات، منها قوله:

(من البحرالمنسرح)

الحمد لله ليس لي بخت ... ولا ثيابٌ يضمها تخت

أمنت في بيتي اللصوص فما ... للص فيه فوق ولا تحت

(١) الثعالبي: يتيمة الدهر، ٣/ ٤٢٧.

فمنزلي مطبق بلا حرس	صفر من الصفر حيثما درت[1]
يا ليت شعري ما لي حرمت، ولا درت	أعطي من إن رأيته اغتظتُ
بل ليت شعري لما بدا يقسم الـ	أرزاق في أي مطبق كنتُ
والحمد لله قاسم الرزق في الـ	خلق كما اختار، لا كما اخترت

هؤلاء هم أهم شعراء الجبل فارس والأهواز الذين ذكرهم الثعالبي، ولعله أراد أن يذكر شعراء لم يلتفت إليهم مؤلفو كتب تراجم الشعراء؛ فهو يقول في بداية حديثه عن هؤلاء الشعراء[2]: «كتابي هذا في محاسن أهل العصر، ويتضمن أنموذجاً من ملح شعراء الجبل من العصريين»، أي من الذين يعاصرهم، وقد يكون هؤلاء لم يحظوا بشهرة واسعة، أو لم تعرف لهم دواوين، فخمل ذكرهم وتناساهم الأدباء الذين ترجموا لشعراء العصر؛ لكن الثعالبي أراد أن يذكرهم كشاهدٍ على شعرهم وشاعريتهم.

(٤) من شعراء طبرستان

(أ) أبو العلاء السروي[3]: واحد طبرستان أدباً وفضلاً، ونظماً ونثراً، له شعر سائر مشهور، كثير الظرف والمُلَح، منه قوله:

(من البحرالطويل)

مَرَرنا على الروض الذي قد تبسمت	ذراه وأوداج الأبارق تُسفك
فلم نرَ شيئاً كان أحسن منظراً	من الروض يجري دمعه وهو يضحك

---

(١) صفر: خالٍ، من الصفر: من النحاس، أي من القدور التي يطبخ فيها.
(٢) الثعالبي: يتيمة الدهر، ص٣/ ٤٠٠.
(٣) الثعالبي: م.ن، ص٤/ ٥٠ ـ ٥٢.

(ب) أبو الفياض سعد بن أحمد الطبري[1]

شاعر مفلق، محسن مبدع، كان يمدح الصاحب بن عباد، وهو القائل من قصيدة فيه:

(من البحر البسيط)

الدمع يُعربُ ما لا يعرب الكلمُ — والدمع عَدْلٌ، وبعض القوم مُتهمُ

أما يد الصاحب اليمنى فأكرم ما — يدٍ تصاحب فيها السيف والقلمُ

وللأعنّة يسري في أناملها — أعنةَ الرزق، والآجال تنتظمُ

تخالف الناس إلا في محبته — كأنما بينهم في حُبه رحِمُ

(٥) من شعراء الدولة السامانية، وشعراء خراسان

(أ) أبو الطيب الطاهري[2]

هو طاهر بن محمد بن عبد الله بن طاهر، من أشعر أهل خراسان وأظرفهم، وأجمعهم بين كرم النسب ومزية الكلمة يقطر منها دمه، وتتبرأ منه نفسه. وكان يخدم آل سامان جهراً، ويهجوهم سراً، ويطوي على بغض شديد لهم، ويتمنى زوال ملكهم وزوال أمرهم، لما يرى من ملك أسلافه في أيديهم، وكان يذم وزراءهم وأركان دولتهم، ويهجو مدينة بخارى عاصمتهم ومركز عزّهم.

وهو أول من هجا بخارى وذمها، ووصف ضيقها ونتنها، حتى اقتدى به غيره في ذكرها. قال في هجاء بخارى:

(من البحر الهزج)

بخارى كل شيءٍ منك — يا شوهاء مقلوب

---

(١) الثعالبي: يتيمة الدهر، ٢/ ٥٢ ـ ٥٧.

(٢) الثعالبي: م.ن، ٤/ ٦٩ ـ ٧٣.

قـضـاة الـنـاس رُكّـاب لِـمْ قـاضـيـك مـركـوب؟

(ب) أبو الحسين محمد بن المرادي[1]

كان شاعر بخارى، وله شعر كثير مدوّن. ومن مشهور أخباره أن الأمير السعيد نصر بن أحمد، ركب يوماً للضرب بالصوالجة، فجاءت مطرة رشت السهلة، ولما قضى وطره، وأقبل إلى الدار، تصدّى له المرادي فأنشد:

(مخلع البسيط)

أشـهـد أن الأمـيـر نـصـراً يـخـدمـه الـغـيـثُ والـسـحـابُ

رشّ تـراب الـطـريـق كـي لا يـؤذيـه فـي الـمـوكـب الـترابُ

لا زال يـبـقـى لـه ثـلاثٌ: الـعِـز، والـمـلـك، والـشـبـابُ

وقال يهجو نيسابور وأهلها:

(من البحر البسيط)

لا تـنـزلـن بـنـيـسـابـور مُـغـتـربـاً إلا وحـبـلـكِ مـوصـول بُـسـلـطـان

أو لا، فلا أدب يغني ولا حسب يجدي، ولا حرمة ترعى لإنسان

(ج) أبو الفضل السكري المروزي[2]

أحمد بن محمد بن زيد، شاعر مرو وظريفها، وله شعر مليح خفيف الروح، كثير الملح والأمثال، كقوله:

(من البحر الكامل)

لا تَـعـتـبـنَّ عـلـى الـزمـان وصـرفـه مـا دام يـقـنـع مـنـك بـالأطـرافِ

وإذا سـلـمـت فـلا تـكـن لـك هِـمّـةٌ إلا دوام سـلامـةِ الأُلاّفِ

---

(١) الثعالبي: يتيمة الدهر، ٤/ ٧٤ ـ ٧٦.

(٢) الثعالبي: م.ن، ٤/ ٨٧ ـ ٩٠.

وقوله:

(من مجزوء الخفيف)

أشرفُ القصد في المطا لب للناس أربعه:
كثرة المال، والولا ية، والعز، والدَّعَه
فارض منها بواحد تلق ما دونه معه
دعة النفس بالكفا فِ، وإن لم تكن سَعَه
كلُّ ما أتعب النفو س ما فيه منفعه

(٦) من شعراء بخارى والطارئين عليها

كانت بخارى في الدولة السامانية مثابة المجد، وكعبة الملك، ومجمع أفراد الزمان، ومطلع نجوم أدباء الأرض، وموسم فضلاء الدهر.

(أ) **أبو محمد المطراني**[1]: الحسن بن علي بن مطران، شاعر الشاش وحسنتها وواحدها؛ فإنَّها وسائر بلاد ما وراء النهر لم تخرج مثله.

وكان ابن مطران بخير وحسن حال، يرد بخارى بالمِدَح، وينصرف بالمِنَح، وشعره مدوّن، كثير اللطائف.

حُمِلَ ديوان ابن مطران إلى الصاحب بن عباد؛ فأُعجب به، فقال: ما ظَنَنْتُ أن ما وراء النهر يخرج مثله. وقرأ من قصيدة له في الخمرة:

(من البحر الوافر)

وراحٍ عذَّبتها النار حتى وَقَتْ شُرّابها نار العذابِ
يُذيب الهمّ قبل الحَسْو لون لها في مثل ياقوتٍ مُذابِ
ويمنحها المزاجُ لهيبَ خدٍّ تَشرَّب ماؤه ماء الشبابِ

(١) الثعالبي: يتيمة الدهر، ١١٥/٤.

فتعجب من حسن هذا الشعر وحفظه وكان كثيراً ما ينشده.

وله في المدح:

(من البحرالبسيط)

شهر الصيام جرى باليُمن طائره ... عليك ما جَدّ باديه وعائُدُه

ودام قصرك مرفوعاً مجالسُه ... لزائريه ومنصوباً موائده

ودام صدر عظيم أنت ماهِدُه ... وعش لملك عزيزٍ أنت واحده

فأنت منظره الأبهى وناظره ال ... أعلى، ومنكبه الأقوى، وساعِده

(ب) **أبو النصر الهزيمي**[١]: المعافى بن هزيم:

أديب أبيورد وشاعرها، له كتاب محاسن الشعر، وأحاسن المحاسن، كان يكثر المقام ببخارى، ويخدم فضلاء رؤسائها، ثم يعاود أبيورد، وقد دوّن شعره ببخارى وأبيورد.

ومن شعره في رثاء الأمير الرشيد أبي الفوارس عبد الملك بن نوح الساماني، قصيدة هي من جيّد شعره، وأفضل ما رثى به شاعر هذا الأمير:

(من البحر البسيط)

الطّرفُ بالدمع أولى منه بالنظر ... فَخَلِّه لنجيع منه منهمرِ

ألَمَّ خطبٌ عظيم لا كفاء له ... رزءٌ يذمُّ عليه كل مصطبرِ

هذا الذي كانت الأيام توعدنا ... به، وما لم نزل منه على حذرِ

قَدَّت إلى الملك الميمون طائرهُ ... أيدي الحوادث والأيام والغيرِ

تَرَكْنَ حارس دُنيانا وفارسها ... فريسة بين ناب الموت والظُّفُرِ

وكُلُّ عمر وإن طالت سلامته ... لا بد يوماً قصاراه إلى قِصَرِ

(١) الثعالبي: يتيمة الدهر، ٤/١٢٩.

(ج) أبو الحسن محمد بن أحمد، الإفريقي، المتيم(١)

صاحب كتاب «أشعار الندماء»، وكتاب «الانتصار للمتنبي»، وغيرهما، وله ديوان شعر كبير. قال الثعالبي: رأيته ببخارى شيخاً رثّ الهيئة، تلوح سيماء الحِرفة، وكان يتطبب ويتنجم، فأما صناعته التي يعتمد عليها فالشعر. وما أنشدني لنفسه:

(من البحرالبسيط)

وفتيةٍ أدباء ما علمتهم شبهتهم بنجوم الليل إذ نجموا

فَرّوا إلى الراح من خَطْبٍ يلمُّ بهم فما دَرَتْ نُوَبُ الأيام أين همُ

(٧) من شعراء بست وسجستان

(أ) أبو الفتح البستي(٢): علي بن محمد: صاحب الطريقة الأنيقة في التجنيس، وكان يسميه المتشابه، ويأتي فيه بكل طريقة لطيفة، فهو يغرف في الأدب من البحر، وكأنما يوحى إليه في النظم والنثر، مع ضربه في سائر العلوم بالسهم الفائز.

وله في المديح حيث يستخدم الجناس:

(من البحرالبسيط)

يا من أعاد رميم الملك منشورا وَضَمَّ بالرأي مُلْكاً كان منثورا

أنت الأمير وإن لم تؤت منشور والأمر بعدك إن لم تؤتمن شورى

وله من الإخوانيات:

(من البحر الكامل)

لا تحقرن أخاً وإن أبصرته لك حافياً ولما تُحِب مُنافيا

(١) الثعالبي: يتيمة الدهر، ٤/ ١٥٧.

(٢) الثعالبي: م.ن، ٤/ ٣٠٣ ـ ٣٣٣.

فالغُصن يذبل ثم يصبح ناضراً ... والماء يكدر ثم يرجع صافيا

وله:

(من البحر المتقارب)

إذا ملكٌ لم يَكُنْ ذاهبه ... فدعه فدولته ذاهبه

وله في الدهر وصروفه:

(من مخلع البسيط)

الدهر خدّاعةٌ خلوب ... وصفوه بالقذى مَشُوبُ

وأكثر الناس فاعتزلهم ... قوالب ما لها قلوبُ

فلا تغرنك الليالي ... وبرقتها الخُلَّبُ الكذوبُ

ففي قفا أنسها كروب ... وفي حشا سلمها حروبُ

وله من باب الشكوى من الكبر:

(من البحر الطويل)

أرى المرء يرجو أن يطول بقاؤه ... ليدرك ما يرجو بطول بقائه

فأية جدوى في البقاء وقد وَهَتْ ... قواه وأقوى قلبه من ذكائه[(١)]

إذا ما نبا حِسٌّ وكّلت بصيرة ... فطول بقاء المرءِ طول شقائه

(٨) من الشعراء الطارئين على نيسابور

أبو النصر العتبي: محمد بن عبد الجبار[(٢)]

هو لمحاسن الأدب، وبدائع النثر، ولطائف النظم، ودقائق العلم، كالينبوع للماء، والزند للنار، يرجع معها إلى أصل كريم، وخلق عظيم.

---

(١) أقوى قلبه: خلا، والذكاء: النار، أراد أن قلبه لم يعد متوقداً.
ووهت قواه: ضعفت.

(٢) الثعالبي: **يتيمة الدهر**، ٤/٣٩٧.

ومن غرر شعره:

(من البحر الوافر)

لـه وجـه الـهـلال لـنـصـف شـهـر | وأجـفـان مـكـحـلـة بـسـحـر
فـعـنـد الابـتـسـام كـلـيـل بـدر | وعـنـد الانـتـقـام كـيـوم بـدر[1]

وقوله:

(من البحر الطويل)

أيا ضرّة لشمس المنيرة بالضحى | ومن عجزت عن كنهها صفة الورى
عذرتك إن لم أحظ منك برؤيةٍ | فأنت لعمري الروح والروح لا تُرى

(٩) من شعراء نيسابور

(أ) محمد بن عبد الله بن إسماعيل الميكالي، أبو جعفر[2]: كان متقدماً في الأدب، متبحراً في علم اللغة والعروض، مصنفاً للكتب، مستكثراً من قول الشعر، ولعل شعرهُ يربي على عشرة آلاف بيت. قال الثعالبي: وعندي أن أمير شعره قوله:

(من الرجز)

إذا أراد الـلـه أمـراً بـامـرئ | وكـان ذا عـقـل ورأي وبـصـرْ
وحـيـلـة يـعـمِـلُـهـا فـي كـل مـا | يـأتـي بـه جـمـيـع أسـبـاب الـقـدر
أغـراه بـالـجـهـل وأعـمـى قـلـبـه | وسَـلَّـه مـن رأيـه سـل الـشـعـر
حـتـى إذا أنـفـذ فـيـه أمـره | رد عـلـيـه عـقـلـه لـيـعـتـبـر

(١) أراد بلفظة بدر الأولى، القمر، وببدر الثانية معركة بدر الكبرى التي وقعت بين المسلمين والمشركين على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم.
(٢) الثعالبي: يتيمة الدهر، ٤/٤١٨.

(ب) أبو العباس العبزي، محمد بن يحيى[1]: من أبناء نيسابور، وأهل البيوتات بها، وله شعر كثير، منه:

(من البحر الكامل)

لا يشغلنك حديث ما في الكاس ... شُربُ المُدام مُحَلَّلٌ في الناسِ

الله حرَّم سكرها لا شربها ... فاشرب هنيئاً يا أبا العباسِ

صفراء صافية كأَنَّ شعاعها ... ضوء الصباح وشعلة المقباسِ

تنفي بها داءً وحزناً كامناً ... في القلب، ليس بشربها من باسِ

وإذا قميصك بللته مُدامةٌ ... وعرتك منه وساوس الخُنّاسِ

فَدَعِ القميص يَشُمُّ منها ريحَها ... واغسل فؤادك من أذى الوسواسِ

وفي ختام الحديث عن شعراء الدول والمدن في المشرق الإسلاميّ أقول: إن الشعر في هذه الدول والمدن كان رائجاً جداً، وكان الشعراء يتناولون مواضيع عديدة كالمديح والهجاء والخمرة والغزل والتشبيب بالغلمان (وهذا ما لم نذكر نماذج منه مع كثرته) والوصف الذي تناول فيه الشعراء الكثير من الأمور كوصف الثلج والشتاء، والشموع، والأزهار وغيرها، فكان هذا الشعر خير ممثل للبيئة التي عاشها الشعراء في هذه البلدان.

كما ذكر الشعراء الشيب وأثره النفسي عليهم، كذلك ذكروا صروف الدهر ونوائبه، فكان شعرهم يمثل حياتهم ويصوّرها أدق تصوير، كما كان يصف معاناتهم اليومية، فكان شعر بعضهم حِكَماً وخلاصة تجارب حياتية في معاشرة الناس عموماً والأصدقاء خصوصاً.

وهكذا تنوع الشعر في هذه البلاد من حيث الفنون والمواضيع، وتطوّر

(١) الثعالبي: يتيمة الدهر، ٤/ ٤٢٢.

بتطور الحياة الأدبيّة والاجتماعية، وقد رأينا تعلق بعض الشعراء بالمحسنات اللفظية كالجناس، وبرعوا في استخدامه، فجاءت أشعارهم تعبر عن قدرتهم وعلوّ شأنهم في نظم الشعر.

* * *

ثالثاً: شعراء في مجالس وزراء

(١) في مجلس ابن العميد

قبل الحديث عن شعراء ابن العميد لا بُدّ من كلمة موجزة فيه، هو أبو الفضل محمد بن الحسين، عين المشرق، وعماد ملك آل بويه، وصدر رؤسائهم.

استقر في الذروة العليا من وزارة ركن الدولة البويهي، رياسة الجبل، وخَدَمهُ الكبراء، وانتجعه الشعراء، وورد عليه أبو الطيب المتنبي (بعد عودته من مصر، حيث كان عند كافور الأخشيدي) فمدحه بتلك القصائد المشهورة السائرة، والتي منها كقوله[1]:

(من البحر الكامل)

من مبلغ الأعراب أني بعدهم   شاهدت رسطاليس والاسكندرا
وسمعت بطليموس دارس كتبه   متملكاً متبدياً مُتحضرا
ولقيت كل الفاضلين كأنما   رد الإله نفوسهم والأعصرا
قطف الرجال القول وقت نباته   وقطفت أنت القول لمّا نورا

ولابن خلاد القاضي في ابن العميد مِدَحٌ تشوبها مُلَحٌ، كقوله:

(١) الثعالبي: **يتيمة الدهر**، ٣/١٥٨.

(من البحر الوافر)

بأسعد طالع عيّدت يا من ... بطلعته سعادة كل عيدِ

فَعِشْ ما شئت كيف تشاء والبس ... جديد العمر في زمن جديد

فقد شهدت عقول الخلق طرّاً ... وحسبك بالبصائر من شهودِ

بأن محاسن الدنيا جميعاً ... بأفنية الرئيس ابن العميد

ولأبي الحسن البديهي فيه من قصيدة:

(من البحر المتقارب)

إذا اعتمدتني خطوب الزمان ... وكان اعتمادي على ابن العميد

تذكرت قُرْبِيَ من قلبه ... فيممته من مكان بعيد

تجاوز في الجود حد المزيد ... وجل نداه عن المستزيد

وفات الأنام، وفاق الكرام ... برأي سديد، وبأس الشديد

ومما يستبدع فيه ويستحسن معناه، قول أبي علي بن مسكويه له عند انتقاله إلى قصر جديد بناه:

(من البحر البسيط)

لا يعجبنك حُسْنُ القصر تنزله ... فضيلة الشمس ليست في منازلها

لو زيدت الشمس في أبراجها مائة ... ما زاد ذلك شيئاً من فضائلها

ويقول الثعالبي[1]: «وكان كل من أبي العلا السروي، وأبي الحسن العلوي العباسي، وابن خلاّد القاضي، وابن سمكة القمي، وأبي الحسين بن فارس، وأبي محمد بن هندو، يختص به، ويداخله، وينادمه حاضراً، ويكاتبه ويجاوبه، ويهاديه نثراً ونظماً.

---

(١) الثعالبي: يتيمة الدهر، ٤/ ١٦٤

وهذا يعني أن مجلس ابن العميد، كان مجلس شعر وشعراء، وأن علاقة وطيده كانت تجمع بينه وبينهم، فإذا حضروا تناشدوا الأشعار، وإن غابوا عنه كتبوا له وكتب لهم نثراً وشعراً.

ويخبر الثعالبي أن من الذين مدحوا ابن العميد بمدح كثيرة استفرغ عنها جهده وألقى حميته، هو الصاحب بن عباد، فمن عيون شعره فيه قوله من قصيدة[1]:

(من البحر الخفيف)

لـو درى الـدهـر أنَّـه مـن بـنـيـه   لازدرى قــدر ســائــر الأولاد

إن خـيـر الـمُـدّاح مـن مَـدَحَـتْـهُ   شـعـراء الـبـلاد فـي كـل نـادي

وهذا صحيح، فقد كان شعراء البلاد في عهد ابن العميد يقصدونه ليمدحوه بغرر قصائدهم، كما ذكرنا سابقاً.

ويقول الصاحب بن عباد في ابن العميد أيضاً:

(مجزوء الكامل)

قـالـوا: ربـيـعـك قـد قـدم   فـلـك الـبـشـارة بـالـنِّـعَـمْ

قـلـت: الـربـيـع أخـو الـشـتـا   ء، أم الـربـيـع أخـو الـكـرم؟

قـالـوا: الـذي بـنـوا لـه   يـغـنـي الـمُـقِـلّ عـن الـعـدم

قلت: الرئيس ابن العميـد؟ فقالوا لي: نعم.

وأكتفي بهذا القدر مما ورد عن ابن العميد من أخبار، وما نظمه الشعراء فيه من أشعار.

(١) الثعالبي: يتيمة الدهر، ٤/ ١٦١.

(٢) في مجلس الصاحب بن عباد

ذكر الثعالبي بعضاً من أخبار الصاحب بن عباد فقال[1]:

«هو صدر المشرق، وتاريخ المجد، وغرة الزمان... ومن لا حرج في مدحه بكل ما يمدح به مخلوق... وكانت حضرته محط رحال الأدباء والشعراء، وموسم فضلائهم... وأمواله مصروفة إليهم...

وجمعت حضرة الصاحب، بأصبهان والري، وجرجان، مثل: أبي الحسين سلامي، وأبي بكر الخوارزمي، وأبي طالب المأموني، وأبي الحسن البديهي، وأبي سعيد الرستمي، وأبي القاسم الزعفراني، وأبي الحسن بن عبد العزيز الجرجاني، وأبي القاسم بن أبي العلاء، وأبي محمد الخازن، وأبي هاشم العلوي، وأبي الحسن الجوهري، وبني المنجم، وابن بابك، وابن القاشاني، وأبي الفضل الهمذاني، وإسماعيل الشاشي، وأبي العلاء الأسري، وأبي الحسن الغديري، وأبي دلف الخزرجي، وأبي حفص الشهرزوري، وأبي معمر الإسماعيلي، وأبي الفياض الطبري، وغيرهم ممن لم يبلغني ذكره، أو ذهب عني اسمه. ومدحه مُكاتبةً: الشريف الموسوي الرضي، وأبو إسحاق الصابي، وابن حجاج، وابن سكرة، وابن نباتة. فمن كان هؤلاء مُدّاحه كان خير الناس.

نعم، لقد صدق الصاحب عندما قال:

إن خير المداح من مدحته ... شعراء البلاد في كل نادي

هكذا كان الصاحب من عباد، وهكذا كان مجلسه، مجلس علم وأدب، يتبارى فيه العلماء والشعراء، يُنشِئون أجمل أشعارهم في حضرته، وهو إذا ما أُعجب بشعر أغنى قائله، فقد كان شاعراً، يميز الخبيث من الطيب من الشعر.

---

(١) الثعالبي: يتيمة الدهر، ٣/ ٢١٥.

وقد مدحه أبو القاسم الزعفراني، فقال:

سواك يعدّ الغنى ما اقتنى   ويأمره الحرص أن يخزنا

وأنت ابن عبادٍ المرتجى   تعد نوالك نيل المنى

غمرت الورى بصنوف الندى   فأصغر ما ملكوه الغنى

وغادرت أشعرهم مفحما   وأشكرهم عاجزاً ألكنا

ولمّا بنى الصاحب داراً بأصبهان وانتقل إليها، طلب من شعرائه وصفها؛ فما قاله أبو العباس الضبيّ:

(من البحر البسيط)

دار الوزارة ممدود سرادقها   ولاحق بذرى الجوزاء لاحقها

والأرض قد واصلت غيظ السماء بها   فقطرها أدمع تجرى سوابقها

والدهر حاجبها يحمي مواردها   عن الخطوب إذا صالت طوارقها

ومما قاله أبو سعيد الرستمي أيضاً:

(من البحرالطويل)

وسامية الأعلام تلحظ دونها   سنا النجم في آفاقها متضائلا

نسخت بها إيوان كسرى بن هرمز   فأصبح في أرض المدائن عاطلا

يناطح قرن الشمس من شرفاتها   صفوف ضياء فوقهن موائلا

وعول بأطراف الجبال تقابلت   ومدّت قروناً للنّطاح موائلا

كأشكال طير الماء مدّت جناحها   وأشخصن أعناقاً لها وحواصلا

ومنها في وصف الماء الجاري، وهو أحسن ما سمعت فيه على كثرته:

وماء على الرضراض يجري كأنه   صفائح تبر قد سَبَكْنَ جداولا

كأنَّ بها من شِدّة الجَرْي جنّة   فقد ألبستهنَّ الرياح سلاسلا

إلى أن يقول:

فإن الذي يبنيه مثلك خالد وسائر ما يَبني الأنام إلى بلا

ومن قصيدة أبي الحسن الجرجاني، أيضاً:

(من البحر الطويل)

لِيَهْنَ ويسعد من به سَعِدَ الفضل بدار هي الدنيا وسائرها فضل

تولى له تقديرها رحب صدره على قدره، والشكل يعجبه الشكل

بنيّة مجدٍ تشهد الأرض أنها ستطوى، وما حاذى السماء لها مثل

منار لأبصار الرواة، وربها منار لآمال العُفاة إذا ضلوا

تحجّ لها الآمال من كل وجهة وينحر في حافاتها البخل والمحل

وما ضرّها ألا تقابل دجلة وفي حافتيها يلتقي الفيض والهطل

ويتوالى الشعراء في وصف هذه الدار وزينتها وزخرفها والماء الذي يجري فيها، فيتبارى هؤلاء الشعراء، كل يدلي بدلوه، وكل واحد منهم يبرع فيحسن؛ فتأتي القصائد صوراً بديعة رائعة، تصور لنا هذا القصر وكأننا نراه، بل نرى تفاصيل زخارفه وزينته، ولا ينسى الشعراء أن يعرجوا على صاحب الدار فيكيلون له المدائح، ويصفونهم بأجمل النعوت.

وقال الثعالبي[1]: وأنشدني أبو بكر الخوارزمي لنفسه قصيدة في دار الصاحب، عارض بها قصيدة الرستمي في الوزن والقافية، إذ هي أجود القصائد، فمنها:

(من البحر الطويل)

أَكُلُّ بناءٍ أنت بانيه مُعْجِزٌ بَنَيْتَ المعالي أم بنيت المنازلا

فلا الإنس تبني مثلهن معالماً ولا الجن تبني مثلهن معاقلا

(١) الثعالبي: يتيمة الدهر، ٤/٢١٧.

تلوح نقوش الجصّ في جدرانه كما زيّن الوشم الدقيق الأناملا
وماءٌ إذا أبصرت منه صفاءه حسبت نجوم الليل ذابت سوائلا

ومن غريب وعجيب المراثي والتعازي، هذا الخبر الذي يرويه الثعالبي[(١)]؛ فهو يقول: «لما نفق برذون[(٢)] أبي عيسى بن المنجم بأصبهان، وكان أصدأ[(٣)] قد حمله الصاحب عليه، وطالت صحبته له، أَوْعَزَ الصاحب إلى الندماء المقيمين في جملته، أن يعزّوا أبا عيسى ويرثوا أصدأه، فقال كل منهم قصيدة فريدة».

ثُمَّ يروي الثعالبي قصيدة لأبي القاسم الزعفراني، وثانية لأبي الحسن بن عبد العزيز الجرجاني، وثالثة لأبي القاسم بن أبي العلاء، ورابعة لأبي الحسن السلامي، وخامسة لأبي محمد الخازن، وسادسة لأبي سعيد الرستمي، وسابعة لأبي العباس الضبّي، وأرجوزة لأبي دلف الخزرجي، وقصيدة لأبي محمد محمود، وأخرى لأبي عيسى، وقصيدة لبعض أهل نيسابور.

وهكذا تتوالى القصائد في رثاء برذون أصدأ، ويتبارى كبار شعراء الصاحب في هذا العمل، ويتفننون في رثائه أيما تفنن، وكأنه أمير أو زعيم أو صاحب نعمة عليهم.

وكذلك نرى الصاحب يطلب من شعرائه أن يصفوا فيلا، ويورد الثعالبي ثلاثة قصائد في وصفه.

(١) الثعالبي: يتيمة الدهر، ٣/ ٢١٨ وما بعدها.

(٢) البرذون: البغل.

(٣) أصدأ: من الصدأة: وهي شقرة تضرب إلى السواد الغالب، وقيل الأصدأ: الأسود مشربا خمرة.

وهكذا يتبين أن شعراء مجلس الصاحب بن عباد كانوا يتفننون في شعرهم، ويُقحمونه في مواضيع لا تخطر على بال، ويجيدون وصفهم ويستخدمون طاقاتهم وقدراتهم الشعرية والبلاغية في إعداد هذا الشعر. وهذا إن دلّ على شيء فهو يدلّ على قدرة شعراء هذا العصر، ومدى ثقافتهم البلاغية وإمكاناتهم في النظم التي تفوق قدرات كثير من شعراء العصر الآخرين.

لقد كان مجلس الصاحب بن عباد خير ممثل للحركة الشعرية في بلاد المشرق في القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، بكل ما تضمه من فنون وأساليب وتراكيب، رفعت شعراء هذا المجلس إلى مصاف كبار شعراء العصر العباسي.

إذا كان الأدب تعبيراً عن الذات، فالشعر منه هو أشد تعبيراً وأصدق إبلاغاً عن هذه الذات، ومن وما يحيط بها. لقد تركت بيئة المشرق الثقافية والطبيعية أثرها المباشر على الشعر والشعراء، فكان الشعراء أكثر تعبيراً عن ثقافة العصر وطبيعة المكان. لقد أصبح الشعراء يتمتعون بجمال الطبيعة، فيصفون الأشجار والأنهار والأزهار والأطيار، والثلوج التي تتراكم على قمم الجبال، فتعطيها لمسة من جمال.

كذلك عبّر الشعراء عن واقع الحياة وعيش الناس، في حلوه ومرّه، جدّه وهزله، رصانته ومجونه، فكان الشعر صورة صادقة عن واقع الحياة وتنوّعها في القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد.

وقد تنقّل الشعراء بين دول ومدن المشرق الإسلامي، واستقبلهم الحكام والأمراء في مجالسهم، واستمعوا لهم، وشجعوهم وأجزلوا لهم العطاء، مما ساعد على وجود الكثير الكثير من الشعراء الذين لم يتركوا فنّاً من فنون الشعر، وباباً من أبوابه إلاّ طرقوه ودخلوه وأجادوا فيه.

لكن ما يؤسف له أن الكثير من هذا الشعر لم يصمد أمام غدرات الزمان، فضاع كثير منه، ولم يبق سوى القليل، مع كثرته؛ وما ذكرته كتب الأدب عموماً والشعر خصوصاً كيتيمة الدهر للثعالبي ليس إلاّ غيضاً من فيض.

* * *

شهدت بلاد المشرق الإسلامي في القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد ازدهاراً وتطوراً في العلوم الإنسانية، كالعلوم الدينية، والعلوم الفلسفية، وعلمَيْ التاريخ والجغرافية، وعلوم اللغة، نحواً ومعاجم وبلاغة؛ وكذلك تطوّر الأدب بفرعيه النثر والشعر، وازدهرا ازدهاراً ظاهراً.

لقد عبّرت العلوم الإنسانية بشكل عام، ومن كان يمثلها، عن نهضة علمية وثقافية واسعة، تناولت معظم جوانب المعرفة الإنسانية وعلومها، ودلّت على الحرية الفكرية وحرية التعبير في أجلى صورهما؛ فلا حدود ولا قيود على الفكر والمفكرين، والتأليف والمؤلفين؛ بل حريّة بلا حدود، وتأليف بلا قيود، مما أدّى إلى إغناء المكتبة العربية التراثية بشتّى أنواع المعارف، الدينية والفلسفية واللغوية والأدبية؛ كما أخذت كتب ومصادر التراث التاريخي والجغرافي مكانتها العليا في مكتبة التراث العالمي، وكان لها مكان الصدارة.

إن كل ما خلّفه الأجداد من كتب التراث في العلوم الإنسانية يقدّم للباحث صورة صادقة عن الحياة الثقافية وعن حركيّة المجتمع في ذلك العصر، الذي كانت شعلة فكره لا تنطفئ ولا تخبو، بل تبقى عالية، منيرة دروب طلاب العلم والعلماء، وكل واحدٍ من هؤلاء كان يجد ضالته دون مشقّة أو عناء؛ فمجالس العلم منتشرة، والمكتبات مزدهرة، والعلماء في كل مكان متواجدون؛ وفي كل فنون العلوم يتناظرون ويؤلفون. إنها حركة ثقافية

بلغت أقصى ما يتمنّاه المرء من سموّ ورفعة، تركت بصماتها جليّة واضحة على الحياة الثقافية طيلة قرون من الزمن، ومازالت حتى اليوم ترفد الباحثين والدارسين بمعين لا ينضب من المعلومات والمعارف، التي تعكس لنا بصدق صورة الحياة الفكرية والثقافية، والمستوى الراقي الذي وصلت إليه هذه الحياة.

* * *

الإسهامات العلميّة
في المشرق الإسلامي

الفصل السادس

العلوم الطبّية

المبحث الأول

الطبّ

أولاً: تطور الطبّ حتى القرن الرابع للهجرة

كان الطبّ لفترة طويلة مرتبطاً بالفلسفة، قبل الإسلام وبعده، وكان كثير من الفلاسفة يشتغلون في أمور عديدة ـ ولا نقول في علوم عديدة ـ كالطبّ والفلك والنجوم والموسيقى وغيرها، ولم يستقل الطبّ عن الفلسفة إلاّ بعد أن استقر كعلم له أصوله ومبادئه المرتبطة به ارتباطاً مباشراً، وأصبح يدرس في كليات متخصصة.

ولو عدنا إلى بدايات الطبّ فإنه يمكننا القول: إذا كان العلاج من الأمراض هو أساس الطبّ وهدفه، فإن بدايات الطبّ قديمة قِدَم الإنسان، وهذا هو المعروف بالطبّ العلاجي؛ أمّا الطبّ الوقائي فقد تأخر قليلاً، بعد أن اكتشف الإنسان مضار بعض ما يأكل من لحوم الحيوانات أو نباتات الأرض. يقول القفطي: «واعلم ـ وفقك الله ـ أن الكلام في أولية الطبّ، ومن أحدثه، وفي أي زمن وجد، عَسِر جداً، وذلك لأن الذين يقولون بقِدم العالم، يقولون: إن الطبّ قديم بقدم العالم، لأن الطبّ ملازم للإنسان في حالة وجوده، والإنسان قديم؛ فالطبّ قديم، والفرقة الأخرى التي تعتقد

حدوث الأجسام، تقول: الطبّ مُحدث، لأن الأجسام التي يستعمل فيها الطبّ مُحدثة. وأصحاب الحدوث ينقسمون في القول قسمين: فالقسم الواحد يقول: إن الطبّ خُلق مع الإنسان، إذ كان من الأشياء التي فيها صلاحه؛ وبعضهم يقول: إن الطبّ خُلق بعد خلق الإنسان»[1].

كانت مظاهر الحياة العقلية في الجاهلية هي اللغة والشعر والأمثال والقصص، أمّا العلم والفلسفة فلا أثر لهما عندهم لأن حياتهم الاجتماعية لا تسمح لهم بذلك، وما عُرف عندهم من معلومات طبّية، لا يتجاوز ملاحظات بسيطة لحالات مَرَضية، ثُمَّ علاجها بما تيسر لهم من وسائل وإمكانات، وفرتها لهم بيئتهم، ولا يصح أن تُسمى علماً، لأنّهم لم يكونوا يحسنون التعليل، أو ربط المسببات بأسبابها؛ وكل ما لديهم لا يتعدى معلومات بُنِيَت على تجربةٍ ناقصة، أو ملاحظةٍ عابرة، تُصيب حيناً وتُخطئ أحياناً.

وأصدق تعبير عن ذلك ما قاله ابن خلدون في مقدمته عند كلامه على علم الطبّ عند العرب، فقال: «وللبادية من أهل العمران طبّ يبنونه في غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص، ويتداولونه متوارثاً على مشايخ الحي وعجائزه، وربما يصح البعض منه؛ إلاَّ أنه ليس على قانون طبيعي، ولا عن موافقة مزاج، وكان عند العرب من هذا الطبّ كثير، وكان فيهم أطباء معروفون كالحارث بن كِلدة، وغيره. . .»[2].

ولمّا جاء الإسلام، حرص على تغيير الكثير من عادات الجاهليين، التي لا تتوافق مع الشريعة الإسلاميّة، ومنها بعض العادات المتعلقة بالتداوي والعلاج، حيث كانت بعض الخرافات تسيطر على عقول النَّاس؛ فدعا

(١) القفطي: أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص٩ ـ ١٠.

(٢) ابن خلدون: المقدمة، ص٤٩٣.

الإسلام إلى إعمال العقل والفكر، وطلب العلم[1]؛ كذلك وردت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث عِدة يمكن اعتبارها وصايا طبية ومواعظ صحية، عُرفت فيما بعد «بالطبّ النبوي». من هذه الأحاديث أقواله صلى الله عليه وسلم:

- «تداووا عباد الله، فإن الله عز وجل لم يُنَزل داءً إلاّ أنزل معه شفاء، إلاّ الموت والهرم»[2].
- «الشفاء في ثلاثة: شرطة محجم، أو شربة عسل، أو كيّة بنار، وأنا أنهى أمتي عن الكي»[3].
- «إن هذه الحبة السوداء شفاء من كل داء، إلاّ من السام، وهو الموت»[4]. وأمثال هذه الأحاديث كثيرة[5] ذكرتها كتب الحديث المتعددة[6].

ومن أمثال هذه الأحاديث وصية الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه في موضوع حفظ صحة البدن، يقول فيها[7]: «من ابتدأ غذاءه بالملح، أذهب الله عنه سبعين نوعاً من البلاء؛ ومن أكل كل يوم سبع تمرات عجوة، قتلت كل داءٍ في بطنه؛ ومن أكل كل يوم إحدى وعشرين زبيبة حمراء لم يَرَ في بدنه شيئاً يكرهه؛ واللحم يُنبت اللحم؛ والثريد طعام العرب؛ ولحم البقر

(١) عبد الباقي، فؤاد: **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، حيث ترد الكلمات عقل، فكر، علم، ومشتقاتها في العديد من الآيات.
(٢) ذكره الإمام أحمد في مسنده، ٤/٢٧٨.
(٣) البخاري: **صحيح البخاري**، (طبعة ٣، دار ابن كثير، بيروت، ١٩٨٧م) ٥/٢١٥٢.
(٤) البخاري: م.ن، ٥/٢١٥٣.
(٥) بلغ عدد هذه الأحاديث قرابة ٣٠٠ حديث.
(٦) صنف ابن القيّم الجوزية كتاباً سماه «**الطبّ النبوي**» استناداً إلى أحاديث الرسول.
(٧) ابن قتيبة الدينوري: **عيون الأخبار**، المجلد الثالث، كتاب الطعام، ص٢٧١، (طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٣٠م).

داء، ولبنها شفاء، وسمنها دواء، والشحم يُخرج مثليه من داء. ولم يَستَشفِ النَّاس بشيءٍ أفضل من الرُّطب؛ والسمك يذيب الجسد..» ومثل هذه الوصية كثير في أقوال حكماء العرب.

ومن أطباء العرب القدماء «الحارث بن كلدة بن عمر بن علاج الثقفي، طبيب العرب في وقته، أصله من بني ثقيف، من أهل الطائف، رحل إلى أرض فارس، وأخذ الطبّ عن أهل تلك الديار من أهل جند يسابور وغيرها في الجاهلية وقبل الإسلام؛ وجاد في هذه الصناعة، ورجع إلى الطائف، واشتهر طِبّه بين العرب...

قال سعد (بن أبي وقاص) مرضت، فأتاني النبي صلى الله عليه وسلم، يعودني؛ فوضع يده بين ثديَيّ، حتى وجدت بردها على فؤادي، فقال: إنك رجل مفؤود؛ ائت الحارث بن كلدة، أخا ثقيف، فإنه يُطبب...»[1].

واستمر الحارث بن كلدة يطبب طيلة عهد الخلفاء الراشدين، وبقي إلى زمن معاوية؛ فقال له معاوية: ما الطبّ يا حارث؟ فقال: الأزم يا معاوية، يعني الجوع[2].

ومن الأطباء المشهورين في عصر صدر الإسلام أبو الحكم الدمشقي، سيره معاوية بن أبي سفيان مع ولده يزيد طبيباً إلى مكة عندما سيّر يزيد أميراً على الحاج في أيامه[3]. وهذا يعني أن حملة الحجيج كان يرافقها طبيب يعمل على رعاية ومعالجة الحجيج إذا ما مرض أحد منهم.

ومن أطباء صدر الإسلام أيضاً تياذوق (ت ٩٠هـ ـ/٧٠٨م)، كان

(١) القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص١١١ ـ ١١٢ (طبعة دار الآثار للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، د. ت.)
(٢) القفطي: م.ن، ص١١٣.
(٣) القفطي: م.س، ص١٢٣.

مشهوراً في الدولة الأموية واختص بخدمة الحجاج بن يوسف، وله تلاميذ أجلة تقدموا بعده[1]. ويذكر ابن قتيبة[2]نصيحة طبية طلبها منه الحجاج بن يوسف قائلاً له:

«صف لي صفةً آخذ بها في نفسي ولا أعدوها. قال تياذوق: لا تتزوج من النساء إلاّ شابة، ولا تأكل من اللحم إلاّ فتيّاً، ولا تأكله حتى يُنْعَمَ طبخه[3]، ولا تشربن دواءً إلاّ من عِلة، ولا تأكل من الفاكهة إلاّ نضيجها؛ ولا تأكل طعاماً إلاّ أجدت مضغه؛ وكُلْ ما أحببت من الطعام واشرب عليه، وإذا شربت فلا تأكل عليه شيئاً؛ ولا تحبس الغائط والبول، وإذا أكلت بالنهار فَنَمْ، وإذا أكلت بالليل فتمشّ ولو مائة خطوة».

ويلاحظ أن ما ذكره هذا الطبيب من نصائح ووصايا يُعتبر من المبادئ الصحية والغذائية الهامة، والتي ما زال يعمل بها الأطباء في نصائحهم لمرضاهم، ولعل هذه النصائح من أهمّ أسس الوقاية من المرض.

وقد استفاد المسلمون مما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية من حثٍّ على طلب العلم، والاستفادة من نصائح رسول الله الطبّية، وكذلك اعتمدوا على ما كتبه علماء وأطباء الحضارات السابقة، كاليونان والفرس والهنود، بعد أن توسعت رقعة الدولة الإسلاميّة إثر الفتوحات، خاصّة في بلاد المشرق الإسلاميّ، حيث اتصل المسلمون العرب بشعوب تلك البلاد؛ فأخذوا عنهم الكثير من العلوم التي لم يكونوا على صلة بها، وأهمّها العلوم الطبّية، وذلك بترجمة كتب الطبّ التي وجدوها عند هذه الشعوب[4]، كما استعانوا بأطبائهم من المشهورين والمعروفين.

---

(١) القفطي: **أخبار العلماء بأخبار الحكماء**، ص٧٤.

(٢) ابن قتيبة: **عيون الأخبار**، المجلد الثالث، كتاب الطعام، ص٢٧٠.

(٣) يُنْعم طبخه: أي ينضج.

(٤) يراجع ما ذكرناه في مقدمة هذا الباب فيما يخص الترجمة والنقل.

فقد اتخذ معاوية بن أبي سفيان طبيبين من النصارى من أهل دمشق هما: ابن أثال، الذي كان طبيباً متميزاً، خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة وقواها، وأبو الحكم الدمشقي، الطبيب النصراني العالم بأنواع العلاج والأدوية، وله أعمال مذكورة وصفات مشهورة، اتخذهما طبيبين خاصَّيْن له[1].

ومن مشاهير الأطباء أيضاً عبد الملك بن أبجر الكناني (ت ١٠١هـ/ ٧٢٠م) الذي استطبه الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز.

وبدأت أسس النهضة الطبّية تتأصل في الدولة الإسلاميّة، وساعد على ازدهارها اهتمام الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور؛ يقول ابن أبي أصيبعة[2]: «وكان المنصور في صدر أمره، عندما بنى مدينة السلام بغداد، سنة ثمان وأربعين ومائة للهجرة [٧٦٥م] أدركه ضعف في معدته، وسوء استمراء، وقِلة شهوة؛ وكلما عالجه الأطباء ازداد مرضه، فتقدم إلى الربيع [بن يونس، حاجبه] بجمعهم، فلمّا اجتمعوا قال لهم المنصور: أريد من الأطباء في سائر المدن طبيباً ماهراً؛ فقالوا: ما في عصرنا أفضل من جرجيوس بن بختيشوع، رئيس أطباء جند يسابور إلى حضرة الخلافة. . . ولم يزل جرجيوس يتلطف في تدبيره، حتى برئ المنصور، وعاد إلى الصحة».

وهكذا أصبح هذا الطبيب الماهر، الطبيب الخاص للخليفة، وهو أول من نقل كتب الطبّ والصيدلة إلى اللغة العربيَّة في عهد المنصور.

وقد مهدت خدمة جرجيوس بن بختيشوع في بلاط الخليفة، لأبنائه وأحفاده، أن يكونوا أطباء الخلفاء في بغداد على امتداد ثلاثة قرون، وهذا ما

(١) الجمال، أحمد محمد: العلوم الإنسانية، مركز الإسكندرية للكتاب، ٢٠٠٩م، ص٥٧.
(٢) ابن أبي أصيبعه: عيون الانباء في طبقات الأطباء، ص١٠٩ ـ ١١٠.

فتح الباب على مصراعيه لهجرة كبار أطباء جنديسابور إلى حاضرة الدولة العباسية[١]. وكذلك كانوا أطباء في الدولة البويهية.

ففي القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، نهض الطبّ نهضة كبيرة، وكثر الأطباء الذين صنفوا المؤلفات العديدة في أنواع الأمراض وطرق علاجها، مستفيدين من الترجمات الكثيرة التي قام بها سابقوهم، ناقلين كتب الطبّ من اليونانية والسريانية والفارسية والهندية؛ فنقحوا الترجمات، وصنّفوا المؤلفات، وساهموا مساهمة كبيرة في تطور العلوم الطبّية والعلاجية، ورفعوا راية هذا العلم عالياً في الحضارة الإنسانيّة.

لقد نبغ عدد من الأطباء العرب المسلمين وساهموا في النهضة الطبّية جنباً إلى جنب مع الأطباء غير العرب وغير المسلمين؛ وبلغت كثرة الأطباء من جميع الأجناس في العواصم الإسلاميّة، أن الحكومات المحلية كانت تجري لهم امتحانات رسمية وتمنحهم إجازات عمل؛ وقد ورد نص إحدى هذه الإجازات في الجراحة كما يلي[٢]: «بسم الله الرحمن الرحيم. بإذن الباري العظيم، نسمح لفلان بممارسة فن الجراحة لما يعلمه حق العلم، ويتقنه حق الإتقان، حتى يبقى ناجحاً وموفقاً في عمله، وبناءً على ذلك، فإن بإمكانه معالجة الجراحات حتى تشفى، وبفتح الشرايين، واستئصال البواسير، وخلع الأسنان، وتخييط الجروح، وطهارة الأطفال... وعليه أيضاً أن يتشاور دوماً مع رؤسائه، ويأخذ النُّصح من معلميه الموثوق بهم وبخبرتهم».

كما كان للأطباء في كل مدينة كبيرة نظام؛ فعليهم رئيس هو الذي

(١) زيتون، عادل: آل بختيشوع النساطرة في البلاط العباسي؛ مقالة في مجلة عالم الفكر، المجلد الرابع، إبريل/ يوليو، ٢٠٠١، الكويت.

(٢) هو نكه، زيغريد: شمس العرب تسطع على الغرب، ص٢٣٨.

يمنحهم ويجيز من يرى فيه الكفاءة للتطبيب، وأشهرهم سنان بن ثابت، رئيس أطباء بغداد، ويُقال مثل ذلك في الصيادلة[1].

كذلك فقد تخصص الأطباء في فروع الطبّ، فهناك الجراح، والفاصد، والكحال، وطبيب الأسنان، وطبيب أمراض النساء، وطبيب المجانين (طبيب الأعصاب) والطبيب الروحاني(طب نفسي)، وطبيب الأطفال، وطبيب العيون (الكحّال) وغيرها من التخصصات.

وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن الأطباء الذين كانوا يصنفون كتباً في أنواع الأمراض، كانوا يصنفون أيضاً كتباً في الأدوية التي تساعد في علاجها، وهذا يعني أن معظم الأطباء كانوا يتقنون صنعة الأدوية ويؤلفون كتباً فيها. من هنا يصعب علينا أن نفصل مهنة الطب عن مهنة الصيدلة في هذه المرحلة؛ وسنرى عندما نترجم لأطباء القرن الرابع، ونذكر مؤلفاتهم، أن من بينها مؤلفات في الطب (الأمراض، أسبابها وعلاجها) والأدوية (أنواعها، تركيبها، وكيفية استخدامها) المفردة والمركبة.

ثانياً: أشهر أطباء المشرق الإسلاميّ في القرن الرابع للهجرة

١ ـ جبرائيل بن عبيد الله بن بختيشوع[2]

من أبناء الأسرة المشهورة بالطبّ، كان والده عبيد الله الطبيب الخاص للخليفة المقتدر، ولمّا توفي الوالد كان جبرائيل صغيراً. ثُمّ درس الطبّ وبرع فيه؛ وخرج إلى شيراز؛ فالتقى بعضد الدولة البويهي، وكان في أول ولايته؛ فاستدعاه وحَسُن موقعه عنده، وعالج خاله من عدة أمراض فانتفع به

(١) الخطيب، محمد: تاريخ الحضارة العربية، دار علاء الدين، دمشق، (د.ت.)، ص٢٢٢.

(٢) القفطي: كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص١٠٢ ـ ١٠٦؛ وابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص٢٠٩ ـ ٢١٤.

منفعة عظيمة، وذلك في سنة سبع وخمسين وثلاثمائة. ولمّا دخل عضد الدولة بغداد، كان معه في خاصّته؛ ولمّا جدد عضد الدولة البيمارستان أصبح جبرائيل يعمل فيه، كما كان يعمل في دار عضد الدولة.

ومرض الصاحب بن عبّاد مرة؛ فطلب من عضد الدولة طبيباً ماهراً؛ فأرسل له جبرائيل إلى الريّ، وعالجه من مرض في معدته؛ فأكرمه الصاحب وعظمه، وسأله أن يعمل له كناشاً يختص بذكر الأمراض التي تعرض من الرأس وإلى القدم، فعمل كناشه الصغير، فحَسُن موقعه عند الصاحب، ووصله بألف دينار، وكان يقول: صنفت مائتي ورقة أخذت عنها ألف دينار.

ثُمَّ عاد جبرائيل إلى بغداد، وأقام عند عضد الدولة ثلاث سنوات، ولمّا مرض خسرو شاه ملك الديلم، أرسل إليه جبرائيل لمعالجته؛ فباشر بتدبيره وعلاجه حتى شفي؛ فقابله بما يحتمله ملك في حق مثله، ثُمَّ عاد إلى بغداد وألف كتاب الكناش الكبير، وسماه «الكافي».

توفي جبرائيل سنة ٣٩٦هـ/ ١٠٠٥م، وكان عمره خمساً وثمانين سنة.

ومن آخر مشاهير هذه الأسرة عبيد الله بن جبرائيل بن عبيد الله بن بختيشوع، وكنيته أبو سعيد[1]، وبها عُرف واشتُهر. كان فاضلاً في صناعة الطبّ، مشهوراً بجودة الأعمال فيها، وله عناية خاصّة بها، كما له تصانيف كثيرة فيها.

توفي عبيد الله سنة ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م. وله من الكتب: كتاب مناقب الأطباء، كتاب التواصل إلى حفظ التناسل، كتاب تذكرة الحاضر وزاد المسافر، وغيرها من الكتب.

لقد كان لهذه الأسرة المسيحية النسطورية دور كبير في صناعة الطبّ في العصر العباسي ومكانة مرموقة لدى الخلفاء في بغداد، والملوك والأمراء

---

(١) ابن أبي أصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص٢١٤.

في دول المشرق الإسلاميّ عموماً، كما كان لغيرهم من الأطباء النصارى أو اليهود أو المجوس دورهم أيضاً في هذه الصناعة، وهذا يعني، من جملة ما يعني، أن المجتمع الإسلاميّ في ذلك العصر كان مجتمعاً منفتحاً على كل الشعوب والديانات، يتقبل برضى وجود أشخاص غير مسلمين في قصور الخلفاء والأمراء والملوك، يتولون رعايتهم الصحية، ويعالجونهم مما قد يصيبهم من أمراض، بثقة تامة، دون خوف أو وجل يدخل قلوبهم بسبب اختلاف دياناتهم.

ومن أطباء الدولة البويهية أيضاً، نذكر:

- **أبو الحسين بن نفاخ الجرائحي**[١]: طبيب مشهور في علم الجراحة، اختاره عضد الدولة للمقام بالبيمارستان ببغداد عندما عمره، وكان موصوفاً بالحذق في الطبّ.
- **أبو الخير الجرائحي**[٢]: خبير قيم بعلم الجراحة، مشهور الصناعة فيه، اختاره عضد الدولة للبيمارستان الذي عمره ببغداد.
- **أبو سعيد الأُرّجاني**[٣]: طبيب فارسي من مدينة أرجان معروف بهذا الشأن، خدم في الدولة البويهية، ملوكها ومماليكها، وحضر في صحبتهم إلى بغداد، واشتهر بصناعته، ولم يزل مقيماً في خدمتهم إلى أن توفي في أيام بهاء الدولة بن عضد الدولة سنة ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م.
- **أبو العلاء الطبيب**[٤]: كان في الدولة البويهية يصحب ملوكها في السفر والحضر.
- **علي بن العباس المجوسي** (ت ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م): طبيب فاضل كامل،

(١) القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص٢٦٣.
(٢) القفطي: م.ن، ص٢٦٥.
(٣) القفطي: م.س، ص٢٦٦.
(٤) القفطي: م.ن، ص٢٦٧ ـ ٢٦٨.

فارسي الأصل، يعرف بابن المجوس[١]، كان من أطباء عضد الدولة، وقد صنف له كتاب «الملكي» وهو كتاب جليل وكُناش نبيل، اشتمل على علم الطبّ، وعمله حسن الترتيب، مال النَّاس إليه في وقته، ولزموا درسه، إلى أن ظهر كتاب «القانون» لابن سينا، فمالوا إليه وتركوا «الملكي» بعض الترك. و«الملكي» في العمل أبلغ، و«القانون» في العلم أثبت.

ويتألف كتاب «الملكي» من جزأين، يشتمل الجزء الأول على عشر مقالات في الطبّ النظري؛ الأولى عن الأمزجة والطبائع والأخلاط؛ والثانية والثالثة في التشريح، والرابعة في الهواء والرياضة والحمام والأغذية، والأجزاء الستة الباقية في أسباب الأمراض وأعراضها وعلاماتها.

ويشتمل الجزء الثاني على عشر مقالات في الطبّ العملي، مقصورة على المداواة وطرق العلاج، وتختص الأخيرة بالصيدلة وتقع في ثلاثين باباً، استقصى فيها أنواع الأدوية المختلفة، وكيفية إعدادها ومقدار جرعاتها، وكيفية تناولها.

وقد تميز كتاب «الملكي» بحسن تقسيمه وتبويبه، وتضمّن كل ما يلزم للحفاظ على الصحة وشفاء الأمراض، والمستلزمات التي يجب على كل طبيب قدير مستقيم أن يعرفها؛ كما أشار إلى أهمّية العمل في المستشفيات، حيث يقول[٢]: «ومما ينبغي لطالب هذه الصناعة أن يكون ملازماً للبيمارستانات ومواضع المرضى، كثير المداولة لأمورهم وأحوالهم، مع الأستاذين الحُذاق من الأطباء، كثير النقد لأحوالهم والأعراض الظاهرة فيهم، متذكراً لما كان قد قرأه من تلك الأحوال».

---

(١) القفطي: أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص١٥٥.

(٢) الجمال، أحمد فؤاد: العلوم الإنسانيّة، ص٩.

ـ **الحسن الفسوي**[1]: كان طبيباً معروفاً، من أرض فارس، من مدينة فَسَا (جنوب شرقي شيراز)، متميزاً في الطبّ والقيام به والتقدم بسببه. خدم الدولة البويهية، واختص منها بخدمة الملك بهاء الدولة ابن عضد الدولة، وصحبه في أسفاره، وتقدر عنده، وكان يثق به وبأقواله.

وفي تاريخ الطبّ عند المسلمين برز طبيبان كبيران؛ فاقت شهرتهما شهرة جميع الأطباء في عصرهما، واستمرت هذه الشهرة زمناً طويلاً، وانتشرت في جميع البلاد، شرقاً وغرباً، هما أبو بكر الرازي، والشيخ الرئيس ابن سينا.

٢ ـ **أبو بكر الرازي**[2]: محمد بن زكريا، أهمّ طبيب في هذه الفترة كلها، وربما كان أخصب عبقرية في علم الطبّ في القرون الوسطى قاطبة[3]، طبيب المسلمين غير مدافع[4]، أوحد دهره وفريد عصره، قد جمع المعرفة بعلوم القدماء وسيّما الطبّ[5].

وكان الرازي إمام وقته في الطبّ، والمشار إليه في ذلك العصر، وكان متقناً لهذه الصناعة، حاذقاً فيها، عارفاً بأوضاعها وقوانينها، تُشد إليه الرحال في أخذها عنه، وصنف فيها الكتب النافعة»[6].

---

(١) ابن أبي أصيبعه: **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، ص٤٣٥.

(٢) راجع ترجمته وأخباره في المصادر التالية:
ـ النديم: **الفهرست**، ص٣٥٦ ـ ٣٥٧ (طبعة طهران).
ـ ابن أبي أصيبعه: م.س، ص٤١٤ ـ ٤٢٧.
ـ القفطي: **إخبار العلماء بأخبار الحكماء**، ص١٧٨ ـ ١٨٢.
ـ ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، د/١٥٧، الترجمة رقم ٧٠٧.
ـ ابن العماد: **شذرات الذهب**، ٢/ ٢٦٣.

(٣) بروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، ٤٢/ ٢٧١.

(٤) القفطي: م. س، ص١٧٨.

(٥) النديم: م.س، ص٣٥٦.

(٦) ابن خلكان: م.س، ٥/ ١٥٨.

ولد أبو بكر الرازي بالريّ، سنة ٢٥١هـ ـ/ ٨٦٥م[١]. وإليها نُسب، وفيها نشأ؛ وكان في شبيبته يضرب بالعود ويغنّي، ثم لما التحى وجهه نزع عن ذلك وأقبل على دراسة الطبّ والفلسفة؛ فبرع فيهما براعة المتقدمين[٢]، وبعد أن فرغ من دراسته أدار بيمارستان الريّ، ثُمَّ استُدعي بعد ذلك إلى بغداد لإدارة بيمارستانها.

وبعد أن حقق الرازي بكتاباته شهرة لنفسه، وفد على كثير من الأمراء، ليكتسب من وراء شهرته، كما جرت عادة العصر؛ وهكذا جاء إلى بلاط أبي صالح منصور بن إسحاق الساماني، أمير كرمان وخراسان، وألّف له كتابه المشهور «المنصوري»[٣]، وهو مختصر في الطبّ، ومن الكتب المختارة، جمع فيه بين العمل والعلم، ويحتاج إليه كل أحد[٤].

ويُروى أن الرازي كان في جملة من اجتمع على بناء البيمارستان العضدي، وأن عضد الدولة البويهي استشاره في هذا الموضع الذي يجب أن يُبنى فيه، وقد عُمل برأيه[٥].

وقد عمل الرازي في المستشفى العضدي، وكان رئيس الأطباء فيه، اختاره عضد الدولة من بين مائة طبيب من أفاضل الأطباء وأعيانهم. وقد استفاد من خبرته هذه ليصنف كتاباً في صفات البيمارستان، وفي كل ما يجده من أحوال المرضى الذين كانوا يعالجون فيه[٦].

---

(١) هكذا ذكر بروكلمان، ومن تبعه من الدارسين، لكن غوستاف لوبون في كتابه «حضارة العرب»، ص٤٨٨، يذكر ولادته سنة ٨٥٠م، أي ٢٣٦هـ، ووافقه على ذلك محمد الخطيب في كتابه «تاريخ الحضارة العربيّة»، ص٢٢٢.

(٢) ابن أبي أصيبعه: عيون الانباء في طبقات الأطباء، ص٤١٦.

(٣) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ٤/ ٢٧١.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٥/ ١٥٨.

(٥) راجع الخبر وتفاصيله في كتاب ابن أبي أصيبعه، م.س، ص٤١٥.

(٦) ابن أبي أصيبعه: م.ن، ص٤١٥.

ويبدو أن الرازي كان أستاذاً كبيراً في الطبّ، فقد كان يجلس في مجلسه، ودونه التلاميذ، ودونهم تلاميذهم، ودونهم تلاميذ أُخر؛ فكان يجيء الرجل فيصف ما يجد[1]، لأول من يلقاه؛ فإن كان عندهم علم، وإلاَّ تعداه إلى غيرهم؛ فإن أصابوا، وإلاَّ تكلم الرازي في ذلك[2]. وكان الرازي يتمتع بمناقب العلماء وأخلاقهم العملية والعلمية، «فقد كان كريماً متفضّلاً، بارّاً بالنَّاس، حسن الرأفة بالفقراء والأعِلاء، حتى كان يُجري عليهم الجرايات الواسعة، ويمرضهم، ولم يفارق المدارج والنسخ، بين نسخ أو تسويد أو تبييض»[3].

وكان أكثر مقام الرازي ببلاد العجم وذلك لكونها موطنه، وموطن أهله؛ وخدم بصناعة الطبّ الأكابر من ملوك العجم، وصنف هنالك كتباً كثيرة في الطبّ وغيره، وكانت له المنزلة الجليلة بالريّ وسائر بلاد الجبل. وقد أصيب في آخر عمره بالعمى.

توفي الرازي سنة عشرين وثلاثمائة (٣٢٠هـ/ ٩٣٢م) وذُكر أيضاً أنه توفي سنة أربع وستين وثلاثمائة (٣٦٤هـ/ ٩٧٤م) ولا يوجد اتفاق بين العلماء على تحديد سنة وفاته، وإن كان الأقرب إلى الصواب أن وفاته كان في حدود سنة ٣٢٠هـ/ ٩٣٢م.

مؤلفات الرازي وجهوده الطبّية

وضع الرازي آثار من قبله من الأطباء على مِحَكّ النقد الشديد فوق فراش المرضى، وكان ما كتبه في بعض الحميّات ذات البثور كالحصبة والجُدري، معول الأطباء زمناً طويلاً، وكان واسع الاطلاع على علم

(١) يصف ما يجد: أي يصف ما يشعر به من ألم.
(٢) ابن أبي أصيبعه: **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، ص٤١٦.
(٣) ابن ابي أصيبعه: م.ن، ص٤١٦.

التشريح، كما كان كتابه في أمراض الأطفال، أول كتاب بحث في هذا الموضوع؛ ويُرى في كتبه وسائل جديدة للمداواة، كاستخدام الماء البارد في الحميات المستمرة، الذي أخذ به علم الطبّ الحديث؛ وكاستخدام الكحول والفتائل، الخ... [1].

كان الرازي منتجاً إلى أبعد حدود الإنتاج؛ فقد وضع من المؤلفات ما يزيد على المائتين والعشرين[2]، ضاع معظمها، ولم يبق منها، إلاَّ القليل (حوالي ٥٠ كتاباً ذكر بروكلمان أماكن وجودها في مكتبات العالم).

ألف الرازي كتباً قيّمة جداً في الطبّ، وقد امتازت بما تجمعه من علوم السابقين كاليونان والفرس والهنود وغيرهم، إضافة إلى آرائه وبحوثه المبتكرة، والمبنيّة على تجارب وملاحظات هامّة تدلّ على النضج والنبوغ، كما تمتاز بالأمانة العلمية، حيث نسب كل قول أو رأي إلى صاحبه[3].

ومن مؤلفات الرازي الطبّيّة كتاب «سر الأسرار في الحكمة»، وهو كتاب نفيس ضمّنه المنهاج الذي يسير عليه في إجراء تجاربه؛ فكان يبدأ بذكر المواد التي سيستعملها، ثُمَّ يصف الأدوات والآلات التي سيستعين بها، وبعد ذلك يصف الطريقة التي يتبعها في تحضير الأدوية.

والرازي من العلماء الأوائل الذين طبّقوا معلوماتهم في الكيمياء على

---

(١) لوبون، غوستاف: حضارة العرب، نقله إلى العربيّة عادل زعيتر، طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٩٦٩. ص٤٨٨.

(٢) راجع قائمة بمؤلفاته، ذكرت في المصادر التالية:
- النديم: **الفهرست**، ص٣٥٧ ـ ٣٥٩.
- ابن أبي أصيبعه: **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، ص٤٢١ ـ ٤٢٧.
- القفطي: **أخبار العلماء بأخبار الحكماء**، ص١٧٩ ـ ١٨٢.
- حاجي خليفة: **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، ٦/ ٢٧ ـ ٢٩.
- بروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، ٤/ ٢٧٣ ـ ٢٨٥.

(٣) ابن أبي أصيبعه: م.س، ص٤٢١، في حديثه عن كتاب «الحاوي».

الطبّ والصيدلة، وهو يرى أن الشفاء يحصل بتأثير تفاعل كيماوي بين الدواء وجسم المريض. وقد استخرج الرازي الكحول باستقطار مواد نشوية مختمرة، وكان يستعمله في الصيدلة وفي إعداد الأدوية والعلاجات، حينما كان يدرّس ويطبّب في البيمارستان.

ويمتاز الرازي عن كثير من الأطباء في كونه درس أثر الجوانب النفسية في العلاج والتطبيب، ففي كتابه «الطبّ الروحاني» وهو ما نسمّيه اليوم الطبّ النفسي، يرى أن مزاج الجسم تابع لأخلاق النفس، وذلك لأن للنفس الشأن الأول فيما بينها وبين البدن من صلة، لذا يوصي الأطباء قائلاً: «ينبغي للطبيب أن يوهم مريضه الصحة، ويُرجيه بها، وإن لم يثق بذلك، فمزاج الجسم تابع لأخلاق النفس»[١].

ومن أجل كتب الرازي وأعظمها في صناعة الطبّ «كتاب الحاوي»، وذلك أنه جمع فيه كل ما وجده متفرقاً في ذكر الأمراض ومداواتها من سائر الكتب الطبّية للمتقدمين، ومن أتى بعدهم إلى زمانه، ونسب كل شيء نقله فيه إلى قائله[٢]. وينقسم هذا الكتاب إلى اثنى عشر قسماً، يظهر فيه الرازي معارفه الطبّية المتنوّعة، وخبراته في صناعة الأدوية، وهذه الأقسام هي:

١ ـ في علاج المرضى والأمراض.

٢ ـ في حفظ الصحة.

٣ ـ في الرثة والجبر والجراحات.

٤ ـ في قوى الأدوية والأغذية.

٥ ـ في الأدوية المركبة.

٦ ـ في صنعة الطبّ.

---

(١) ابن أبي أصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص٤٢٠ و ٤٢١.

(٢) ابن أبي أصيبعه: م.ن، ص٤٢١.

٧ ـ في الأدوية وألوانها وطعومها وروائحها.

٨ ـ في الأبدان.

٩ ـ في الأوزان والمكاييل.

١٠ ـ في التشريع ومنافع الأعضاء.

١١ ـ في الأسباب الطبيعية من صناعة الطبّ.

١٢ ـ في المدخل إلى صناعة الطبّ.

ولا يتسع المجال لتعداد مؤلفاته الطبّية والصيدلانية، لكن يكفي أن نذكر أسماء بعض هذه المؤلفات لنعرف المستوى الذي وصل إليه الطبّ في ذلك العصر عموماً، والرازي خصوصاً، في مجال العلوم الطبّية.

- كتاب في كيفية الإبصار، يبيّن فيه أن الإبصار لا يكون بشعاع يخرج من العين.
- كتاب في علل المفاصل والنقرس وعرق النّسا.
- مقالة في الجدري والحصبة.
- مقالة في الحصى في الكلى والمثانة.
- كتاب التقسيم والتشجير، يذكر فيه تقاسيم الأمراض وأسبابها وعلاجها بالشرح والبيان على سبيل تقسيم وتشجير.
- كتاب الطبّ الملوكي في العلل، وعلاج الأمراض كلها بالأغذية.
- كتاب في الفالج، وكتاب في اللقوة، وكتاب في هيئة العين، وكتاب في هيئة الكبد، وكتاب في هيئة القلب، وكتاب في هيئة المفاصل.
- كتاب «المنصوري»، ألفه للأمير منصور بن إسحاق صاحب خراسان، تحرّى فيه الاختصار والإيجاز، وهو عشر مقالات في مواضيع مختلفة هي: (*) التشريح (*) الأمزجة (*) الأغذية والأدوية (*) الصحة (*)

دواء البشرة (*) نظام السفر (*) الجراحة (*) السموم (*) الأمراض على العموم (*) الحُمّى.

- كتاب الفاخر في الطبّ، ذكر فيه الأمراض ومداواتها واختيار معالجتها على أتمّ ما يكون وأفضله.
- كما اختصر ولخّص كتب أطباء اليونان القدامي، من ذلك:
- اختصار كتاب النبض الكبير لجالينوس.
- تلخيص كتاب العلل والأعراض لجالينوس.
- تلخيص كتاب الأعضاء الآلمة (المؤلمة) لجالينوس.

وفي الأدوية تركيبها وأنواعها، ألّف الرازي العديد من الكتب منها:

- كتاب صيدلة الطبّ.
- مقالة في إبدال الأدوية المستعملة في الطبّ وقوانينها وجهة استعمالها.
- كتاب في الدواء المسهل والمقيء.

هذه هي أهمّ مؤلفات الرازي، حيث يظهر من أسمائها علوّ مكانة الرازي في العلوم الطبّية وعلوم الصيدلة بما لا يحتاج إلى إيضاح وتبيين، أو زيادة شرح وتفصيل.

٣ ـ ابن سينا[١]:

الشيخ الرئيس، أبو علي الحسين بن عبد الله. ولد ابن سينا سنة

(١) للاطلاع على ترجمته وأخباره بتوسّع، يمكن الرجوع إلى المصادر التالية:
- القفطي: **إخبار العلماء بأخبار الحكماء**، ص٢٦٨ ـ ٢٧٨.
- ابن أبي أصيبعه: **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، ص٤٣٧ ـ ٤٥٨.
- ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، ٢/١٥٧ (الترجمة رقم ١٩٠).
- حاجي خليفة: **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، ٥/٣٠٨ ـ ٣٠٩.
- غوستاف لوبون: **حضارة العرب**، ص٤٨٩ ـ ٤٩٠.

٣٧٥هـ ـ/ ٩٨٥م في إحدى قرى بخارى، التي انتقل إليها مع والديه وأخيه، فنشأ فيها، وتلقى علومه الأولى. وبرع في كثير من العلوم كالفلسفة والمنطق والإلهيات والطبيعيات، ثُمَّ دفعه طموحه ورغبته في العلم إلى الاستزادة؛ فعكف على دراسة الطبّ وقراءة الكتب المصنّفة فيه، ففاق الأوائل والأواخر في أقل مدّة ممكنة، وهو لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره، وها هو يقول[١]: «ثُمَّ رغبت في علم الطبّ، وصرت أقرأ الكتب المصنّفة فيه، وعلم الطبّ ليس من العلوم الصعبة، فلا جرم أني برزت فيه في أقل مدّة، حتى بدأ فضلاء الطبّ يقرؤون عليّ علم الطبّ، وتعهدت المرضى، فانفتح عليّ من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة ما لا يوصف، وأنا في هذا الوقت من أبناء ست عشرة سنة».

ومرض سلطان بخارى، نوح بن منصور الساماني، وكانت شهرة ابن سينا قد سبقت إليه وإلى أطبائه الذين كانوا يعالجونه؛ فدُعي لمشاركتهم في مداواته، وقد سمحت له هذه الزيارة بالاطلاع على ما في مكتبة الأمير نوح من كتب ثمينة، والظفر بفوائدها، كما طالع الكثير من كتب الأوائل؛ فلمّا بلغ ثماني عشرة سنة من عمره، فرغ من قراءة العلوم جميعها. يقول: «وكنت إذ ذاك للعلم أحفظ، ولكنه اليوم معي أنضج؛ وإلاَّ فالعلم واحد لم يتحدّد لي بعده شيء».

وكان ابن سينا[٢] كثير التنقل من بلدة إلى أخرى؛ فمن بخارى إلى كركانج، إلى نسا، فطوس، فخراسان، فجرجان، فالري، فقزوين فهمذان وغيرها، كما كان يتقلب في المناصب عند الأمراء والملوك، وينال حظوتهم حيناً وسخطهم حيناً آخر؛ فيخرج هارباً من مدينة إلى أخرى، ويلاقي المصاعب والأهوال، والسجن أحياناً.

(١) ابن أبي أصبيعه: **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، ص٤٣٨.

(٢) ابن أبي أصبيعة: م.ن، ص ٤٣٩.

ومع كل هذا وذاك لم يترك التصنيف والتأليف والتدريس؛ فكان يجتمع كل ليلة في داره طلبة العلم، وكان التدريس بالليل لعدم الفراغ بالنهار خدمة للأمير، وكان يكتب في كل يوم خمسين ورقة[١].

ومن أهمّ مصنّفات ابن سينا في الطبّ كتاب «القانون» وكتاب «الشفاء».

ويشتمل «القانون» في الطبّ، على علم وظائف الأعضاء، وعلم الصحة وعلم الأمراض، وعلم المعالجة والمادة الطبّية، وقد وصفت فيه الأمراض بأحسن مما وصفت به في الكتب التي ألفت قبله.

لقد جاء كتاب «القانون» في الطبّ موسوعة طبّية ضخمة، جمع فيها ابن سينا ما عرفه الطبّ عند الأمم السابقة، وعند من سبقه من الأطباء، إلى ما استحدثه هو من نظريات وآراء ملاحظات، وما ابتكره من ابتكارات هامّة، وما اكتشفه من أمراض سارية ومنتشرة، مما أدّى إلى تقدّم الطبّ، حتى قيل[٢]: كان الطبّ ناقصاً فأكمله ابن سينا.

فقد ضمّن ابن سينا كتاب «القانون» شرحاً وافياً لكثير من المسائل النظرية والعملية، كما أتى فيه على كيفية تحضير الأدوية وكيفية استعمالها؛ وقد استقصى ابن سينا في كتابه عدداً كبيراً من النباتات الطبّية، وعدداً كبيراً من الأدوية التي يمكن تحضيرها منها؛ كما تناول في كتابه شتى الأمراض، وأسبابها، وأعراضها، وعلاجها، فضلاً عن تشريح جسم الإنسان عضواً عضواً؛ فهو أول من كشف ووصف عضلات العين، وأول من وصف التهاب السحايا، كذلك وصف السكتة الدماغية، وتحدّث بإسهاب عن حصى المثانة، وأشار إلى السّل الرئوي وعدواه، وكيفية انتقال هذه العدوى، كما وصف الأمراض الجلدية والتناسلية، ودرس الاضطرابات النفسية وأثرها

(١) ابن أبي أصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص٤٤١.

(٢) طوقان، قدري: العلوم عند العرب، دار اقرأ للنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م، ص١٦٤.

على أعضاء الجسم ووظائفها؛ ولهذا لجأ إلى العلاج النفسي في معالجة بعض المرضى.

لهذه الأسباب ولغيرها كثير، استطاع ابن سينا أن يفرض وجوده في عالم الطبّ والصيدلة، كما فرض كتابه نفسه على أطباء الغرب قرون عديدة، فقد كانوا يدرّسونه في جامعاتهم حتى القرن الثامن عشر. وكان هذا الكتاب يترجم إلى اللاتينية ويدرّس بها، كما كان يطبع بالعربيّة ويدرّس بها أيضاً[١].

المستشرقة زيغريد هونكة تشيد بابن سينا وبفضله في عالم الطبّ، فتقول[٢]: «إن كتب أعاظم الإغريق والإسكندريين ليبهت لونها، ويَقِلُّ شأنها، أمام كتاب «القانون» لأمير الأطباء، الرئيس ابن سينا؛ ذلك الكتاب الذي كان له أعظم الأثر في بلاد الشرق والغرب على حَدٍّ سواء، قروناً طويلة من الزمن، بشكلٍ لم يكن له مثيل في تاريخ الطبّ إطلاقاً. وأيّة عظمة، وأية عبقرية هذه هي التي جمعت كل هذه المعارف النظرية والعملية للطبّ مع كل فروعها، ونظمتها بشكل فريد في نوعه، ودبّجتها ببراعة هي البلاغة والأصالة بعينها».

وقد توفي هذا العالم الكبير سنة ٤٢٨هـ/ ١٠٣٧م عن عمر بلغ ثمانياً وخمسين سنة، ودُفِنَ في همذان[٣].

ثالثاً: البيمارستان في المشرق الإسلاميّ

البيمارستان، كلمة فارسية معرّبة، معناها مشفى أو مستشفى، وهي مؤلفة من لفظتين: بيمار، بمعنى مريض، وستان بمعنى مكان أو موضع أو

(١) إحدى الطبعات العربية ظهرت في «مدينة رومة المحروسة» سنة ١٥٠٥ م.

(٢) هونكة، زيغريد: **شمس العرب تسطع على الغرب**، نقله عن الألمانية فاروق بيضون وكمال الدسوقي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة السادسة، ١٩٨١، ص٢٨٩.

(٣) القفطي: **إخبار العلماء بأخبار الحكماء**، ص٢٧٨.

دار، واختصرت الكلمة بعد ذلك فأصبحت مارستان، ثُمَّ تطورت دلالة الكلمة لتصبح المستشفى الخاص بالمجانين، أو المصابين بالأمراض العصبية.

ويمكن القول إن أول مستشفى أنشئ لمعالجة الجرحى والمصابين، هو خيمة رفيدة الأنصارية الأسلمية[١]، التي كانت تداوي جرحى معركة الخندق سنة خمس للهجرة/ ٦٢٦ للميلاد، وهذه الخيمة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بجعلها في المسجد. وعلى هذا الأساس فخيمة رفيدة هي أول مستشفى ميداني عسكري ظهر في الإسلام.

ومن الطبيعي أن يكون هذا الموضوع قد تَمّ على هذا الشكل؛ فقد خاض المسلمون في أوائل عصر الإسلام غزوات كثيرة، وكان فيها من يجرح أو يصاب، ومن الطبيعي أن يوجد من يهتم بعلاج المصابين والجرحى، وأن يوضع هؤلاء في مكانٍ خاصٍّ يُعالجون فيه، أو تقدم لهم الإسعافات الأولية، وبهذا تتوفر للمقاتلين الرعاية الطبّية.

ويذكر ابن قتيبة[٢] أن عبد الله بن الزبير، عندما حوصر في مكة داخل المسجد الحرام، من قِبَل الجيش الأموي، «ضرب فسطاطاً[٣] من ناحية المسجد؛ فكان كلما جُرِح أحدٌ من أصحابه أدخله ذلك الفسطاط»، وهذا يعني أيضاً إنشاء مستشفى عسكري ميداني لمداواة الجرحى والعناية بهم أثناء هذه الموقعة التي حصلت سنة ٦٤هـ/ ٦٨٣م.

ونستطيع أن نستنتج من خلال هذين الخبرين أن أول ما أنشئ من مراكز علاجية (مستشفيات) هي المستشفيات العسكرية الميدانية؛ وقياساً على

(١) العسقلاني: ابن حجر، الإصابة، ٤/ ٣٠٢ (طبعة دار صادر ـ بيروت).

(٢) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، تحقيق الدكتور طه الزيني، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، القاهرة (د.ت.) ٢/ ١١.

(٣) فسطاطاً: هي الخيمة الكبيرة من بيوت الشعر.

ذلك، فإن مثل هذه المستشفيات كان ملازماً لعمليات الفتوح الإسلاميّة كافة[١].

وبعد ذلك نرى نوعاً آخر من المستشفيات، ولعله مكان حَجْرٍ صحي؛ فقد رُوي أن الخليفة الأموي، الوليد بن عبد الملك (ت٩٦هـ ـ/ ٧١٤م) أنشأ سنة ٨٦هـ ـ/ ٧٠٦م بيمارستاناً لمعالجة المرضى بالجذام، (المجذمين) وهو مرض جلدي مُعْدٍ؛ وكانوا يمنعون من الخروج والاختلاط بالنَّاس حتى لا ينتقل المرض إليهم بالعدوى، لذا كانت تُجرى عليهم الأرزاق، وكانوا يعالجون مجاناً، وكان في البيمارستان أكثر من طبيب[٢].

وتغيب عنا المعلومات المتعلقة ببناء المستشفيات بعد ذلك، حتى نصل إلى عصر هارون الرشيد، ويُروى أن أول مستشفى أُسّس في بغداد كان في عهده، في أواخر القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، ثُمَّ يتم تأسيس عشر مستشفيات غيرها خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي[٣].

وفي مدن المشرق الإسلاميّ أنشئت المستشفيات لمعالجة المرضى، كالبيمارستان الذي أنشأه أبو سعد عبد الملك بن أبي عثمان الخركوشي (ت٤٠٦هـ/ ١٠١٥م) في نيسابور، ووقف عليه أوقافاً كثيرة، وكان به جماعة من أهل الخير يقومون بتمريض المرضى وشراء الأدوية لهم، ويستعينيون ببعض الأطباء في نيسابور. ويشار إلى بيمارستان آخر في نيسابور. ويبدو أن أهل ينسابور عرفوا تنظيم البيمارستانات منذ فترة مبكرة، وكان في بخارى دار

(١) الطبري: **تاريخ الطبري**، ٤٩٨/٥ (حوادث سنة ٦٤).

(٢) الطبري: م.ن، ٤٣٧/٦؛ و**الكامل في التاريخ**، لابن الأثير، ٢١٩/٤.

(٣) مظهر، جلال: **مآثر العرب على الحضارة الأوروبية**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٦٠، ص١٤٠.

مرضى (بيمارستان)، وربما حمل رئيس البيمارستان لقب «شيخ الأطباء»، كأبي يعلى حمزة بن عبد العزيز النيسابوري[1] (ت ٤٠٦هـ/ ١٠١٥م).

وكان يوجد في الريّ بيمارستان، وقد ذكرت سابقاً أن أبا بكر الرازي كان متولياً لتدبير هذا البيمارستان زماناً قبل انتقاله إلى البيمارستان العضدي في بغداد[2].

وكان عضد الدولة البويهي قد استشار أبا بكر الرازي في الموضع الذي يجب أن يُبنى فيه المارستان؛ فلجأ أبو بكر إلى طريقة لا يُنكرها عليه أصحاب نظرية الميكروب الحديثة، وذلك بأن علق قطعة لحم في عدة مواضع من بغداد، ثُمَّ اعتبر الموضع الذي لم يتغيّر ولم يفسد فيه اللحم بسرعة هو أفضل موضع لبناء البيمارستان[3].

١ ـ نظام البيمارستانات

لم يَغِب عن بال الأطباء أن يتبعوا نظاماً دقيقاً داخل المستشفيات، بحيث تقوم عملية الكشف عن المرضى ومعالجتهم على تدرّج أكاديمي يحقق فائدتين معاً: الأولى فائدة المرضى أنفسهم، بحيث يتم التعامل معهم وفق أفضل الأصول العلمية في المعالجة والكشف عن أمراضهم، والثانية فائدة العاملين في المستشفى من أطباء متدرجين في مهنة الطبّ أو حديثي عهدٍ بها، بحيث تكون البداية عند الطبيب المتمرّن الحديث العهد بالطبّ، فإن لم يُحْسِن تشخيص المرض ووصف العلاج المناسب، انتقلت المهمة إلى من هو أخبر منه وأعلم، وهكذا حتى تصل العملية إلى الطبيب الحاذق الماهر، أستاذ الجميع.

---

(١) الثامري: إحسان: **الحياة العلمية في زمن السامانيين**، ص١٧٨.

(٢) ابن أبي أصيبعه: **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، ص٤١٦.

(٣) ابن أبي أصيبعة: م.ن، ص٤١٥.

وصف رجل من أهل الري مجلس أبي بكر الرازي الطبّي، حيث يأتي إليه المرضى للكشف عليهم ووصف الدواء المناسب لهم. قال[١]: «كان الرازي يجلس في مجلسه، ودونه التلاميذ، ودونه تلاميذهم، ودونه تلاميذ أُخر؛ فكان يجيء الرجل؛ فيصف ما يجد [أي ما يعانيه من مرض أو ألم] لأول من يلقاه؛ فإن كان عندهم علم [طبّبوه]، وإلاَّ تعدّاهم إلى غيرهم؛ فإن أصابوا [وعرفوا الداء والدواء أُخِذ ذلك عنهم]، وإلاَّ تكلم الرازي في ذلك».

أليس هذا ما يحصل اليوم، وفي كبريات المستشفيات، حين يبدأ اتصال المريض بالطبيب المتمرن، ثُمَّ ينتقل إلى الطبيب الأخصائي، ثُمَّ بعد ذلك إلى الاستاذ في الطبّ؟

وكان البيمارستان يضم اختصاصات طبّية متنوعة، يقوم عليها أشهر الأطباء الذين يُجمعون من كل مكان؛ فهناك جماعة الطبائعيين، والكحالين [أطباء العيون] والجراحين، والمجبّرين؛ فعندما أراد عضد الدولة البويهي بناء البيمارستان العضدي الجديد، على طرف الجسر من الجانب الغربي من بغداد، كانت الأطباء الذين جمعهم فيه من كل موضع، وأمر الراتب منه أربعة وعشرون طبيباً[٢]، وكان من جماعتهم من يدرس فيه الطبّ، وجماعة طبائعيون، وكان في البيمارستان مع هؤلاء جماعة من الكحالين الفضلاء، ومن الجرائحيين أبو الخير وأبو الحسن بن تفاح وجماعته[٣]، ومن المجبرين[٤] المشار إليهم، أبو الصلت». وكان الرازي متولياً لتدبير هذا المارستان[٥].

---

(١) ابن أبي أصيبعه: **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، ص٤١٦.

(٢) يريد بذلك أن الأطباء المتفرغين للعمل في هذا المستشفى هم أربعة وعشرون طبيباً.

(٣) أي كان هناك فريق عمل طبي جراحي.

(٤) المجبرون: أطباء العظام.

(٥) ابن أبي أصيبعه: م.س، ص٤١٥ ـ ٤١٦.

وكان من الطبيعي أن يفصل بين الرجال والنساء في البيمارستان؛ فهناك جناح خاص لكل منهما يحتوي على قاعات واسعة وخدمات خاصّة. كذلك كان البيمارستان يضم أقساماً عدة، أو أجنحة، بحسب أنواع الأمراض، وهناك قاعات خاصّة للمرضى أو للمعالجة حسب طبيعة المرض؛ كما أن لكل جناح تخصصي طبيب مسؤول عن هذا الجناح، ومعه فريقه أو جماعته من الأطباء.

ومن الملاحق الضرورية التابعة للبيمارستان، الصيدلية، حيث كان يُصرف الدواء بناءً على وصفة الطبيب المعالج، يروي ابن أبي أصيبعة[(١)] «أن الرازي دخل إلى البيمارستان العضدي ليشاهده، فاتفق له أن ظفر برجلٍ، شيخ صيدلاني البيمارستان؛ فسأله عن الأدوية ومن كان المظهر لها في البدء».

وهذا يعني وجود أكثر من صيدلاني في المستشفى، وأن رئيسهم يسمى شيخ الصيادلة.

إن براعة الرازي في الطبّ جعلت عضد الدولة يعينه رئيساً للمستشفى العضدي الذي أنشأه؛ فقد اختاره من بين مائة طبيب، فجعله ساعور البيمارستان[(٢)].

٢ ـ اختلاف البيمارستانات باختلاف اختصاصاتها

أدرك الأطباء الأغراض المختلفة التي من أجلها يتم إنشاء المستشفيات، نظراً لمَا تمثله من أهمّية للمريض والطبيب معاً، ولاختلاف نوع الرعاية الطبّية التي يمكن أن تقدّم للمرضى، ولا شك أن متطلبات

(١) ابن أبي أصبيعه: **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، ص٤١٥.

(٢) ابن ابي أصبيعه: م.ن، ص ٤١٥. وساعور، كلمة سريانية (ساعورا) تعني متفقد المرضى أو رئيس المستشفى.

وأغراض المستشفى العسكري الميداني تختلف عن متطلبات وأغراض مستشفى الولادة مثلاً، أو مستشفى الأطفال، أو مستشفى المجذّمين الذين يُحجرون في غرف خاصّة، ويُمنع عنهم الاتصال المباشر بالنَّاس، خوفاً من نقل العدوى إليهم، وكذلك المستشفى الخاص بمرضى الأعصاب أو الأمراض العقلية أو النفسية أو ما شابه ذلك.

ولم تقتصر الرعاية الطبّية للنَّاس على المستشفيات باختلاف اختصاصاتها وأغراضها، بل تعدت إلى رعاية المساجين في سجونهم؛ فقد روى القفطي[1] ضمن ترجمة الطبيب سنان بن ثابت بن قرّة الحرّاني، أبو سعيد، الذي كان طبيباً مقدّماً كأبيه، وكان طبيب الخلفاء والوزراء والأمراء، «وكانت منزلة سنان كبيرة عند الأمراء والوزراء؛ فمن ذلك أن الوزير علي بن عيسى بن الجراح، وقّع إليه في سنة كثرت فيها الأمراض والأوبئة توقيعاً نسخته: فكرت، مَدَّ الله في عمرك، في أمر مَن في الحبوس، وأنَّهم لا يخلون، مع كثرة عددهم وجفاء أماكنهم، أن تنالهم الأمراض، وهم معوّقون من التصرف في منافعهم، ولقاء من يشاورونه من الأطباء في أمراضهم؛ فينبغي، أكرمك الله، أن تفرد لهم أطباء يدخلون إليهم في كل يوم، ويحملون معهم الأدوية والأشربة، وما يحتاجون إليه، وتتقدم إليهم بأن يدخلوا سائر الحبوس، ويعالجوا من فيها من المرضى، ويريحوا عللهم فيما يصفونه لهم، إن شاء الله تعالى؛ ففعل ذلك سنان».

وبما أن المستشفيات تكون عادة في المدن والعواصم؛ فإن أهل الأرياف والقرى قد يحرمون من الخدمات الطبّية التي يحتاجون إليها، والتي لا تتوفر في قراهم، وقد لا يكون لديهم القدرة على الذهاب إلى مستشفيات المدن للعلاج، لذا كان لا بُدّ من استحداث المستشفى النقّال أو المتجوّل في

---

(١) القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص١٣٢.

القرى والأرياف لمعالجة المرضى وتأمين الرعاية الصحية لهم؛ وهذا ما كان يحصل بالفعل؛ فقد أصدر الوزير علي بن عيسى بن الجراح تعليماته إلى كبير الأطباء، سنان بن ثابت بن قرّة الحراني، لتكوين أطقم طبّية والذهاب إلى القرى، والاطلاع على الحالة الصحية لأهلها، وتقديم ما يحتاجونه من رعاية وعلاج ودواء؛ فقد جاء في توقيع الوزير للطبيب سنان بن ثابت ما نصّه[1]: «فكرت فيمن بالسواد من أهله، وأنه لا يخلو من أن يكون فيه مرضى لا يشرف متطبّب عليهم، لخلو السواد من الأطباء؛ فَتَقَدَّمْ، مدّ الله في عمرك، بإنفاذ متطببين وخزانة من الأدوية والأشربة، يطوفون في السواد، ويقيمون في كل صقع منه مدة ما تدعو الحاجة إلى مقامهم، ويعالجون مَن فيه، ثُمَّ ينتقلون إلى غيره؛ ففعل سنان ذلك. ثُمَّ قاله له الوزير: أكتب إلى أصحابك، ووصّهم التنقل في القرى والمواضع التي فيها الأدواء الكثيرة والأمراض الفاشية».

٣ ـ اختيار أطباء البيمارستانات

ومن أهمّ مبادئ وأسس الرعاية الصحية اختيار الأطباء الأكفاء، الذين يتمتعون بالعلم والخبرة اللازمَيْن لمعالجة المرضى، لذا رأينا عضد الدولة عندما أراد إنشاء البيمارستان العضدي وتزويده بالأطباء، اختار خيرتهم. قال ابن أبي أصيبعة[2]: «إن عضد الدولة، لمّا بنى البيمارستان العضدي المنسوب إليه، قصد أن يكون فيه جماعة من أفاضل الأطباء وأعيانهم؛ فأمر أن يُحضروا له الأطباء المشهورين حينئذ ببغداد وأعمالها؛ فكانوا متوافرين على المائة؛ فاختار منهم نحو خمسين، بحسب ما علم من جودة أحوالهم وتمهّرهم في صناعة الطبّ؛ فكان الرازي منهم، ثُمَّ إنه اقتصر من هؤلاء أيضاً

(١) القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص١٣٢ ـ ١٣٣.

(٢) ابن أبي أصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص٤١٥.

على عشرة؛ فكان الرازي منهم، ثُمَّ اختار من العشرة ثلاثة؛ فكان الرازي أحدهم، ثُمَّ إنه ميّز فيما بينهم، فَبَان له أن الرازي أفضلهم، فجعله ساعور البيمارستان العضدي».

وكأن عضد الدولة أراد بهذا العمل أن يختار الأطباء المميّزين من بين أفاضل الأطباء، ليكونوا رؤساء أقسام أو أجنحة طبّية، ثُمَّ اختار ثلاثة من أميزهم، ليكونوا مسؤولين عن المستشفى، على أن يتولى رئاسة المستشفى أو إدارته أبو بكر الرازي.

إن اختيار أطباء المستشفيات هو مسؤولية خاصّة، تقع على عاتق من أنشأها، لكن عمل الأطباء عموماً، داخل المستشفيات أو خارجها، يجب أن يخضع لامتحان قبل ممارسة أي طبيب عمله، حتى يأخذ الإذن أو الإجازة بمزاولة المهنة.

ويخبرنا القفطي[١] أنه في سنة ٣١٩هـ ـ/ ٩٣١م، تناهى إلى علم الخليفة المقتدر، أن رجلاً من الأطباء غلط على رجل مريض فمات؛ فأمر محتسبه[٢] بمنع جميع الأطباء من العمل، إلاَّ من امتحنه سنان بن ثابت[٣]، وكتب له رقعة بما يطلق له التصرّف فيه من الصناعة، وأمر سناناً بامتحانهم، وأن يطلق لكل واحد منهم ما يصلح أن يتصرّف فيه من الصناعة، وقد بلغ عدد الأطباء الممتحنين أكثر من ٨٦٠ طبيباً، سوى من استغنى عن امتحانه باشتهاره بالتقدّم في الصناعة، وسوى من كان في خدمة السلطان.

* * *

(١) القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص١٣٠.

(٢) المحتسب: موظف مكلّف من قبل الدولة بضبط الأعمال والصناعات ومنع الغش فيها.

(٣) سنان بن ثابت: الطبيب الخاص بالخليفة المقتدر.

المبحث الثاني

الصيدلة والكيمياء

أولاً: الصيدلة

أو الصيدنة، هي معرفة الأدوية المستعملة للعلاج، خواصها وتركيبها وكيفية استعمالها. ولفظ الصيدلة هندي معرّب، ذلك أن أصل الكلمة جندل أو جندن، ثُمَّ قلبت الجيم صاداً؛ فصارت صندل أو صندن، والصندل هو خشب العطر المجلوب من الهند. يقول البيروني[1]: «إن الصيدلاني أو الصيدناني، مُعرّب من جند لالي أو جندلاني، إذ لم تكن العرب تُفرد له اسماً أو نسبة أو لقباً، وكأنهم كانوا يزهدون في الصندل، فنقلوا هذا الاسم المعرّب من مزاولي العطر إلى مزاولي الأدوية».

وفي كتب اللغة[2]: صيدلان، والنسبة صيدلاني، وصندلاني، وصيدناني، والجمع: صيادلة، منسوبان إلى بيع العطر، وهو الصيدلة.

والصندل: شجر طيب الرائحة، والصندلاني، لغة في الصيدلاني[3]. وعرّف البيروني الصيدلي بقوله[4]: «الصيدلي هو المحترف بجمع الأدوية على أحد صورها، واختيار الأجود من أنواعها، مفردةً ومركبة على أفضل التراكيب التي خلّدها له مبرّزو أهل الطب.

---

(١) محمود، يوسف: **الإنجازات العلمية في الحضارة الإسلامية**، دار وائل للنشر، عمان، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٧، ص١٦٣، نقلاً عن البيروني.

(٢) الفيروز آبادي: **القاموس المحيط**، ٤/ ٢ (مادة صيدلان).

(٣) الرازي، محمد بن أبي بكر: **مختار الصّحاح**، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٧م، ص٣٧١.

(٤) أبو خليل، شوقي: **الحضارة العربيّة الإسلامية**، طرابلس ـ ليبيا، (د.ت) ـ ص٣٠٧.

١ ـ أنواع ومصادر الأدوية

أمَّا الأدوية نوعان: الأدوية المفردة هي العقاقير، والمركبة هي الأقرباذين.

مصادر الأدوية عموماً فهي مواد نباتية وحيوانية ومعدنية؛ فالمواد النباتية هي حجر الأساس لمّا عُرِفَ بطب الأعشاب، والقائم بهذا العمل يسمى «العشاب»، والقائم بهذا العمل انطلاقاً من النباتات العطرية يسمى «العطار»، وقد غلب هذا الاسم على الصيدلي عموماً، وما زالت هذه اللفظة تستعمل حتى اليوم.

ومن النباتات الطبّية عرف المسلمون البابونج واليانسون والكمّون والنعناع والزعتر، وهي طاردة للغازات من البطن، والخشخاش والأفيون لتسكين الألم، والحنظل والصبّار والخروع والسنامكي، كنباتات مُلينة، وحَبّ الهال والشّبت هاضمين وفاتحين للشهية، والزعتر وقشر الرمان لطرد الديدان من البطن، والثوم للوقاية من الالتهابات؛ وقد ورد في كتاب «القانون في الطبّ، لابن سينا أن ورق الثوم وساقه مدر للبول والطمث»[١].

ومن المواد الحيوانية عرف المسلمون عسل النحل، واللبن، والقشدة (القشطة) وكبد الحيوانات، حيث اعتبروه علاجاً لضعف البصر.

ومن المواد المعدنية، استخدموا الشبّ (الشبّة) والنطرون، وأملاح النحاس، وأملاح الأنتيمون، وأملاح الرصاص، واستخدمت هذه المواد لتركيب بعض أنواع الأدوية؛ من هنا كان ارتباط الصيدلة بالكيمياء ارتباطاً وثيقاً، وكذلك ارتباط الطب بهما، لذا رأينا كبار الأطباء يؤلفون كتباً في الصيدلة والكيمياء والطبّ؛ فالأدوية، خاصّة المركبة، تحتاج إلى معالجة

---

(١) سليمان، مصطفى: تاريخ العلوم، والتكنولوجيا في العصور الوسطى والقديمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ٢٠٠٦، ص٢١٧.

وإلى نسب في التركيب، وإلى معرفة تأثيرها، وكل هذا يقتضي المعرفة بالكيمياء.

٢ ـ ارتباط الصيدلة بالطبّ

كان الطبيب في الوقت نفسه صيدلياً، على معرفة تامَّة بالأعشاب الطبّية وفوائدها وخصائصها وكيفية استخدامها، وهذا ما وجدناه عند معظم الأطباء، خاصّة في القرنين الثالث والرابع للهجرة/ التاسع والعاشر للميلاد. وكان الأطباء روّاداً في علم الصيدلة، والدليل على ذلك العقاقير التي اكتشفها هؤلاء الأطباء، وتعدد أنواعها واستخداماتها؛ فقد برعوا في معرفة الأدوية، سواء أكانت من أصل نباتي أو حيواني أو معدني.

لقد ارتبطت الصيدلة بالطبّ ارتباطاً وثيقاً، وقلّما نجد كتاباً في الطبّ يخلو من الحديث عن الأدوية وتركيبها ومنافعها، وهذه الكتب تُعدُّ بالمئات، وهي تضم أيضاً معلومات تتعلق بالكيمياء، أو يُفرد الطبيب المؤلف كتباً خاصّة بالكيمياء. وها هو الرازي مثلاً يصنف أكثر من عشرة كتب في الكيمياء، إضافة إلى كتبه في الطبّ والصيدلة.

يقول الرازي(١): إن صناعة الصيدلة إذا انضمّت معرفتها للطبيب على علمه كان أفضل، فإنَّها شديدة الالتصاق بصناعة الطبّ.

ويبدو أن هذا الاتصال التام بين الطبّ والصيدلة، ثُمَّ بينهما وبين الكيمياء، بدأ يشهد انفصالاً شيئاً فشيئاً؛ فقد بدأ الانفصال بين الطبّ والصيدلة، ووجدنا في المستشفى العضدي من يُسمّى بشيخ الصيادلة، الذي سأله الرازي عن الأدوية؛ فقد صار الصيدلي يهتم بالدواء وتركيبه من

(١) الرازي، أبو بكر محمد بن زكريا: **الحاوي في الطبّ**، تصحيح السيد عبد الوهاب شرف الدين، ومحمد عبد المعين خان، طبعة حيدر أباد ـ الدكن، دائرة المعارف الإسلاميّة، ١٩٧٧ ـ ج٢ ـ ص٢ (في الصيدلة).

الأعشاب الطبّية، أو من المصادر الحيوانية أو المعدنية، وهذا لا يمنع وجود أطباء يتقنون الصيدلة ويمارسونها.

كذلك ظهرت صيدليات داخل المستشفيات أو بجوارها تابعة لها أو مستقلة عنها، بحيث أصبحت الصيدلة مهنة مستقلة بذاتها، والقائم عليها هو الصيدلي أو الصيدلاني، أو العشّاب أو العطّار، وكلها مسمّيات ذات دلالة واحدة.

وكان المحتسب يتولّى الإشراف على الأسواق، ومن ضمن مهماته التي يكلّف بها، كان عليه أن يراقب الصيدليات وعملها، ومطابقة الأدوية في تركيبها للأسس العلمية الواجبة، كما عليه أن يراقب الصيدلي عندما يعطي المريض الدواء الذي يجب أن يكون مطابقاً لما كتبه الطبيب أو قرّره له[(١)].

وكما رأينا سابقاً أن مزاولة مهنة الطبّ استوجبت إجراء امتحان كفاءة لإعطاء الطبيب شهادة أو إذن مزاولة المهنة، كذلك كان على الصيدلي أن ينجح في امتحان خاص لمعرفة مقدرته وعلمه في اختصاصه[(٢)].

٣ ـ أشهر الصيادلة وأهم مؤلفاتهم

(١) الرازي[(٣)]:

لقد حقق العلماء في القرن الرابع للهجرة، إنجازات كبيرة في علم الصيدلة لم يحققها أحد من قبل، خاصّة الرازي، فهو أوّل من عمل مراهم الزئبق، كما استخدم الأفيون في حالات السعال الشديد والجاف، وفي

---

(١) كرم، أحمد: **التراث العلمي للحضارة الإسلامية**، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة ـ الطبعة الأولى ـ ٢٠٠٤ ـ ص٦٢٤.

(٢) فروخ، عمر: **تاريخ العلوم عند العرب**، ص٢٩٥.

(٣) كرم، أحمد: م.س، ص٦٣٢.

حالات الإسهال الحاد، وعالج مرض السلّ بالحليب والسكّر، وعالج التهاب الصدر بالخمرة.

كذلك أدخل الرازي إلى علم الصيدلة استعمال المُلينات، وتطبيق المركبات الكيميائية على صناعة الأدوية. ويعتبر الرازي دون شك، مؤسس علمَيْ الكيمياء العلاجية والعقاقير؛ ولعل أهمّ منجزاته في الكيمياء العلاجية تتلخص في قناعته التامّة في أن شفاء المريض يرجع إلى إثارة التفاعلات الكيميائية داخل جسم الإنسان. كما ميّز بين الصيدلة والطبّ، وبين عمل الصيدلي وعمل الطبيب، وحاجة كل منهما إلى الآخر، وخالف الرأي القائل بأن الصيدلة فرع من فروع الطبّ، وأن على الطبيب واجب معرفة الأدوية والعقاقير بالشكل الذي يعرفه الصيدلي. وقال: إن المعرفة بالأدوية وتمييزها، جيّدها ورديئها، وخالصها ومغشوشها، وإن كان ليس بلازم ضرورة، كما يحسبه جهّال النَّاس، فهو أجرى وأزين بها (أي بمهنة الطبّ)، ولذلك رأيت أن أجمع هذا الفن ـ وإن لم يكن جزءاً من الطبّ ضرورياً ـ في كتاب يخصه، ليعرف ويجتمع الذي خصصها، كل واحد منها بكتاب[١].

لقد عرض الرازي في كتابه «الحاوي» لكل الأمور المتعلقة بالأدوية؛ فقد وردت فيه وصفات طبّية كثيرة لمعالجة كثير من الأمراض، وخصص الجزء الثاني والعشرون للأدوية.

وكان الرازي يجرّب كل العقاقير الجديدة التي يصنعها قبل أن يصفها للنَّاس فيدرس تأثيرها على الحيوان، ويخلص إلى النتائج التي يستصوبها.

إضافة إلى ما ذكرناه عن أبي بكر الرازي وابن سينا، وجهودهما في الطبّ والصيدلة، والدور الكبير الذي لعباه في تطوير صناعة الدواء[٢]، نذكر

---

(١) الرازي: **الحاوي في الطبّ**، ج٢ ـ ص١ (في الصيدلة).

(٢) راجع ما ذكرناه سابقاً عنهما في مبحث الطبّ .

الآن عدداً من العلماء الذين ألّفوا في صناعة الدواء، وإن كانت شهرتهم في الطبّ أحياناً تتجاوز شهرتهم في الصيدلة.

(٢) **أبو الريحان البيروني**: هو أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني، نسبة إلى بيرون، وهي مدينة في السند[١].

ولد البيروني سنة ٣٦٣هـ/ ٩٧٣م[٢]. كان مشتغلاً بالعلوم الحكمية، فاضلاً في علم الهيئة والنجوم، وله نظر جيّد في صناعة الطبّ، كان معاصراً لابن سينا، وبينهما محادثات ومراسلات، وقد أقام البيروني بخوارزم، ثُمَّ ارتحل عنها إلى جرجان، وبعدها رجع إلى خوارزم. ولمّا وقعت خوارزم بيد سبكتكين اضطر البيروني للارتحال إلى الهند، وكان على علاقة ممتازة بالسلطان مسعود بن محمود الغزنوي.

توفي البيروني في عشر الثلاثين والأربعمائة كما يقول ابن أبي أصيبعة، ٤٣٠هـ/١٠٣٨م، ويقال إنه توفي سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م أو ٤٥٠/ ١٠٥٨م[٣]. ولأبي ريحان البيروني العديد من الكتب في الفلك والتنجيم والتاريخ والجغرافيا والفلسفة والرياضيات والطبيعيات، والطب والصيدلة.

وما يعنينا هنا كتابه «الصيدلة أو الصيدنة في الطّب»، كتبه بالفارسية[٤] وقد «استقصى فيه البيروني ماهيات الأدوية ومعرفة أسمائها، واختلاف آراء المتقدمين، وما تكلم كل واحد من الأطباء وغيرهم فيه، وقد رتّبه على حروف المعجم[٥]، وهو يذكر اسم الدواء وما يرادفه بالعربيّة، ثُمَّ يتبعه

---

(١) ابن أبي أصيبعه: **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، ص٤٥٩.

(٢) الجيوسي، مصطفى: **موسوعة علماء العرب والمسلمين وأعلامهم**، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ٢٠٠٥، ص١٣٤.

(٣) الجيوسي: م.ن، ص١٣٤ .

(٤) فتحي، مصطفى: **موسوعة أعلام الحضارة الإسلامية**، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ٢٠٠١ م، ص١٢٥.

(٥) ابن أبي أصيبعه: م.س، ص٤٥٩.

بالأسماء التي تقابله باللغات الأخرى كاليونانية والسريانية والهندية، ثُمَّ يذكر خواص كل دواء وأوصافه وأنواعه وموطنه، وإذا كان نباتاً أشار إلى استنباته ونموّه وحفظه، وما إلى ذلك من الأمور المتعلقة به(١).

وتبدو أهمّية كتاب البيروني في الأمور التالية(٢):

١ ـ تأكيده على عدم الاستخدام الخاطئ للأدوية، سواء أكان ذلك من جهة استخدام الدواء غير الملائم، أو من جهة الاستخدام المفرط للدواء الملائم.

٢ ـ فصله بين العلاج بالأغذية المناسبة، والعلاج بالأدوية، يقول البيروني: كل ما يمتصّه الإنسان، إرادياً أو بدون وعي، ينقسم في بادئ الأمر إلى غذاء وسموم، وبين الاثنين مستفيداً العلاج. ولهذا يؤثر الجسم على الأطعمة، ثُمَّ يتأثر بها مستفيداً منها. أمَّا الأدوية فهي مُخَرّبة إذا قورنت بالأطعمة، وهي شافية إذا قورنت بالسموم، ومفعولها الصحّي الثنائي لا يظهر إلاَّ من خلال الاستعمال الذي يفرضه الطبيب البارع الحريص؛ ولهذا يوجد بين الأدوية والأطعمة ما يُسمى بالغذاء الدوائي، وبين الأطعمة والسموم ما يسمى بالدواء السام.

٣ ـ تضمّنه معلومات تفصيلية جديدة عن بعض الأدوية غير المعروفة للسابقين، وهي من اكتشافاته، مثل ما يذكره عن الدواء المعروف باسم بلسم مكة.

٤ ـ نقده لبعض كتب الرازي في الصيدلة، واستعمالات بعض الأدوية.

يقول البيروني: «كنت قد طالعت للرازي كتابيه في الصيدلة والإبدال

---

(١) الثامري، إحسان: **الحياة العلمية في زمن السامانيين**، ص١٨٢.

(٢) محمود، يوسف: **الإنجازات العلمية في الحضارة الإسلامية**، ص١٦٦.

(أي كتاب إبدال الأدوية المستعملة في الطبّ)؛ فلم أفز منهما بالكفاية؛ فأضفت بعض ما عندي إلى ما فيهما تذكرة لنفسي، ثُمَّ لمن جانسني بحب الفضيلة واقتفائها».

(٣) ابن مَنْدَويَه الأصفهاني[1]

هو أبو علي أحمد بن عبد الرحمن بن مندويه، من الأطباء المذكورين، وخدم هنالك جماعة من ملوكها ورؤسائها، وكانت له أعمال مشهورة مشكورة في صناعة الطب، وكان من البيوتات الأجلاء بأصفهان.

ولأبي علي بن مندويه الأصفهاني من الكتب رسائل عدّة، من ذلك أربعون رسالة مشهورة إلى جماعة من أصحابه في الطبّ، من بينها مجموعة رسائل في الصيدلة وعلاج المرضى، وهي:

رسالة في علاج الحكّة العارضة، رسالة في فعل الأشربة في الجسد، رسالة في وصف مسكر الشرب ومنافعه ومضاره، رسالة في علاج البثور بماء الجبن، رسالة في منافع الفقاع ومضاره، رسالة في التمر هندي، رسالة في الكافور، رسالة في إنكار دخول لعاب بزر الكتان في أدوية الحقنة، رسالة في شأن التكميد بالجاورس. وله أيضاً: كتاب الأطعمة والأشربة. توفي ابن مندويه سنة ٤١٠هـ/ ١٠١٩م.

ثانياً: الكيمياء وأهم إنجازات المسلمين فيها

الكيمياء هي إحدى العلوم الطبيعية التي عرفها الإنسان ومارسها منذ وقت بعيد، وقد ارتبط هذا العلم في الحضارات القديمة، بالمعادن والتعدين وصناعة الأصباغ والألوان، وصناعة الطبّ والأدوية، وبعض الصناعات

---

(١) ابن أبي أصيبعه، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٤٥٩ ـ ٤٦١؛ والقفطي: أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص٢٨٥.

الأخرى كدباغة الجلود وصباغة الأقمشة، وما شاكل؛ وما يعنينا من الكيمياء هو ما يتعلق بتصنيع الدواء.

أمَّا لفظة كيمياء Chemistry؛ فقد تعددت الآراء حول أصلها ومدلولها فقد ذكر الخوارزمي[1] (ت٣٨٧هـ ـ/ ٩٩٧م)، أن كلمة كيمياء مشتقة من الكلمة العربيَّة كمى، ومعناها خفي واستتر، لأن هذا العلم كان متداولاً بين طائفة من النَّاس دون غيرها، بسبب الاعتقاد الذي سيطر على عقول النَّاس طيلة العصور الوسطى، وهو إمكانية تحويل المعادن البخسة إلى ذهب وفضة، وتحضير أكسير الحياة، ذلك السائل السحري الذي يعيد الصحة والشباب للإنسان.

وقد اهتمّ بعض العلماء العرب المسلمين بترجمة كتب الكيمياء من اللغة اليونانية إلى اللغة العربيَّة، وذلك منذ القرن الأول للهجرة/ السابع للميلاد، وكانت فكرة الاكسير وحجر الفلاسفة وتحويل المعادن البخسة إلى ذهب وفضة، ونظرية العناصر الأربعة (الماء، والهواء، والنار، والتراب) وكيفياتها الأربعة (الحرارة، البرودة، الرطوبة، اليبوسة). أهمّ ما نقله العرب عن كيمياء الإغريق، وشكلت هذه الأفكار جانباً كبيراً من فكر وفلسفة علماء وفلاسفة الحضارة الإسلاميّة في قرونها الأولى.

وأول من اهتمّ بعلم الكيمياء خالد بن يزيد بن معاوية (ت٨٥هـ ـ/ ٧٠٤م) الذي زهد في الخلافة، وعشق العلم، فأحضر جماعة من فلاسفة اليونان، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة ـ صنعة الكيمياء ـ من اللغة القبطية واللغة اليونانية، إلى اللغة العربيَّة، وأخذ خالد الكيمياء عن مريانوس الرومي.

وقد انقسم العلماء بشأن موضوعَيْ اكسير الحياة وحجر الفلاسفة إلى

(١) الخوارزمي، أبو عبد الله محمد بن أحمد: **مفاتيح العلوم**، إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة.

فريقين، يرى الفريق الأول إمكانية تحويل المعادن البخسة إلى ذهب، وكان على رأس هذا الفريق جابر بن حيّان (١٢٠ / ١٩٨هـ ـ/٧٣٨ ـ ٨١٣م) شيخ الكيميائيين العرب، والذي عُرِفَت الكيمياء في عصره بصنعة جابر، وقد تبعه في ذلك أبو بكر الرازي، فهو يقول[١]: «أنا لا أسمّي فيلسوفاً إلا من كان قد علم صنعة الكيمياء، لأنه قد استغنى عن التكسّب من أوساخ النَّاس، وتنزّه عمّا في أيديهم، ولم يحتج إليهم».

ويذكر ابن أبي أصيبعة[٢] «أن الرازي كان قد باع لقوم من الروم سبائك ذهب وساروا بها إلى بلادهم، ثُمَّ إنهم بعد ذلك بسنين عدّة وجدوها وقد تغير لونها بعض التغير، وتبين لهم زيفها، فجاؤوا بها إليه، وألزموه بردّها»[٣].

أما الفريق الثاني الذي رفض هذه الفكرة رفضاً قاطعاً فمنهم الشيخ الرئيس ابن سينا (٣٧١ ـ ٤٢٨هـ/ ٩٨٠ ـ ١٠٣٦م)، وقبله رفضها فيلسوف العربّ يعقوب الكندي. ورغم إيمان جابر بن حيّان بفكرة الاكسير إلاً أنه ألمح إلى صعوبة الحصول على الإكسير، وغالى في ذكاء من يتمكن من الحصول عليه بدرجة يصعب تحقيقها، بل ويجعلها في عداد المستحيلات[٤].

وحاول ابن سينا إقامة الحجة في كتابه «الشفاء»، على بطلان تحويل المعادن البخسة إلى ذهب،، أو صبغ النحاس بصبغ الفضة والفضّة بصبغ الذهب، وذلك بقوله[٥]: «وما الصفات التي يقال عنها إنَّها إذا أضيفت أو

(١) ابن أبي أصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص٤١٩.
(٢) ابن أبي أصيبعه: م.ن، ص٤١٩.
(٣) ابن أبي أصيبعه: م.س، ص٤١٩.
(٤) سليمان مصطفى: تاريخ العلوم والتكنولوجيا، ص٢٠١.
(٥) سليمان مصطفى: م.ن، ص٢٠٣.

حذفت تحوّلت الأشياء إلى بعضها البعض، إلاّ صفات محسوسة عرضية، وليست فواصل حقيقية، تميز نوعاً من نوع، إذ الفواصل الحقيقية مجهولة، وإذا كان الشيء مجهولاً؛ فإنّما يستحيل إيجاده أو إفناؤه بتدابير معيّنة».

ومن أهمّ إنجازات المسلمين وإضافاتهم إلى علم الكيمياء هو اتباعهم منهجاً استقرائياً سليماً، يعتمد على التجربة العملية، والمشاهدة والاستنتاج، وخالفوا بذلك المنهج الاستنباطي الفلسفي الذي كان سائداً عن الإغريق، مع تأكيدهم أن العلم والمعرفة المسبقة شرطان من شروط نجاح التجارب العلمية، التي تتطلّب التأني وعدم التسرّع في الاستنتاج، والتحلي بالصبر والمثابرة على إجراء التجارب.

ومن مآثر العلماء المسلمين في الكيمياء، أنّهم عرفوا طرق التقطير والترشيح والتكليس والتحويل والتبخر والتذويب والتبلور، واكتشفوا الكحول والقلويات، والنشادر، ونترات الفضة «حجر جهنم»، والبورق «البوريك» والزرنيخ، وحامض الكبريت «زيت الزاج»، والبوتاس والسنامكي، والكافور، والصندل، وأدخلوا كل هذه الأشياء في تجاربهم العلمية وصناعاتهم الطبّية.

وتوصّل ابن سينا إلى تغليف الحبوب التي يصفها علاجاً للمرضى، منعاً من مرارتها، وعملوا الترياق المؤلف من عشرات الأدوية، وهم أول من استعمل المُرَقِّد «المنوّم» من الأفيون والزيوان والخشخاش، للتخدير عند إجراء العمليات الصعبة.

ولو عدنا إلى مؤلفات أبي بكر الرازي في الكيمياء (الصنعة) نجد أنها بلغت ستة عشر مؤلفاً هي:

١ ـ كتاب المدخل التعليمي.

٢ ـ كتاب المدخل البرهاني.



٣ ـ كتاب الإثبات.

٤ ـ كتاب التدبير

٥ ـ كتاب الحجر.

٦ ـ كتاب الإكسير عشرة أبواب.

٧ ـ كتاب شرف الصناعة وفضلها.

٨ ـ كتاب الترتيب.

٩ ـ كتاب التدابير.

١٠ ـ كتاب الشواهد ونكت الرموز.

١١ ـ كتاب المحبّة.

١٢ ـ كتاب الحيل.

١٣ ـ كتاب الأحجار يبيّن فيه الإيضاح عن الشيء الذي يكون في هذا العمل.

١٤ ـ كتاب الحجر الأصفر.

١٥ ـ كتاب سر الأسرار.

١٦ ـ كتاب في الرد على الكندي في إدخاله صناعة الكيمياء في الممتنع.

إن هذه المؤلفات، وإن كنّا لا نملك معلومات وافية عن محتواها، نستطيع القول، من خلال عناوينها وعددها، إن الرازي كان عالماً كبيراً من علماء الكيمياء، وإنه استطاع أن يُسَخر علمه في هذه الصناعة، لصناعة الأدوية وتركيبها، فكان بحق أول من أدرك الأثر الكيميائي للعلاج؛ فكان أول الأطباء الكيميائيين.

ثالثاً: ارتباط الصيدلة بالكيمياء

من خلال ما سبق يمكننا القول إن ارتباط الصيدلة بالكيمياء هو ارتباط

مباشر وعضوي، خاصّة عندما تحدث العلماء كالرازي والبيروني عن العلاقة الوثيقة بينهما في تركيب الأدوية وبيان تأثيراتها الكيمياوية على الجسم، وبالتالي على الشفاء من الأمراض؛ فكانت الكيمياء العلاجية تعتمد اعتماداً مباشراً في صناعة الأدوية المركبة (الأقرباذين) بعد أن صنّف الرازي المواد الكيميائية التي يمكن استعمالها في العلاج، أي في صناعة الدواء، معتمداً على خواص المركبات الكيميائية؛ وهو بلا شك يعتبر مؤسس علمَيْ الكيمياء العلاجية والعقاقير المركبة، خاصة بعد أن استطاع تقسيم المواد الكيماوية المستعملة في الأدوية وغيرها إلى مواد ترابية، ونباتية، وحيوانية.

لقد كان الرازي على قناعة تامة في أنّ شفاء المريض يرجع إلى إثارة التفاعلات الكيماوية داخل جسم الإنسان والتي تسببها الأغذية أو الأدوية عندما تتفاعل كيماوياً مع الجسم، وهذه النظرية هي أهمّ نظريات العلم الحديث في صناعة الدواء.

وأودّ أن أختم الحديث عن العلوم الطبّية (الطبّ، والصيدلة، والكيمياء العلاجية) بما ذكره المستشرق غوستاف لوبون في كتابه «حضارة العرب»، تحت عنوان: «تقدم العرب في الطبّ»[1].

«إن أهمّ تقدم للعرب في عالم الطبّ هو ما كان في الجراحة، ووصف الأمراض، وأنواع الأدوية والصيدلة. والطبّ مدين للعرب بعقاقير كثيرة... وهو مدين لهم أيضاً بفن الصيدلة، وبكثير من المستحضرات التي لا تزال تستعمل، كالأشربة، واللعوق، واللزقات، والمراهم، والدهان، والمياه المقطرة، وإلخ...

والطبّ مدين لهم كذلك بطرق طريفة في المداواة، منها طريقة

(١) غوستاف لوبون: حضارة العرب، ص٤٩٤.

امتصاص بعضِ النباتات بعضَ الأدوية، كمعالجة المرضى المصابين بالقبض (الإمساك) بإطعامهم عنباً أُشْرِبَ من بعض المُسهِّلات.

وعلم الجراحة مدين للعرب أيضاً بكثير من مبتكراته الأساسية، وظلت كتبهم فيه مرجعاً للدراسة في كليات الطبّ، ومن ذلك أن العرب كانوا يعرفون معالجة غشاوة العين بخفض العدسة أو إخراجها، وكانوا يعرفون عملية تفتيت حصى المثانة، وكانوا يعرفون صب الماء البارد لقطع النزف، وكانوا يعرفون الكاويات، والفتائل، وكانوا يعرفون المُرقِّد، (أي المُنَوِّم أو المُخَدِّر) لتنويم المريض قبل إجراء العمليات المؤلمة، حيث يفقد وعيه وحواسه».

إن الشرارة الأولى التي أضاءت أنوار الحضارة الإسلامية في مجالات العلوم عامة، والعلوم الطبية خاصة، هي تلك الترجمات لكتب الطب والصيدلة وسواها، التي سعى المسلمون للحصول عليها من مكتبة التراث اليوناني والفارسي والهندي القديم. فقد قام بعض الأطباء ممن يجيدون اللغات القديمة بنقل هذه الكتب إلى العربية، بناء على طلب الخلفاء أو الأمراء، أو بناء لرغبتهم في الاطلاع على المزيد من المعارف الطبية التي اشتهر فيها القدماء.

وبعد اطّلاع العلماء على هذه الكتب، استطاعوا أن يستوعبوا ما جاء فيها، وأن يمارسوا عملهم اعتماداً على ما اقتبسوه منها؛ لكن ممارستهم وتجاربهم واجتهادهم، كل ذلك ساهم في الوصول إلى المزيد من الحقائق العلمية في مجالي الطب والصيدلة، ثم الصيدلة والكيمياء، فبرعوا وأبدعوا، ونقلوا تجاربهم ومعارفهم إلى غيرهم عن طريق ما ألّفوه من كتب كثيرة، بقيت على مرّ الزمان، شاهدة على وعيهم العلمي والطبي، وتقدّمهم إلى المصاف الأول.

إن امتزاج الطب بالصيدلة والكيمياء ساهم مساهمة فعّالة في تقدم هذه العلوم معاً، فكل واحدٍ منها كان يخدم العلمين الآخرين؛ كذلك فإن العلماء والأطباء، قد تعددت مشاربهم الثقافية، وتنوّعت دياناتهم وأعراقهم، وكلهم ساهموا مساهمة فعالة في تطور علوم الطب والصيدلة والكيمياء، وكان لهؤلاء جميعاً الفضل في إنشاء المستشفيات العامة والتخصصية، واكتشاف أنواع كثيرة من الأدوية لعلاج المرضى. ولعل أبرز ما توصل إليه العلماء والأطباء معرفة الطب العلاجي والطب الوقائي، والجراحة الدقيقة، واستعمال التخدير في العمليات الجراحية، وكذلك تركيب الأدوية وتصنيعها من الأعشاب ومن المواد الأخرى.

ومن المنارات التي أضاءت دروب الطب والأطباء، وبقيت شاهدة على النهضة العلمية والطبية في القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، والتي بقيت أيضاً مصدراً أساسياً لعلم الطب في الغرب، نذكر آل بختيشوع، وآل الجرّاحي، وأبا بكر الرازي، صاحب المؤلفات القيّمة، وابن سينا، أشهر الأطباء في تاريخ الطب، حيث كانت مؤلفاته تطبّع وتُدرّس بالعربية في جامعات فرنسا وإسبانيا وإيطاليا حتى منتصف القرن الثامن عشر للميلاد.

لقد بلغ الطب والصيدلة والكيمياء، في القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، ذرى المجد، وبقي أثر الأطباء والعلماء خالداً، وسيبقى أبد الدهر، دليلاً على فضل علمائنا على تاريخ الطب وتطوّر علومه.

* * *

العلوم الرياضية

تعريف العلوم الرياضية

عرّف العرب العلم الرياضي بأنه علم غرضه إدراك المقادير، وأطلقوه على الحساب، والجبر، والمقابلة، والمثلثات، والهندسة، والفلك[١].

ولو عدنا إلى مقدمة ابن خلدون[٢] لرأينا تقسيمه لهذه العلوم تنطلق من مفهوم النظر في المقادير.

فعلم النظر في المقادير عنده يشتمل على أربعة علوم:

أولها: علم الهندسة، وهو النظر في المقادير على الإطلاق، وما يعرض لها، إما من حيث ذاتها، أو من حيث نسبة بعضها إلى بعض.

وثانيها: علم الأرثماطيقي، وهو معرفة ما يعرض للكم المنفصل الذي هو العدّ، ويؤخذ له من الخواص والعوارض اللاحقة.

وثالثها: علم الموسيقى، وهو معرفة نِسَب الأصوات والنّغم بعضها من بعض، وتقديرها بالعدد، وثمرته معرفة تلاحين الغناء.

ورابعها: علم الهيئة، وهو تعيين الأشكال للأفلاك، وحصر أوضاعها وتعددها لكل كوكب من الكواكب السيارة. . .

(١) ابن خلدون: **المقدمة**، ص٤٧٨ ـ ٤٨٢.

(٢) حاجي خليفة: **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، ١/ ٩٣٩.

ثم يعود ابن خلدون ليجعل الأولية للأرثماطيقي، ثُمَّ الهندسة، ثُمَّ الهيئة، ثُمَّ الموسيقى.

فالأرثماطيقي هو علم العدد، ومن فروعه:

(أ) علم الحساب.

(ب) علم الفرائض.

(ج) علم المعاملات.

ويتفرع عن علم الحساب الجبر والمقابلة، وعلم الهيئة (الفلك)، ومن فروعه:

الأزياج، ومن فروعها: النظر في النجوم.

كذلك اعتبرت العلوم الرياضية قسماً من أقسام الحكمة النظرية؛ فالعلم الرياضي: هو علم باحث عن أمور مادية يمكن تجريدها عن المادة في البحث؛ سُمي به لأن من عادات الحكماء أن يرتاضوا به في مبدأ تعاليمهم إلى صبيانهم؛ ولذا يسمى علماً تعليمياً أيضاً، وله أصول، ولكل منها فروع؛ فأصوله: الهندسة، والهيئة، والحساب، والموسيقى[1].

وقد شكلت العلوم الرياضية جزءاً مهماً من ناحية موقعها العام بالنسبة لبقية العلوم الأخرى، لَمَا لها من أهمّية واضحة وملموسة في فهم تلك العلوم؛ فالعلوم الرياضية عند ابن خلدون[2] هي أحد العلوم الأربعة التي يجب تعلّمها، والتي هي طبيعية للإنسان من حيث إنه ذو فكر، وهذه العلوم هي:

---

(١) ابن خلدون: **المقدمة**، ص٤٧٨.

(٢) يرى الكندي أن هذه العلوم خمسة: (١) العدد، (٢) الهندسة، (٣) النجوم، (٤)الموسيقى، (٥) التأليف الموسيقي. بينما يرى ابن سينا أنها أربعة بعد أن أسقط التأليف الموسيقي. =

١ ـ علم المنطق.

٢ ـ العلم الطبيعي (الطبيعيات).

٣ ـ العلم الإلهي (أي ما وراء الطبيعة، أو الإلهيات).

٤ ـ العلم الناظر في المقادير (الرياضيات).

أمَّا العلوم الرياضية، فقد قسمها العرب تقسيمات مختلفة بحيث أدخلوا ضمنها أحياناً علوماً أخرى، أو حذفوا هذه العلوم[١].

ونحن لن نقف هنا عند تقسيمات العلوم الرياضية كما جاءت عند علمائنا القدامى، بل سنحاول دراسة هذه العلوم ضمن تقسيمات العلماء اليوم، حتى يسهل فهمها وإدراك المقصود منها.

وقد عرف علماؤنا القدامى أهمّية العلوم الرياضية وضرورة البدء بدراستها قبل غيرها من العلوم الأخرى؛ وينصح الكندي بدراسة كتب الرياضيات قبل دراسة كتب الفلسفة، فيقول[٢]: «ينبغي لمن أراد دراسة علم الفلسفة أن يُقَدِّم استعمال كتب الرياضيات على مراتبها».

وقد صنف أبو زيد البلخي (ت ٣٢٢هـ ـ/ ٩٣٤م) كتاب «فضيلة علوم الرياضيات»[٣]، للدلالة على أهمّية هذا العلم.

= لكن الخوارزمي يضيف إليها ثلاثة علوم أخرى تدخل في الفيزياء وهي: علم المناظر، علم الأثقال، وعلم الحيل، بينما يقف الغزالي عند ثلاثة فقط هي: الحساب، الهندسة، والفلك. (راجع كتاب **تاريخ علم الرياضيات عند العرب**، لخضير المنشداوي، ص٧٣ ـ ٧٥).

(١) الكندي: **رسائل الكندي الفلسفية**، تحقيق محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الفكر العربي، مصر، ١/٣٦٩.

(٢) النديم: **الفهرست**، ص١٥٣ (طبعة طهران).

(٣) كتقدير أموال الخراج والعشور والغنائم، وأنصبة الزكاة، والميراث، وكل ما يتعلق بالأموال عموماً، والأمور التجارية والاقتصادية.

كذلك عُدت الرياضيات وفروعها المتنوعة، من العلوم الجليلة، والتي لا بُدّ من الاهتمام بها، لما لها من علاقة وثيقة بأمور الدين والشريعة الإسلاميّة[1].

المبحث الأول

العلوم الرياضية البحتة

أولاً: علم العدد والحساب والترقيم[2]

(الأرثماطيقا Arthmatic): وهو معرفة خواص الأعداد من حيث التأليف، إمَّا على التوالي أو بالتضعيف، وهذا الفن أول أجزاء التعاليم وأثبتها، ويدخل في براهين الحساب. ومن فروع علم العدد صناعة الحساب.

الحساب: صناعة علمية في حساب الأعداد، بالضم (الجمع والضرب) والتفريق (الطرح والقسمة). وهذه الصناعة حادثة، احتيج إليها للحساب في المعاملات. ومن أحسن التعليم عند النَّاس، الابتداء بها، لأنَّها معارف متضحة وبراهين منتظمة؛ فينشأ عنها في الغالب عقل مضيء دُرِّبَ على الصواب.

ومن فروع الحساب، الجبر والمقابلة، وهي صناعة يُستخرج بها العدد المجهول من قِبل المعلوم المفروض، إذا كان بينهما نسبة تقتضي ذلك.

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص٤٨٢ وما بعدها.
(٢) المنشداوي، خضير عباس: تاريخ علم الرياضيات عند العرب، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ليبيا، الطبعة الأولى، ١٩٩٩، ص١٢٥.

الترقيم: قبل الحديث عن علم الحساب، علينا الإشارة إلى موضوع الترقيم؛ فقد كان العرب قديماً وحتى صدر العصر العباسي، إذا احتاجوا إلى تدوين الأعداد والأرقام، كانوا يلجأون إلى كتابتها وتدوينها بالكلمات: واحد ـ اثنان ـ ثلاثة ـ عشرة، مائة، ألف.

وكان الألف أكبر رقم عندهم؛ فكانوا يقولون بعد ذلك: ألف ألف، وقد لجأوا أيضاً إلى حساب الجمل، أي بالرمز للأعداد بواسطة الحروف الأبجدية، وذلك على الترتيب التالي:

أ ـ ب ـ ج ـ د ـ (أبجد) هـ ـ و ـ ز (هوّز) ح ـ ط ـ ي (حطّي) ك ـ ل ـ م ـ ن (كلمن)

س ـ ع ـ ف ـ ص (سعفص) ق ـ ر ـ ش ـ ت (قُرشت) ث ـ خ ـ ذ (ثخذٌ) ض ـ ظ ـ غ (ضظغٌ).

وقسم العرب تلك الأحرف إلى أربع مجموعات[1]:

(٤) **المجموعة الأولى**: تتألف من الحروف التسعة الأولى: وهي مخصصة للآحاد.

(٥) **المجموعة الثانية**: وتتألف من الحروف التسعة التالية، وهي مخصصة للعشرات.

(٦) **المجموعة الثالثة**: وتتألف من الحروف التسعة التالية، وهي مخصصة للمئات.

(٧) **المجموعة الرابعة**: وتتألف من حرف واحد، هو الأخير، وهو رمز للألف، وذلك كما هو موضح في الجدول الآتي:

(١) المنشداوي، خضير: **تاريخ علم الرياضيات عند العرب**، ص١٢٧، نقلاً عن مخطوطة البيروني، «التفهيم لأوائل صناعة التنجيم» الورقة ٤١.

آحاد		عشرات		مئات		ألوف	
الحرف	العدد	الحرف	العدد	الحرف	العدد	الحرف	العدد
أ	١	ي	١٠	ق	١٠٠	غ	١٠٠٠
ب	٢	ك	٢٠	ر	٢٠٠		
ج	٣	ل	٣٠	ش	٣٠٠		
د	٤	م	٤٠	ت	٤٠٠		
هـ	٥	ن	٥٠	ث	٥٠٠		
و	٦	س	٦٠	خ	٦٠٠		
ز	٧	ع	٧٠	ذ	٧٠٠		
ح	٨	ف	٨٠	ض	٨٠٠		
ط	٩	ص	٩٠	ظ	٩٠٠		

هذا هو الجدول الذي وضعه البيروني، وقد أشار البيروني إلى وجود خلاف بسيط في ترتيب بعض هذه الحروف، ولكن هذا الاختلاف لا يشكل قاعدة، بل هو بمنزلة الخروج عن القاعدة المألوفة التي أوجدها المنجمون الذين يستعملون حساب الجمل في أعمالهم[(١)].

وتعد طريقة حساب الجمل عند العرب من الأدلة الواضحة على أصالة الفكر الرياضي، حيث إنه خطوة رائدة ومتقدمة في اتجاه التدوين الرمزي للأعداد، باستخدام الصفة الارتباطية والترتيب الخطي للحروف الأبجدية، للتعبير عن الأعداد مهما بلغ مقدارها.

ونظراً لأهمّية حساب الجمل وتدوين الأعداد على أساسه؛ فقد ظلت هذه الطريقة مستعملة في مختلف العلوم، وخاصّة في الجداول وذكر المقاييس والأوزان؛ فهي تشكل رموزاً مختصرة للأرقام.

(١) راجع: تاريخ اليعقوبي، لليعقوبي، ١/ ٧٠، والفهرست، النديم، ص٢٠، ومروج الذهب، للمسعودي، ١/ ٧٦.

نظام الترقيم بالرموز التسعة

خلال القرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد، أخذ العرب عن الهنود الترقيم الرمزي، من الواحد حتى التسعة؛ فهذّبوها واستخدموها في الترقيم (تدوين الأعداد في المسائل الحسابية).

وتكاد تُجمع المصادر العربيّة القديمة على أن فكرة اتخاذ رموز معينة تدل على الأرقام، يرجع الفضل فيها إلى الهنود[١]. وكانت عندما تذكر هذه الرموز تسميها الأرقام الهندية.

وقد قام الخوارزمي بتسهيل فكرة استعمال هذه الرموز الرقمية، ونصح الذين يشتغلون بالعلوم الرياضية وغيرهم أن يتبنوا ذلك النظام، لأنه سيكون عاملاً مهماً في تبسيط المفاهيم الرياضية وضمان سرعة إجراء العمليات الحسابية[٢].

لقد أخذ العرب إذن عن الهنود نظام الترقيم، ثم هذّبوا أرقامهم وكوّنوا منها سلسلتين، عُرفت إحداهما بالأرقام الهندية، ولا تزال تستعمل في معظم البلاد العربيّة والإسلاميّة؛ وعرفت ثانيتهما بالأرقام الغباريّة، وهي التي تكتب فيها البلاد الغربية وتسميها أرقاماً عربيّة.

وكان الهنود يرشّون غباراً ناعماً على لوح خشبي ثم يرسمون عليه بأصابعهم ما يحتاجون إليه من أرقام، لذا عرفت بالأرقام الغبارية. وقد قسم العرب الحساب إلى قسمين: الغباري (أي الكتابي) وهو الحساب الذي يحتاج إلى أدوات الكتابة كالأوراق والأقلام وما شاكلها، والحساب الهوائي (الذهني) الذي يمكن إتمامه بالفكر دون الحاجة إلى أدوات[٣].

(١) المنشداوي، خضير: **تاريخ علم الرياضيات عند العرب**، ص١٣٦.
(٢) المنشداوي، خضير: م. ن، ص١٢٩.
(٣) المنشداوي، خضير: م.س، ص١٣٠.

كذلك أوجد العرب رقم الصفر، وكان الهنود يستعملون «سونيا» أي الفراغ، لتدل على معنى الصفر؛ ثُمَّ استعمل العرب للصفر شكل دائرة مفرغة، وأخذ الغرب عنهم وسموه Chiffre وCipher، والسين والشين حرفان يحصل التبادل بينهما في معظم اللغات، ووضع العرب علامة الكسور العشرية، وبحثوا في أنواعها وعلاقاتها بالضم والتفريق؛ فالضم، جمع وضرب، والتفريق، طرح وقسمة. وتكلموا على التضعيف والقسمة بالمحاصصة أي التقسيم التناسبي، كما تكلموا على التجذير واستخراج الجذور (الجذر التربيعي).

كما عرفوا المتواليات الحسابية والهندسية، وذكروا أنواعها وكيفيات العمل بها، والتأكد من صحة نتائجها ببراهين وضعوها[(١)].

ومن مزايا الأرقام العربيَّة أو الهندية أنَّها تقوم على أساس النظام العشري، وعلى أساس القيم الوضعية، بحيث يكون للرقم الواحد قيمتان: قيمة في نفسه، وقيمة يكتسبها من المنزلة التي يقع فيها.

ولعل من أهمّ مزايا هذا النظام العشري بإدخال الصفر في الترقيم، واستعماله في المنازل الخالية من الأرقام، ومما لا شك فيه أن هذا النظام هو من المخزنات الأساسية في علم الحساب والرياضيات، حيث لم تنحصر فوائده في تسهيل عمليات العد والترقيم، بل تعدته إلى تسهيل جميع أنواع العمليات الحسابية، كالضرب والقسمة وغيرها، ولولا الصفر واستعماله في الترقيم لمّا فاقت الأرقام العربيَّة والهندية غيرها من الأرقام، كالرومانية مثلاً، بل لمّا فضلتها الأمم المختلفة على الأنظمة الأخرى المستعملة في الترقيم[(٢)].

---

(١) المنشداوي، خضير: **تاريخ علم الرياضيات عند العرب**، ص١٣١.

(٢) فروخ، عمر: **تاريخ العلوم عند العرب**، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٠، ص١٣٨.

ومن اكتشافات العرب في علم الحساب، ما يعرف باللوغاريتم (Logarithme) الذي كان يسمى عند العرب باسم الأسيس، والذي هو في الأصل: «حَدّ في متوالية حسابية تبدأ بالصفر يقابل الحد المطلوب في متوالية هندسية تبدأ بالواحد»[١].

ويعتبر اكتشاف اللوغاريتمات من أكثر الأمور التي ساعدت كثيراً على تسهيل إجراء العمليات الحسابية المعقدة، وبصورة خاصة المتضمنة للقوى (Puissance) أو الجذور (Racine).

كذلك فإن استعمالها اعتبر من العوامل الرئيسية التي كانت وراء تقدم الكثير من العلوم الأخرى، وبصورة خاصّة علوم الفلك والفيزياء وغيرها من العلوم.

وتقوم فكرة اللوغاريتمات على تسهيل إجراء العمليات الحسابية، وذلك بالاستعاضة مثلاً عن عملية الضرب بالجمع، والقسمة بالطرح؛ وتظهر الأهمية أكثر فأكثر في حالة ضرب الأعداد الكبيرة[٢].

ثانياً: علم الجبر والمقابلة

يعتبر علم الجبر والمقابلة أحد الفروع الرياضية التي يرجع الفضل في تأسيسها للعرب، وفق نهج علمي منظم ودقيق، وكنتيجة حتمية لتطور العقلية العربيّة التي عمل الإسلام على بلورتها ضمن إطار التعاليم والأسس التي جاء بها، والتي تدعو إلى طلب العلم والتشجيع عليه.

وقد ذكر العرب عدة تعاريف لهذا العلم بصورة عامّة، وللجبر بصورة خاصّة، فقالوا[٣]: «هو التصرف الذي به يسوق المجهول إلى حد المعلوم

(١) المنشداوي، خضير: **تاريخ علم الرياضيات عند العرب**، ص٣٥٣.

(٢) المنشداوي، خضير: م.ن، ص٣٧٢.

(٣) ابن خلدون: **المقدمة**، ص٤٨٣ ـ ٤٨٤.

حتى يُظفر بالمعلوم»، أو أنه: «علم يتعرف منه كيفية استخراج المجهولات العددية، إذا كانت مختلفة الأجناس متعادلة».

واعتبر ابن خلدون[١] أن علم الجبر والمقابلة فرع لعلم الحساب، وعرّفه بأنه: «صياغة يُستخرج بها العدد المجهول من قِبل المعلوم المفروض، إذا كان بينهما نسبة تقتضي ذلك؛ فاصطلحوا فيها على أن جعلوا للمجهولات مراتب من طريق التضعيف بالضرب؛ أولها العدد، لأنه به يتعين المطلوب المجهول باستخراجه من نسبة المجهول إليه؛ وثانيها الشيء، لأن كل مجهول فهو من جهة إبهامه شيء، وهو أيضاً جذر لما يلزم من تضعيفه في المرتبة الثانية؛ وثالثها المال، وهو أمر مُبهم؛ وما بعد ذلك فعلى نسبة الأُس في المضروبَيْن، ثُمَّ يقع العمل المفروض في المسألة؛ فتخرج إلى معادلةٍ بين مختلفَين أو أكثر من هذه الأجناس؛ فيُقابلون بعضها ببعض، ويجبرون ما فيها من الكسر حتى يصير صحيحاً؛ ويحطون المراتب إلى أقل الأسوس إن أمكن، حتى يصير إلى الثلاثة التي عليها مدار الجبر عندهم، وهي: العدد، والشيء، والمال.

فإن كانت المعادلة بين واحد تَعين؛ فالمال والجذر يزول إبهامه بمعادلة العدد ويَتَعين؛ والمال وإن عادل الجذور، فيتعين بعدتها، وإن كانت المعادلة بين واحد واثنين، أخرجه العمل الهندسي من طريق تفضيل الضرب في الاثنين، وهي مبهمة، فيُعَيِّنُها ذلك الضرب المُفصل؛ ولا يمكن المعادلة بين الاثنين واثنين وأكثر، وانتهت المعادلة بينهم إلى ست مسائل، لأن المعادلة بين عدد وجذر ومالٍ، مفردةً أو مركبة، تجيء ستة.

وأول من كتب في هذا الفن أبو عبد الله الخوارزمي (محمد بن موسى)، وبعده أبو كامل شجاع بن أسلم، وجاء النَّاس على أثره فيه».

---

(١) باشا، أحمد فؤاد: التراث العلمي للحضارة الإسلامية ومكانته في تاريخ العلم والحضارة، دار المعارف بمصر، ١٩٨٣م، ص٥٤.

وزيادة في الإيضاح نذكر أن المعنى الاصطلاحي للجبر هو نقل الحدود الجبرية من أحد طرفَيْ المعادلة إلى الطرف الآخر؛ وأما المعنى الاصطلاحي للمقابلة فهو جمع الحدود المتماثلة على جهة واحدة من المعادلة، وذلك لتبسيط الكمية الناتجة من العملية الأولى، حيث نقوم بحذف الحدود المتساوية المتقابلة عند طرفَيْ المعادلة[(١)].

لقد أضفى العرب على هذا الجانب العلميّ التسمية العربيّة، والتي يرجع الفضل بذلك إلى الخوارزمي (ت ٢٣٢هـ ـ/٨٤٦م) وكتابه «الجبر والمقابلة»، المتضمن بصورة خاصّة العمليتين الأساسيتين اللتين تستخدمان في حل المعادلات الرياضية، وعن طريق هذا الكتاب انتقلت التسمية العربيّة إلى كل اللغات الأجنبية بلفظها العربي (Algebre).

ومن العلماء الذين ألّفوا في علم الجبر والمقابلة نذكر:

(٨) **الخوارزمي، أبو عبد الله**: يعتبر أول من ألف في هذا العلم، أما كتابه «الجبر والمقابلة» فقد ألّفه في عهد الخليفة المأمون وبتشجيع منه، وكان سبب تأليف هذا الكتاب، رغبته (أي الخوارزمي) في توضيح وتسهيل الجوانب الرياضية المبهمة والصعبة، مع شعوره بحاجة النّاس إلى ذلك النوع من التأليف، ليكون لهم عوناً في قسمة المواريث، وتنفيذ الوصايا، وإتمام عمليات القسمة، والأعمال التجارية، وأعمال مساحة الأرض وقياسها، وكرى الأنهار وغيرها من الأعمال الهندسية، لينال بعد ذلك مرضاة الله تعالى[(٢)].

وقد شرح هذا الكتاب سنان بن الفتح الحرّاني (ت ٣٣١هـ ـ/ ٩٤٢م) في كتابه «شرح الجبر والمقابلة»[(٣)].

(١) المنشداوي، خضير: **تاريخ علم الرياضيات عند العرب**، ص٣٧٧.

(٢) النديم: **الفهرست**، ص٣٣٩ ـ ٣٤٠ (طبعة طهران).

(٣) النديم: م.ن، ص٣٤١.

وكذلك شرحه أبو الوفاء محمد بن يحيى بن إسماعيل البوزجاني المولود ببوزجان من بلاد نيسابور سنة ٣٢٨هـ ـ/ ٩٣٩م، وذلك في كتابه «تفسير كتاب الخوارزمي في الجبر والمقابلة»[١].

وقد بلغ البوزجاني المحل الأعلى في الرياضيات والحساب، وصنّف في علوم الحساب كتاب «المنازل السبع»، أراد فيه إصلاح الأخطاء التي يقع فيها موظفو الدولة بطرقهم التقليدية في الأعمال الحسابية، وجعله أشبه بجداول تعين الحاسب في عملياته، وتوفر عليه كثيراً من الجهد؛ كما وضع البوزجاني «كتاب المفاضلة في الحساب»، وشرح كتاب الخوارزمي في الجبر والمقابلة، ووضع كتاب «المدخل إلى الأرثماطيقي»[٢].

واشتهر أبو الريحان البيروني بعلوم الأوائل، وتخصص بأنواع الرياضيات، وعاش في كنف السامانيين فترة من الزمن[٣].

المبحث الثاني

العلوم الرياضية التطبيقية

أولاً: علم المثلثات (Trigonometry): هذا العلم من الفروع الرياضية الأصلية التي اهتمّ بها العرب والمسلمون كثيراً، لما له من علاقة وثيقة بأمور حياتهم وبجميع مجالاتهم الدينية والاقتصادية والعسكرية والعمرانية.

لقد سهّل علم المثلثات عملية قياس المسافات البعيدة أو القريبة، وذلك باستعمال العلاقات التي تربط بين أضلاع المثلث وزواياه، كبيرة كانت أم صغيرة، وهذا ما ساهم في تطوّر العلوم الفلكية والهندسية، وكان من أهمّ تطبيقات هذا العلم صناعة الساعات الشمسية التي اهتمّ بها العرب، وكذلك

---

(١) التامري، إحسان: **الحياة العلمية زمن السامانيين**، ص١٨٨.

(٢) التامري، إحسان: م.ن، ص١٨٨.

(٣) هونكة، زيغريد: **شمس العرب تسطع على الغرب**، ترجمة فاروق بيضون وكمال الدسوقي، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٦٩.

تَمّ تطبيق معطيات هذا العلم وأسسه في حل المسائل الفلكية، والاستفادة منها في تحديد مواقيت الصلاة، التي تختلف من بلد إلى بلد، ومن يوم إلى يوم، والتي كان حسابها يقتضي معرفة عرض البلد وحركة الشمس فوقه، ثُمَّ تحديد اتجاه القبلة، ولا يكون ذلك إلاَّ باعتماد علم المثلثات.

وقد ساعد هذا العلم عمال الخراج في مسح الأراضي الزراعية، وتقدير ما يتوجب على أصحابها من خراج لبيت المال.

وقد أكّد العلماء الغربيون، الباحثون في تاريخ العلم ورجاله، على دور العرب (المسلمين) في تطوير هذا العلم؛ فقد ذكرت المستشرقة الألمانية «هونكة»، أن العرب هم المؤسسون الحقيقيون له، ونفت أية معارف وإنجازات مهمة للإغريق فيه[١]. واعتبره سارتون من أهم الأعمال الرياضية العربيَّة، حيث ذكر أن أعظم الابتكارات العربيَّة في الرياضيات والفلك كانت شيئين: علم الحساب الجديد (أي الجبر)، وعلم المثلثات[٢].

ومن أشهر العلماء الذين اهتمّوا بعلم المثلثات نذكر: الخوارزمي، والعالم محمد بن جابر بن سنان المعروف بالبتّاني (ت ٣١٧هـ ـ/٩٢٧م) الذي عُرفت له ابتكارات رياضية أصيلة تناولت مختلف جوانب علم المثلثات، وكان من أشهر تآليفه كتاب «الزّيج»، الذي احتل مكانة كبرى في علم المثلثات الكروي، إضافة إلى علم الفلك، وكان هذا الكتاب مصدراً أسياسياً لدراسة علم المثلثات الكروية في أوروبا خلال القرون الوسطى، وقد أسهم البتّاني إسهاماً فعالاً في بناء علم المثلثات بأعماله الرائدة؛ فقد قدم التصورات الأولى في علم المثلثات على أسس واضحة ومتينة، وإليه يعود الفضل في إدخال حساب المثلثات إلى بلاد الغرب[٣].

(١) سارتون، جورج: **الثقافة الغربية في رعاية الشرق**، ترجمة عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٦١.

(٢) بروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، ٤/٢١٣.

(٣) شاخت: **تراث الإسلام**، ترجمة حسين مؤنس وآخرون، مراجعة فؤاد زكريا، (صدر =

وكان أبو الوفاء البوزجاني من العلماء المتميزين الذين كانوا وراء تطور علم المثلثات، وذلك لتنوع أعماله ودقتها؛ فقد أعطى المعاني الحقيقية للنسب المثلثية، وأكمل ما بدأ به البتّاني، واكتشف مجموعة من العلاقات المثلثية المهمة، ومجموعة من القوانين في علم المثلثات، منها قانون إضافة الزوايا[١].

وكان للبيروني دور مميز أيضاً في حساب المثلثات، وذلك سواء بِحَلِّ بعض المعادلات المثلثية بطرائق جديدة، أو بوضعه الجداول المتعلقة بالنسب المثلثية بدقة عالية[٢].

لقد واصل العلماء المسلمون اكتشافاتهم المهمة في علم المثلثات، حتى جعلوا منه علماً قوي الأركان، ثابت الأسس، بحيث استنبطوا نتائج وفوائد في غاية الأهمّية، أصبحت من الروافد الكبرى لعلم المثلثات الحديث، حيث ما زلنا حتى الآن نستعمل النِّسب المثلثية والقوانين التي توصل إليها علماؤنا في هذا الميدان، وأصبح علم المثلثات المستوية والكروية بفضل هؤلاء العلماء علماً راسخ المعالم، وطيد البنيان[٣].

ومع أن علم المثلثات يرتبط بعلاقة وطيدة مع علم الفلك، إلاَّ أن العلماء جعلوه علماً مستقلاً بذاته، له قوانينه وأسسه، التي تخدم علم الفلك كما تخدم غيره من العلوم الأخرى كعلم المساحة، وعلم الملاحة، وعلم الهندسة، وعلم الجغرافيا، وغيرها من العلوم المرتبطة بالرياضيات.

* * *

= الكتاب عن المجلس الثقافي في وزارة الإعلام الكويتية، ضمن سلسلة عالم المعرفة، العدد (٨) ١٩٧٨، ٣/ ١٩٤).

(١) شاخت: تراث الإسلام، ٣/ ١٩٥.

(٢) المنشداوي، خضير: تاريخ علم الرياضيات عند العرب، ص٤٦٥.

(٣) سليمان، محمود: تاريخ العلوم والتكنولوجيا، ص٣٦٣.

ثانياً: علم الهيئة

علم الهيئة، وهو تعيين الأشكال للأفلاك، وحصر أوضاعها وتعددها لكل كوكب من الكواكب السيّارة، ويتفرع عن هذا العلم علم الفلك والأزياج:

كان علم الفلك في الماضي ذيلاً للتنجيم واستطلاع الغيب برصد الكواكب والنجوم وحركتها ومواقعها، منذ آلاف السنين؛ ولا نعرف بداية محددة لنشأة هذا العلم، الذي سمّاه العرب علم الهيئة أي هيئة الفلك، وهو العلم الذي يختص بدراسة الأفلاك وكمية الكواكب، وأقسام البروج وأبعادها وعظمها وحركاتها، كما عرَّفه إخوان الصفا في القرن الرابع للهجرة[١].

أمَّا التنجيم فهو فن قديم، نشأ وازدهر في الحضارات القديمة، حيث اعتقد النَّاس أن الآلهة تسكن في الأجرام السماوية، وتسيطر على مجريات الأمور في الأرض؛ ومن ثُمَّ اجتهد المنجمون في التعرف على قرارات الآلهة؛ وكان الحكّام أول من حاول التعرف على الأحداث السياسية المتعلقة بهم وبشعوبهم.

من هنا لا بُدَّ من الفصل بين الأمرين، بين علم الفلك أو الهيئة، كعلم له أسسه وقوانينه، وبين التنجيم، الذي يرتبط في معظم الأحيان بطلب معرفة الأمور الغيبية، وتأثير تحركات النجوم والكواكب في الفلك، على النَّاس في مستقبلهم وحاضرهم، وعلى كل أمورهم، مما يجعل التنجيم في كثير من جوانبه، بعيداً عن الحقائق العلمية والمنطقية.

وما سنتناوله هنا ونلقي عليه الضوء هو علم الفلك، ودور العلماء المسلمين في تطويره، مع ذكر أهمّ مؤلفاتهم فيه.

وقد عرف ابن خلدون[٢] علم الفلك واهتماماته أو علم الهيئة بأنه «علم

---

(١) ابن خلدون: المقدمة، ص٤٨٧ ـ ٤٨٨.

(٢) قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ (سورة هود، الآية ١٢٣) وقال أيضاً: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ (سورة الجن، الآية ٢٦).

ينظر في حركات الكواكب الثابتة والمتحركة والمتحيزة، ويستدل من تلك الحركات على أشكال وأوضاع الأفلاك لزمت عنها لهذه الحركات المحسوسة بطرق هندسية، كما يبرهن على أن مركز الأرض مباين لمركز فلك الشمس، بوجود حركة الإقبال والإدبار، وكما يستدل بالرجوع والاستقامة للكواكب على وجود أفلاك صغيرة حاملة لها، داخل فلكها الأعظم، وكما يبرهن على وجود الفلك الثامن بحركة الكواكب الثابتة، وكما يبرهن على تعدد الأفلاك للكوكب الواحد بتعداد الميول له وأمثال ذلك؛ وإدراك الموجود من الحركات وكيفياتها وأجناسها، إنَّما هو بالرصد؛ فإنّا إنّما عَلِمْنا حركة الإقبال والإدبار به، وكذا تركيب الأفلاك في طبقاتها، وكذا الرجوع والاستقامة، وأمثال ذلك».

لقد اهتمّ المسلمون بالفلك وعلم النجوم، وكان بعضهم شغوفاً بالتنجيم بدرجة كبيرة، وقد نقلوا تراث الحضارات القديمة في الفلك وعلم النجوم والتنجيم.

ففي العصر العباسي، كان الخليفة الثاني، أبو جعفر المنصور (١٣٦ ـ ١٥٨هـ ـ/ ٧٥٤ ـ ٧٧٥ م) أول من اهتم بعلم الفلك، وبالمنجّمين، وقرّب المختصين فيهما إليه؛ فقد كان مولعاً بالتنجيم، رغم أن الإسلام قد نهى عنه باعتباره رَجْماً بالغيب[١]. وقد طلب المنصور إلى إبراهيم بن حبيب الفزاري، أن يترجم له كتاباً في الفلك، أحضره إلى الخليفة رجل هندي، وهو كتاب «سند هند»، وقد لخّص هذه الترجمة محمد بن موسى الخوارزمي في عصر المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨هـ/ ٨١٣ ـ ٨٣٣م)[٢].

وقد عرف العرب كتباً فارسية وهندية في الفلك والنجوم، غير أن علم

(١) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ٤/١٩٦.

(٢) المجسطي: وهو كتاب في علم الفلك والأرصاد، ألّفه بطليموس، قيل: إن أول من اهتم بترجمته يحيى بن خالد بن برمك، وقيل: إن الحجاج بن يوسف بن مطر نقله إلى العربيّة أيضاً. (راجع كتاب الفهرست، النديم، ص٣٢٧).

الفلك اليوناني هو الذي انتشر بين المسلمين، خاصّة بعد أن ترجم كتاب المجسطي[1] في بداية القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وقد نقل إلى العربيّة، ومنه تعرّف العرب على كتب اليونان في علم الفلك.

وقد اهتمّ المسلمون بكتاب المجسطي وشرحوه ونقدوه وعلّقوا عليه أكثر من مرة، ومن الذين شرحوه وعلّقوا عليه ثابت بن قرّة، ومحمد بن جابر بن سنان البتّاني[2]، وهو أشهرهم؛ فقد ألّف كتاب «إصلاح المجسطي» وقد استفاد العلماء المسلمون من هذا الكتاب فحسّنوا أرصادهم اعتماداً على جداوله. وقد أخذ هؤلاء العلماء بفكرة بطليموس عن وضع الأرض في الكون، واعتبروها ساكنة في مركز العالم، وبيّنوا أن القمر هو أقرب الكواكب إلى الأرض، وفوقه فلك عطارد، فأفلاك الزهرة والشمس والمرّيخ والمشتري وزحل، ثم النجوم الثوابت.

ومن فروع علم الهيئة علم الأزياج؛ والزيج كلمة فارسية معناها جدول؛ والأزياج الفلكية هي تقاويم تعرف بها الأيام والشهور والسنين، وهذه الأزياج هي من أهمّ إضافات العرب إلى علم الفلك.

ويذكر ابن خلدون علم الأزياج فيقول[3]: هي صناعة حسابيّة، على قوانين عدديّة، فيما يخص كل كوكب من طريق حركته، وما أدى إليه برهان الهيئة في وضعه، من سرعة وبطءٍ واستقامة ورجوع وغير ذلك، يعرف به (أي بعلم الأزياج) مواضع الكواكب في أفلاكها، لأي وقت فُرِض، من قبل حسبان حركاتها على تلك القوانين المستخرجة من كتب الهيئة. ولهذه الصناعة قوانين كالمقدّمات والأصول لها في معرفة الشهور والأيام والتواريخ الماضية، وأصول مقرّرة في معرفة الأوج والحضيض والميول، وأصناف

---

(١) بروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، ٤/ ٢١٣.

(٢) ابن خلدون: **المقدمة**، ص٤٨٨ ــ ٤٨٩.

(٣) بروكلمان: م.س، ٤٨/ ٢١٧.

الحركات، واستخراج بعضها من بعض، يضعونها في جداول مرتبة، تسهيلاً على المتعلمين، وتسمى الأزياج، ويسمّى استخراج مواضع الكواكب للوقت المفروض لهذه الصناعة تعديلاً وتقويماً.

ومن أشهر العلماء الذين كتبوا في علم الهيئة نذكر:

ـ أبو نصر الحسن بن علي، المنجّم القمّي[1]، كتب في عام ٣٥٧ هـ/ ٩٦٨م، كتاب المدخل البارع إلى علم أحكام النجوم والطوالع.

ـ أبو الحسين عبد الرحمن بن عمر الصوفي[2] (٢٩١ ـ ٣٧٦هـ/ ٩٠٣ ـ ٩٨٦م) ولد بالري، وعاش فيها، واشتغل بالفلك في خدمة أبي شجاع عضد الدولة البويهي، له مؤلفات عدّة في علم الفلك والنجوم، منها «كتاب الكواكب الثابتة أو صور الكواكب الثابتة، عمله لعضد الدولة، وكتاب المدخل إلى علم النجوم وأحكامه».

ـ أبو سهل، ويجن بن رستم القوهي[3]: قام في سنة ٣٧٨هـ/ ٩٨٨م بطلب من شرف الدولة البويهي بعملية رصد الكواكب السبعة. له مجموعة رسائل وكتب في الفلك والنجوم.

ـ أبو الوفاء محمد بن محمد بن يحيى البُوزجاني[4]: (٣٢٨ ـ ٣٨٨هـ/ ٩٤٠ ـ ٩٩٨م) ولد في بوزجان بنيسابور، ثُمَّ انتقل إلى بغداد، وكان من كبار علماء عصره. وله مؤلفات عديدة منها: رسالة في إقامة البرهان على الدرجة من الفلك من قوس النهار وارتفاع نصف النهار وارتفاع الوقت. وكتاب العمل بالجدول الستّيني».

(١) بروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، ص٢١٧.

(٢) بروكلمان: م.ن، ٤/ ٢١٩ ـ ٢٢٢.

(٣) القفطي: **أخبار العلماء بأخبار الحكماء**، ص١٨٨ ـ ١٨٩؛ وانظر: بروكلمان: م.س، ٤/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

(٤) ابن العبري: **تاريخ مختصر الدول**، ص١٨٦.

ولا يمكن في هذا المجال إغفال دور البتّاني، أبو عبد الله محمد بن جابر بن سنان، (ت ٣١٧هـ/ ٩٢٧م)، في علم الفَلك، فقد وجد أن بُعْدَ الشمس عن الأرض غير ثابت، فعندما تكون الشمس في بُعدها الأبعد، تكون المسافة بينها وبين الأرض نحو ١١٤٦ مرة مثل نصف قطر الأرض (شعاعها)، وإذا كانت في بُعدِها الأقرب، فإن المسافة بينها وبين الأرض تكون ١٠٧٠ مرة مثل نصف قطر الأرض، وتشير هذه النتائج التي توصل إليها البتّاني إلى أن مدار الشمس (الأرض) ليس دائرياً، ولكنه بيضاوي، كذلك لاحظ البتّاني أن مواقع بعض النجوم قد تغيرت عما كانت عليه في عصر بطليموس، مما جعل البتاني من أعظم علماء الفلك في كل العصور. كذلك وضع المسلمون أسماء العديد من الأجرام السماوية، ولا زالت أسماؤها قائمة حتى اليوم، وهذا دليل لما وصل إليه علماؤنا.

وننوّه أخيراً بدور أبي الريحان البيروني، محمد بن أحمد (ت ٤٤٠ هـ/ ١٠٤٨ م) الذي قال عنه ابن العبري[١]: «لم يكن في نظرائه في زمانه أحذق منه بعلم الفلك، ولا أعرف بدقيقه وجليله».

وللبيروني مؤلفات كثيرة في النجوم والهيئة[٢] (علم الفلك)، فقد ألّف خمسة وثلاثين كتاباً في علم الفلك، أهمّها كتاب «القانون المسعودي، في الهيئة والنجوم»[٣]، وقد أوضح فيه المبادئ العامّة لعلم الفلك، ثُمَّ عالج موضع السماوات بالنسبة إلى الأرض؛ فخلص إلى افتراض دوران الأرض حول نفسها، لتفسير الحركة اليومية، كذلك شرح بعض النظريات الفلكية

(١) السيوطي: **بغية الوعاة**، ١/ ٥٠.

(٢) ألّف البيروني هذا الكتاب بطلب من الأمير مسعود بن محمود الغزنوي، وهو كتاب ضخم يشمل على ١٤١ باباً، تناول فيه مختلف موضوعات الفلك والرياضيات.

(٣) فرّوخ، عمر: **تاريخ العلوم عند العرب**، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة ١٩٨٤، ص١٦٦ ـ ١٦٧.

التي افترضها الهنود، كما عرض حركة الشمس والقمر والظواهر القابلة للرصد، أي مسألة الكسوف، ورؤية الهلال، وغيرها.

لقد كان لعلماء القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد، فضل كبير على علم الفلك، فقد جعلوه علماً رياضياً، مستنداً على أعمال الأرصاد، وعلى الأصول الحسابية والهندسية لتعليل الظواهر الفلكية والكونية، حتى أنهم فاقوا من سبقوهم، وتقدموا بعلم الفلك إلى مكانة مرموقة، ومنهم من وضع مؤلفات في هذا العلم هي في غاية الأهمّية، تركت أثراً كبيراً في تقدم العلوم الرياضية ولا سيما علم الفلك، كما اهتمّوا بصور السماء وصنفوا فيها الكتب، كما فعل أبو عبد الرحمن الصوفي في كتابه «صور الكواكب الثابتة»، وهو أحسن كتاب وُضِعَ في الفلك، حيث ذكر فيه جميع صور السماء، ورسمها بالألوان، وشرح أشكالها، وبيّن خصائصها، واستدرك على العلماء السابقين عدداً منها، وضبط كثيراً من مقاديرها، وذكر أسماءها العربيّة المعروفة عند البدو.

كما أن إخوان الصفا قد تحدثوا في رسائلهم عن المعارف الفلكية في أيامهم، وأشاروا إلى أن الأجسام الفلكية ليست خفيفة ولا ثقيلة، لأنّها ملازمة لأماكنها الخاصّة بها، وكل جسم في مكانه الخاص به ليس بثقيل ولا خفيف، لأن الثقل والخفة يعرضان للأجسام بسبب خروجها من أماكنها الخاصّة بها إلى مكان آخر، وهذا الكلام يشير إلى ما يعرف اليوم بالفيزياء الفلكية[١].

ومن العلماء من كان يُحْكِمُ صناعة الاسطرلاب والآلات الرصدية غاية الإحكام، وقد ألفوا في هذه الصناعة الكتب العديدة[٢].

---

(١) النديم: **الفهرست**، ص٣٣٢، حيث يذكر أن أول من عمل في الإسلام إسطرلاباً هو أبو إسحاق إبراهيم ابن الفزاري، وألف كتاب «العمل بالإسطرلاب».

(٢) ابن خلدون: **المقدمة**، ص٤٨٥.

والاسطرلاب من أهمّ آلات الرصد، يُتَوَصَّل بها إلى معرفة كثير من الأمور النجومية، كارتفاع الشمس ومعرفة الطالع وسمت القبلة وعرض البلاد، وغير ذلك من الأمور الفلكية.

ثالثاً: علم الهندسة

عَرّف ابن خلدون علم الهندسة فقال[1]: «هذا العلم هو النظر في المقادير، إمّا المتصلة، كالخط والسطح والجسم، وإمّا المنفصلة كالأعداد، وفيما يعرض لها من العوارض الذاتية، مثل أنّ كل مثلث فزواياه مثل قائمتين (أي مثل زاويتين قائمتين)، أي (٩٠ × ٢ = ١٨٠ درجة) ومثل أن كل خطّين متوازيين لا يلتقيان في وجه، ولو خرجا إلى غير نهاية، ومثل أن كل خطين متقاطعين فالزاويتان المتقابلتان منهما متساويتان. . .»

وعرّفها إخوان الصفا بأنها «معرفة المقادير والأبعاد، وكميّة أنواعها، وخواص تلك الأنواع[2]، وهي عند السنجاري: «معرفة أحوال المقادير المطلقة ولواحقها من الزاوية والنقطة والشكل، وكميّاتها وخواص صورها، وأشكالها، وأوضاع بعضها عن بعض، ونِسَبها الكليّة، بما هي ذوات أشكال وأوضاع، واستخراج ما يحتاج استخراجه بالبراهين الحقيقية»[3].

فمعرفة المقادير تدخل في علم الهندسة الحسّية، ومعرفة الأبعاد تدخل في علم الهندسة العقلية.

وقد شكّل علم الهندسة جانباً مهماً من العلوم الرياضية، لمَا له من الأثر المهم في تطوّر العقل البشري، لقيامه على أسلوب البرهان العلميّ الذي يؤدي إلى الحقيقة التي لا يدخلها الشك؛ فقد ذكر ابن خلدون «أن

---

(١) إخوان الصفا: **رسائل إخوان الصفا**، ١/ ٧٨.

(٢) المنشداوي، خضير: **تاريخ علم الرياضيات عند العرب**، ص٤٩٢.

(٣) ابن خلدون: **المقدمة**، ص٤٨٦.

الهندسة تفيد صاحبها إضاءة في عقله، واستقامة في فكره، لأنّ براهينها كلها بيّنة الانتظام، جليّة الترتيب، لا يكاد الغلط يدخل أقيستها لترتيبها وانتظامها، فيبعد الفكر بممارستها عن الخطأ، وينشأ لصاحبها عقل على ذلك المهيع»[1].

ونظراً لاعتماد العلوم الطبيعية، وخاصّة علم الفيزياء ومتفرعاته، على العلوم الهندسية؛ فقد اهتمّ المسلمون بعلم الهندسة إدراكاً لأهمّيته ولارتباطه بالعلوم الأخرى التي تشكل الهندسة جزءاً مهماً من قضاياها ومن المسائل التي تعالجها؛ وقد قدّم العلماء إضافات مهمة أضافوها إلى إسهامهم في مجال العلوم الرياضية؛ فكان للهندسة نصيب كبير من اهتمامهم بالرياضيات.

١ ـ اهتمام المسلمين بالهندسة

بدأ اهتمام المسلمين بالهندسة كعلم له أصول ومبادئ بعد أن اطلعوا على كتب اليونان، وخاصّة كتاب الأصول لإقليدس، الذي تضمّن مختلف المسائل والنظريات المتعلقة بعلم الهندسة.

وقد شكل اهتمام العرب بهذا الكتاب جزءاً أساسياً في عملهم في مجال علم الهندسة، وكان هذا الكتاب ضمن مجموعة من الكتب التي طلبها أبو جعفر المنصور من ملك الروم، الذي استجاب لطلبه، وبعث له بتلك الكتب، فأمر بترجمته مع مجموعة كتب أخرى رياضية وفلكية. وقد توالى العديد من المترجمين ترجمة هذا الكتاب وتعليقه ونقده وشرحه وإثارة الشكوك حول بعض مسائله وأفكاره، ومن بين العلماء الذين اهتمّوا بهذا الكتاب نذكر:

- أبو نصر الفارابي: شرح المقالتين الأولى والخامسة من كتاب إقليدس.

---

(١) للاطلاع على تفاصيل هذا الموضوع يمكن مراجعة كتاب **تاريخ علم الرياضيات عند العرب**، لخضير المنشداوي، ص٥٠٢ ـ ٥١٠.

- ابن سينا: له مختصر إقليدس.
- الحسن بن الهيثم: حل شكوك بعض مقالات كتاب إقليدس. وغيرهم كثير[(١)].

لقد ترك اهتمام العرب بكتاب الأصول لإقليدس أثراً مهماً على الفكر الرياضي، ليس فقط في مجال علم الهندسة فحسب، بل في جوانب العلوم الرياضية كافة، حيث أخذ العرب هندسة إقليدس وشرحوها، وزادوا عليها مسائل وقضايا جديدة، وأتوا ببراهين على ما أورده إقليدس دون برهان، كما قدّموا دراسات جديدة للكتاب من ناحية الجبر والهندسة.

ولم يقف العرب عند ترجمة كتاب إقليدس فقط، بل ترجموا كتباً يونانية أخرى في الهندسة، وعملوا على شرحها والتعليق عليها، من ذلك كتاب المخروطات لأبو لينوس، الذي شرحه ولخّصه الحسن بن الهيثم كما حلّ العديد من مشكلاته[(٢)].

٢ ـ إسهامات العلماء في الهندسة

تناول العلماء المسلمون مختلف المفاهيم والمبادئ المتعلقة بعلم الهندسة، وتركوا ثروة علمية شكلت قاعدة مهمة للكثير من المفاهيم الهندسية التي توصّل إليها العلماء من خلال جهودهم في مباحث علم الهندسة، من ذلك[(٣)]:

- **النقطة**: وقد عرّفها ابن سينا بأنها شيء ما لا جزء له.
- **الخط**: طول بلا عرض وطرفاه نقطتان. ثم أنواع الخطوط ثلاثة، الخط المستقيم، والخط المقوّس، والخط المنحني.

---

(١) القفطي: أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص١١٤ ـ ١١٦ ولمن أراد الاطلاع على المزيد من كتب الهندسة التي ترجمت إلى العربيّة يمكنه مراجعة كتاب الفهرست للنديم.

(٢) باختصار وتصرّف نقلاً عن كتاب خضير المنشداوي، ص٥٣٣ وما بعدها.

(٣) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ٦٦/١.

كذلك عرّفوا الخطوط المتوازية والمتساوية والمتلاقية والمتماسّة، والمتقاطعة، والخطوط القوسيّة بأنواعها الأربعة: محيط الدائرة، ونصف الدائرة، وأقل من النصف وأكثر من النصف.

ـ الزاوية: واختلاف أنواعها حسب الخطوط التي تكوّنها.

ـ الدائرة: وقد توسع العلماء في ذكر خصائص الدائرة وأقسامها.

ـ الأشكال الهندسية المستقيمة الخطوط: كالمثلثات وأنواعها المتعددة، والأشكال الرباعية وأنواعها المتعددة، والأشكال ذوات الأضلاع ما فوق الأربعة.

ثُمَّ ذكر المجسّمات وهي أشكال هندسية ذات أبعاد ثلاثة: طول وعرض وسمك (ارتفاع) كالمكعب والمخروط.

كما درسوا مساحات الأشكال الهندسية المتنوعة كمساحة المثلثات والمربعات، وذوات الأضلاع المتعددة والدائرة، ومساحات وأحجام المجسّمات.

ومن أهمّ المؤلفات في علم الهندسة ما كتبه الخوارزمي والبيروني والحسن بن الهيثم وإخوان الصفا، والبوزجاني، والسنجاري وغيرهم كثير، وقد نالوا شهرة واسعة في هذا العلم، وكان لهم السبق والفضل في آرائهم الهندسية واكتشافاتهم الرياضية، حيث إن معظم هؤلاء العلماء كتبوا مصنفات عديدة في جميع العلوم الرياضية، وكانت له إسهاماتهم القيّمة فيها.

٣ ـ التطبيقات العملية الهندسية

لم يقتصر اهتمام المسلمين على الجانب النظري من علم الهندسة، وإنّما اهتموا أيضاً، وبشكل أوسع، بالنواحي التطبيقية العملية، التي وظفوها في الأمور الحياتية والحاجات اليومية، كالمشاريع العمرانية (عمارة المساجد والقصور والدور والرباطات والزوايا الصوفية) ومشاريع الري وحفر الآبار،

والأعمال الزخرفية، وقياس المسافات والارتفاعات والأعماق، وغيرها من الأمور التطبيقية التي تخضع للعلوم الهندسية والحسابية.

٤ ـ المشاريع العمرانية

لعل أقدم ما يطالعنا من المشاريع العمرانية في الإسلام بناء المسجد، وبناء المدن، وبناء القصور والدور؛ فقد كان المسلمون عندما يفتحون بلداً ثُمَّ يسكنون فيه، يبنون مسجداً لأداء فريضة الصلاة، وقد يكون المسجد جامعاً، كما كانوا يبنون داراً للإمارة، يقيم فيها الأمير ويدير شؤون البلد والناس.

وقد تطوّر فن العمارة في الإسلام إثر اتصال المسلمين بشعوب البلاد المفتوحة وبحضاراتهم، وتوسّعوا في إنشاء المساجد والجوامع والدور والقصور، والمدن أيضاً، وكانوا يستعينون بأهل العلم والمعرفة والخبرة في فنون الهندسة والبناء، وخير مثال على ذلك ما رواه الخطيب البغدادي[1] عند بناء بغداد أيام الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، الذي أمر بإحضار المهندسين وأهل المعرفة بالبناء والمساحة، فلمّا حضروا أمامه مثّل لهم الصفة التي يريد بها بناء مدينة بغداد، وكان الشكل الذي رسمه لتلك المدينة مدوراً وليس مربعاً، لأنه أراد أن يكون مقر الخلافة (دار الملك) في الوسط، وكان على معرفة تامة أن مركز الدائرة يكون أبعد عن أطراف المدينة مقارنة له بالشكل المربع.

أمَّا بناء المساجد؛ فقد أبدع فيه المسلمون كثيراً، وكانوا دائمي العمل على توسيعها وتزيينها؛ ويكفي أن نلقي نظرة على مساجد المدن الكبرى في المدن الإسلاميّة، لنرى مدى براعة المسلمين في هذه المباني الدينية، من

---

(١) ابن خلدون: المقدمة، في صناعة البناء، ص٤٠٦ ـ ٤٠٩.

ذلك المسجد الأموي في دمشق، ومسجد عمرو بن العاص في الفسطاط بمصر، والمسجد الأقصى في القدس، ثُمَّ مساجد بغداد والكوفة ومساجد المشرق الإسلاميّ في نيسابور والري وبخارى وسمرقند وشيراز، وكلها مساجد رائعة في تصميمها وبنائها، وقد وصف لنا المقدسي في كتابه «أحسن التقاسيم» بعض هذه المساجد التي زارها أثناء رحلته وتنقلاته في تلك البلاد.

إضافة إلى بناء المساجد، كان بناء القصور التي بناها الخلفاء والأمراء، من ذلك قصر عضد الدولة البويهي الذي بناه في شيراز، وكان آية من آيات العمارة الجميلة التي تعبر عن مستوى حضاري رائع، وعن الاستفادة التامَّة من علوم الهندسة.

وكذلك بنى المسلمون الحصون والقلاع، وحفروا الآبار وجرّوا مياه الأنهار، وكل ذلك اعتماداً على العلوم الهندسية وفروعها وفنونها.

لقد كانت المعرفة بعلوم الهندسة مقياساً لإتقان المنشآت العمرانية؛ فصناعة البناء مثلاً كانت ترتبط ارتباطاً مباشراً بالعلوم الهندسية، وهذا ما أكده العلماء؛ فقد ذكر ابن خلدون أنه من الضروري على الذي يعمل في صناعة البناء أن يكون عارفاً ببعض جوانب علم الهندسة، التي تعتبر عماداً وأساساً لإنشاء المباني؛ فهو يقول[1]: «وعلى صاحب هذه الصناعة ـ أي صناعة البناء ـ أن يعرف أشياء من الهندسة، مثل تسوية الحيطان بالوزن، وإجراء المياه بأخذ الارتفاع، وأمثال ذلك؛ فيحتاج إلى البصر بشيء من مسائله (أي مسائل علم الهندسة)، وكذلك في جر الأثقال... وهذا إنَّما يتم بأصول هندسية معروفة متداولة بين البشر».

ومن التطبيقات العملية لعلم الهندسة في القرن الرابع للهجرة/ العاشر

(١) زادة، طاش كبرى: **مفتاح السعادة ومصباح السيادة**، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٥، ١/ ٣٦٠.

للميلاد، علم تسطيح الكرة، وهو من العلوم التي يعود الفضل فيها للمسلمين. «وهو علم يُتَعرف منه كيفية نقل الكرة إلى السطح مع حفظ الخطوط والدوائر المرسومة على الكرة، وكيفية نقل الدوائر إلى الخط»(١).

ومن العلماء الذين اهتمّوا بهذا الفرع من علوم الهندسة إبراهيم بن حبيب الفزاري، «له كتاب في تسطيح الكرة، منه أخذ كل الإسلاميين»(٢).

وذكر أبو الريحان البيروني (ت ٤٤٠هـ/١٠٤٨م) موضوع تسطيح الكرة فقال(٣): «إن تسطيح ما في الأُكُر (جمع كرة) من الدوائر العظام والصغار والنقط ممكن، إذ جُعل أحد قطبيها رأساً لمخروطات تمر بسائطها عليها، وتقاطع سطحاً مفروضاً؛ فإن الفصول المشتركة بين ذلك السطح، وبين بسائط تلك المخروطات ـ إن جازت ـ على دوائر، أو الخطوط ـ إن جازت ـ على نقط، هي تسطيحها في ذلك السطح المستوي.

ثُمَّ يقول: «إن الأبعاد المتساوية في الكرة الأرضية تختلف في السطح اختلافاً عظيماً، وخاصّة إذا قَرُب بعضها من قطب، وقرب البعض من الآخر».

ومن العلوم الأخرى المتفرعة عن الهندسة، والتي اهتمّ بها المسلمون، علم الرسم الهندسي، الذي يعتبر جزءاً أساسياً من الجوانب التطبيقية للهندسة، باستعمال الأدوات الهندسية المختلفة في إنجاز الرسوم الهندسية.

ويُعَدُّ أبو الوفاء البوزجاني من أوائل العلماء الذين اهتمّوا بهذا الجانب العملي من الهندسة، حيث استطاع أن يبرهن ويوضح الكثير من النظريات والمفاهيم الهندسية عن طريق استخدام الأدوات الهندسية.

---

(١) القفطي: **إخبار العلماء بأخبار الحكماء**، ص٤٢.

(٢) البيروني: **الآثار الباقية عن القرون الخالية**، طبعة لايبزج، ١٩٢٣م، ص٣٥٧.

(٣) الكونيا، أو القونيا: هي المثلث القائم الزاوية.

لقد أكد البوزجاني على أهمّية استخدام الأدوات الهندسية في ضبط الأشكال الهندسية بدقة، فقال: اعلم أن صحة الأعمال واستواءها يكون بصحة ثلاثة أشياء هي: المسطرة، والبركار والكونيا[1]. ثم أوضح فائدة كل واحدة من هذه الأدوات وكيفية استعمالها لتكون القياسات صحيحة.

كذلك أورد البوزجاني مجموعة من الأعمال الهندسية التي تعتمد في إجرائها على تلك الأدوات الهندسية[2].

وقد ألف البوزجاني كتاباً «في عمل المسطرة والبركار والقونيا»[3] أغناه بالشروحات والرسومات الإيضاحية.

وكان أبو الوفاء البوزجاني قد عمل بالهندسة إلى جانب عمله بالحساب، وقد قال عنه ابن خلكان[4]: «أبو الوفاء المهندس، أحد الأئمة المشاهير في علم الهندسة، وله استخراجات غريبة لم يُسبق بها».

* * *

المبحث الثالث

علم الموسيقى

هو معرفة نِسَب الأصوات والنّغم بعضها من بعض، وتقديرها بالعدد، وثمرته معرفة تلاحين الغناء.

والموسيقى فرع من فروع العلوم الرياضية من حيث معرفة النّسب

(١) المنشداوي، خضير: **تاريخ علم الرياضيات عند العرب**، ص٥٩٧ ـ ٥٩٨.
(٢) المنشداوي، خضير: م.ن، ص٦٠٠ ـ ٦٠١، حيث ذكر صورة الورقة الأولى والورقة الأخيرة من هذا الكتاب المخطوط.
(٣) ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، ٥/١٦٧.
(٤) إخوان الصفا: **رسائل إخوان الصفا**، ١/١٨٣.

وكيفية التأليف، وهي صناعة مركبة من الجسمانية والروحانية لأن لها تأثيرات في نفوس المستعين[1].

١ ـ **أثر الموسيقى في النفوس**: يذكر إخوان الصفا أثر الموسيقى في النفوس، وذلك باختلاف أنواع النغمات والأصوات والألحان فيقولون[2]:

إن ألحان الموسيقى أصوات ونغمات، ولها في النفوس تأثيرات: فمن تلك النغمات والأصوات ما يحرّك النفوس نحو الأعمال الشاقّة والصنائع المتعبة، وينشطها ويقوي عزماتها على الأفعال الصعبة المتعبة للأبدان، التي تبذل فيها مُهَج النفوس وذخائر الأموال، وهي الألحان المشجعة ولا سيّما إذا غُنِّيَ معها بأبيات موزونة...

ومن الألحان والنغمات ما ينقل النفوس من حال إلى حال، ويغيّر أخلاقها من ضد إلى ضد.

وعند ذكر كل نوع من هذه التأثيرات للموسيقى في النفوس، يقدّم إخوان الصفا شواهد على أقوالهم يدعمون بها آراءهم.

وها هم يقدّمون الدليل على أن لهذه الموسيقى تأثيرات في النفوس فيقولون[3]:

ومن الدليل على أن لها تأثيرات في النفوس استعمال النّاس لها، تارة عند الفرح والسرور في الأعراس والولائم والدعوات، وتارة عند الحزن والغم والمصائب وفي المآتم، وتارة في بيوت العبادات وفي الأعياد، وتارة في الأسواق والمنازل، وفي الأسفار وفي الحضر، وعند الراحة والتعب،

---

(١) إخوان الصفا: رسائل إخوان الصفا، ١/ ١٨٤ ـ ١٨٥.

(٢) إخوان الصفا: م.ن، ص١٨٥.

(٣) إخوان الصفا: م.س، ١/ ١٨٧.

وفي مجالس الملوك ومنازل السّوقة، ويستعملها الرجال والنساء والصبيان والمشايخ، والعلماء والجهّال، والصّناع والتجار، وجميع طبقات النّاس.

٢ ـ أنواع الألحان واستخداماتها

يذكر إخوان الصفا أسباب استخراج الحكماء صناعة الموسيقى وأنواع استعمالاتها المتعددة فيقولون[١]: «وكانوا يستعملون عند الدعاء والتسبيح والقراءة[٢] ألحاناً من الموسيقى تسمى «المُحْزِن»، وهي التي ترقق القلوب إذا سُمِعت، وتُبْكي العيون، وتُكْسب النفوس الندامة على سالف الذنوب، فهذا كان أحد أسباب استخراج الحكماء صناعة الموسيقى، واستعمالها في الهياكل وعند القرابين والدعاء والصلوات.

وكانوا أيضاً قد استخرجوا لحناً آخر، يقال له «المُشَجِّع»، كانت تستعمله قادة الجيوش في الحروب، يكسب النفوس شجاعة وإقداماً.

واستخرجوا أيضاً لحناً آخر كانوا يستعملونه في المارستانات[٣]، وقت الأسحار، يخفف ألم الأسقام والأمراض عن المريض، ويكسر سورتها، ويشفي من كثير من الأمراض والأعلال.

واستخرجوا أيضاً لحناً آخر يستعمل عند المصائب والأحزان والغموم في المآتم، يُعَزّي النفوس، ويخفف ألم المصابين ويسلي عن الاشتياق، ويسكن الحزن[٤].

(١) يشير إخوان الصفا إلى قراءة القرآن بالألحان، أي بأصوات شجيّة ونديّة تؤثر في نفوس السامعين رغبة ورهبة، خوفاً وطمعاً، ومن أشهر الصحابة الذين كانوا يقرؤون بأصوات نديّة عبد الله بن مسعود.

(٢) يمكن تسمية هذا النوع من الألحان «المهدّئ» أو «المخفّف»، ولعل إخوان الصفا أول من عرف تأثيرات الموسيقى على المرض، واستخدامها في العلاج النفسي والعصبي.

(٣) يمكن تسمية هذا النوع من الألحان «المُسكّن».

(٤) يمكن تسمية هذا النوع من الألحان «المُنشّط».

واستخرجوا أيضاً لحناً آخر يستعمل عند الأعمال الشاقة والصنائع المتعبة، مثل ما يستعمله الحمّالون والبنّاؤون، وملاّحو الزوارق وأصحاب المراكب، يخفف عنهم كدّ الأبدان وتعب النفوس[١].

واستخرجوا أيضاً ألحاناً أخرى، تستعمل عند الفرح واللذة والسرور في الأعراس والولائم[٢].

ومن الآراء المتقدمة في فن الموسيقى وأثرها، ما ذكره إخوان الصفا عن تأثير الموسيقى في الحيوانات، باعتبارها كائنات حية تسمع وتحسّ وتتأثر بما تسمع، وهذا الرأي من أهمّ الآراء التي يستفيد منها مربّو الحيوانات ومروّضوها ومدرّبوها، في عصرنا الحديث. يقول إخوان الصفا[٣]: «وقد تستعمل هذه الصناعة (أي الموسيقى) للحيوانات أيضاً، مثل ما يستعمله الجمّالون[٤] من الحداء في الأسفار وفي ظُلم الليل، ينشط الجمال في السير، ويخفف عليها ثقل الأحمال، ويستعملها رُعاة الغنم والبقر والخيل عند ورودها الماء من الصفير، ترغيباً لها في شرب الماء، ويستعملون لها أيضاً ألحاناً أُخر عند هيجانها للنّزو والسفاد[٥]، وألحاناً أُخر عند حلب ألبانها لتدر. ويستعمل صيّاد الغزلان والدرّاج والقطا[٦]، ألحاناً في ظُلم الليل، يوقعها بها حتى تؤخذ باليد.

ويعرّف إخوان الصفا الموسيقى، ومكوّناتها بأسلوب تسلسلي واضح، دون أن يفرّقوا بين الموسيقى والغناء، باعتبار الموسيقى هي الغناء نفسه، والغناء هو ألحان مؤلّفة، وهذا يعني أن الموسيقى هي مجموعة الألحان، أمّا

(١) يمكن تسمية هذا النوع من الألحان «المُفْرِح».
(٢) إخوان الصفا، **رسائل إخوان الصفا**، ١/ ١٨٨.
(٣) الجمّالون: أصحاب الجمال أو من يقودها.
(٤) النزو والسفاد: أي عند عملية اللقاء الجنسي بين الحيوانات.
(٥) الدرّاج والقطا: نوعان من الطيور.
(٦) إخوان الصفا: م.س، ١/ ١٨٨.

اللحن فهو نغمات متواترة، والنغمات هي أصوات مُتَّزنة، والصوت هو قرع، يحدث في الهواء من تصادم الأجسام بعضها ببعض[1].

وقبل أن ننهي كلامنا على الموسيقى نشير إلى ما ذكره إخوان الصفا من تأثر الأمزجة بالأصوات[2]، واختلاف هذه الأمزجة بين الأمم، وبين أفراد الأمة الواحدة، وهم يربطون بين توافق وتشاكل المزاج مع النغم، وها هم يقولون كلاماً في منتهى الدقة والنظرة العلمية الثاقبة، حول هذه القضية: «لكل مزاج وكل طبيعة نغمة تشاكلها، ولحن يلائمها، والدليل على ذلك أن لكل أمة من النَّاس ألحاناً ونغمات يستلذونها ويفرحون بها، لا يستلذها غيرهم، ولا يفرح بها سواهم. . . وهكذا أيضاً تجد في الأمة الواحدة من هذه، أقواماً يستلذون ألحاناً ونغمات، وتفرح نفوسهم بها، ولا يُسَرُّ بها من سواهم. وهكذا أيضاً ربما تجد إنساناً واحداً يستلذ وقتاً ما لحناً ويَسُرُّه، ووقتاً آخر لا يستلذه، بل ربما يكرهه ويتألم منه. . . كل ذلك بحسب تغيرات أمزجة الأخلاط، واختلاف الطبائع، وتركيب الأبدان، والأماكن والأزمات».

من خلال ما سبق يتبيّن للباحث أن المسلمين صعدوا سلّم العلوم الرياضية من بدايته، واستطاعوا بفضل جهودهم الجبارة بلوغ ذروته، خاصة فيما يتعلق بتطبيقاته العملية.

لقد استفاد العلماء المسلمون ممن سبقهم من العلماء، بعد أن نقلوا مؤلفاتهم إلى العربية، وأضافوا إليها بعد ذلك الكثير من المعلومات المبنيّة على تجاربهم وملاحظاتهم ودقّة تفكيرهم، وابتكروا أموراً عدة ومباحث متعددة، فاقوا فيها من سبقهم، وأصبحوا روّاداً لمن لحق بهم، خاصة في علوم الجبر ومتفرعاته، والهندسة وتطبيقاتها العملية، وعلم الأصوات والأنغام والألحان (الموسيقى).

---

(١) إخوان الصفا: رسائل إخوان الصفا، ١/١٩٦.

(٢) ابن خلدون: المقدمة، ص٤٩٢.

وقد ربط العلماء علم الفلك، المعروف بعلم الهيئة، بالعلوم الرياضية، فقاسوا المسافات بين الكواكب، واخترعوا الآلات لقياسها، فكانوا في استنتاجاتهم شديدي الدقة لدرجة أثارت وتثير أعجاب وتقدير الكثير من العلماء الغربيين.

ولعل إدخال الصفر في العمليات الحسابية، كان له أبعد الأثر في تطوير علم الحساب وكل ما كان على علاقة به. فلعلماء المسلمين يعود الفضل في هذا التطوير، كما يعود إليهم الفضل في كثير من العلوم الرياضية أيضاً.

* * *

الفصل الثامن

العلوم الطبيعية

يختلف علم الطبيعة عند أرسطو وفلاسفة اليونان عن علم الطبيعة كما نفهمه الآن، والذي هو في الحقيقة علم الفيزياء، ولكن هذا العلم لم يكن علماً مستقلاً في العصور القديمة والوسطى، وإنّما توزعت مباحثه في علوم أخرى، أو أُلحقت كفرع للهندسة.

وقد كانت العلوم الطبيعية والفيزيائية على الأخص، تحظى باهتمام الفلاسفة القدماء، وفلاسفة المسلمين أيضاً، لارتباط هذه العلوم بالحركة والسكون في الأجسام، من هنا كانت معظم المعلومات الفيزيائية مبثوثة في كتب الفلاسفة.

ويعرّف ابن خلدون الطبيعيات فيقول(١): «هو علم يبحث عن الجسم من جهة ما يلحقه من الحركة والسكون، فينظر في الأجسام السماوية والعنصرية، وما يتولد عنها من حيوان وإنسان ونبات ومعدن، ما يتكون في الأرض من العيون والزلازل، وفي الجو من السحاب والبخار، والرعد والبرق والصواعق، وغير ذلك؛ وفي مبدأ الحركة للأجسام، وهو على تنوعها في الإنسان والحيوان والنبات» فعلم الحركة هو ما يعرف بعلم الميكانيك بكل تفرعاته (Mechanics) وما يتعلق بالأرض وحركتها وباطنها

---

(١) ابن خلدون: المقدمة، ص٤٩٢.

هو علم الجيولوجيا (Geology) وما يتعلق بالنبات، يدخل في علم النبات (Botany) وسقاية الزرع هو علم الري، وهكذا نرى كثرة فروع العلوم الطبيعية التي ذكرها العلماء المسلمون عبر تاريخهم العلميّ المديد.

ويلاحظ الدارسون للعلوم الطبيعية عند المسلمين، أن كثيراً من المعلومات المتعلقة بهذه العلوم، جاءت متفرقة في الكتب التي ألفها العلماء، وقليلاً ما نجد كتاباً متخصصاً في واحد فقط من فروع هذه العلوم. وهناك معلومات كثيرة مثلاً حول علم الميكانيك (علم الحركة) مبثوثة في كتب الفلسفة وليس في كتب العلوم، كما قد يتبادر إلى الذهن، لأنّهم اعتبروا أن فكرة الزمان والمكان والحركة والسكون، كلها أفكار تنتمي إلى الفلسفة.

المبحث الأول

العلوم الفيزيائية

سأتناول بالدراسة العلوم الفيزيائية بفروعها المتعددة كعلم الحركة (الميكانيكا) أو علم الحيل كما سماه العلماء المسلمون، وعلم البصريات (Optics) أو علم المناظر، وعلم الصوت (Acoustics).

أولاً: علم الحركة Mechanics وهو ما يطلق عليه العرب علم الحِيل

أخذ العرب مبادئ علم الفيزياء من اليونان، فقد ترجموا كتاب الفيزياء (الفيزيكس) لأرسطو، وكتاب الحيل الروحانية، وكتاب رفع الأثقال لأيرن، وكتاب الآلات المصوتة لمورطس، كما اهتمّوا بمؤلفات أرخميدس وهيرون، وطوروا نظرياتهما وأفكارهما في علم الميكانيكا.

وبينما كان اليونان يعتمدون كلياً على الأفكار الفلسفية المجردة والاستنباط العقلي، نجد أن العلماء العرب والمسلمين اعتمدوا على التجربة والاستقراء، وتبنوا الطريقة العلمية في البحث والاستقصاء، وطوروا ما ورثوه عن اليونانيين معتمدين على التجربة العملية التطبيقية. وقد أكسبت هذه

الطريقة أعمالهم العلمية الوضوح، ثُمَّ الانطلاق والإبداع الذي عرفت به منجزاتهم العلمية في مجمل فروع الفيزياء.

وقد قامت دراسات العرب والمسلمين لهذا العلم على أسس خمسة هي:

- نفيهم الخرافات القديمة التي وجدوها في كتب الأقدمين.
- سعة اطلاعهم على ما كتبه العلماء قبلهم.
- الإكثار من البحث والتنقيب.
- اعتماد التجارب العلميّة.
- الموازنة بين مختلف مظاهر الطبيعة ودراستها بعمق.

١ ـ أقسام علم الحركة (الح ـ ي ـ لَ): يقسم علم الحركة إلى قسمين:

الأول: يبحث في جر الأثقال بالقوة اليسيرة، وفي الآلات المستخدمة فيه.

الثاني: يبحث في الآلات المستخدمة في مختلف فروع هذا العلم.

فقد كانت لديهم آلات رفع متعددة الأشكال، صمموها على أسس ميكانيكية تسهل جر الأثقال، ذكر منها الخوارزمي: البرطيس، والمُخل، والبيرم، والآلة الكثيرة الرفع، والإسفين، واللولب، والخنزيرة، والسهم، والأسطام، والإسقاطولي، وصنعوا طواحين وعجلات ومضخات لرفع الماء.

كما ألف المسلمون في علم مراكز الأثقال، وهو علم يبحث في كيفية استخراج مركز ثقل الجسم المحمول. ومن العلماء الذين صنفوا في هذا العلم أبو سهل الكوهي[1] (أو القوهي)، وله كتاب «مراكز الأُكر» الذي قدم فيه أبحاثاً في كيفية معالجة هذا الموضوع، كما ابتكر علماء آخرون آلات

(١) النديم: **الفهرست**، ص٣٤١.

كثيرة للرفع، كلها مبنية على قواعد ميكانيكية تيسر عملية جر الأثقال بقوى يسيرة لرفعها أو لوزنها.

أما أبناء موسى بن شاكر[١]، فقد ألفوا كتاباً في الميكانيكا يعرف بكتاب «حِيل بني موسى» جمعوا فيه علم الميكانيا القديم، وأضافوا إليه تجاربهم الخاصّة، وهو يحتوي على مائة تركيب ميكانيكي؛ ولهم كتاب آخر في مراكز الثقل، وكتاب في فن الآلات الروحية.

وكان أحمد بن موسى متفوقاً في علم الحِيَل؛ فإنه قد فُتح له فيها ما لم يفتح مثله لأخيه محمد ولا لغيره من القدماء المتحققين بالحيل[٢].

وشرح البيروني[٣] كيفية صعود مياه الفرات والعيون إلى أعلى، وكيفية ترشيح مياه الآبار بالرشح من الجوانب، وبينوا كيفية صعود المياه وجرها إلى الأماكن العالية، كالقلاع ورؤوس المنارات، وطبقوا ذلك في جر المياه في دورهم ومبانيهم المرتفعة.

وكان علم السوائل فرعاً من علم الحيل عندهم، وللبيروني في كتابه «الآثار الباقية» شروح وتطبيقات كثيرة عن السوائل وضغطها وتوازنها.

وقد ابتكر العلماء في علم الموازين موازين مختلفة، منها الموازين الدقيقة التي تضاهي أدق الموازين الحديثة، ووضعوها في صناديق

(١) بنو موسى بن شاكر: وهم محمد وأحمد والحسن، وكان أجلهم أبو جعفر محمد، كان وافر الحظ في الهندسة، عالماً بإقليدس والمجسطي وجميع كتب النجوم والهندسة والعدد والمنطق. (راجع أخبارهم في كتاب القفطي: **إخبار العلماء بأخبار الحكماء**، ص٢٨٧).

(٢) القفطي: م.ن، ص٢٨٧.

(٣) البيروني: **الآثار الباقية عن القرون الخالية**، ص٢١٩ ـ ٢٢١ (طبعة مكتبة الثقافة الدينية)، الطبعة الأولى ٢٠٠٨، القاهرة.

زجاجية، ووزنوا فيها بعض مواد تجاربهم، وكانت نسبة الخطأ فيها أقل من أربعة من ألف جزء من الغرام. وصنعوا أيضاً الموازين الكبيرة كالقبان، الذي عزوا خاصته إلى النسبة (النسبية)، فذكر إخوان الصفا في إحدى رسائلهم قولهم: «من عجائب خاصته (أي القبان) النسبية ما يظهر في الأبعاد والأثقال من المنافع، على ذلك ما يظهر في القرسطون، أعني القبان، وذلك أن أحد رأسي عمود القرسطون طويل بعيد عن المعلاق[1]، والآخر قصير قريب منه؛ فإذا علق على رأسه الطويل ثقل قليل، وعلى رأسه القصير ثقل كثير، تساويا وتوازنا متى كانت نسبة الثقل القليل إلى الكثير كنسبة بُعْدِ رأس القصير إلى بُعِد رأس الطويل من المعلاق»[2].

٢ ـ حساب الوزن النوعي

ومن الأبحاث المهمة التي دخلت عند العلماء المسلمين في علم الحيل حساب الوزن النوعي (Masse molaire)، وكان البيروني يستخرج الثقل النوعي بوزن الجسم في الهواء أولاً، ثُمَّ يوزنه في الماء بعد أن يدخله في وعاء مخروطي الشكل، مثقوب على علو معين، ثُمَّ يزن الماء الذي أزاحه الجسم؛ فمن الماء المُزاح، الخارج من المخروط كان يعرف حجم الجسم؛ ومن قسمة وزن الجسم في الهواء على وزن الماء المُزاح يحصل على الثقل النوعي حساباً دقيقاً[3].

ويبين الجدول التالي النتائج التي توصل إليها البيروني في وزن الثقل النوعي للمواد، مقارنةً بوزنها التي توصل إليها العلماء اليوم.

(١) المعلاق: هو نقطة الارتكاز في القبان.
(٢) الخطيب، محمد: تاريخ الحضارة العربيّة، ص٢١٥، نقلاً عن رسائل ابن سينا.
(٣) الخطيب، محمد: م.ن، ص٢١٥.

المادة	الثقل النوعي عند البيروني	الثقل النوعي الحديث
الذهب	١٩,٢٦	١٩,٢٦
الزئبق	١٣,٧٤	١٣,٦٩
النحاس	٨,٩٢	٨,٨٥
الحديد	٧,٨٢	٧,٧٩
القصدير	٧,٢٢	٧,٢٩
الرصاص	١١,٤٠	١١,٣٥
اللازورد	٣,٩١	٣,٩٠
الياقوت	٣,٧٥	٣,٥٢
الزمرد	٢,٧٣	٢,٧٣
اللؤلؤ	٢,٧٣	٢,٧٥
العقيق	٢,٦٠	٢,٥ و ٢,٧
الكوارتز (المرو)	٢,٥٣	٢,٥٨

لقد قامت نظرية الثقل النوعي عند العلماء المسلمين على اعتبار أن الجسم إذا ما أخرج عن موضعه الطبيعي فاتجه نحو مركز الأرض، أي إلى أسفل، يسمى ثقيلاً، وإذا اتجه نحو محيط العالم، أي إلى العلو، سمي خفيفاً.

وقد اكتشف البيروني أن هناك تبايناً في الثقل النوعي للماء، فقد وجد أن الثقل النوعي للماء البارد يزيد على الثقل النوعي للماء الساخن بمقدار ٠,٠٧٦٦٦١٤٠ أي أن الماء يزيد حجمه بالتبريد بحوالي ٤,١٦٦٧٪.

٣ ـ علم الحِيل واختراع الساعات

برع العلماء المسلمون في صنع الساعات التي تعمل بالماء والرمل والزئبق والشمع والأثقال المختلفة، كما اخترعوا الساعات الشمسية وأعطوها

شكلاً دائرياً يتوسطه محور دائري آخر، واستطاعوا عن طريقها تحديد موقع الشمس، وتحديد الزمن، ووضعوا التقاويم السنوية.

وكانت الساعة الشمسية النقالة، أو ساعة الرحلة كما كانوا يسمونها، أكثر اختراعاتهم في هذا المجال؛ كما اخترعوا نوعاً من الساعات الشمسية المنبهة التي كانت تعلن عن الوقت بصوت رنان، وسميت الرخامة، كما صنعوا نوعاً من الساعات المائية كانت تقذف على رأس كل ساعة منها كرة معدنية في قدح، وتدور حول محور تظهر فيه النجوم أو رسوم أخرى، وما تلبث أن تبرق كلما جاوزت الساعة الثانية عشرة منتصف الليل، وعندها يمر فوقها هلال مضيء[١].

وقد اخترع عبد الرحمن بن يونس (ت ٣٣٩هـ/١٠٠٩م) رقاص الساعة (البندول Pendular).

٤ ـ الجاذبية

تحدث البيروني في كتابه «القانون المسعودي» عن الجاذبية، فقال: «إن السماء تجذب الأرض من كل الأنحاء على السواء، إلا أن جذبها لكتلة الأرض أشد من جذبها للأجزاء الأخرى، خاصّة إذا لم تكن هذه الأجزاء متصلة بالأرض، أو كانت بعيدة عنها، فحينئذ لا تتمكن السماء من جذبها إليها، لأنَّها تكون خاضعة لمجال جذب الأرض لها»، وبذلك يشير إلى نوعين من الجاذبية: جاذبية السماء للأرض، وجاذبية الأرض لمَا فوقها وحولها؛ فالشيء ينجذب إلى النطاق الذي يقع فيه مجاله، وإن كان هو ونطاقه منجذبين بدورهما إلى جرم السماء. والبشر بحكم وجودهم على سطح الأرض فهم منجذبون إليها، وهي بدورها منجذبة إلى السماء، ويبلغ ذلك الجذب أقصاه في باطن الأرض، من حيث تنطلق الجاذبية الأرضية.

---

(١) المصدر: موقع إلكتروني http://www.alargam/general/arabsience

والنَّاس على الأرض مُنتصبو القامات على استقامة قطر الكرة الأرضية، وعليها أيضاً نزول الأثقال إلى الأسفل(١).

ويعترض البيروني على القائلين بعدم دوران الأرض لأنَّها إذا دارت طارت من فوق سطحها الحجارة والأشجار؛ ويقول في هذا الصدد إن هذا لا يقع، لأنه لا بُدّ من أن نُدخل في الحساب أن الأرض تجذب كل ما عليها نحو مركزها(٢).

وتناول موضوع الجاذبية أيضاً العالم الكبير البوزجاني وغيره من العلماء في القرن الرابع للهجرة؛ وقد استفاد من أبحاثهم ودراساتهم أحد كبار علماء الجاذبية في القرن السادس، هبة الله بن ملكا البغدادي المعروف بأوحد الزمان (ت ٥٦٠هـ/ ١١٩٥م) الذي يقول في كتابه «المعتبر في الحكمة»: «إن الجسم يسقط حراً (Chute libre) تحت تأثير قوة جذب الأرض متخذاً في ذلك أقصر الطرق في سعيه للوصول إلى موضعه الطبيعي، وهو الخط المستقيم؛ فلو تحركت الأجسام في الخلاء (inside le vide) لتساوت حركة الثقيل والخفيف والكبير والصغير، والمخروط، المتحرك على رأسه الحاد، والمخروط المتحرك على قاعدته الواسعة، في السرعة والبطء، لأنها تختلف في الملاء بهذه الأشياء بسهولة حركتها لمَا تخرقه من المقاوم، كالماء والهواء وغيره»(٣).

وهذا يعني حسب مفهوم علم الجاذبية، أن الجاذبية تنعدم في المكان المفرغ؛ فتساوي أوزان الأشياء، كما يتساوى تحركها في هذا الفراغ أو الخلاء.

---

(١) يوسف محمود: الإنجازات العلمية في الحضارة الإسلامية، دار وائل للنشر، عمان، الأردن، ط٤، ٢٠٠٧، ص٢٤٨.

(٢) المرجع: الموقع الإلكتروني، http://www.alargam/general/arabsience

(٣) المرجع نفسه، http://www.alargam/general/arabsience

٥ ـ المغناطيس واستخداماته

عرف العرب والمسلمون المغناطيس، وقد كان الإغريق أول من اكتشف فيه خاصية الجذب، وكانوا يجلبون نوعاً من الحجر من منطقة تسمى مغناطيسيا، له قدرة على الجذب، ثُمَّ أطلقت كلمة مغناطيس على هذا الحجر.

وقد استفاد المسلمون من خاصتين أساسيتين لهذا الحجر، هما: الجذب، وإشارته إلى الاتجاه؛ فاستخدموا ذلك في أسفارهم البحرية. يقول البيروني: إن حجر المغناطيس كالكهرمان، له خاصية الجذب، لكنه أكثر منه فائدة، لأنه يستطيع أن ينتزع شفرة من الجرح، أو طرف المشرط من أحد العروق، أو خاتماً معدنياً ابتلعه الإنسان واستقر في بطنه.

واستخدم المسلمون الإبرة المغناطيسية (البوصلة) وسماها العرب بيت الإبرة، ويقال: إن البحارة المسلمين، على الأرجح، كانوا أول من استخدم خاصية الاتجاه في المغناطيس في صنع بيت الإبرة (البوصلة) في رحلاتهم البحرية، وذلك حوالي القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، كما استخدموها في ضبط اتجاه القبلة، وإقامة المحاريب في المساجد.

٦ ـ قوانين علم الحركة عند المسلمين

من خلال ما أوردناه من معلومات وآراء ونظريات في علم الحيل (الميكانيكا) يتبيّن لنا أن المسلمين والعرب ابتكروا أشياء كثيرة وظّفوها في التطبيقات العملية للآلات والمعدّات التي صنعوها مستفيدين من مبادئ وأسس هذا العلم، وطوّروها إلى درجة عالية من الإتقان، وكان الهدف من هذه الاستفادة توفير القوة البشرية والتوسع في القوة الميكانيكية، وبالتالي الاستفادة من المجهود البسيط والقليل للحصول على جهد أكبر وأقوى من جهد الإنسان والحيوان، وأرادوا من خلاله تحقيق منفعة الإنسان واستعمال

الحيلة (من هنا جاء اسم هذا العلم بعلم الحِيَل) مكان القوة، والعقل مكان العضلات، والآلة مكان البدن.

وعلم الحركة (الميكانيكا) يقوم حالياً على ثلاثة قوانين رئيسة، كان قد وضعها العالم الإنجليزي نيوتن في أوائل القرن الثامن عشر للميلاد، عندما نشر كتابه الشهير «الأصول الرياضية للفلسفة الطبيعية»، وكان نيوتن قد قام بتجميع المعلومات التي وضعها العلماء المسلمون عن علم الحيل.

ففي القانون الأول[1] عن الحركة قال: «إن الجسم يبقى على حالة سكون، أو في حالة حركة منتظمة في خط مستقيم، ما لم تجبره قوى خارجية على تغيير هذه الحالة». وفي هذا الصدد يقول إخوان الصفا في إحدى رسائلهم: «الأجسام الكليات، كل واحد له موضع مخصوص، ويكون واقفاً فيه، لا يخرج إلا بقسر قاسر»، كما يقول ابن سينا في كتابه «الإشارات والتنبيهات»: «إنك لتعلم أن الجسم إذا خُلّي طباعه، ولم يَعْرِض له من الخارج تأثير غريب، لم يكن له بدّ من موضع معين، وشكل معين، فإن من طباعه مبدأ استيجاب ذلك. إذا كان شيء ما يُحرّك جسماً ولا ممانعة في ذلك الجسم، كان قبوله الأكبر للتحريك مثل قبوله الأصغر، ولا يكون أحدهما أعصى والآخر أطوع، حيث لا مقاومة أصلاً».

ثُمَّ يقول ابن سينا: «وقد بيّنا أن تجدد مراتب السرعة والبطء بحسب تجدد مراتب المعوقات الخارجية والداخلية».

أمَّا القانون الثاني للحركة عند نيوتن، فنصّه: «إن تسارع جسم ما أثناء حركته، يتناسب مع القوة التي تؤثر عليه. وفي تطبيق هذا القانون على تساقط الأجسام تحت تأثير جاذبية الأرض، تكون النتيجة أنه إذا سقط جسمان من نفس الارتفاع فإنهما يصلان إلى سطح الأرض في نفس اللحظة بصرف النظر

---

(١) المرجع: الموقع الإلكتروني: http://wikipedia.org.

عن وزنهما، ولو كان أحدهما كتلة حديد والآخر ريشة، ولكن الذي يحدث من اختلاف السرعة مردّه إلى اختلاف مقاومة الهواء لهما، في حين أن قوّة تسارعهما واحدة».

ويقول فخر الدين الرازي: في كتابه «المباحث الشرقية» ما نصّه: «فإن الجسمين لو اختلفا في قبول الحركة لم يكن ذلك الاختلاف بسبب المتحرك، بل بسبب اختلاف حال القوة المحركة؛ فإن القوة في الجسم الأكبر أكثر مما في الجسم الأصغر الذي هو جزؤه، لأن ما في الأصغر فهو موجود ما في الأكبر مع زيادة». ثُمَّ يفسّر اختلاف مقاومة الوسط الخارجي، كالهواء، للأجسام الساقطة فيقول: «وأمّا القوة القسرية فإنه يختلف تحريكها للجسم العظيم والصغير، لا لاختلاف المحرك، بل لاختلاف حال المتحرك؛ فإن المعاوق في الكبير أكثر منه في الصغير».

والقانون الثالث لنيوتن ينصب على «أن لكل فعل ردّ فعل مساو له في المقدار، ومضاد له في الاتجاه» ويقول هبة الله البغدادي، ابن ملكا، من علماء القرن السادس، في كتابه «المعبر في الحكمة»: «إن الحلقة المتجاذبة بين المصارعين لكل واحد من المتجاذبين، في جذبها قوة مقاومة للآخر، وليس إذا غلب أحدهما فجذبها نحوه تكون قد خلت في قوة جذب الآخر، بل تلك القوة موجودة مقهورة، ولولاها لما احتاج الآخر إلى كل ذلك الجذب». ويقول الرازي: «الحلقة التي يجذبها جاذبان متساويان حتى وقفت في الوسط، لا شك أن كل واحد منهما، فعل فيها فعلاً معوقاً بفعل الآخر».

فهذه القوانين الثلاثة للاستقرار والحركة ورد الفعل، هي القوانين الأساسية التي ترتكز عليها حالياً كل علوم الآلات والأشياء المتحركة.

* * *

ثانياً: علم البصريات Optics

علم البصريات أو المناظر أو الضوء ثلاثة مسمّيات لعلم واحد، اهتمّ به العرب منذ بدء اهتمامهم بالعلوم والفلسفة، وليس من المبالغة القول بأنه لولا البصريات وما توصل العلماء فيها لمَا تقدم علم الفلك والطبيعة تقدمهما السريع المدهش.

فالكندي (ت ٢٦٠ هـ/ ٨٧٣م) ألّف عدداً من الكتب في هذا العلم منها[١]: كتاب «اختلاف المناظر» وكتاب «اختلاف مناظر المرآة» وكتاب «في المناظر الفلكية» وكتاب «في البرهان على الجسم الساتر ماهية الأضواء والأظلام».

وكذلك كتب إبراهيم بن سنان بن ثابت بن قرّة كتاباً في البصريات سمّاه كتاب آلات الإظلال[٢] والبيروني هو أول من أعلن أن سرعة الضوء، أعظم كثيراً من سرعة الصوت[٣]. ومن مؤلفات البيروني في علم البصريات رسالة بعنوان «إفراد المقال في أمر الظلال»[٤].

ومع أن هؤلاء العلماء كتبوا في علم البصريات إلاَّ أن هذا العلم لم يشهد نهضته الكبرى إلاَّ على يد الحسن بن الهيثم[٥].

وكان لدى العلماء المسلمين في موضوع الإبصار ثلاثة مذاهب[٦]:

ـ **مذهب رياضي**: يقول أصحابه إن الإبصار يحدث بشعاع يخرج

(١) القفطي: **إخبار العلماء بأخبار الحكماء**، ص٢٤٣.

(٢) القفطي: م،ن، ص٤٣.

(٣) الخطيب، محمد: **تاريخ الحضارة العربيّة**، ص٢١٩.

(٤) فتحي، مصطفى: **موسوعة أعلام الحضارة**، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ٢٠٠١م، ص١٢٦.

(٥) لن نتناول جهود ابن الهيثم في علم البصريات لأنه بصري عاش في القاهرة.

(٦) المرجع: الموقع الإلكتروني: http://www.com/general/arabsience

من العينين على هيئة مخروط، رأسه عند مركز البصر، وقاعدته سطح المبصر.

ـ **مذهب طبيعي**: وأصحابه من الفلاسفة كابن سينا وغيره، يُخَطِّئون أصحاب المذهب الرياضي، ويقولون إن الإبصار إنَّما يكون بالانطباع، وذلك بصورة ترد من المبصر (الجسم) إلى البصر (العين)، ومنها يدرك البصر صورة الجسم.

ـ **مذهب فلسفي**: يقول أصحابه، إن الإبصار ليس بالانطباع، ولا بخروج الشعاع من العينين على هيئة مخروط، بل إن الهواء المشف الذي بين الرائي والمرئي يتكيف بكيفية الشعاع الذي في البصر، ويصير بذلك آلة للإبصار.

وبعد أن أدلى ابن الهيثم بدلوه في هذا الموضوع، تبدلت الصورة، واتخذ الأمر منعطفاً جديداً[1].

(١) يعتبر كتاب المناظر الذي ألّفه ابن الهيثم من أثمن ما في التراث العلمي العربي؛ فقد درس ابن الهيثم انكسار الضوء عند مروره في الأوساط الشفافة، كالهواء والماء، واقترب من اختراع العدسة المكبّرة. وقد رفض ابن الهيثم نظريات اليونان في كيفية الإبصار، وصاغ نظرية جديدة في ذلك هي أن صورة الجسم المرئي تصل إلى العين عن طريق الأشعة المنعكسة، ومنها تنتقل بواسطة الجسم الشفاف (العدسة). ووصف طبقات العين، ووضع نظرية مبنية على ستة شروط لا يتم الإبصار إلا بتحقيقها، وهي:

١ ـ أن يكون الجسم المرئي مضيئاً بذاته أو يقع عليه ضوء.

٢ ـ أن يكون الجسم المرئي على بعد من العين، فالعين لا ترى جسماً ملتصقاً بها.

٣ ـ أن يكون الوسط الفاصل بين المرئي والعين شفافاً.

٤ ـ أن يكون للجسم المرئي حجم معين يسمح للعين بإدراكه.

٥ ـ أن يكون الجسم المرئي مواجهاً للعين.

٦ ـ أن تكون العين ذاتها خالية من عيوب الإبصار.

فالإبصار لا يكون على الوجه الأكمل إلا إذا تحققت جميع هذه الشروط، فإن قصر شرط من هذه الشروط أو أكثر يمكن أن يحصل الإبصار، لكن لا يمكن أن يكون كاملاً وتاماً.

(نقلاً عن كتاب **تاريخ العلوم والتكنولوجيا**، لمصطفى سليمان، ص٤٠٥ ـ ٤٠٦).

ثالثاً: علم الصوتيات Acoustics

اهتمّ العلماء المسلمون بالبحث في الصوت ومنشئه، وبينوا أن الصوت إنَّما ينشأ من حركة الأجسام، وأن هذه الحركة تؤثر في الهواء فيتحرك على هيئة أمواج، وكلما اتسعت هذه الأمواج قلّت حركتها وضعف الصوت[1].

كذلك أدى بحثهم في الصوت إلى البحث في الموسيقى، والآلات الموسيقية وأنواعها، والأنغام الصادرة عنها.

وقد ذكر إخوان الصفا[2] في رسائلهم موجزاً شاملاً في علم الأصوات وعلم الموسيقى، حيث نجد تعليلاً لحدوث الصوت الناتج عن حركة الأجسام المصوّتة في الهواء، فالصوت «قرع يحدث في الهواء من تصادم الأجرام (أي الأجسام)، وذلك لأن الهواء لشدة لطافته وسرعة حركة أجزائه، يتخلل الأجسام كلها، فإذا صدم جسم جسماً آخر، انسلّ ذلك الهواء من بينهما، وتدافع وتموّج إلى جميع الجهات، وحدث من حركته شكل كروي، واتسع كما تتسع القارورة من نفخ الزجاج (صانع الزجاج) فيها، وكلما اتسع ذلك الشكل، ضعفت حركته وتموّجه إلى أن يسكن ويضمحل».

وقسم العلماء الأصوات إلى أنواع منها: الجهير، والخفيف والحاد والغليظ، وردوا هذه الأنواع إلى طبيعة الجسم الذي تصدر عنه، وإلى قوة تموج الأصوات بسببها.

وتكلموا على الأوتار الصوتية، ووقفوا على العلاقة بين طول الوتر وغلظه، وشده ورخوه، وبين الصوت الصادر عنه، ونوع هذا الصوت، وكذلك وقفوا على العلاقة بين قوة النقر على الوتر ونوع الصوت الصادر

(١) سليمان، مصطفى: **تاريخ العلوم والتكنولوجيا**، ص٤٠٧.

(٢) الخطيب، محمد: **تاريخ الحضارة العربية**، ص٢١٩، نقلاً عن رسائل إخوان الصفا.

عنه. وكل هذه التقسيمات والعلاقات التي تحدثوا عنها في علم الصوتيات تنفق كثيراً ما توصل إليه علم الأصوات حديثاً أو علم الموسيقى أيضاً.

كذلك تحدث العلماء المسلمون عن الصدى، وعللوا حدوثه بأنه نتيجة انعكاس الهواء المتموج من مصادمة جسم عالٍ كحائط أو جبل أو نحوهما، ويجوز ألاَّ يقع الشعور بالانعكاس لقرب المسافة؛ فلا يحس بتفاوت زماني الصوت وعكسه»[1].

وشرح القزويني سبب رؤية البرق قبل سماع الرعد بقوله[2]: «اعلم أن الرعد والبرق يحدثان معاً، لكن يُرى البرق قبل أن يُسمع الرعد، لأن الرؤية تحصل بمراعاة البصر، وأمَّا السمع فيتوقف على وصول الصوت إلى الصماخ، وذلك يتوقف على تموج الهواء، وذهاب البصر أسرع من وصول الصوت»؛ أي إن انتقال الضوء أسرع من انتقال الصوت، وباختصار إن سرعة الضوء أكثر من سرعة الصوت.

١ ــ أنواع الأصوات[3]

من الدراسات المتقدمة جداً في علم الأصوات، تلك الدراسة التي قدمها إخوان الصفا عن فن أنواع الأصوات، ويقسم إخوان الصفا الأصوات إلى عدة أنواع وكل نوع من هذه الأنواع يتفرع عنه أنواع أخرى، وذلك بطريقة رياضية واضحة. فالأصوات نوعان:

١ ــ حيوانيّة.

٢ ــ غير حيوانية.

وغير الحيوانية نوعان:

(١) المرجع: الموقع الإلكتروني http://www.alargam.com/general/arabsience

(٢) الخطيب، محمد: **تاريخ الحضارة العربية**، ص٢٢٠.

(٣) إخوان الصفا: **رسائل إخوان الصفا**، ١/ ١٨٨ ــ ١٨٩.

١ ـ الطبيعية: كصوت الحجر والحديد والخشب والرعد والريح وسائر الأجسام التي لا روح فيها من الجمادات.

٢ ـ والآلية: كصوت الطبل والبوق والزمر والأوتار، وما شاكلها.

والحيوانية نوعان:

١ ـ غير منطقية.

٢ ـ منطقية.

١ ـ غير المنطقية: هي أصوات سائر الحيوانات غير الناطقة.

٢ ـ المنطقية: هي أصوات الناس، وهي نوعان: دالّة، وغير دالّة.

ـ فغير الدالّة: كالضحك، والبكاء، والصياح، وبالجملة كل صوت لا هجاء له[١].

ـ أما الدالّة: فهي الكلام والأقاويل التي لها هجاء.

ثُمَّ يقسم إخوان الصفا الأصوات من حيث مصادرها الى ثلاثة أقسام[٢].

٢ ـ كيفية حدوث الصوت

يوضح إخوان الصفا بطريقة علمية رائعة كيفية حدوث الصوت؛ فبعد تعريفهم للصوت بأنه «قرْع يحدث في الهواء من تصادم الأجسام[٣]، وهذا يعني أن الفراغ لا يمكن أن يحمل صوتاً، أو ينقل هذا القرع؛ فوجود الهواء أساس في حدوث الصوت. «فالهواء يتخلل الأجسام كلها، فإذا صدم جسم جسماً آخر، انسلّ ذلك الهواء من بينهما، وتدافع وتموّج إلى جميع

---

(١) لا هجاء له: أي غير مركب من الحروف الهجائية.

(٢) المرجع: الموقع الإلكتروني: http://www.alargam.com/general/arabsience

(٣) إخوان الصفا: **رسائل إخوان الصفا**، ١/ ١٨٩.

الجهات، وحدث من حركته شكل كروي، واتّسع كما تتسع القارورة من نفخ الزجاج[1] فيها، وكلما اتسع ذلك الشكل ضعفت حركته وتموّجه، إلى أن يسكن ويضحمل». ولا أظن علم الأصوات الحديث استطاع أن يضيف إلى هذا الكلام شيئاً ذا قيمة، مع وجود التجهيزات والآلات الدقيقة جداً لمعرفة كيفية حدوث الصوت.

أمَّا عن كيفية حصول عملية سماع الأصوات، فيقول إخوان الصفا[2]: «من كان حاضراً من النَّاس وسائر الحيوانات الذي له أُذن، بالقرب من ذلك المكان، فيتموّج ذلك الهواء بحركته، يدخل في أُذُنِهِ إلى صماخه في مؤخر الدماغ، ويتموج أيضاً ذلك الهواء الذي هناك، فتحسّ عند ذلك القوة السامعة بتلك الحركة وذلك التغيير.

وإذا كان الشرط الأساسي لحدوث الصوت هو تصادم الأجسام؛ فإن هذا الشرط يجب أن يقترن بعاملين اثنين أيضاً هما: مدّة التصادم وسرعته، لأن كل جسمين تصادما برفق ولين لا يسمع لهما صوت، لأن الهواء ينسل من بينهما قليلاً قليلاً. أما إذا كان التصادم شديداً وسريعاً؛ فالهواء عند ذلك يندفع مفاجأة، ويتموج بحركته إلى الجهات الست بسرعة، فيحدث الصوت.

فَعِظَمُ الصوت، أي قوته، إنما تكون بحسب عِظَم الأجسام المصوتة، وشدة صدمها، وكثرة تموج الهواء في الجهات عنها.

وقبل أن أنهي كلامنا على الموسيقى أشير إلى ما ذكره إخوان الصفا من تأثر الأمزجة بالأصوات[3]، واختلاف هذه الأمزجة بين الأمم، وبين أفراد الأمَّة الواحدة، وهم يربطون بين توافق وتشاكل المزاج مع النغم، وها هم

(١) الزجّاج: صانع الزجاج.

(٢) إخوان الصفا: **رسائل إخوان الصفا**، ١/ ١٨٩.

(٣) إخوان الصفا: م.ن، ١/ ١٩٦.

يقولون كلاماً في منتهى الدقة والنظرة العلمية الثاقبة، حول هذه القضية: «لكل مزاج وكل طبيعة نغمة تشاكلها، ولحن يلائمها، والدليل على ذلك أن لكل أمة من الناس ألحاناً ونغمات يستلذونها ويفرحون بها، لا يستلذها غيرهم، ولا يفرح بها سواهم... وهكذا أيضاً تجد في الأمَّة الواحدة من هذه، أقواماً يستلذون ألحاناً ونغمات، وتفرح نفوسهم بها، ولا يُسَرُّ بها من سواهم. وهكذا أيضاً ربما تجد إنساناً واحداً يستلذ وقتاً ما لحناً ويَسُرُّه، ووقتاً آخر لا يستلذه، بل ربما يكرهه ويتألم منه... كل ذلك بحسب تغيرات أمزجة الأخلاط، واختلاف الطبائع، وتركيب الأبدان، والأماكن والأزمات».

١ ـ أصوات حيوانية تصدر عن ذوات الرئة:

وتختلف أنواعها ونغماتها باختلاف:

أ ـ أطوال أعناقها.

ب ـ وسعة حلاقيمها.

ج ـ وتركيب حناجرها.

د ـ وقوة دفع الهواء من أفواهها، ومناخرها.

٢ ـ أصوات حيوانية تصدر عن ذوات الأجنحة:

عديمة الرئة: كالزنابير والجراد والصراصير؛ وتنتج الأصوات التي تصدرها بسبب تحرك الهواء بأجنحتها، كما هو الحال عند تحريك أوتار العيدان، ويعزى اختلاف أصواتها إلى:

أ ـ لطافة أجنحتها.

ب ـ وغلظها.

ج ـ وطولها.

د ـ وسرعة حركتها.

٣ ـ أصوات حيوانية تصدر عن حيوانات عديمة الرئة والأجنحة:

كالأسماك، والسلاحف، والسرطانات، وتسمى الحيوانات الخرساء، وتختلف الأصوات التي تصدر عنها:

أ ـ باختلاف يَبَسِها وصلابتها، ب ـ وباختلاف أحجامها، من حيث الكبر والصغر، والطول والقصر، والسعة والضيق.

ولعل أفضل وأتقن عمل قام به العلماء المسلمون في علم الأصوات، تلك الرسالة التي كتبها ابن سينا، وهي بعنوان «أسباب حدوث الحروف»[١].

قسم ابن سينا رسالته إلى ستة فصول[٢]:

ـ الفصل الأول: في سبب حدوث الصوت.

ـ الفصل الثاني: في سبب حدوث الحروف.

ـ الفصل الثالث: في تشريح الحنجرة واللسان.

ـ الفصل الرابع: في الأسباب الجزئية لحرف من حروف العرب.

ـ الفصل الخامس: في الحروف الشبيهة بهذه الحروف وليست في لغة العرب.

ـ الفصل السادس: في أن هذه الحروف من أي الحركات غير المنطقية قد تسمع.

والصوت عند ابن سينا ينتج عن تموج الهواء دفعة وبقوة وسرعة، وسبب التموج عنده ما يسميه بالقرع والقلع، أي ما يُعرف اليوم بالتضاغط والتخلخل.

---

(١) القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص٢٧٢.

(٢) ابن سينا: رسالة أسباب حدوث الحروف، راجعها وقدم لها طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة (د.ت.)

وقد استفاد العلماء المسلمون من علم الصوتيات ليؤلفوا في علم الموسيقى، فهو عند ابن سينا: «علم يعرف منه حال النغم وكيفية تأدية اللحون».

ويُعتبر الفارابي (ت ٣٣٩هـ/ ٩٥٠م) أول من وضع أسس التعاليم الصوتية، وذلك في كتابه المشهور المعروف بكتاب الموسيقى الكبير، وكتاب الإيقاعات[١]، ويقال إن الفارابي هو الذي اخترع الآلة الموسيقية المعروفة بالقانون.

ولم يكن الفارابي في علم الموسيقى والنغم إلاَّ مطوّراً لمدرسة الكندي (ت٢٦٠هـ/ ٨٧٣م)، الذي يرجح أن يكون أول من كتب في علم الموسيقى؛ فقد ذكر له النديم كتباً ورسائل في «الموسيقيات»؛ فعدّد سبعة كتب منها[٢]: «كتاب رسالته الكبرى في التأليف»، «كتاب رسالته في ترتيب النغم»، «كتاب رسالته في الإيقاع»، «كتاب رسالته في المدخل إلى صناعة الموسيقى».

إن السلم الموسيقي الذي وضعه الكندي هو سلم الموسيقى العربيّة المستعمل الآن، ويشتمل على ١٢ نغمة.

كذلك نجد في رسائل إخوان الصفا[٣] بحثاً في الموسيقى، أدرجوه في القسم الرياضي من الرسالة الخامسة يتناولون فيه صناعة الموسيقى، وكيفية إدراك القوة السامعة للأصوات، وأصول الألحان وقوانينها، وكيفية صناعة الآلات وإصلاحها، ونوادر الفلاسفة في الموسيقى وتأثير الأنغام.

وتجدر الإشارة أخيراً، إلى أننا سندرس علم الموسيقى لاحقاً.

* * *

(١) القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص١٨٤.
(٢) النديم: الفهرست (طبعة إيران) ص٣١٦ ـ ٣١٧.
(٣) إخوان الصفا: رسائل إخوان الصفا، الرسالة الخامسة.

المبحث الثاني

علوم الأرض Geology

كان العلماء المسلمون أعظم من أرسى الأساس الحقيقي لعلم الجيولوجيا من الأقدمين وأغزرهم فيه إنتاجاً، وإن لم يطلقوا عليه اسماً عربياً، بل احتفظوا باسمه اليوناني القديم.

وقد احتلت الجيولوجيا مكاناً مرموقاً بين العلوم إبان ازدهار الحضارة العربيَّة الإسلاميّة، وارتبطت الجيولوجيا عند العرب وتداخلت مع علوم أخرى مثل الجغرافيا والفلك والآثار العلوية (أي التي فوق الأرض)، والكيمياء.

وقد ساهم عدد كبير من العلماء في بناء وتطوير علم الجيولوجيا، سواء بالترجمة أو بالتأليف، واستحوذت المعادن والأحجار وصفاتها وطرق تكوّنها، وأماكن تواجدها على اهتمامهم. ويندر أن نجد كتاباً وضع إبّان الحضارة العربيَّة الإسلاميّة، دون أن يحتوي على معلومات عن المعادن والأحجار الكريمة، ويُعزى ذلك إلى اتساع رقعة الدولة الإسلاميّة، وشمولها على عدد كبير من البيئات الجيولوجية، بما فيها من صخور ومعادن وظواهر جيولوجية متنوعة[1].

وقد كتب بعض العلماء المسلمين كتابات علميّة رائعة في علوم الأرض مثل ابن سينا (٣٧١ ـ ٤٢٨هـ/ ٩٨٠ ـ ١٠٣٦م) الذي كتب رسالة في المعادن، بقيت حتى القرن الثالث عشر للميلاد، أهمّ مصادر علم الجيولوجيا عند الأوروبيين، وقد كتب فيها عن تكوين الجبال كتابة تعد أنموذجاً للوضوح في العلم، من ذلك أننا نجد في رسالة ابن سينا عن الحجارة فصلاً

(١) سليمان، مصطفى: تاريخ العلوم والتكنولوجيا، ص٢٩٠ ـ ٢٩١.

عن منشأ الجبال لا يبتعد فيه عما يدرس اليوم[١] كما هو ظاهر من العبارة الآتية، قال ابن سينا:

«وتنشأ الجبال عن سببين: فالجبال إمّا أن تكون نتيجة ارتفاع في قشرة الأرض، بفعل أحد الزلازل الشديدة مثلاً، وإمّا أن تكون نتيجة عمل الماء، بأن يَشُقَّ طريقاً جديداً، ويحفر أودية ويحدث جبالاً، وذلك لأنّك تجد صخوراً ليّنة وصخوراً ذات صلابة؛ فيذهب الماء والريح بالصخور الليّنة، ويترك الأخرى سليمة، وهكذا يحدث أكثر التلال».

ويقيم ابن سينا الدليل على ما تقدم، فيقول: «إن الذي يدلّ على أن الماء سبب أساسي لذلك، هو وجود حيوانات مائية وغيرها على كثير من الصخور، ولا تصدر المادة الترابية والصفراء، التي تستر وجه الجبال عما يصدر عنه هيكل الجبل، بل عن انحلال بقايا الأعشاب والوحل الذي يأتي به الماء، ومن المحتمل أن تأتي من وحل البحر القديم، الذي كان يغطي جميع الأرض فيما مضى».

وهكذا نرى أن ابن سينا أبصر أن التحولات التي تطرأ على الكرة الأرضية لم تنشأ عن الطوفانات الكبيرة كما اعتقد العلماء الغربيون، وإنَّما هي نتيجة تطوّرات بطيئة تمت بتعاقب القرون، كما أثبت ذلك علم الأرض الحديث[٢].

ولم يكن ابن سينا العالم الوحيد الذي كتب في علوم الأرض[٣] بل كان هناك علماء آخرون في القرن الرابع أيضاً أمثال: البيروني، وإخوان

---

(١) لوبون، غوستاف: **حضارة العرب**، ص٤٨٥.

(٢) لوبون، غوستاف: م، ن، ص٤٨٦.

(٣) يقول الأستاذ أيمن نصار: «إن ابن سينا هو المؤسس الرئيس للجيولوجيا عند العرب». المرجع: الموقع الإلكتروني http://www.altareekh.com

الصفا، والمسعودي، والهمداني، وابن حوقل، وهؤلاء العلماء سبقهم علماء آخرون تحدّثوا عن علوم الأرض ضمن مؤلفاتهم المتنوعة؛ فالكندي له عدة رسائل وكتب تتعلق بعلوم الأرض، من ذلك «رسالته في علم حدوث الرياح في باطن الأرض المحدثة كثير الزلازل»، «ورسالته في أنواع الحجارة».

كذلك يمكن اعتبار العالم الكبير، أبي الريحان البيروني، ممن ساهم مساهمة كبرى في دراسة علوم الأرض، وكتابه «تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن»[(١)]، الذي ألّفه سنة (٤١٧هـ/١٠٢٦م) فيه العديد من الآراء الجيولوجية المتعلقة بأحوال الأرض وطبيعتها وجبالها، حيث يقول[(٢)]: «ولا نعلم من أحوالها (أي الأرض) إلا ما يشاهد من الآثار التي تحتاج في حصولها إلى مدد طويلة، كالجبال الشامخة، المتركبة من الرضراض الملس، المختلفة الألوان، المؤتلفة بالطين والرمل، المتحجّريْن عليها؛ فإن من تأمل الأمر من وجهه، وأتاه من بابه، علم أن الرضراض، والحصى هي حجارة تتكسر من الجبال بالانصداع والانصدام ثم يكثر عليها جري الماء وهبوب الرياح ويدوم احتكاكها فتبلى (أي تتفتت) ويأخذ البلى فيها من جهة زواياها وحروفها، حتى يذهب بها، فَيُدَمْلكُها [أي يجعلها كروية أو شبه ذلك]، وإن الفتات التي تتميز عنها هي الرمال ثُمَّ التراب، وإن ذلك الرضراض، لمّا اجتمع في مسايل الأودية حتى انكبست بها، وتخللها الرمال والتراب؛ فانعجنت بها، واندفنت فيها، وعَلَتها السيول؛ فصارت في القرار والعمق، بعد أن كانت من وجه الأرض فوق، تحجرت بالبرد، لأن

(١) طبع هذا الكتاب للمرة الأولى بمدينة أنقرة التركية سنة ١٩٦٢م، ثُمَّ طبع ضمن منشورات معهد المخطوطات العربيّة بالقاهرة سنة ١٩٩٥م.

(٢) البيروني: **كتاب تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن**؛ حققه ب، بولجاكوف، راجعه إمام إبراهيم أحمد، نشره معهد المخطوطات العربيّة القاهرة، ١٩٩٥، ص٤١ ـ ٤٢.

تحجُّر أكثر الجبال في الأعماق بالبرد، ولذلك تذوب الأحجار بتسليط النار فإن ما انعقد بالبرد انحل بالحّر، وما انعقد بالحر انحلّ بالبرد. وإذا وجدنا جبلاً متجبلاً من هذه الحجارات الملس ـ وما أكثره فيما بينها ـ علمنا أن تكوّنه على ما وصفناه، وأنه تردد سافلاً مرة، وعالياً أخرى.

وكل تلك الأحوال ـ بالضرورة ـ ذوات أزمان مديدة، غير مضبوطة الكمية، وتحت تغايير غير معلومة الكيفية، ولها تتناوب العمارة على بقاع الأرض».

وهذا النص يشير إشارة مباشرة إلى عمليات النحت والتعرية والترسب بلغة واضحة لا لبس فيها ولا غموض، وهذه النظرية تَتَّفِق مع نظرية ابن سينا في الموضوع ذاته.

لقد قال البيروني إن ما نشاهده الآن على سطح الأرض من آثار، تحتاج في حصولها إلى مدد طويلة. وهذا يعني أن الحاضر الجيولوجي هو مفتاح الماضي البعيد الذي تكونت خلاله طبقات الأرض.

ومن الأمور الهامة التي تطرق إليها البيروني في كتابه هذا:

ـ إشارته إلى ما نسميه الآن نظرية انجراف القارات.

ـ حديثه عن أصول تكوين الأحافير، وأن البحر كان يغطي بادية العرب في العصور القديمة، ودليله وجود الأحافير البحرية في الصخور، والتي شاهد مثلها على ساحل بحر قزوين[١].

وكذلك ذكر إخوان الصفا في رسائلهم عملية تكون الجبال، وأن مواضع البر والبحر تتغير وتتبدل على طول الزمان[٢]. وقالوا: إن الجبال منها ما هو صخور صلدة وحجارة صلبة، ومنها ما هو صخور رخوة.

---

(١) أيمن نصار: الموقع الالكتروني http://www.altareekh.com

(٢) إخوان الصفا: **رسائل إخوان الصفا**، ٢/ ٩٢ (الرسالة الخامسة في بيان تكوين المعادن) دار صادر، بيروت.

وأشاروا إلى تفتت الصخور تحت تأثير درجات الحرارة والصواعق وغيرها[١]. وينتقل الفتات الصخري بالمياه الجارية ليترسب في قيعان البحار في صورة طبقات صخرية فوق بعضها لتكوّن الجبال، وإن هذه الجبال بدورها تتعرض للهدم، والتفتت على طول الزمان، وينشأ عن ذلك السهول المنبسطة[٢].

أولاً: علم الزلازل والبراكين

ومما يدخل في علوم الأرض علم الزلازل والبراكين؛ فقد حاول كثير من العلماء المسلمين شرح ظاهرة الزلازل، كالكندي[٣] وابن سينا وإخوان الصفا وغيرهم؛ فقد أشار ابن سينا إلى عدد من أنواع الزلازل حسب تحركات صخور القشرة الأرضية الناشئة عن الزلزلة، ودور الزلازل في تفتيح بعض عيون الماء[٤].

ويشرح إخوان الصفا أسباب حدوث الزلازل فيقولون[٥]: «وأمّا الكهوف والمغارات والأهوية التي في جوف الأرض والجبال، إذا لم يكن لها منافذ تخرج منها الماء، بقيت تلك المياه هناك محبوسة زماناً، وإذا حمي باطن الأرض وجوف تلك الجبال، سخنت تلك المياه ولطفت وتحللت وصارت بخاراً، وارتفعت وطلبت مكاناً أوسع، فإن كانت الأرض كثيرة التخلخل، تحللت وخرجت تلك البخارات من تلك المنافذ (وهي البراكين) وإن كان ظاهر الأرض شديد التكاثف حصيناً (أي شديد التماسك) منعها من

(١) إخوان الصفا: **رسائل إخوان الصفا**، ٢/ ٩٣.
(٢) إخوان الصفا: م.ن، ٢/ ٩٤.
(٣) ألف الكندي في موضوع الزلازل كتاباً سماه «رسالة في علم حدوث الرياح في باطن الأرض المحدثة كثير الزلازل»؛ النديم، **الفهرست**، ص٣٢٠.
(٤) سليمان، مصطفى: **تاريخ العلوم والتكنولوجيا**، ص٢٩٧.
(٥) إخوان الصفا: م.س، ٢/ ٩٧.

الخروج، وبقيت محتبسة، تتموج في تلك الأهوية لطلب الخروج، وربما انشقت الأرض في موضع منها، وخرجت تلك الرياح مفاجأة، وانخسف مكانها، ويُسمع لها دويّ وهدة وزلزلة، وإن لم تجد لها مخرجاً، بقيت هناك محتبسة، وتدوم تلك الزلزلة إلى أن يبرد جو تلك المغارات والأهوية».

ثُمَّ يتكلم إخوان الصفا على ظاهرة البراكين، فيقولون[1]:

«واعلم أن في بعض المواضع يرى من بعيد، على رؤوس الجبال وبطون الأودية، نيران وضياء بالليل والنهار، ودخان معتكر، ساطع في الهواء، ومرتفع في الجو، وعِلّته (أي سبب هذه البراكين) أن في جوف الجبال كهوفاً ومغارات، وأهوية حارة ملتهبة، تجري إليها مياه كبريتية أو نفطية دهنية، فتكون مادة لها دائمة.

ثانياً: علم المياه الجوفية

ومن العلوم المتفرعة عن علوم الأرض، علم المياه الجوفية، وقد بحث إخوان الصفا في هذا العلم فذكروا اختلاف مياه العيون والينابيع التي في جوف الأرض، وأسباب تنوع تركيبها الكيميائي، واختلاف حرارتها وبرودتها، وطعمها، وما إلى ذلك، شارحين أسباب هذا الاختلاف بطريقة علمية نشهد لهم بإبداعاتهم ونظراتهم العلمية الثاقبة.

يقول إخوان الصفا[2]: «وأمّا علة اختلاف مياه العيون والينابيع التي في جوف الأرض وكهوف الجبال، من العذوبة والملوحة والحموضة والعفوصة (أي المرارة)، الكبريتية منها، والنفطية، والدهنية، وعلة حرارتها في الشتاء، وبرودتها في الصيف، وما كان على حالة واحدة في جميع الأوقات؛ فهي

(١) اخوان الصفا: **رسائل إخوان الصفا**، ٢/ ٩٩.
(٢) إخوان الصفا: م.ن، ٢/ ٩٧ ـ ٩٨.

بحسب اختلاف تُرَب بقاعها، وتغيّرات أهوية مكانها، والعوارض التي تعرض لها».

ثُمَّ يشرح إخوان الصفا بالتفصيل اختلاف المياه الجوفية من حيث النوع والطعم والحرارة صيفاً أو شتاء، وكذلك سبب ملوحة مياه البحر وفائدة هذه الملوحة على الجو، وعلى الحيوانات التي تعيش في البحار، ويتكلم على أهمّية حركة المياه في البحار (الأمواج)، كل ذلك بأسلوب علمي رصين يدل على عمق معرفة إخوان الصفا، وعلى منهجهم العلمي في دراسة وتحليل هذه الظواهر الكونية والعلوم الطبيعية.

ثالثاً: علم المعادن والجواهر

من فروع علوم الأرض علم المعادن؛ فقد عرف العلماء المسلمون معلومات كثيرة عن المعادن، وكانوا يطلقون هذا الاسم على المتاجم؛ فمن أوائل هؤلاء العلماء الكندي[١]، فهو يقول: «إن المعدن من عَدَنَ، أي أقام؛ فكأن المطلوب منه (أي المعدن)، ما أقام فيه دهوراً، أو أن مستنبطيه يقيمون على استخراجه (من المنجم)، ولا يسأمون من حفر الغيران[٢]، إليه[٣] (أي إلى الخام).

ومن جملة اهتَماماتهم بالمعادن المستخرجة من باطن الأرض اهتمّوا أيضاً بالجواهر.

ومن العلماء المسلمين الذين كتبوا في المعادن والجواهر أبو الريحان البيروني في كتابه» الجماهر في معرفة الجواهر«[٤].

---

(١) ذكر النديم للكندي عدة كتب في علم المعادن والجواهر منها: رسالة في أنواع الجواهر الثمينة وغيرها، رسالة في أنواع الحجارة، (**الفهرست**، ص٣٢٠، طبعة طهران).

(٢) الغيران: جمع غار، وهو النفق.

(٣) البيروني: **الجماهر في معرفة الجواهر**، ص٣٨.

(٤) طبع هذا الكتاب للمرة الأولى بعناية سالم الكرنكوني الألماني، مصحح دائرة =

وقد وصف فيه وصفاً دقيقاً لكثير من الأحجار الكريمة كالياقوت[١]، وما شابهه، وتكلم على قيم الجواهر[٢]، أي أثمانها، ويقول: ليس لها قانون ثابت على حال، يتغير باختلاف الأمكنة ومُضِيِّ الأزمنة، وتلون الشهوات بحسب الأمزجة، ثُمَّ حدوثِ أحوالها من جهة الكثرة والقِلة الموجبتين فيها تداول العزة والذلة.

ويتكلم على أشباه اليواقيت، وهي الأنواع الأخرى من الياقوت الخالص، وتختلف عنه باللون وبالشعاع، وبحدته، وبتأثره بالنار، «فإن أشباه اليواقيت إذا دخلت النار لا تصبر عليها صبر الياقوت الأحمر الخالص، فإنه يزداد بها حسناً وجودة[٣]».

ثُمَّ يذكر البيروني سائر ألوان الجواهر واليواقيت؛ فيقول إن خير اليواقيت بعد أنواع الأحمر هو المورد الأصفر، ثُمَّ الأكهب، ودونه الأبيض، وقد تجمع القطعة الواحدة جميع الألوان، الحمرة والصفرة والخضرة والكهبة والبياض، ولكن النار تسلخ جميعها، ولا يبقى منها غير الحمرة الثابتة على حالها فقط، لأنَّها لها كالأصل، وسائر الألوان كالأغراض تبطل بالإحماء، ويبقى الجوهر صافياً كالبلور[٤].

ثُمَّ يتكلم البيروني على الألماس، فيقول إنه من الجواهر التي لها رياسة كاللؤلؤ والزمرد، ويوازن بينه وبين الياقوت، فيقول: هو أقرب

= المعارف العثمانية، ثم صدرت طبعات مصورة عن هذه الطبعة الأولى، نشرتها دار عالم الكتب، في بيروت، وكانت الطبعة الثالثة عام ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤، وهي الطبعة التي سنعتمدها هنا.

(١) البيروني: **الجماهر في معرفة الجواهر**، ص٣٢.

(٢) البيروني: م.ن، ص٤٩.

(٣) البيروني: م.س، ص٥٢ ـ ٥٣.

(٤) البيروني: م.ن، ص٧٤.

المناسبات بالرزانة والصلابة وقرب الجوار في المعدن، وقهر الغير بالثقب والقطع.

واللؤلؤ جنس حيواني مائي، على خلاف الجواهر الأرضية الموات الجماد، ومنفصل عنها بالنمو[1]. ثُمَّ يتكلم على الغوص للبحث عن اللؤلؤ في البحر فيذكر أوقات الغوص وكيفيته[2].

ويتابع البيروني حديثه عن الأحجار الكريمة كالزمرّد، والفيروزج والعقيق، والجزع والبلور والمرجان واللازورد وغيرها من الأحجار الكريمة، ويصفها وصف العالم المدقق الخبير بأنواعها وصفاتها، العارف بأسرارها وأخبارها وأماكن وجودها وكيفية استخراجها وتنقيتها مما قد يعلق بها من الشوائب، كل هذا جعل البيروني رائداً في علم الجواهر واليواقيت والأحجار الكريمة عموماً.

وممن كتب في علم المعادن والجواهر إخوان الصفا؛ فقد أفردوا رسالة «في بيان المعادن»[3]، ذكروا فيها أموراً كثيرة عن المعادن وأنواعها وصفاتها واستخراجها، وكيفية تكونها، وأماكن وجودها، وغير ذلك، من المعلومات المفيدة.

يقول إخوان الصفا[4]: «اعلم بأن الجواهر المعدنية ثلاثة أنواع:

ـ فمنها ما يتكون في التراب والطين، والأرض السبخة، ويتم نضجه في السنة أو أقل منها، كالكبريت والأملاح والشُّبوب[5] والزاجات[6] وما شاكلها.

---

(١) البيروني: **الجماهر في معرفة الجواهر**، ص٩٢.

(٢) البيروني: م.س، ص١٤١ ـ ١٤٣.

(٣) إخوان الصفا: **رسائل إخوان الصفا**، الرسالة الخامسة من الجسمانيات الطبيعيات، في بيان تكوين المعادن، ٢/ ٨٧ وما بعدها.

(٤) إخوان الصفا: م.ن، ٢/ ٩١.

(٥) الشبوب: جمع الشبّ والشبّة، وهو ملح معدني.

(٦) الزاجات: جمع الزاج، وهو ملح يُصْبَغُ به.

ـ ومنها ما يتكون في قعر البحار وقرار المياه، ولا يتم نضجه إلا في سنة أو أكثر منها، كالدّر والمرجان، فإن أحدهما نباتي وهو المرجان، والآخر حيواني، وهو الدّر.

ـ ومنها ما يتكون في كهوف الجبال وجوف الأحجار، وخلل الرمال، ولا يتم نضجه إلا في سنين، كالذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص وما شاكلها، ومنها ما لا يتم نضجه إلا في عدد سنين كالياقوت والزبرجد والعقيق وما شاكلها.

ثُمَّ يتكلم إخوان الصفا على طبيعة هذه المعادن، أو الجواهر المعدنية كما يسمونها، ويجعلونها أقساماً عدة.

يقول إخوان الصفا(١): «إن الجواهر المعدنية كلها مختلفة الطباع والشكل واللون والطعم والرائحة والثقل والخفة، والمضرة والنفع».

أمَّا أقسام الجواهر المعدنية فهي كالتالي:

- منها ما هو حجري صلب، لكن يذوب بالنار، ويجمد إذا برد، مثل الذهب والفضة والنحاس والرصاص والزجاج وما شاكلها.
- ومنها ما هي صلبة حجرية، لا تذوب إلا بالنار الشديدة، ولا تنكسر إلا بالماس، كالياقوت والعقيق.
- ومنها ترابي رخو، لا يذوب (بالنار) ولكن ينفرك كالأملاح.
- منها مائية (أي سائلة) رطبة، تفر من النار كالزئبق.
- ومنها هوائي دهني تأكله النار كالكباريت والزرنيخ.

أمَّا عن كيفية تكوين هذه الجواهر المعدنية؛ فيقول إخوان الصفا(٢):

---

(١) إخوان الصفا: رسائل إخوان الصفا، ٢/ ١٠٤.

(٢) اخوان الصفا: م.ن، ص١٠٥.

«حكم الجواهر المعدنية أن مادتها إنّما هي رطوبات ومياه وأندية[1] وبخارات، تنعقد بطول الوقوف وممر الزمان في البقاع المخصوصة لها. . . وهذه الجواهر مركبة كلها، مع اختلاف أنواعها وطبائعها وألوانها وطعومها وروائحها، وثقلها وخفتها، وصلابتها ورخاوتها، ولينها وخشونتها، وخواصها، ومنافعها ومضارها. . .».

ثُمَّ يتكلم إخوان الصفا على الجواهر الحجرية مثل البلور والياقوت والزبرجد والعقيق وما شاكلها، من التي لا تذوب بالنار، فيذكرون كيفية تكونها واكتسابها ألوانها المختلفة[2].

ومن الآراء الهامّة جداً في علم المعادن والجواهر، النظرية القائلة باعتبار النار أساساً للحكم بين المعادن ومعرفة طبيعتها. يقول إخوان الصفا[3]: «اعلم أن النار هي كالقاضي بين الجواهر المعدنية، المتحكم فيها كلها، والمفرّق بينها وبين ما كان من غير جنسها، فأشرفها هي التي لا تقدر النار على أن تفرق بين أجزائها، مثل الذهب والياقوت، وذلك لشدة اتحاد أجزائها بعضها ببعض؛ فإنه ليس بين خلل أجزائها رطوبة. وأما احتراق بعض الجواهر المعدنية، وأكل النار لها، وسرعة اشتعالها فيها، كالكبريت والزرنيخ والقير (أي الزفت) والنفط وما شاكلها من المعدنيات، فهي من الأجزاء الهوائية الدهنية المتعلقة بالأجزاء الترابية، غير متحدة بها، والأجزاء المائية قليلة معها، وهي غير نَضجة أيضاً ولا متحدة بها؛ فإذا أصابتها حرارة النار ذابت بسرعة، وتحللت وصارت دخاناً وبخاراً، وفارقت الأجزاء الترابية، وارتفعت في الهواء.

وأمّا الياقوت فلأنه أجزاء مائية، غلُظت وصفت بطول الوقوف بين

---

(١) أندية: جمع ندى.

(٢) إخوان الصفا: رسائل إخوان الصفا، ٢/١٠٧.

(٣) إخوان الصفا: م.ن، ٢/١٠٩ ـ ١١٠.

الصخور، وأنضجت بدوام طبخ حرارة المعدن لها، واتحدت أجزاؤها ويبست؛ فصارت لا تذوب بالنار، لأنه ليس فيها رطوبة دهنية؛ فلا تقدر النار على تفريق أجزائها لشدة اتحادها ويبسها. وأمَّا سرعة ذوبان بعض الأجسام، مثل الرصاص؛ فهو من أجل أن الأجزاء المائية والهوائية غير متحدة بالأجزاء الترابية. وأمَّا سوادها فمن أجل أنَّها غير نضجة، وثقلها من أجل كثرة الأجزاء الأرضية فيها».

ويطول الحديث لو أردنا متابعة إخوان الصفا في آرائهم حول الجواهر الأخرى وطبيعتها وتكوينها وصفاتها، وكل هذا يدل دلالة قاطعة أن إخوان الصفا توصلوا بفكرهم الثاقب وتجاربهم العلمية إلى معرفة أسرار هذه المعادن والأحجار الكريمة، وأنَّهم عرفوا تأثير عناصر الطبيعة في تركيب هذه المعادن وفي تكوين خصائصها الكيميائية أيضاً.

ونكتفي بهذا القدر من المعلومات عن علم المعادن والأحجار الكريمة؛ ومن أراد المزيد فعليه العودة إلى الرسالة الخامسة من رسائل إخوان الصفا، ففيها ما يشبع نهم العالم.

* * *

المبحث الثالث

علم الأحياء

وهو العلم الذي يختص بدراسة الكائنات الحيّة، الحيوانية والنباتية، من جميع جوانبها، الوصفيّة والفسيولوجية، وعلاقاتها بعضها ببعض، وبالبيئة التي تعيش فيها، وذلك بهدف استخدام هذه العلوم لصالح الإنسان ورفاهيته.

أولاً: علم النَّبات Botanic

إن علم الأحياء، وبصفة خاصّة علم النبات، كان ذيلاً للطب والدواء،

حيث اهتمّ الأطباء والفلاسفة في العصور القديمة والوسطى بدراسة النباتات الطبّية، إذ كانت أغلب العقاقير التي كانت تستعمل في العلاج، إنَّما هي نباتات أو خلاصات نباتية، حتى أن الأطباء كانوا يعرفون بالعشّابين لمعرفتهم بخصائص الأعشاب[١].

وقد بحث علماء الطبيعة من العرب في النباتات وفي تطبيقاتها على الطبّ على الخصوص، وأنشأوا حدائق زرعوا فيها أندر النباتات[٢].

ولعل من أول المؤلفين المسلمين في علم النبات أبا حنيفة الدِّينوري (ت٢٨٢هـ/ ٨٩٥م) ح فهو مهندس مؤرّخ نباتي، من كتبه كتاب «النبات»، وعرف كما نباتيّو العرب، أن يستولد ثماراً ذات صفات جديدة بطريقة التطعيم، وأن يخرج أزهاراً جديدة بالمزاوجة بين الورد البري وشجر اللوز[٣].

لقد كان العرب والمسلمون روّاد زراعة البيئة الصحراوية في العالم بأساليب علمية تجريبية، وأساتذة العالم في تصنيف الأراضي، وأساتذة في علم تهجين النبات[٤].

ولعل خير من يمثل العلماء المسلمين في القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد، الذين اهتمّوا بعلم النبات هم إخوان الصفا؛ فقد أفردوا رسالة خاصة ضمن رسائلهم سمّوها «رسالة في أجناس النبات» الغرض منها كما يقولون[٥]: «تعليل أجناس النبات، وكيفية تكوينها ونشوئها، وأسباب اختلاف أنواعها من الأشكال والألوان والطعوم والروائح، وأوراقها وأزهارها وحبوبها وبذورها ونموّها، وعروقها وقضبانها وأصولها من المنافع».

---

(١) سليمان، مصطفى: **تاريخ العلوم والتكنولوجيا**، ص٣٨٧.

(٢) لوبون، غوستاف: **حضارة العرب**، ص٤٨٧.

(٣) أبو خليل، شوقي: **الحضارة العربية الإسلامية**، ص٣١٠ ـ ٣١١.

(٤) أبو خليل، شوقي: م.ن، ص٣١٤.

(٥) إخوان الصفا: **رسائل إخوان الصفا**، ٢/ ١٥٠ ـ ١٧٧.

ويعرّف إخوان الصفا النباتات بقولهم[1]: «هي كل جسم يخرج من الأرض ويتغذى وينمو».

ثُمَّ يُعَددون أجناس النباتات كما يلي:

ـ منها ما هي أشجار تُغرس قضبانها أو عروقها:

ـ ومنها ما هي زروع تبذر حبوبها أو بذورها أو قضبانها.

ـ ومنها ما هي أجزاء، تتكون من أجزاء الأركان إذا اختلفت وامتزجت، كالكلأ والحشائش.

فهذه الأجناس الثلاثة يتنوّع كل واحد منها أنواعاً كثيرة، من جهات عدة وصفات مختلفة.

أهمّ الآراء والنظريات عن إخوان الصفا في علم النبات:

إن الآراء والنظريات التي قدمها إخوان الصفا في علم النبات تبيّن المستوى الذي وصلوا إليه في هذا العلم، وذلك من خلال دقة المعلومات والأفكار التي قدموها.

١ ـ أصل اختلاف أنواع النبات

«إن لكل نوع من أنواع النبات أصلاً، فما أصله لكيموس[2] ما، ولكيموسه مزاج ما، لا يتكون من ذلك المزاج إلا ذلك الكيموس، ولا يتكون من ذلك الكيموس إلا ذلك النوع من النبات، وإن كان يُسقى بماء واحد، وينبت في تربة واحدة، ويلفحها نسيم هواء واحد، وتنضجها حرارة شمس واحدة. فعلى هذا المثال والقياس تختلف أحوال النبات، وذلك أن

(١) إخوان الصفا: رسائل إخوان الصفا، ص١٥٨.

(٢) كيموس: كلمة يونانية معرّبة، وهو المادة أو الخليط الذي يتحوّل إليه الطعام بعد دخوله على المعدة، والتأثر بالإفرازات المعدية.

رطوبة الماء ولطائف أجزاء التراب، إذا حصلت في عروق النبات، تغيّرت وصارت كيموساً على مزاج ما، لا يجيء من ذلك الكيموس والمزاج غير ذلك النوع من النبات، وكذلك حُكْم أوراقه ونَوْره وثمره وحَبّه»[1].

إن أهمية هذا النص تكمن في أمور عدة هي:

أ ـ الإشارة إلى كيفية تكوين الكيموس، وأنه نتيجة تفاعل كيميائي بين المكونات الطبيعية في الأرض (أملاح ـ معادن) والماء.

ب ـ إن هذا الكيموس له مزاج، أي كيفية امتزاج عناصره المكونة؛ وهذه الكيفية تحدد بالتالي خصائصه ونوعيته.

ج ـ إن خصائص ونوعية الكيموس هي التي تحدد نوع النبات بكل مكوناته، من ورق وثمر وزهر وحب.

د ـ إن عملية تكوين الكيموس وتحديد كيفية هذا التكوين (المزاج) تتم في العروق، التي هي بمثابة المختبر الكيميائي بالنسبة للنبات.

هـ ـ إن العوامل الطبيعية المساعدة على الإنبات هي أربعة:

(١) التربة.

(٢) الماء.

(٣) الهواء.

(٤) الحرارة.

٢ ـ علاقة أجناس النبات بالبيئة المكانية

يشير إخوان الصفا إلى علاقة أجناس النبات بالبيئة المكانية؛ فكل جنس من هذه الأجناس ينبت في بيئة تناسبه، ولا يمكن أن ينبت إلا في هذه البيئة.

(١) إخوان الصفا، رسائل إخوان الصفا، ٢/ ١٥٤.

يقول إخوان الصفا[1]: «إن من النبات ما ينبت في البراري والقفار، ومنه ما ينبت على رؤوس الجبال، ومنه على شطوط الأنهار وسواحل البحار، ومنه ما ينبت في الآجام والغياض[2]، ومنه ما يزرعه الناس في القرى والسّوادات والبساتين والأفرجة»[3].

ويتابع إخوان الصفا بيان البيئات المكانية للنبات، فيذكر أن أكثر النبات ينبت على وجه الأرض، إلاّ القليل منه، ومنه ما ينبت تحت الماء، أو على وجهه، أو على وجه الصخور، ومنه ما لا ينبت إلا في الرمال وبين الحصى والحجارة والصخور والأرض واليابسة.

ومن النبات ما لا ينبت إلاّ في البلدان الدافئة أو الحارة، ومنه ما لا ينبت إلى في البلدان الباردة، «فلكل نوع بقعة مخصوصة وتربة معروفة، لا تتكون إلاّ هناك»[4].

٣ ـ علاقة أجناس النبات بالبيئة الزمانية

يؤكد إخوان الصفا[5] العلاقة المباشرة بين جنس النبات والزمان الذي يُزرع فيه هذا النبات، وأوان نضجه وقطافه أو حصاده، ويرتبط هذا الزمان بثلاثة أمور: حرارة الجو، وطيب الهواء، وكثرة الأمطار.

وبعد أن يتكلم إخوان الصفا على أصول الأشجار وثمارها وأوراقها، من حيث أشكالها وألوانها وفوائدها، بتفاصيل في غاية الدقة والأهمّية[6] يتكلمون على العلاقة بين تركيب الأشجار (هيكلها) وبين جذورها وعروقها

(١) إخوان الصفا: رسائل إخوان الصفا، ٢/ ١٦٠.
(٢) الآجام: جمع أجمة، والغياض جمع غيضة، ومعناهما المكان حيث الأشجار.
(٣) الأفرجة: جمع فرجة، وهو المكان الواقع بين مرتفعين.
(٤) إخوان الصفا: م.س، ٢/ ١٠٣.
(٥) إخوان الصفا: م.ن، ٢/ ١٦٠.
(٦) إخوان الصفا: م.س، ٢/ ١٦٢ ـ ١٧٢.

وثمارها، والأسباب التي من أجلها وجب أن تكون كذلك؛ فيقدمون أمثلة عدة، منها شجرة النخيل؛ فيدخلون في دقائق تكوينها، ثُمَّ أشجار الجوز واللوز والتين والجميز والعنب، ويقارنون بين هذه الأشجار وثمارها، ويشيرون إلى أسباب الاختلاف بينها، وغاية هذا الاختلاف، وكل هذه الأمور تُنْبي عن دقة ملاحظة إخوان الصفا، وعمق معرفتهم بعلم النبات، فهم بحق روّاد هذا العلم في القرن الرابع للهجرة وما بعده.

أمّا فيما يخص النباتات الطبّية، فقد اهتمّ العلماء والفلاسفة بدراستها، وكذلك الأطباء والصيادلة، إذ أغلب العقاقير التي كانت تستعمل في العلاج إنَّما هي نباتية أو خلاصات نباتية، حتى أن الأطباء والصيادلة، كانو يُعرفون بالعشّابين، لمعرفتهم بالخصائص العلاجية للأعشاب.

ثُمَّ إن معظم الأطباء ذكروا في كتبهم الطبّية العديد من أنواع هذه النباتات والأعشاب، كما ذكروا كيفية الاستفادة منها في العلاجات لأنواع الأمراض، ومنهم من ألّف كتباً خاصة في النباتات والأعشاب الطبّية. من هؤلاء رشيد الدين الصدري (من علماء القرن السادس) وصف ٥٨٥ عقاراً منها ٤٦٦ من فصيلة النباتات[١].

وفي كتاب «القانون في الطبّ» لابن سينا، معلومات كثيرة على النباتات الطبّية التي يُتخذ منها عقاقير. ومن النباتات التي ذكرها ابن سينا: البصل، الثوم، الجرجير، حبّ الصنوبر، البابونج، الشيح، الكزبرة، الصعتر، الحنظل، الحلبة، الكافور، الكمون، الكراوية، الكرفس، الكرنب، الكرّات، اللوز، الجوز، الجميز، الجزر، الفلفل، الدّفلى، الزنجبيل، الزيتون، الريحان، اليانسون، وغيرها كثير مما يطول ذكره.

* * *

(١) ابن أبي أصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الاطباء، ٢/ ١٢٣ ـ ١٣٠.

ثانياً: علم الحيوان

ورثت الحضارة الإسلاميّة الكثير من معارف الحضارات السابقة، وخاصة الحضارة اليونانية الإغريقية، ومنها معارفهم في علم الأحياء، فدرسوها وصنفوا فيها وأضافوا إليها ودوّنوها في كتبهم ومصنفاتهم العامّة والخاصّة، وقد أخذوا عن أرسطو بالذات الكثير من هذه المعارف؛ فقد وضع أرسطو عدداً من الكتب التي احتوت على كثير من المجالات في علم الحيوان، من تشريح، ووظائف أعضاء وطبائع الحيوان، ولا تزال كثير من النتائج التي توصل إليها أرسطو مقبولة إلى حد كبير؛ فقد كان أرسطو عالماً في الحيوان، وصنّف الحيوانات إلى فقارية ولا فقارية وبيّن أنواع كل منها بشكل مفصل[١].

وقد استفاد الجاحظ في كتابه «الحيوان» من معلومات أرسطو، وأضاف إليها ما لاحظه من طباع الحيوانات وصفاتها وأنواعها[٢].

وكتب إخوان الصفا في رسائلهم رسالة في تكوين الحيوانات وأصنافها[٣] وبدء كونها ونشوئها ونمائها وكميّة أجناسها، وفنون أنواعها، وخواص طباعها. ويقدم إخوان الصفا نظرية خاصّة في تقدم وجود الحيوانات على وجود الإنسان بالزمان، مبرّراً ذلك بقوله[٤]: «لأنّها له ولأجله، وكل شي هو من أجل شي آخر فهو متقدم الوجود عليه. لأنه لو لم يتقدم وجود هذه الحيوانات على وجود الإنسان لما كان للإنسان عيش هنيء، ولا نعمة سائغة، بل كان يعيش عيشاً نكداً، فقيراً بائساً بسوء الحال، وهذه الحكمة لا تحتاج إلى دليل من المقدمات ونتائجها».

---

(١) سليمان، مصطفى: تاريخ العلوم والتكنولوجيا، ص٣٩٠.
(٢) الجاحظ: كتاب الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت (لا.ت).
(٣) إخوان الصفا: رسائل إخوان الصفا، ص١٧٨/٢.
(٤) إخوان الصفا: م.ن، ص١٨٢.

ثُمَّ يُعَرّف إخوان الصفا الحيوان بأنه «جسم متحرك، حساس، يتغذى وينمو، ويحس، ويتحرك حركة مكان»[١].

ثُمَّ يصنفون مراتب الحيوانات بحسب مالها من الحواس والتمييز الدقيق وقبول التعليم، ويقولون: إن الحكمة الالهية لم تعط الحيوان عضواً ولا حاسة لا يحتاج إليها ولا ينفع بها.

ثُمَّ يذكرون أنواع الحيوانات والهوام والحشرات، وطرق حياة كل منها، ويتكلمون على أوصاف الأنعام والبهائم، والسباع والوحوش والطيور والجوارح وبعض حيوان الماء، وبعض الهوام كالحيّات؛ فمنها ما يدب على رجلين أو أربع، أو يزحف أو ينساب على بطنه، أو يتدحرج على جنبيه[٢].

ثُمَّ يتكلمون على خلق الإنسان بدءاً من النطفة، ثُمَّ في الرحم جنيناً، ثم في المهد رضيعاً، ثُمَّ في المكتب صبياً، ثُمَّ في تصاريف أمور الدنيا رجلاً حكيماً[٣].

ويتكلمون على وظائف الأعضاء بدقة وتفصيل، وأنَّ ما من عضو في بدن الحيوان إلاَّ ويخدم البدن في أفعاله، ويخدمه عضو آخر، ويعينه في أفعاله، والغرض الأقصى منها كلها هو بقاء الشخص وتنميته وتبليغه إلى أكمل حالاته، إمَّا بذاته، أو ببقاء نسله أطول ما يمكن في جنس جنس، ونوع نوع، وشخص شخص[٤].

ثُمَّ يتكلمون على أقسام الحيوانات من حيث سكنها؛ فيقسمونها إلى أربعة[٥]:

---

(١) إخوان الصفا: **رسائل إخوان الصفا**، ٢/ ١٨٤.
(٢) إخوان الصفا: م.ن، ٢/ ١٨٦.
(٣) اخوان الصفا: م.س، ٢/ ١٨٨.
(٤) إخوان الصفا: م.ن، ٢/ ١٩١
(٥) إخوان الصفا: م.س، ٢/ ١٩٦.

ـ فمنها سكان الهواء، وهي أنواع الطيور، أكثرها، والحشرات جميعها.

ـ ومنها سكان الماء، وهي كل حيوان يسبح في الماء.

ـ ومنها سكان البر، وهي البهائم والأنعام والسباع.

ـ ومنها سكان التراب، وهي الهوام.

وجعلوا في كل قسم منها بعضاً آكلاً وبعضاً مأكولاً.

ثُمَّ يتكلمون بالتفصيل عن الطيور وأحوالها، وأوقات سفادها (تزاوجها) وكيفية اتخاذ أعشاشها، وإصلاح أوكارها، وكمية بيضها، ومدة حضانتها، وكيفية تربيتها لأولادها[1].

ويتكلمون على بدء خلق الإنسان، وتطوّر حياته، وانتقاله في سكنه، وتسخير الحيوانات لخدمته[2]، ويشرحون قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[3].

إن ما ذكره إخوان الصفا من معلومات قيّمة عن علم الحيوان تدل دلالة واضحة على المستوى العلميّ الرَّاقي الذي وصل إليه علماؤنا من معارف ومعلومات عن هذه الكائنات المخلوقة؛ فقد ساهموا مساهمة فعّالة وجليلة في العلوم الطبيعية، وفي كل فروعها، مما أكسب الحضارة الإسلاميّة مكانة مرموقة بين حضارات الشعوب، وأغنى الثقافة الإنسانيَّة، بمعلومات ما زال الإنسان بحاجة إليها في حفظ وجوده ورقيه، ليبلغ أعلى درجات الكمال الإنسانيّ.

(١) إخوان الصفا: رسائل إخوان الصفا، ٢/١٩٨ ـ ٢٠٢.
(٢) إخوان الصفا: م.ن، ٢/٢٠٣.
(٣) سورة التين، الآية: ٤.

ارتبطت العلوم الطبيعية، والفيزيائية على الأخص، باهتمام الفلاسفة القدماء مسلمين وغير مسلمين، لارتباط هذه العلوم بالحركة والسكون في الأجسام؛ من هنا كانت معظم المعلومات عن هذه العلوم مبثوثة في كتب الفلاسفة، وقلّما وُجد كتاب متخصص في فرع من فروع هذه العلوم.

لقد سبق فلاسفة اليونان فلاسفة العرب؛ لذا كانت ترجمة كتب اليونان إلى العربية حافزاً لدراسة هذه العلوم، وبالتالي استيعابها والعمل بمقتضاها، ثم تطويرها وإجادة الكتابة فيها، مما أغنى المكتبة العلمية التراثية بالكثير من المؤلفات، في علوم الفيزياء وتطبيقاتها العملية في علم الميكانيكا وحركة الأجسام وتقدير الوزن النوعي للأجسام، حيث جاءت تقديرات العلماء قريبة جداً، ومتطابقة أحياناً مع ما توصل إليه العلماء اليوم.

كما استفاد العلماء المسلمون من علم الحيل في اختراع الساعات، فكان اختراعهم هذا من أهم منجزات تقدير الوقت؛ كما أن اكتشافهم لقانون الجاذبية ساهم كثيراً في دراسة حركية الأجسام واختلاف أوزانها وسرعة حركتها في الفراغ (الخلاء).

وقد استخدم العلماء المغناطيس، واستفادوا من خاصيّته في جَذْبُ المعادن، فاخترعوا البوصلة، واستفادوا منها في تحديد خط سفرهم في البحار.

أما علم البصريات فكانوا روّاداً فيه، وساعدتهم أبحاثهم في دراسة الأفلاك والأجرام السماوية وحساب بُعدها عن الأرض أو بعدها عن بعضها البعض.

واستفاد العلماء المسلمون من دراسة علم الصوتيات لدراسة الأنغام الموسيقية، وقسموا الأصوات إلى أنواع عديدة، وتكلموا على الأوتار الصوتية، والآلات الوترية، وكانت نظرياتهم في كيفية حدوث الأصوات

متقدمة جداً، ففرقوا بين أصوات البشر وأصوات الحيوانات وأصوات الجمادات وارتباط كل ذلك بتموجات الهواء، فكانوا روّاداً في هذا المجال.

ولم يُغفل العلماء المسلمون دراسة علوم الأرض، فساهموا في بناء وتطوير علم الجيولوجيا، وكانت كتاباتهم في هذا العلم متقدمة وذات أهمية بالغة، خاصة عندما تكلموا على الزلازل والبراكين، وعلى المياه الجوفية وكيفية خروجها من باطن الأرض، وأسباب اختلاف هذه المياه من حيث النوع والطعم والحرارة صيفاً أو شتاءً.

كما تكلموا على المعادن الجوفية وكيفية استخراجها، وعدّدوا أنواعها وصلابتها وأهميتها؛ ووقفوا عند استخراج المعادن الثمينة كالأحجار الكريمة كالياقوت وغيره، فقال إخوان الصفا: إن الجواهر المعدنية كلها مختلفة الطباع والشكل واللون والطعم والرائحة والثقل والخفّة والمضرّة والنفع[1].

ودرس العلماء المسلمون علم الأحياء، أي الكائنات الحيّة، الحيوانية والنباتية، واهتموا بالنباتات الطبية وكيفية استخدامها في علاج الأمراض. وقد كان لعلماء المسلمين نظريات عديدة في أصل أنواع النباتات وعلاقة هذه الانواع بالبيئة الطبيعية التي تنبت فيها، حيث درسوا أثر المكان والزمان على تنوّع هذه النباتات.

أما علم الحيوان (علم الأحياء) فقد بدأت معرفتهم به بعد إطلاعهم على كتب اليونان، ثم طوّروا هذا العلم، فتحدثوا عن وظائف الأعضاء، واستفادوا من علم التشريح في إجراء العمليات الجراحية.

إن ما ذكره العلماء المسلمون في هذا الحقل العلمي الهام أسهم إسهامات قيّمة في تطور الطب والجراحة، فكانوا بحق روّاداً في هذا العلم،

(١) إخوان الصفا: الرسائل، ٢/ ١٠٤.

مما أكسب الحضارة الإسلامية مكانة مرموقة، وأكسب علماء المسليمن شهرة عالمية واسعة، مازالت أصداؤها تتردّد في أرجاء مجالس العلم والجامعات حتى يومنا هذا.

لقد كانت إسهامات المسلمين في العلوم على اختلاف أنواعها، الطبيّة والرياضية والطبيعية ذات أهمية بالغة في تطوّر هذه العلوم وحسن استخداماتها التطبيقية والعملية، فكانوا عالة في البدء على علوم اليونان وغيرهم، لكن ما إن درسوا هذه العلوم وأخضعوها للبحث والتجربة حتى أصبحوا روّاداً فيها، أفادوا البشرية بانجازاتهم الكثيرة وقدموا للحضارة الإنسانية زاداً معرفياً تفخر به الاجيال على مرّ الزمان، خاصة وأن ما دوّنوه من كتب ومقالات في هذه العلوم بقيت المعتمد عليه في كثير من انحاء المعمورة في ذلك الزمان، واستمر العلماء يعتمدون على هذه المؤلفات والمصنفات لأنها اتصفت بالروح العلمية والمنهج العقلي السليم، معتمدين على التجارب الكثيرة التي أجروها، مستفيدين من نتائج هذه التجارب في تحقيق إنجازات علمية باهرة، رفعت مستوى الحضارة الإسلامية إلى مصاف الحضارات الإنسانية التي ساهمت في تحقيق سعادة الإنسان ورفاهيته.

* * *

الخـاتمـة

بعد هذه الإطلالة على جوانب حضارتنا الإسلامية، ومما أطلقنا عليه العلوم الحضارية، استطعنا تكوين قناعة راسخة، أن هذه الحضارة لم تكن لتنمو ولتزدهر لولا وجود هذا التنوع الثقافي والفكري والاجتماعي في المجتمع الإسلامي، وهو الذي أدّى إلى تلاقي شعوب ذات أعراق متنوعة، تفاعلت مع بعضها البعض، وتعاونت لمّا فيه صرحها.

تناولت في هذه الدراسة عدداً وافراً من المواضيع الحضاريّة أو المرتبطة ارتباطاً مباشراً بالحضارة الإسلامية في القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد في بلاد المشرق الإسلامي، وهذه الحضارة التي كان في إسهامات رجالها فضل كبير في ازدهارها ونموّها ونشرها، واستمرارها قروناً طويلة رائدة الحضارة العالمية في الثقافة والفكر.

لقد شارك علماء هذا القرن، وهم ينتمون إلى جنسيات عديدة، عربيَّة وغير عربيَّة، وديانات وملل، في هذا النسيج الحضاري، الذي كان الإسلام لحمته، وكانت اللغة العربيَّة سُداه، بحيث أصبح وصف هذه الحضارة بواحد من هذين المكونين لها عملية غير دقيقة، بل غير سليمة أيضاً.

وإن هذه الحضارة التي نشأت ونمت وازدهرت وأينعت، نفخ الإسلام فيها من روحه؛ فأثمرت بجهود رجال مخلصين أفذاذ، إسهامات متنوعة،

تناولت سائر معارف العصر وعلومه وآدابه، وخلّفوا تراثاً زهراً وباهراً، وصاغوه بلغة القرآن الكريم، التي سرت في دماء هذه الحضارة.

واستطعت الوصول إلى مجموعة ظواهر هامَّة، وفي مختلف الدول أو الدويلات في المشرق الإسلامي التي وجدت في هذا المجتمع كان يعجّ بالحركة، إذن هو مجتمع متحرك جدّاً، ونشيط في مجالات الحياة كافة، الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية؛ فالثقافة في أوجها، علوماً وآداباً وفكراً وفلسفةً، وبالتالي نتاجاً يتصف بصفتين أساستين هما: الشمول والعمق.

ولعل من أهم ما ميّز هذا المجتمع، تلك الحرية الفكرية التي تمتَّ بها العلماء خصوصاً، والناس عموماً، واستطاعوا أن ينهلوا كم كل ثقافة أو معرفة احتاجوها، أو استطاعوا الوصول إليها، فوعوها وأبدعوا في إنتاج علومهم وحضارتهم؛ وليسأل على ذلك من هذا الكم المعرفي الذي ظهر في ذلك العصر، في بلاد المشرق الإسلامي.

إن الحركة العلمية بلغت أوجها في القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، وكثر التأليف في العلوم الرياضية والفزيائية والطبيعية وغيرها من العلوم، إلى درجة كبيرة، وقد ساهم العلماء في تقدّم الحياة عندما استفادوا من نتائج بحوثهم واكتشافاتهم، وأخضعوها للتطبيق العملي، كل حسب اختصاصه؛ فكانوا روّاداً في كثير من العلوم وتطبيقاتها، وقد أغنوا المكتبة التراثية بالكثير من المصنّفات التي تشهد على طول باعهم وعمق معارفهم في ميادين العلوم كافة.

لذا حصل الإزدهار في جميع ميادين الحياة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، وبقيت شعلة حضارتنا تضيء دور الأمم والمجتمعات الإنسانية.

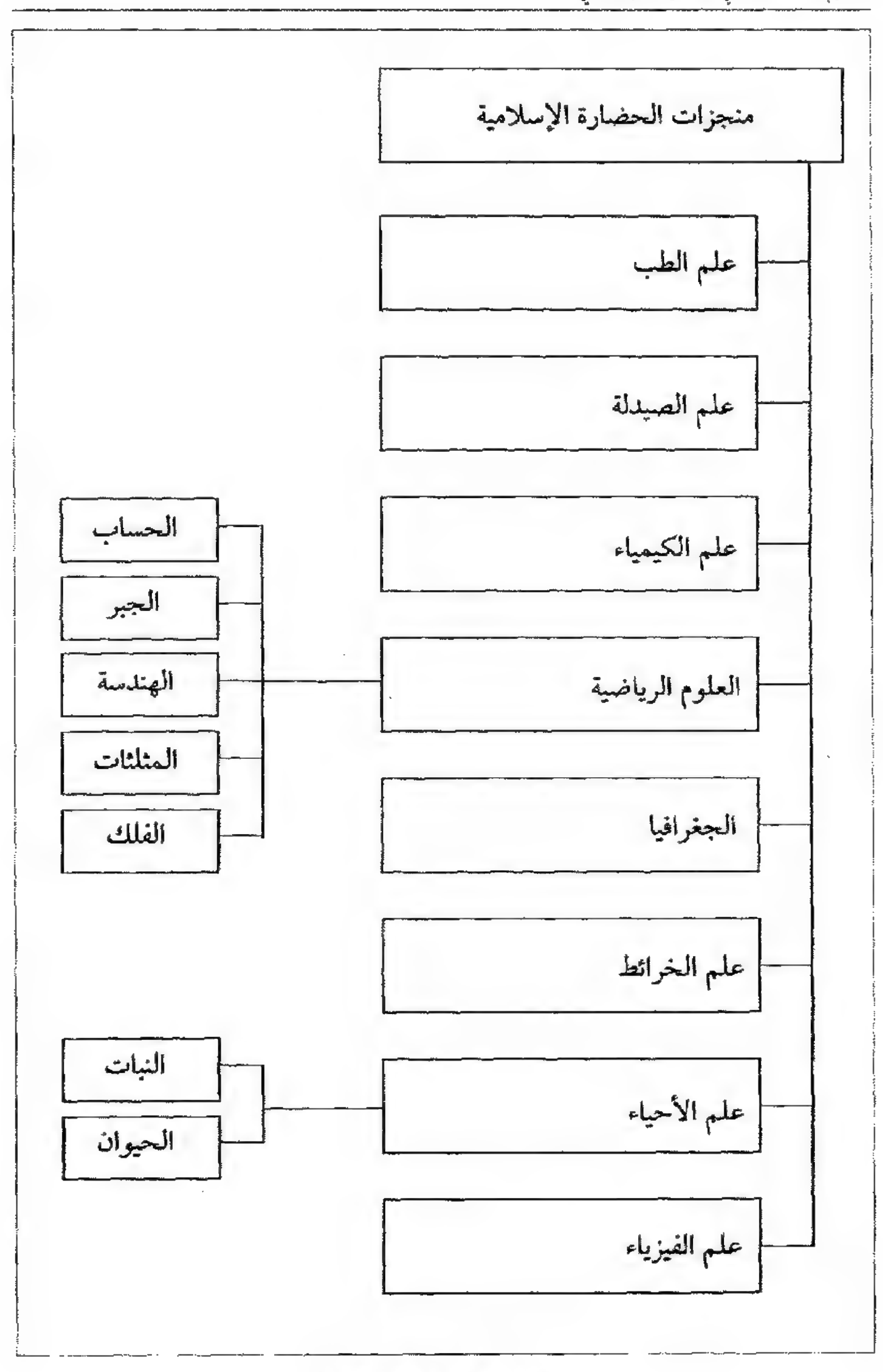
إن هذه الدراسة، فتحت لي آفاقاً كثيرة واسعة، وحمّلتني مسؤولية كبرى تجاه تراثنا وحضارتنا، وأتمنّى أن يشاركني في حملها إخوة لي من الباحثين المخلصين وتكون هذه الدراسة، كما كانت لي، مفتاحاً نستخدمه لفتح آفاق المعرفة وأبواب حضارتنا، ومكامن تراثنا الذي نفخر به ونعتزّ، ونعمل على إخراجه إلى النور.

والله الموفق.

ملحق الصور



خصائص الحضارة الإسلامية



منجزات الحضارة الإسلامية


هذا الطبيب
وهذا شرابي



الأسطرلاب

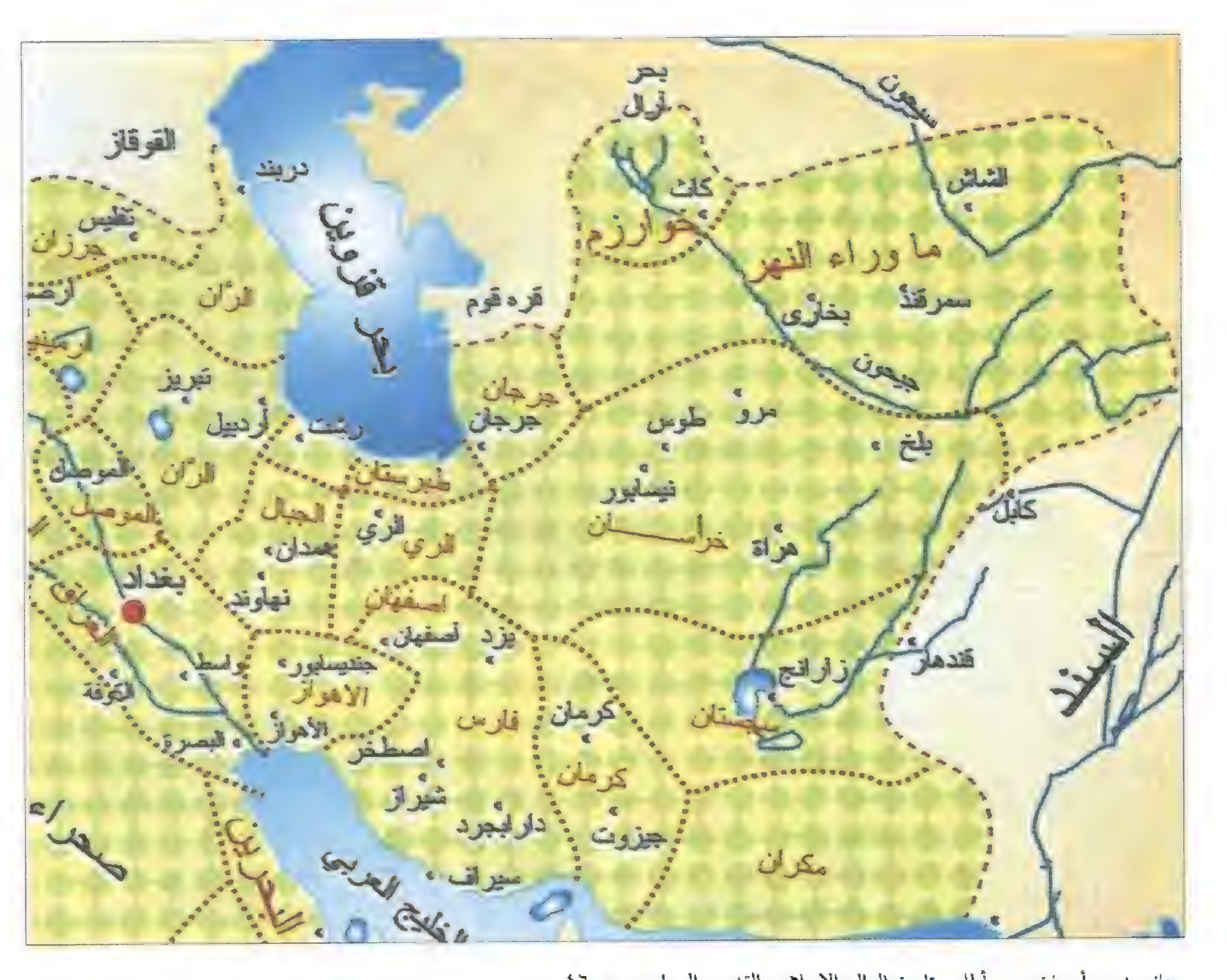


البيروني



قاعة استقبال في أحد قصور الحكّام

ملحق الخرائط



هاني خيرو أبو غضيب، أطلس تاريخ العالم الإسلامي القديم والمعاصر، ص٤٦.

خريطة رقم (١) بلاد المشرق الإسلامي في القرن الرابع للهجرة



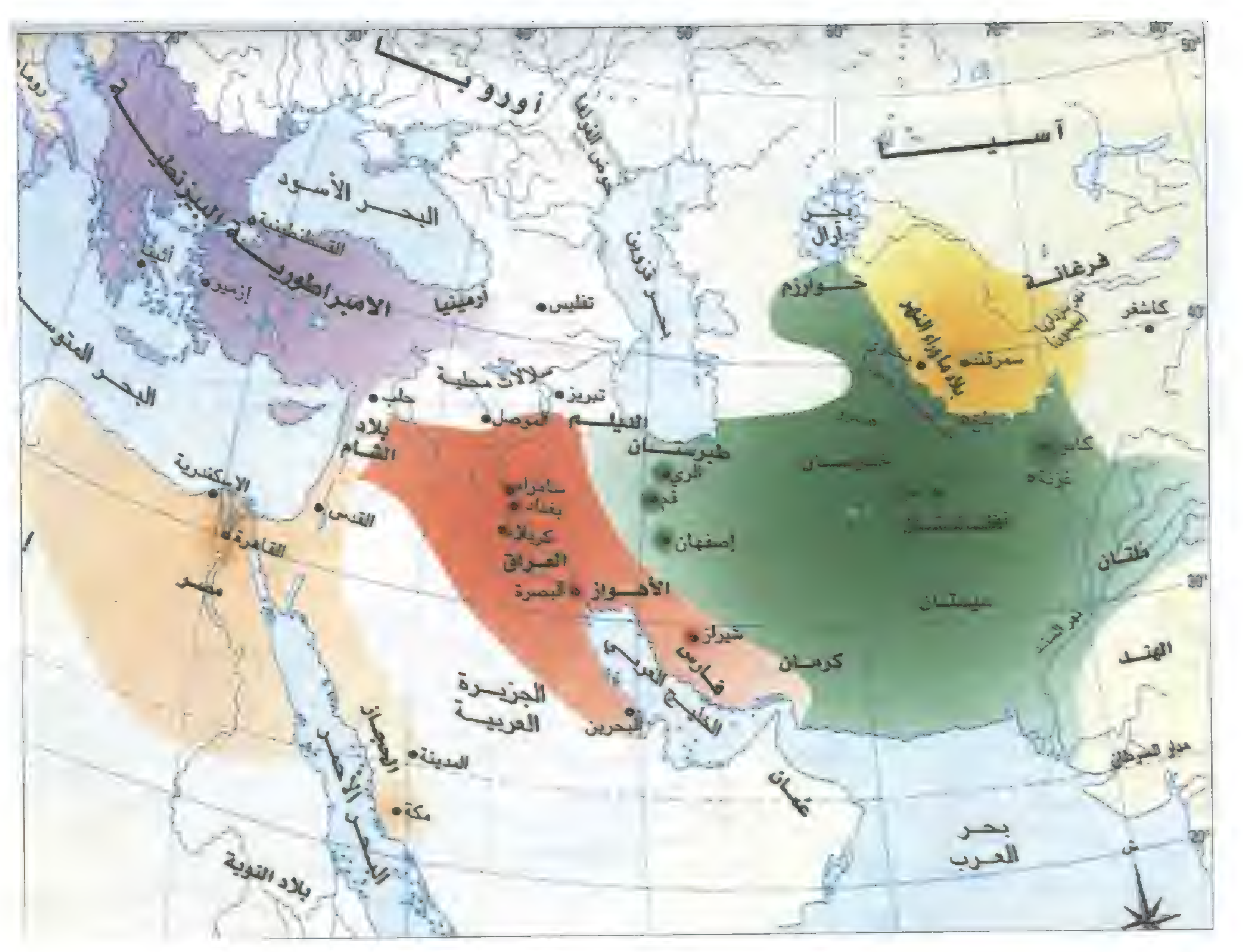
هاني خيرو أبو غضيب، أطلس تاريخ العالم الإسلامي القديم والمعاصر، ص٥٢.

خريطة رقم (٢) بعض الدول المستقلة عن الخلافة العباسية



هاني خيرو أبو غضيب، أطلس تاريخ العالم الإسلامي القديم والمعاصر، ص٤٦.

خريطة رقم (٣) حدود الدولة السامانية والبويهية



ماليز روثفن، الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي، ص٤٢.

خريطة رقم (٤) دولة الغزنويون والبويهيون



الدولة السامانية-الصفارية

هاني خيرو أبو غضيب، أطلس تاريخ العالم الإسلامي القديم والمعاصر، ص٥٠.

خريطة رقم (٥) الدولة السامانية

الفهارس

١ ـ فهرس الآيات القرآنية

٢ ـ فهرس الأحاديث النبوية

٣ ـ فهرس الآثار والأقوال

الأثر أو القول	الراوي	الصفحة
الثريد طعام العرب	علي بن أبي طالب	٣١١
كذب المنجمون ولو صدقوا	(الحاشية)	
لحم البقر داء	علي	٣١١
اللحم ينبت اللحم	علي	٣١١
لم يستشف الناس بشيء أفضل	علي	٣١٢
من ابتدأ غذاءه بالملح	علي	٣١١
من أكل كل يوم إحدى وعشرين	علي	٣١١
من أكل كل يوم سبع تمرات	علي	٣١١

٤ ـ فهرس الأشعار

صدر البيت	القافية	القائل	الصفحة
آزره فيما	أغسقُ	أبو إسحاق الصابي	٢٤٢
الآن حين	ساريها	ابن خلاد	٢٨٦
الآن عاد	داجيها	ابن خلاد	٢٨٦
أبى الفضل	أبا الفضل	أبو سعد الهمذاني	٢٨٣
أتراني بخلعة	الحملان	عبدان الأصبهاني	٢٨٠
أحيا الأمير	الأشعار	ابن خلاد	٢٨٦
إذا أراد الله	وبصر	محمد الميكالي	٢٩٤
إذا اعتمدتني	ابن العميد	أبو الحسن البديهي	٢٩٧
إذا عقد القضاء	غير القضاء	أبوالعباس الديتوري	١٥٢
إذا ما أعوز	والجند	العكبري	٢٧٥
إذا ما علا	دائر	أبو سعيد الرستمي	٢٨١
إذا ما نبا	شقائه	أبو الفتح البستي	٢٩٣
إذا ملك	ذاهبه	أبو الفتح البستي	٢٩٣
أرى المرء	بقائه	أبو الفتح البستي	٢٩٣
أرد بها	فيعلق	أبو إسحاق الصابي	٢٤٢
أشرف القصد	أربعة	أبو الفضل المروزي	٢٩٠
أشهد أن الأمير	والسحاب	أبو الحسين المرادي	٢٨٩

٥ ـ فهرس الأعلام

(غ)

(ف)

(ق)

(ن)

٦ ـ فهرس الأماكن والمدن والبلدان

٧ ـ فهرس الفرق والمذاهب والأديان

فهرس المصادر والمراجع

أولاً : المصادر

ـ القرآن الكريم

ـ ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم، موفق الدين (٦٦٨ هـ / ١٢٧٠م) :

١ ـ **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، شرح وتحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥.

ـ ابن أبي يعلى، القاضي أبو الحسين محمد بن محمد (٥٢٦ هـ / ١١٣١م):

٢ ـ **طبقات الحنابلة**، دار المعرفة، بيروت.

ـ ابن الأثير، عز الدين علي بن محمد (٦٣٠ هـ / ١٢٣٢م):

٣ ـ **الكامل في التاريخ**، القاهرة، إدارة الطباعة المنيرية، مصر، ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م.

ـ ابن الجزري، محمد بن محمد الدمشقي (٨٣٣ هـ / ١٤٢٩م):

٤ ـ **غاية النهاية في طبقات القرّاء**، عني بنشره برجستراسر، دارالكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

٥ ـ **النشر في القراءات العشر**، دار الكتب العلمّية، بيروت.

ـ ابن الجوزي، جمال الدين، أبو الفرج بن عبد الرحمن (٥٩٧هـ / ١٢٠٠م):

٦ ـ **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، حيدر أباد ـ الدكن، الهند، ١٣٥٧هـ.

ـ ابن الصلاح، أبو عمرو، عثمان بن عبد الرحمن (٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م):

٧ ـ **مقدمة في علوم الحديث**، حققه وخرّج أحاديثه نور الدين عتر، المكتبة العلمية، بيروت.

ـ ابن الطقطقا، محمد بن علي (٧٠٩ هـ/ ١٣٠٩م):

٨ ـ **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٦م

ـ ابن العبري، غريغوريوس بن أهارون (٦٨٥ هـ/ ١٢٨٦م):

٩ ـ **تاريخ مختصر الدول**، مؤسسة نشر منابع الثقافة الإسلاميّة، قمّ، إيران، الطبعة الأولى.

ـ ابن القيم الجوزية، محمد بن أبي بكر (٧٥١هـ/ ١٣٥٠م):

١٠ ـ **أعلام الموقعين عن رب العالمين**، المطبعة المنيرية، القاهرة.

ـ ابن المرتضى، أحمد بن يحيى، المهدي لدين الله (٨٤٠هـ/ ١٤٣٧م):

١١ ـ **طبقات المعتزلة**، تحقيق سوسنّة ديفلد، دار مكتبة الحياة، بيروت.

ـ ابن الوردي، سراج الدين أبو حفص، عمر بن مظفّر (٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م):

١٢ ـ **المختصر في أخبار البشر (تاريخ ابن الوردي)** دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٦م.

١٣ ـ **خريدة العجائب وفريدة الغرائب**، باعتناء أحمد سعد علي، المكتبة الشعبية، بيروت.

ـ ابن تغري بردي، جمال الدين، يوسف (٨٥٣هـ/ ١٤٦٩م):

١٤ ـ **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، (سلسلة تراثنا)، القاهرة، ١٩٦٣م.

ـ ابن جني، أبو الفتح عثمان (٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م):

١٥ ـ **الخصائص**، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٢م.

ـ ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل، أحمد بن علي (٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م):

١٦ ـ **لسان الميزان**، الطبعة الأولى، حيدر أباد ـ الدكن.

١٧ ـ **الإصابة في تمييز الصحابة**، دار صادر، بيروت .(نسخة مصورة عن طبعة مطبعة السعادة مصر، الطبعة الأولى ١٣٢٨ هـ .

١٨ ـ **نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر**، تحقيق وتعليق الشيخ صلاح محمد عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م.

ـ ابن حزم، أبو محمد، علي بن أحمد (٤٥٦هـ / ١٠٦٣م):

١٩ ـ **الفصل في المِلل والأهواء والنِّحَل**، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٣ .

ـ ابن حنبل، الإمام أحمد (٢٤١هـ / ٨٥٥ م):

٢٠ ـ **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، باعتناء سمير مجذوب وآخرون، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م .

ـ ابن حوقل، محمد (٣٨٠هـ/ ٩٩٠م):

٢١ ـ **صورة الأرض (المسالك والممالك)**، دار الحياة، بيروت .

ـ ابن خرداذبه، عبيد الله بن أحمد (٣٠٠هـ/ ٩١٢م):

٢٢ ـ **كتاب المسالك والممالك**، طبع الكتاب لأول مره باللغة العربية بعناية المستشرق دي غويه، بمطبعة بريل في مدينة ليدن بهولندا، ذلك سنة ١٨٨٩م . ضمن سلسلة المكتبة الجغرافية العربية، الكتاب السادس. وأعادت مكتبة المثنى ببغداد تصويره بالأوفست ونشره دون تاريخ.

ـ ابن خلدون، عبد الرحمن (٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م):

٢٣ ـ **المقدِّمة**، دار إحياء التراث العربي، بيروت .

ـ ابن خلكان، أحمد بن محمد (٦٨١هـ/ ١٢٨٢م):

٢٤ ـ **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان عباس، دارالثقافة، بيروت، ١٩٧١م.

ـ ابن رسته، أحمد بن عمر (٢٩٠هـ/ ٩٠٢م):

٢٥ ـ **الأعلاق النفيسة**، طبعة بريل، ليدن، ١٨٩١م.

ـ ابن رشيق القيرواني، أبو علي، الحسن (٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م):

٢٦ ـ **العُمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م .

- ابن زنجلة، أبو زرعة عبد الرحمن بن محمد: (٤٠٣هـ/ ١٠١٢م):

٢٧ - **حجة القراءات**، حققه سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

- ابن سعد، محمد (٢٣٠هـ/ ٨٤٤ م):

٢٨ - **الطبقات الكبرى**، دار صادر، بيروت .

- ابن سينا، الحسين بن عبد الله (٤٢٨هـ/ ١٠٣٦م):

٢٩ - رسالة **أسباب حدوث الحروف**، راجعها وقدم لها طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.

- ابن عبد البر القرطبي، أبو عمر، يوسف بن عبد الله (٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م):

٣٠ - **الكافي في فقه أهل المدينة**، تحقيق محمد الموريتاني، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، طبعة ثالثة، ١٩٨٦م.

٣١ - **جامع بيان العلم وفضله**، دار الكتب العلمية، بيروت (نسخة مصوّرة عن نسخة إدارة الطباعة المنيرية بالقاهرة).

- ابن عساكر، علي بن الحسن (٥٧٢هـ/ ١١٧٦م):

٣٢ - **تبيين كذب المفتري فيما نُسب إلى الإمام الأشعري**، نشره القدسي، دمشق، ١٣٤٧هـ.

٣٣ - **تهذيب تاريخ دمشق**، هذبه الشيخ عبد القادر بدران، دار المسيرة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٩م.

- ابن فضلان، أحمد بن فضلان بن العباس (أوائل القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد):

٣٤ - **رسالة ابن فضلان: تحقيق حيدر غيبة**، الشركة العالمية للكتاب، بيروت ١٩٩١.

٣٥ - **رسالة ابن فضلان**، تحقيق سامي الدهّان، نشر مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٨٨م.

- ابن الفقيه، أحمد بن محمد الهمذاني (٣٣٤هـ/ ٩٤٥م):

٣٦ - **مختصر كتاب البلدان**، تحقيق دي غويه، مطبعة بريل ليدن، ١٨٨٥م.

ـ ابن قاضي شهبة، أبو بكر بن أحمد (٨٥١هـ/ ١٤٤٧م):

٣٧ ـ **طبقات الشافعية**، اعتنى بتصحيحه عبد العليم خان،عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى،١٩٨٧م.

ـ ابن قتيبة الدِّينوري، عبد الله بن مسلم (٢٧٦هـ/ ٨٨٩ م):

٣٨ ـ **تأويل مختلف الحديث**، دار الكتاب العربيّ، بيروت.

٣٩ ـ **عيون الأخبار**، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٣٠م.

٤٠ ـ **فضل العرب والتنبيه على علومها**، تقديم وتحقيق وليد محمود خالص، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.

٤١ ـ **الإمامة والسياسة**، تحقيق الدكتور طه الزيني، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، القاهرة

ـ ابن كثير، إسماعيل بن عمر(٧٧٤هـ/ ١٣٣٢م):

٤٢ ـ **البداية والنهاية**، تحقيق صدقي العطار ويوسف البقاعي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٩ هـ/ ١٩٩٨م.

ـ ابن منظور، محمد بن مكرم (٧١١هـ/ ١٣١١م):

٤٣ ـ **لسان العرب**، دار الفكر، بيروت، ١٩٩١م.

ـ ابن هشام، محمد بن عبد الملك (٢١٩هـ/ ٨٣٤م):

٤٤ ـ **مختصر السيرة النبوية**، دار الندوة، بيروت، لبنان، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧م.

ـ أبو نُعيْم الأصفهاني، أحمد بن عبد الله (٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م):

٤٥ ـ **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، دار الكتاب العربيّ، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٥٨ م.

٤٦ ـ **كتاب ذكر أخبار أصبهان**، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٣٤م.

ـ أبو نواس، الحسن بن هانئ (٢٠٠هـ/ ٨١٥ م):

٤٧ ـ **ديوان أبي نواس**، حققه وشرحه سليم قهوجي، دار الجيل، بيروت، ٢٠٠٣م.

ـ إخوان الصفا:

٤٨ ـ **رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا**، دار صادر، بيروت.

ـ الإدريسي، أبو عبد الله، محمد بن محمد (٥٥٧هـ/ ١١٦٦م):

٤٩ ـ **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م.

ـ الأشعري، أبو الحسن، علي بن إسماعيل(٣٢٤هـ/ ٩٣٥م):

٥٠ ـ **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلّين**، عني بتصحيحه هلموت ريتر، نشر جمعية المستشرقين الألمان، فرانز شتاينر، بفسبادن، الطبعة الثالثة، ١٩٨٠م.

ـ الإصطخري، إبراهيم بن محمد (أواسط القرن الرابع للهجرة / اواسط العاشر للميلاد):

٥١ ـ **المسالك والممالك**، صدر هذا الكتاب باعتناء المستشرق دي غويه، ونشر ضمن المكتبة العربيّة الجغرافية، الكتاب الأول، وطبع في ليدن سنة ١٨٧٠م. وأعادت نشره وزارة الثقافة والإرشاد القومي بتحقيق محمد جابر عبد العال الحسيني، ومراجعة محمد شفيق غربال، سنة ١٣٨١هـ.

ـ الأصفهاني، أبو الفرج، علي بن الحسين (٣٥٧هـ/ ٩٦٧م):

٥٢ ـ **مقاتل الطالبيين**، تحقيق كاظم المظفر، المكتبة الحيدرية، النجف، الطبعة الثانية، ١٩٦٥م.

ـ الأصفهاني، حمزة بن الحسن (٣٦٠هـ / ٩٧٠ م):

٥٣ ـ **كتاب التنبيه على حدوث التصحيف**، حققه محمد أسعد طلس، دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٢م.

ـ الأنصاري، الشيخ زكريا بن محمد (٩٢٦هـ/ ١٥١٩م):

٥٤ ـ **فتح الوهاب بشرح الآداب (وهو شرح الرسالة السمرقندية في آداب البحث وطرق المناظرة**، لمؤلفها شمس الدين محمد السمرقندي) مخطوطة رقم ٨١٥ من مقتنيات المجمع الثقافي ـ أبو ظبي.

ـ الباقلاني، محمد بن الطيب (٤٠٣هـ/ ١٠١٢م):

٥٥ ـ **إعجاز القرآن**، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة، ١٩٧٢م.

ـ البخاري، أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل (٢٥٦هـ/ ٨٦٩ م):

٥٦ ـ **صحيح الإمام البخاري**، دار ابن كثير، بيروت، الطبعة الثالثة،١٩٨٧م.

٥٧ ـ = = = =، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ١٩٩٥م.

ـ البغدادي، عبد القاهربن طاهر(٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م):

٥٨ ـ **الفَرْق بين الفِرَق**، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، مؤسسة الحلبي وشركاه، القاهرة.

ـ البغدادي، الخطيب أحمد بن علي (٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م):

٥٩ ـ **تقييد العلم**، تحقيق يوسف العش، دمشق ١٩٤٩م.

٦٠ ـ **تاريخ بغداد**، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت.

ـ البلاذري، أحمد بن يحيى (٢٧٩هـ/ ٨٩٢ م):

٦١ ـ **فتوح البلدان**، راجعه رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨م.

ـ البيروني، أبو الريحان، محمد بن أحمد (٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م):

٦٢ ـ **كتاب تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن**، حققه ب. بولجاكوف، را جعه إمام إبراهيم أحمد، نشره معهد المخطوطات العربية القاهرة، ١٩٩٥م.

٦٣ ـ **الآثار الباقية عن القرون الخالية**، طبعة لايبزج، ١٩٢٣م.

٦٤ ـ === === === ===: **طبعة مكتبة الثقافة الدينية**، الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠٠٨م.

٦٥ ـ **الجماهر في معرفة الجواهر**، طبع هذا الكتاب للمرة الأولى بعناية سالم الكرنكوني الألماني، مصحح دائرة المعارف العثمانية، ثم صدرت طبعات مصورة عن هذه الطبعة الأولى، نشرتها دار عالم الكتب، في بيروت، وكانت الطبعة الثالثة عام ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤، وهي الطبعة التي اعتمدتها

ـ البيهقي، أبو الحسن، علي بن زيد (٥٦٥هـ/ ١١٧٠م):

٦٦ ـ **تاريخ البيهقي**، ترجمه إلى العربيّة يحيى الخشّاب وصادق نشأت، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٢م.

٦٧ ـ **تاريخ حكماء الإسلام**، تحقيق ممدوح حسن محمد، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٦ م.

ـ التفتازاني، مسعود بن عمر(٧٩١هـ/ ١٣٨٨م):

٦٨ ـ **شرح المقاصد**، تحقيق عبد الرحمن عميرة، بيروت، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

ـ التوحيدي، أبو حيان، علي بن محمد (٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م):

٦٩ ـ **الإمتاع والمؤانسة**، تحقيق أحمد رشدي عامر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.

٧٠ ـ == === === : **نسخة ثانية**، صححها وضبطها وشرح غريبها أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.

٧١ ـ **المقابسات**، تحقيق حسن السندوبي، المكتبة التجارية الكبرى، الطبعة الأولى، مصر، ١٩٢٩م.

ـ الثعالبي، أبو منصور، عبد الملك بن محمد(٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م):

٧٢ ـ **لطائف المعارف**، تحقيق إبراهيم الإبياري وحسن الصيرفي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦١ م.

٧٣ ـ **الإعجاز والإيجاز**، منشورات المكتب العالمي، بيروت، ١٩٩٢

٧٤ ـ **يتيمة الدهر ومحاسن أهل العصر**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، الطبعة الثانية، ١٩٥٦م.

ـ الجاحظ، عمرو بن بحر(٢٥٥هـ/ ٨٦٩ م):

٧٥ ـ **رسائل الجاحظ**، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٧٦ ـ **رسالة في مناقب الترك وعامة جند الخلافة**، (ضمن كتاب رسائل الجاحظ)

٧٧ ـ **البيان والتبيين**، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة.

٧٨ ـ **كتاب الحيوان**، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت.

ـ الجرجاني، علي بن محمد (٨١٦هـ/ ١٤١٣م):

٧٩ ـ **كتاب التعريفات**، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٨م.

- الجهشياري، محمد بن عبدوس (٣٣١هـ/ ٩٤٢م):

٨٠ - **كتاب الوزراء والكتّاب**، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد المجيد شلبي، نشرته شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثانية، ١٩٨٠م.

- حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله (١٠٦٧هـ/ ١٦٥٦م):

٨١ - **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، دار الفكر، ١٩٨٢م.

- الحموي، ياقوت (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م):

٨٢ - **معجم الأدباء**، دار المأمون، القاهرة، ١٩٣٦م.

٨٣ - = = = = = = : **طبعة دار صادر**، بيروت، ١٩٥٧م.

- الحميري، أبو عبد الله، محمد بن عبد المنعم الصنهاجي (٩٠٠هـ/ ١٤٩٥م ؟):

٨٤ - **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ١٩٨٠م.

- الخوارزمي، أبو عبد الله، محمد بن أحمد (٣٨٧هـ/ ٩٩٧م):

٨٥ - **رسائل الخوارزمي**، القاهرة، ١٢٧٩هـ.

٨٦ - **مفاتيح العلوم**، تحقيق إبراهيم الإبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٩م.

- الخوانساري، محمد الباقر الموسوي (١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م):

٨٧ - **روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات**، تحقيق أسد الله إسماعيليان، منشورات مكتبة إسماعيليان، طهران، ١٣٩٢ هـ.

- الداودي، شمس الدين محمد بن علي (٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م):

٨٨ - **طبقات المفسرين**، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.

- الديلمي، مهيار (٤٢٨هـ/ ١٠٣٧م):

٨٩ - **ديوان مهيار الديلمي**، طبع في المطبعة الأنسية ببيروت، سنة ١٣١٤هـ.

- الذهبي، شمس الدين، محمد بن أحمد (٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م):

٩٠ - **ميزان الاعتدال**، تحقيق محمد علي البجاوي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٣م.

٩١ ـ **تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام**، تحقيق عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.

٩٢ ـ **سِيَر أعلام النبلاء**، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة التاسعة، ١٩٩٣م.

٩٣ ـ **معرفة القرّاء الكبار على الطبقات والأعصار**، حققه بشار عوّاد معروف وشعيب الأناؤوط وصالح مهدي عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

ـ الرازي، أبو بكر، محمد بن زكريا (٣١١هـ/ ٩٢٣م):

٩٤ ـ **المنصوري في الطبّ**، تحقيق حازم البكري الصديقي، معهد المخطوطات العربية، الكويت، ١٩٨٧م.

٩٥ ـ **الحاوي في الطبّ**، تصحيح السيد عبد الوهاب شرف الدين، ومحمد عبد المعين خان، دائرة المعارف العثمانية، طبعة حيدر أباد ـ الدكن، الهند.

ـ الرضي، الشريف، محمد بن الحسين (٤٠٦هـ/ ١٠١٥م):

٩٦ ـ **ديوان الشريف الرضي**، تحقيق محمود حلاوي، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٩ م.

ـ طاش كبرى زادة، أحمد بن مصطفى(٩٦٨هـ/ ١٥٦٠م):

٩٧ ـ **مفتاح السعادة ومصباح السيادة**، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٥م.

ـ الزبيدي، أبو بكر، عبد اللطيف (٨٠٢هـ/ ١٤٠٠م):

٩٨ ـ **طبقات النحويين واللغويين**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ١٩٧٣م.

ـ الزركشي، بدر الدين، محمد بن عبد الله (٧٩٤هـ/ ١٣٩١م):

٩٩ ـ **كتاب البرهان في علوم القرآن**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٢.

ـ الزمخشري، جار الله محمود بن عمر(٥٣٨هـ/ ١١٤٣م):

١٠٠ـ **أساس البلاغة**، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م.

ـ السبكي، تاج الدين، أبو نصر عبد الوهاب (٧٧١هـ/ ١٣٦٩م):

١٠١ـ **طبقات الشافعية الكبرى**، تحقيق عبد الفتاح الحلو ومحمود الطناحي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.

- السخاوي، محمد بن عبد الرحمن (٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م):

١٠٢ـ **المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٧٩م.

- السُّلمي، محمد بن الحسين، أبو عبد الرحمن (٤١٢هـ/ ١٠٢١م):

١٠٣ـ **طبقات الصوفية**، تحقيق نور الدين شريبة، مكتبة الخابخي بالقاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٣م.

- السمعاني، عبد الكريم بن محمد التميمي (٥٦٢هـ/ ١١٦٧م):

١٠٤ـ **الأنساب**، تحقيق عبد الله بن عمر البارودي، دار الجنان للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م.

- السهمي، حمزة بن يوسف (٤٢٧هـ/ ١٠٣٥م):

١٠٥ـ **تاريخ جرجان**، طُبع تحت مراقبة محمد عبد المعيد خان، دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد ـ الدكن، الهند، ونشرته دار عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١م.

- السيوطي، جلال الدين، عبد الرحمن بن أبي بكر(٩١١هـ/ ١٥٠٥م):

١٠٦ـ **كتاب المعجم الصغير**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، بمصر، الطبعة الأولى، ١٣٥٢هـ.

١٠٧ـ **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت.

١٠٨ـ **تدريب الراوي شرح تقريب النواوي**، طبعة مصر، ١٣٠٧ هـ.

١٠٩ـ **طبقات المفسرين**، طبعة ليدن، ١٨٣٩م.

١١٠ـ **الإتقان في علوم القرآن**، نشر المكتبة الثقافية، بيروت، ١٩٧٣م.

- الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم (٥٤٨هـ/ ١١٥٣م):

١١١ـ **الملل والنحل**، تحقيق محمد سيد كيلاني، نشرته شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، بمصر، ١٣٨٧ هـ/ ١٩٦٧م.

١١٢ـ **الملل والنِّحَل**، بهامش كتاب «الفصل في الملل والأهواء والنِّحَل»، لابن حزم.

- صاعد الأندلسي، صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن (٤٦٢هـ/ ١٠٦٩م):

١١٣ـ **التعريف بطبقات الأمم**، تقديم وتصحيح وتحقيق غلام رضا جمشيد نراداوّل، مؤسسة انتشارات هجرت، طهران، ١٣٧٤.

١١٤ـ **طبقات الأمم**، طبعة لويس شيخو، بيروت ١٩١٢م.

ـ الصفدي، خليل بن أيبك (٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م):

١١٥ـ **نكت الهميان في نكت العميان**، وقف على طبعه أحمد زكي بيك، المطبعة الجمالية، مصر، ١٩١١م.

١١٦ـ **الوافي بالوفيات**، نشر الجمعية الألمانية للمستشرقين بفسبادن (تواريخ متفرقة بحسب الأجزاء).

ـ الطبري، محمد بن جرير (٣١٠ هـ/ ٩٢٢م):

١١٧ـ **تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبري)**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، سلسلة ذخائر العرب (٣٠)، ١٩٦٦م.

ـ العتبي، محمد بن عبد الجبار (٤٢٧هـ/ ١٠٣٥م):

١١٨ـ **اليميني**، شرح وتحقيق إحسان ذنون الثامري، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.

ـ العجلوني، إسماعيل بن محمد (١١٦٢هـ/ ١٧٤٨م):

١١٩ـ **كشف الخفاء ومزيل الالتباس عمّا اشتهر من الأحاديث على ألسنة النّاس**، تصحيح وتعليق أحمد القلاش، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٣م.

ـ العسكري، أبو هلال، الحسن بن عبد الله (٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م):

١٢٠ـ **كتاب الصناعتين**، الكتابة والشعر، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٧١ هـ/ ١٩٥٢م.

ـ الغزالي، أبو حامد، محمد بن محمد (٥٠٥هـ/ ١١١١م):

١٢١ـ **المستصفى من علم الأصول**، المطبعة الأميرية، مصر، ١٣٤٣ هـ.

ـ الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (٨١٧هـ/ ١٤١٤م):

١٢٢ـ **البلغة في تاريخ أئمة النحو واللغة**، تحقيق محمد المصري، منشورات مركز المخطوطات والتراث، الكويت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.

١٢٣ـ **القاموس المحيط**، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٦م.

ـ قدامة بن جعفر(٣٣٧هـ/ ٩٤٨م):

١٢٤ـ **الخراج وصناعة الكتابة**، تحقيق محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨١م.

ـ القرشي، محيي الدين، عبد القادر بن محمد(٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م):

١٢٥ـ **الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية**، تحقيق عبد الفتاح الحلو، مؤسسة الرسالة/ هجر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٣م.

ـ القرماني، أحمد بن يوسف (١٠١٩هـ/ ١٦١٠م):

١٢٦ـ **أخبار الدول وآثار الأول**، تحقيق أحمد حطيط وفهمي سعد، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م.

ـ القزويني، زكريا بن محمد (٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م):

١٢٧ـ **آثار البلاد وأخبار العباد**، دار صادر، بيروت، ١٩٦٩ م.

ـ القفطي (ابن)، جمال الدين، أبو الحسن علي بن يوسف (٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م):

١٢٨ـ **إخبار العلماء بأخبار الحكماء**، دار الآثار للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

١٢٩ـ **إنباء الرواة عن أنباه النحاة**، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٠ م.

ـ الكتبي، ابن شاكر (٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م):

١٣٠ـ **فوات الوفيات**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٥١م.

ـ الكندي، يعقوب بن إسحاق (٢٦٠هـ/ ٨٧٣ م):

١٣١ـ **رسائل الكندي الفلسفية**، تحقيق محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الفكر العربي، مصر.

ـ مؤلف مجهول:

١٣٢ـ **العيون والحدائق في أخبار الحقائق**، تحقيق دي غويه ويونغ، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٦٩ م.

ـ المتنبّي، أحمد بن الحسين (٣٥٤هـ/ ٩٦٥م):

١٣٣ـ **ديوان المتنبي**، شرح عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ١٩٧٩م.

ـ المرتضى، الشريف علي بن الحسين (٤٣٦هـ/ ١٠٤٤م):

١٣٤ـ **أمالي المرتضى**، تحقيق أحمد أمين الشنقيطي، مكتبة آية الله المرعشي النجفي، الطبعة الأولى، ١٩٠٧ م.

ـ مستجي زادة، عبد الله بن عثمان بن موسى (١١٤٨هـ/ ١٧٣٥م):

١٣٥ـ **المسالك في الخلافيات بين المتكلمين والحكماء**، دراسة وتحقيق سيد باغجوان، مكتبة الإرشاد، إستانبول، ودار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

ـ المسعودي، علي بن الحسين (٣٤٦هـ/ ٩٥٧م):

١٣٦ـ **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

١٣٧ـ **التنبيه والإشراف**، دار التراث، بيروت، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

ـ مسكويه، أحمد بن محمد (٤٢١هـ/ ١٠٣٠م):

١٣٨ـ **تجارب الأمم**، الجزء السادس، تحقيق دي غويه، طبعة بريل، ١٨٦٩، وهو ملحق بكتاب العيون والحدائق المجهول المؤلف، الجزءان الأول والثاني. اعتنى بالنسخ والتصحيح هـ. ف. أمدوز، طبع بمطبعة التمدن الصناعية بمصر، ١٩١٤ و١٩١٥ م.

ـ مسلم بن الحجاج (الإمام) (٢٦١هـ/ ٨٧٤ م):

١٣٩ـ **صحيح مسلم**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ومكتبة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٥م.

ـ المقدسي، محمد بن أحمد، البشاري (نحو ٣٨٠ هـ/ نحو ٩٤٧م):

١٤٠ـ **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، تحقيق المستشرق دي غويه، طبع في مطبعة بريل بمدينة ليدن المحروسة، سنة ١٩٠٦، أعادت طبعة بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد.

ـ المكي، أبو طالب، محمد بن علي (٣٨٦هـ/ ٩٩٦م):

١٤١ـ **قوت القلوب في معاملة المحبوب**، طبعة مصر، ١٣١٠ هـ.

ـ الميداني، أحمد بن محمد (٥١٨هـ/ ١١٢٤م):

١٤٢ـ **مجمع الأمثال**، حققه محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السّنة المحمدية، مصر ١٩٥٥م.

ـ النجاشي، أحمد بن علي (٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م):

١٤٣ـ **الرجال (رجال النجاشي)**، تحقيق السيد موسى الشبيري، قمّ، إيران، ١٩٨٨م.

ـ النديم، محمد بن اسحاق (٣٨٠هـ/ ٩٩٠م):

١٤٤ـ **الفهرست**، تحقيق رضا تجدد، طبعة طهران، ١٩٧١م

١٤٥ـ **الفهرست**، تحقيق؛ ناهد عباس عثمان، دار قطري بن الفجاءة، قطر، الطبعة الأولى، ١٩٨٥.

ـ النرشخي: أبو بكر محمد بن جعفر ( ):

١٤٦ـ **تاريخ بخارى**، ترجمة أمين بدوي ونصر الله الطرازي، دار المعارف بمصر.

ـ النوبختي، الحسن بن موسى (٣١٠هـ/ ٩٢٢م):

١٤٧ـ **فِرَق الشيعة**، صححه محمد صادق، النجف، ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م.

ـ الهمذاني، بديع الزمان، أحمد بن الحسين (٣٩٨هـ/ ١٠٠٧م):

١٤٨ـ **رسائل بديع الزمان**، (كشف المعاني والبيان عن رسائل بديع الزمان) شرح إبراهيم الأحدب الطرابلسي، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، ١٨٩٠ م.

١٤٩ـ **مقامات الهمذاني**، شرح محمد عبده، المكتبة الشرقية، بيروت.

ـ الواقدي، محمد بن عمر (٢٠٧هـ/ ٨٢٢ م):

١٥٠ـ **كتاب المغازي**، تحقيق مارسون جونس، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٦ م.

ـ اليافعي، عبد الله بن أ سعد بن علي اليمني (٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م):

١٥١ـ **مرآة الجنان وعبرة اليقظان**، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٠ م.

ـ ياقوت الحموي (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م):

١٥٢ـ **معجم الأدباء**، مطبوعات دار المأمون، القاهرة.

ـ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (٢٧٩هـ/ ٨٩٢م):

١٥٣ـ **كتاب البلدان**، طبعة دي غويه، ليدن، مطبعة بريل، ١٨٩١م. مرفق بكتاب الأعلاق النفيسة لابن رسته ضمن سلسلة المكتبة الجغرافية، المجلد السابع.

١٥٤ـ **كتاب البلدان**، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.

ثانياً: المراجع العربية والمعرّبة

١ ـ **أبو خليل**، شوقي: الحضارة العربيّة الإسلاميّة، طرابلس، ليبيا.

٢ ـ **أبو زهرة**، محمد: الحديث والمحدثون، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ١٩٨٤م.

٣ ـ **أحمد**، كرم حلمي فرحات: التراث العلميّ للحضارة الإسلاميّة، مكتبة زهراء الشرق،القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤ م.

٤ ـ **أحمد**، صلاح سليم: مدينة هراة، دراسة سياسية وحضاريّة، دار الوفاء الطباعة والنشر، الإسكندرية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.

٥ ـ **الأمين**، السيد محسن: أعيان الشيعة، مطبعة الإنصاف، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٦٠م.

٦ ـ **بارتولد**: **تاريخ التراث في آسيا الوسطى**، ترجمة أحمد السعيد سليمان، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، سلسلة الألف كتاب الثاني (رقم ٢٣٥) القاهرة، ١٩٩٦م.

٧ ـ **باشا**، أحمد فؤاد: التراث العلميّ للحضارة الإسلاميّة ومكانته في تاريخ العلم والحضارة، دار المعارف بمصر، ١٩٨٣م.

٨ ـ **البعلبكي**، منير: المورد، قاموس انكليزي ـ عربي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٨م.

٩ ـ **البغدادي**، إسماعيل بن محمد باشا (١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م): هدية العارفين، أسماء المؤلفين وآثار المصنّفين من كشف الظنون، دار الفكر، ١٩٨٢م

١٠ ـ **بليق**، عز الدين: منهاج الصالحين من أحاديث وسنّة خاتم الأنبياء والمرسلين، دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.

١١ ـ **الترمانيني**، عبد السلام: الرّق، ماضيه وحاضره، كتاب عالم المعرفة، العدد ٢٣، صدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٧٩م.

١٢ ـ **التويجري**، عبد العزيز بن عثمان: خصائص الحضارة الإسلاميّة وآفاق المستقبل، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة.

١٣ ـ **توينبي**، أرنولد: الخلافة، مطبعة دار التضامن، بغداد، ١٩٦٣م.

١٤ ـ = = = = : **الدّعوة إلى الإسلام**، ترجمة حسن إبراهيم وآخرون، القاهرة، ١٩٤٧م.

١٥ ـ **الثامري**، إحسان: الحياة العلمية في زمن السامانيين، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١ م.

١٦ ـ **الجبوري**، يحيى وهيب: بيت الحكمة ودُور العلم في الحضارة الإسلاميّة، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.

١٧ ـ **جمال**، أحمد محمد: العلوم الإنسانيّة، مركز الإسكندرية للكتاب، ٢٠٠٩م.

١٨ ـ **الجيوسي**، مصطفى: موسوعة علماء العرب والمسلمين وأعلامهم، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ٢٠٠٥ م.

١٩ ـ **حسن إبراهيم حسن وعلي إبراهيم حسن**: **النظم الإسلامية**، القاهرة، ١٩٣٩م.

٢٠ ـ **حسن**، علي إبراهيم: التاريخ الإسلاميّ العام، مكتبة النهضة المصرية.



٢١ ـ **الحصري**: زهر الآداب، مصر، ١٩٢٥ م.

٢٢ ـ **حلاوي**، محمود: معالم الحضارة في عصر صدر الإسلام، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ٢٠٠٧م.

٢٣ ـ = = = = = = : **التنظيم العسكري في عصر صدر الإسلام. بحث منشور في مجلة الدراسات الأمنية**، العدد ٣١ . ٣٢، تموز . كانون الأول ٢٠٠٧، بيروت، لبنان.

٢٤ ـ = = = = = = : **الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام (١ . الشعر) و (٢. النثر)**، دار الذخائر، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.

٢٥ ـ = = = = = = : **الوجيز في علوم القرآن العزيز**، مؤسسة علوم التفسير، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١/ ٢٠٠١م.

٢٦ ـ **حميد الله**، محمد: مجموعة الوثائق السيا سية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار النفائس، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٨٣م.

٢٧ ـ **الخربوطلي**، علي حسني: الحضارة العربيَّة الإسلاميّة، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

٢٨ ـ **الخطيب**، محمد: تاريخ الحضارة العربيَّة، دار علاء الدين، دمشق.

٢٩ ـ **خمّاش**، نجدة: الإدارة في العصر الأموي، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى ١٩٨٠م.

٣٠ ـ **دوزي**: **نظرات في تاريخ الإسلام**، ترجمة كامل الكيلاني، دار مكتبة بيبليون، جبيل، لبنان، ٢٠٠٥ م.

٣١ ـ **ديمومبين**، موريس غودفردا: النظم الإسلامية، ترجمة صالح الشماع وفيصل السامر، بغداد، ١٩٥٢م.

٣٢ ـ **رالف لينتون**: **شجرة الحضارة**، ترجمة دكتور أحمد فخري، القاهرة، مكتبة الأنجلو.

٣٣ ـ **الزركلي**، خير الدين: الأعلام (قاموس تراجم)، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٨٠م.

٣٤ ـ **زيتون**، عادل: آل بختيشوع النساطرة في البلاط العباسي؛ مقالة في مجلة عالم الفكر، المجلد الرابع، إبريل . يوليو، ٢٠٠١، الكويت.

٣٥ ـ **زيدان**، جرجي: تاريخ آداب اللغة العربيّة، دار الهلال، مصر.

٣٦ ـ **سارتون**، جورج: الثقافة الغربية في رعاية الشرق، ترجمة عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٦١م.

٣٧ ـ **سزكين**، فؤاد: تاريخ التراث العربيّ، نقله إلى العربيّة فهمي أبو الفضل، راجعه محمود فهمي حجازي، منشورات الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٧١م.

٣٨ ـ **سليمان**، مصطفى: تاريخ العلوم والتكنولوجيا في العصور الوسطى والقديمة، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، مصر، ٢٠٠٦م.

٣٩ ـ **سيبل**، ألكسندر: أخبار أمم المجوس من الأرمان وورنك والروس، طبع سنة ١٩٢٨ بمدينة أوسلو، وأعادت طبع هذا الكتاب بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد، دون ذكر تاريخ إعادة الطبع.

٤٠ ـ **شاخت**: **تراث الإسلام**، ترجمة حسين مؤنس وآخرون، مراجعة فؤاد زكريا، صدر الكتاب عن المجلس الثقافي في وزارة الإعلام الكويتية، ضمن سلسلة عالم المعرفة، العدد (٨) ١٩٧٨م.

٤١ ـ **الصالح**، صبحي: النظم الإسلامية، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٨٠م.

٤٢ ـ = = = = = = : **علوم الحديث ومصطلحه**، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة عشر، ١٩٨٣م.

٤٣ ـ **ضيف**، شوقي: الفن ومذاهبه في النثر العربيّ، دار المعارف بمصر، ط٤، ١٩٦٥م.

٤٤ ـ **طوقان**، قدري: العلوم عند العرب، دار اقرأ للنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م.

٤٥ ـ **عبد الباقي**، فؤاد: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٦٤هـ.

٤٦ ـ **فتحي**، مصطفى: موسوعة أعلام الحضارة الإسلاميّة، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ٢٠٠١ م.

٤٧ ـ **فرانكفورت**، هنري: فجرالحضارة في الشرق الأدنى، ترجمة ميخائيل خوري، فرانكلين والنشر، بيروت، ١٩٥٩م.

٤٨ ـ **فروخ**، عمر، و ماهر عبد القادر، و حسان حلاق: تاريخ العلوم عند العرب، دار النهضة العربيَّة، بيروت، ١٩٩٠م.

٤٩ ـ **الفقي**، عصام الدين عبد الرؤوف: الدول المستقلة في المشرق الإسلامي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٥٠ ـ **الفيومي**، أحمد بن محمد: المصباح المنير (قاموس)، دار القلم، بيروت.

٥١ ـ **قدورة**، زاهية: الشعوبية، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان.

٥٢ ـ **كحالة**، رضا: معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ١٩٥٧م.

٥٣ ـ **كحالة**، عمر رضا: التاريخ والجغرافيا في العصور الإسلاميّة، المطبعة التعاونية بدمشق، ١٩٧٢م.

٥٤ ـ **كرم**، أحمد: التراث العلمي للحضارة الإسلاميّة، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠٤م.

٥٥ ـ **لوبون**، غوستاف: مقدمة الحضارات الأولى، ترجمة صادق رستم، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٩٢٣م.

٥٦ ـ = = = = = = : **حضارة العرب**، نقله إلى العربيَّة عادل زعيتر، طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٩٦٩م.

٥٧ ـ **لومبارد**، موريس: الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلاميّ خلال القرون الأربعة الأولى، ترجمة عبد الرحمن حميدة، دار الفكر المعاصر، بيروت، ودار الفكر، دمشق الطبعة الثانية، ١٩٩٨م.

٥٨ ـ **لين بول**، ستانلي: الدول الإسلاميّة، مع إضافات وتصحيحات بارتولد وخليل أدهم ؛ نقله من التركية إلى العربية محمد صبحي فرزات، أشرف على ترجمته وعلق عليه محمد أحمد دهمان، نشرته مكتبة الدراسات الإسلامية، دمشق، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

٥٩ ـ **مؤنس**، حسين: الحضارة، سلسلة عالم المعرفة، العدد الأول ؛ يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

٦٠ ـ = = = = = = : **أطلس تاريخ الإسلام**، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٨٧ م.

٦١ ـ **مبارك**، زكي: النثر الفني في القرن الرابع، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان.

٦٢ ـ **متز**، آدم: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٦٧ م.

٦٣ ـ **محمود**، زكي نجيب: الموسوعة الفلسفية المختصرة، مترجمة عن الإنكليزية، مراجعة وإشراف.

٦٤ ـ **محمود**، يوسف: الإنجازات العلمية في الحضارة الإسلاميّة، دار وائل للنشر، عمّان، الأردن، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٧م.

٦٥ ـ **محيسن**، محمد سالم: المهذب في القراءات العشر، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٩هـ/ ١٩٧٨م.

٦٦ ـ **مصري**، حسين نجيب: أثر الفرس في حضارة الإسلام، بحث منشور ضمن كتاب «دراسات في الحضارة الإسلاميّة» بمناسبة القرن الخامس عشر للهجرة، الصادر عن الهيئة المصرية العامّة للكتاب، مصر، ١٩٨٥م، المجلد الأول، ص ١٦٤ وما بعدها.

٦٧ ـ **مظهر**، جلال: مآثر العرب على الحضارة الأوروبية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٦٠.

٦٨ ـ **المنشداوي**، خضير عباس: تاريخ علم الرياضيات عند العرب، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ليبيا، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م.

٦٩ ـ **النملة**، علي بن إبراهيم: النقل والترجمة في الحضارة الإسلاميّة، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

٧٠ ـ **هاشم**، أحمد عمر: أضواء على مصطلح الحديث، دار المنار للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٥م.

٧١ ـ **هونكة**، زيغريد: شمس العرب تسطع على الغرب، نقله عن الألمانية فاروق بيضون وكمان الدسوقي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة السادسة، ١٩٨١م.

٧٢ ـ **هيورات** Hurat: الإسماعيلية، مقال في دائرة المعارف الإسلامية، طبعة دار الشعب، القاهرة.

٧٣ ـ وول ديوارنت: قصة الحضارة، الهيئة المصرية العامَّة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١م.

ثالثاً: المراجع الاجنبية:

1. The new Encyclopedia Britannica, Ed. 4, vol. 15, the University of Chicago 1974.
2. Sidney Alexander Burrell, elements of western
3. Civilization, San Francisco: H. Chandler, 1959.
4. Maurice Maeterlinck Dhan Gopal Mukerji, and others with an introduction by Ibid.
5. Hendrik Van Loon: what is civilization? Duffield, New York 1926.

رابعاً: المراجع الالكترونية:

1. http://www.alargam/general/arabsience
2. http://wikipedia.org.
3. http://www.com/general/arabsience
4. http://www.alargam.com/general/arabsience
5. http://www.altareekh.com

فهرس المحتويات





السيرة الذاتية

عبد العزيز عبد الرحمن سعد آل سعد.

- حاز على شهادة ليسانس آداب، تخصص تاريخ، من جامعة بيروت العربية.
- حاز على الدبلوم العام في التاريخ من جامعة القديس يوسف (اليسوعية) في لبنان.
- حاز على شهادة الماجستير في التاريخ من جامعة القديس يوسف (اليسوعية) في لبنان.
- حاز على شهادة الدكتوراه (تخصص تاريخ وحضارة إسلامية) من الجامعة الإسلامية في لبنان.
- حائز على جائزة جمال عبد الناصر للتفوق العلمي لعام 1995، من جامعة بيروت العربية وجامعة الإسكندرية.
- حائز على جائزة القارئ النَّهِم من دار الفكر بدمشق عام 1999.

صدر له

- «حركة بابك الخرّمي الدينية والسياسية».
- «الجغرافيا الحضارية في المشرق الإسلامي».
- «الثورات في المشرق الإسلامي (١)».
- «الثورات في المشرق الإسلامي (٢)».
- «إبداعات الجغرافيين المسلمين».
- «مسيّر التاريخ».

هذا الكتاب

- العلوم الحضاريّة مصطلح حديث، التي هي في الأساس العلوم التي قامت عليها الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وخاصةً في المشرق الإسلامي.
- هذة الدراسة تهدف إلى إلقاء الضوء على حضارة المشرق الإسلامي التي تجلّت في مجموعة إسهامات متنوعة.
- وقد كان اعتمادنا في هذه الدراسة على كثير من المصادر المهمة، التاريخية والجغرافية، والتي عاش أصحابها في بلاد المشرق الإسلامي خلال القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد.

twitter.com/ASPArabic facebook.com/ASPArabic

ISBN 978-614-01-1370-0

9 786140 113701

جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت
في مكتبة نيل وفرات كوم
www.nwf.com

توزيع
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com